

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٤٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٩٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٩٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com



رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٤٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٩٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٩٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

٢٣- باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[التوبة:٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٥] وَالآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (١٨٤)

١٨٤- **فالأوَّلُ:** عن أَبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمِعْتُ رسُولَ اللَّه ﷺ يقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكراً فَلْيغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

---

(١) برقم (٧٨/٤٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٧).

غريب الألفاظ:

المنكر: كل ما قبَّحَهُ الشَّرْعُ وكرِهَهُ وحَرَّمَهُ[(١)].

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث الشريف باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، في كتاب رياض الصالحين، وحين نتأمل نص الحديث ندرك أنه لم يرد به الأمر بالمعروف صراحة، ولكن برغم ذلك، فالنهى عن المنكر وتغييره هو في حقيقته التزام بالمعروف، وتمسك به: لأن المعروف معلوم وموجود، والمنكر مجهول، والأمر بالمعروف: أمر بكل فعل يعرف بالشرع والعقل حسنه، كما قال العلماء فتغيير المنكر: هو إزالته والعمل على بقاء المعروف قولاً وعملاً وسلوكاً ونية.

والحديث الشريف يتكون من أربعة جمل: الثلاثة الأولى منها تتضمن الأمر بتغير المنكر، حسب القدرة والإمكانات المتاحة، إما باليد أو باللسان أو بالقلب، وهذا الترتيب لا يعني انفصال كل مرحلة عن الأخرى، لأن التغيير باليد يكون في حال القدرة، وعدم إحداث فتنة أو ضرر بنفسه أو غيره، والذي يغير بيده، قادر على التوعية والإرشاد والنصح، وكذلك قلبه لا ينبض بالرضا عن هذا المنكر، ولكن يرفضه بقلبه ولسانه، ويغيره بيده.

والبناء اللغوي في الحديث الشريف يوحي بالمعاني والمقاصد التي نتعلمها من هذا التوجيه النبوي الكريم.

فالجمل الشرطية الثلاث: تتضمن الأمر بالتغيير، والأمر للوجوب. وفي رواية أخرى تعبر عن التغيير بالجهاد، ثم قال: "وليس ذلك من الإيمان حبة خردل".

ويبدأ الحديث بجملة الشرط: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده"، والفعل رأى هنا له دلالتان: فهو بمعنى شاهد أو علم، وحسب الدلالة يكون التصرف والتغيير بالوسائل المناسبة حسب العصر وحسب البيئة والسياق الملائم، والخطاب في منكم،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ك ر).

موجه إلى كل مسلم حريص على دينه، وحريص على عدم تحقير نفسه، لأن الذي يحقر نفسه هو الذي يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه: كما أخبر رسول الله ﷺ، فالخطاب هنا كما قال العلماء لمعشر المكلفين القادرين المسلمين: إنه خطاب لجميع الأمة: حاضرها بالمشافهة، وغائبها بطريق التبع، ولفظة منكراً جاءت في صيغة النكرة: دلالة على الشيوع وعدم تحديد أمر منكر محدد، بل كل مخالفة لأمر الشرع هى منكر يجب تغييره باليد وباللسان وبالقلب، والمنكر في اللغة خلاف المعروف على معناه الأصلي وهو المعرفة بالشيء، والمنكر في دلالته اللغوية: هو المجهول غير المعلوم، وكأن الأمر المخالف للشرع: لا وجود له إلا عند أهل الفجور والفسوق الذين لا يستجيبون لما أمر الله به، ولا ينتهون عما نهى عنه.

وتطورت دلالة الكلمة في ظل الإسلام من دلالة الجَهْل بالشيء إلى عدم قبوله ورفضه، وصارت في الإسلام مصطلحاً على كل أمر أو على كل سلوك أو خلق مرفوض، وفي القرآن الكريم ورد الفعل "نكر" ومشتقاته في سبع وثلاثين آية، وقد ذكرت كلمة "المنكر"، وحدها في ست عشرة آية، وتقابلت مع كلمة "المعروف" في تسع آيات منها، وكلمة "المعروف" أكثر ما وردت في القرآن أنها ضد المنكر، والمعروف كما قال العلماء: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه، وقد فسرته معاجم اللغة بمعان عامة منها أنه الجود وأنه النصفة، وحسن الصحبة مع الأهل والناس جميعاً، وأنه الصبر، وقالوا إن المنكر ضد ذلك كله[1].

وفي الحديث إيجاز بالحَذْف وهو من سمات البيان النبوي: فالجملة الثانية تقديرها في الجواب: فليغير بلسانه، أي بالموعظة والتوعية وكل ما يقدر عليه من جميل الكلام، وقوة الإقناع، والترغيب والترهيب، والجملة الثالثة تقديرها، فإن لم يستطع التغيير باليد أو باللسان فليغير بقلبه: أى يرفض المنكر رفضاً نفسياً وشعورياً، ولا

---

(١) انظر: لسان العرب مادة: عرف، وانظر التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة، ص ٣٠٩-٣١٤.

يحضر مجلساً فيه شبهة: وهذه أدنى مرحلة من مراحل التغيير والتغيير معناه: إزالة المنكر، وإيجاد المعروف بكل السبل المتاحة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق الكلام عنه تفصيلاً في الحديث رقم (١١٨).

الثاني: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يرى جمهور الفقهاء[١] أن المراتب الأساسية لهما ثلاث، اتباعاً لهذا الحديث وهي الإنكار باليد أو اللسان أو القلب، فمن وسائل الإنكار: التعريف بالرفق واللطف ليكون أبلغ في الموعظة والنصيحة وخاصة لأصحاب الجاه والسلطان، وأعلى مراتب الأمر والنهي اليد، فيقوم بكسر آلات الباطل وبريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله، ويأخذ على يد الغاصب ويعيد المغصوب لمالكه فإذا ما انتهى الأمر بشهر السلاح وجب الرجوع إلى السلطان، وعلى كل لا يسقط الإنكار بالقلب عن المكلف باليد واللسان أصلاً إذ هو كراهة معصية وهو واجب على المكلف.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: درجات إنكار المنكر.

رابعاً: من صفات المدعو: الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/٤٧ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ١/٣٨٣، وأنوار البروق، القرافي ٤/٢٥٥ وما بعدها، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١/٢٢٥ وما بعدها، والمحلى، ابن حزم ٨/٤٢٣ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/٢٥٠ وما بعدها.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والأمر:

الشرط من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة جوابه، وقد اشتمل أسلوب الشرط في الحديث على أداة الشرط المتمثلة في قوله ﷺ: (من)، وعلى فعل الشرط في قوله ﷺ: (رأى)، وعلى جواب الشرط في قوله ﷺ: (فليغيره)، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: (فليغيره)، وبه يحمل المدعو على فعل الأمر المدعو إليه بما في ذلك عظيم الفائدة، وكمال الأجر.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(مما لا شك فيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو صمامُ أمن الحياة وضمان سعادة الفرد والمجتمع، به يهيأ الجو الصالح الذي تنمو فيه الآداب والفضائل وتختفي فيه المنكرات والرذائل ويتربى في ظله الضمير العفيف والوجدان اليقظ، وهو سر أفضلية هذه الأمة لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1])[2]، وقد أشار نص الحديث إلى أهمية الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر فقال ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره... إلخ)، "والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات"[3]، أما المنكر "فهو كل ما قبحه الشرع وحرّمه ونهى عنه"[4].

وقد دلّت نصوص الشريعة الإسلامية على أهمية القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٣٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٣.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/٢٣٣.

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١]، أي: "لتكون هنالك فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه"[٢]، وقوله تعالى: (وأولئك هم المفلحون)، "فالفلاح مختص بالقائمين به المباشرين له ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظاً للأمة الإسلامية"[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[٥].

وقد أمر النبي ﷺ بذلك ورهّب من تركه، فقال: ((والذي نفسي بيدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أو لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهِ فتَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ))[٦]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النقصُ على بَنِي اسرائيلَ، كانَ الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقولُ: يا هَذَا اتَّقِ اللهِ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لكَ، ثم يَلْقَاهُ مِنَ الغدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذلكَ أَنْ يكونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وقَعِيدَهُ، فلمَّا فَعَلُوا ذلكَ ضَرَبَ الله قلوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ))، ثم قالَ ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ** ﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾[٧] ثم قالَ: ((كَلاَّ والله، لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظالمِ ولَتَأْطِرُنَّهُ على الحَقِّ أَطْراً وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْراً))[٨].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩١/٢.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢٦/٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٥) سورة الحج، آية: ٤١.

(٦) أخرجه الترمذي ٢١٦٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٧٦٢).

(٧) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ - ٨١.

(٨) أخرجه أحمد ٣٧١٢، وقال محققو المسند: صحيح الإسناد.

"فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين عليهم السلام، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفَترةُ، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثُّلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الدائرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنَّة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدّاً بقربة تتضاءلُ درجات القرب دون ذروتها"[1].

ومما لا شك فيه "إن قيام المسلم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة على دينه، والدفاع والحفاظ على القيم الإسلامية وإحيائها، كل ذلك من شأنه أن يحافظ على قوة المجتمع وسلامته وتماسكه، وتأمينه من غضب الله وحلول النقم عليه، فضلاً عن معرفة المجتمع موقعه من الله تعالى، هل هناك قرب، أم بعد عن الله، هل يغار المسلم حينما تنتهك محارم الله، أو يتعدّ على حدود الله تعالى، إلى غير ذلك من الأمور التي يستشعرها المجتمع الصحيح المعافى"[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: درجات إنكار المنكر:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ: "فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"، قال النووي: (قال القاضي

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١١٩٢/٣.

(٢) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محي الدين عفيفي أحمد، ص ٤٧.

عياض: هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولاً كان أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله"، وذلك تغييراً باليد - فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده، اقتصر على القول باللسان والوعظ بالتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة)[١].

"فالحاصل أن مقتضى التوجيه النبوي الوارد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يدلّ على أن التغيير باليد هو الأصل الذي يبدأ به، فإن تعذر القيام به خشية ما يفوت من مصالح أعظم أو وقوع مفاسد أكبر فإنه يُنتقل إلى ما دونه من التغيير باللسان ثم بالقلب... وفي مسألة التغيير للمنكر باليد خاصة، إذ جعلنا ذلك لكل أحد، وفي كل منكر، فإن ذلك يجر من المفاسد الشيء الكثير جداً"[٢].

قال ابن تيمية: (وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق، ويجلد الشارب، ويقيم الحدود لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد، لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك، فهذا ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر...)[٣].

"فمسألة التغيير باليد مع وجود القدرة مشروطة بعدم ترتب مفسدة أكبر من جراء الاحتساب فإذا رأى أنه لا يتمكن من تغييره بيده إما لعدم قدرته على ذلك أو خشية ترتب مفسدة أكبر من المصلحة المرجوة انتقل بعد ذلك إلى المرتبة الثانية، وهي: الإنكار باللسان.. وإنما ينتقل إلى هذه المرتبة إذا عجز عن التي قبلها وهي الإنكار باليد.. فتسقط عنه، وهذه المرتبة أيسر ولا شك.. ثم اعلم أن الذي ينبغي في هذه المرتبة هو التغيير بحسب قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد بن عثمان السبت ص ٣٢٥ - ٣٣٢.

(٣) مختصر الفتاوى المصرية، بدر الدين محمد بن علي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي ص ٥٧٩.

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[١] فإن عجز المحتسب عن القيام بهذا الواجب انتقل إلى ما دونه وهو المرتبة الثالثة، وهي: الإنكار بالقلب وهو أدناها... ولا رخصة لأحد في تركه البتة... بل يجب أن يكون كُرْه المنكر وبُغْضُه تاماً مستمراً... أما إذا كان القلب لا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر فإن هذا دليل على موته"[٢].

كما جاء في الصحيح من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ. حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا. فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ. وَالآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادا كَالْكُوزِ مُجَخِّيا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرا. إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ))[٣].

وقد دلّ نص الحديث على لزوم هذه المرتبة وذلك بقوله ﷺ: "وذلك أضعف الإيمان" قال ابن تيمية: (... فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: وذلك أدنى - أو أضعف الإيمان... وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ ميّتُ الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان)[٤]، وفي ذلك بيان على درجات إنكار المنكر التي يجب على من قام بذلك أن يراعيها ويقتدي بها حتى لا يترتب منكر وضرر أشد وأكبر مما هو موجود.

رابعاً- من صفات المدعو: الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر:

وفي ذلك استجابة لله ولرسوله بما يعود على المدعو بعظيم الأجر وجزيل الثواب قال

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٤٤. والصفا: الحجر العريض الأملس الذي لا يعلق به شيء، والمِرْباد: موطن تجمع الإبل ومحل خزن التمر ومكان جمع الكتب، والكوز مجخيا: أي فارغًا ليس به شيء، انظر: المعجم الوجيز في (ص ف ر، ر ب د، ج خ ى).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٢٧/٢٨.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[١]، قال القاسمي: (الاستجابة بمعنى الإجابة، قال:

وداعٍ دعـا يـا مَـنْ يُجيـبُ فَلَمْ يَستجيبهُ عِنْدَ ذلكَ مُجيبُ

يريد: فلم يجبه...، والمراد بها الطاعة والامتثال)[٢].

وقال القرطبي: (قال مجاهد والجمهور: المعنى: استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهٍ؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية)[٣].

وقال السعدي: (إن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، وقوله تعالى: "إذا دعاكم لما يحييكم"، وصف ملازم لكل ما دعا اللهُ ورسولُه إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح، بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله ﷺ على الدوام ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه"، فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء"[٤].

فعلى المدعو أن يأتمر ويستجيب لما يعرض عليه من معروف وينتهي عما ينكر عليه من منكر لما في ذلك من كامل الاستجابة لله ورسوله.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٢٣/٨/٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٨٤/٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٠.

فضلا عن عظيم الثواب المتمثل في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[1]،
وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾[2].

(١) سورة الرعد، آية: ١٨.
(٢) سورة الشورى، آية: ٢٦.

الحديث رقم (١٨٥)

١٨٥- **الثَّاني**: عن ابنِ مسْعُودٍ ﵁ أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَا مِنَ نَبِيٍّ بعَثَهُ اللَّه فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إلاَّ كان لَه مِن أُمَّتِهِ حوارِيُّون وأَصْحَابٌ يَأْخذون بِسُنَّتِهِ ويقْتدُون بأَمْرِه، ثُمَّ إنَّها تَخْلُفُ مِنْ بعْدِهِمْ خُلُوفٌ يقُولُون مَالاَ يفْعلُونَ، ويفْعَلُون مَا لاَ يُؤْمَرون، فَمَنْ جاهدهُم بِيَدِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جاهدهم بقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، ومَنْ جَاهَدهُمْ بِلِسانِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وليس وراءَ ذلِك مِن الإِيمانِ حبَّةُ خرْدلٍ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الحواريون: هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب[2].

تخلُفُ: أي تحدث[3].

خُلوفُ: جمع خَلْف بإسكان اللام وهو الخالف بشَرٍّ[4].

حبّة خردل: زِنَة حبَّة الخردل، وهو نبات بري يُساوي وزن حبته سدس وزن حبة الشعير، والمراد: ليس وراء ذلك من الإيمان شيء[5].

الشرح الأدبي

ما أجمل البيان النبوي، وما أجلَّ وأعظم البشارات التي يقدمها للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، ونقتبس من أنوار هذا الحديث الشريف إشعاعات هادية يتألق وميضها في آفاق الترغيب والترهيب، وتتصل هذه الآفاق بما يشع

---

(١) برقم (٨٠/٥٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (خ ر د ل).

في الحديث السابق من توجيهات النبوة، إلى تغيير المنكر بكل ما نملك من قوة، القوة المادية أو القوة البيانية أو القوة الشعورية، والمؤمن القوى هو الذي يمتلك كل هذه القوى، وهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ولنتأمل في تدبّر وإخلاص: جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، إن البداية تثير الانتباه حيث تصاغ هذه البداية في أسلوب القصر، وهذا الأسلوب يوضح المعنى المراد ويزيده جلاء في النفس: فكل الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله قبل محمد ﷺ كان لهم: من أمتهم حواريون وأصحاب وهذا المعنى الذي أكده وثبته أسلوب القصر: تزيده جلاءً ظواهر فنية وأسلوبية متعددة ومنها قوله : "ما من نبي" و"من" هنا زائدة، وقيل هذا الحرف مزيد لاستغراق النفى: أى ليشمل الحصر، أو القصر جميع الأنبياء والرسل: أو غالب الرسل.

ولنتساءل: من هم الحواريون؟ ومن هم الأصحاب وهل هما بمعنى واحد، ولماذا عطف أحدهما على الآخر، والعطف يقتضي المغايرة؟ الواقع أن الدلالة تختلف فالحواريون كما قال الأزهري وغيره: هم خُلْصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان: هم الذين نقوا من كل عيب. أما الأصحابُ فهم من الصحبة، أي الخلطة والملابسة على جهة المحبة، فهم أعم من الحواريين، لأن الحواريين في بعض الآراء هم: الأنصار أو المجاهدون، أو الذين يصلحون للخلافة بعد الأنبياء — كما يقول صاحب دليل الفالحين.

وهؤلاء الحواريون والأصحاب: يأخذون بسنة النبي أو الرسول، ويقتدون بأمره وهاتان الصفتان من أخص خصائص الأتباع والأصحاب، والتعبير بقوله: يأخذون بسنته: أدق وأشمل من التعبير بـ "يعملون" لأن الأخذ بالسنة فيه عمل بالسنة، وفيه إرشاد الغير إلى العمل بها، فهم لا يكتفون بأنفسهم وإنما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والتعبير بالمضارع، (يأخذون، ويقتدون)، في سياق الحكاية أو الإخبار عن الماضي، للدلالة على المداومة على اتباع السنة، وللدلالة على استمرار الحواريين والأصحاب مع الرسل في كل زمن أو مع غالب الرسل.

وفي القسم الثاني من الحديث: ينبه المصطفى ﷺ أمته إلى كيفية انحراف الأمة

عن الطريق الصحيح ويحذر من هذا السلوك الذي يخالف منهج السلف من الحواريين والأصحاب، ويبدأ بقوله: ثم، إنها تَخْلُف من بعدهم خلوف: يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون.

والتعبير بـ "ثم" يفيد تباعد الزمن، ويوحي بأن الخَلَف تناسي ما عليه السلف: وهذا ما أقره القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

وفي التعبير بـ"ثم" إشراقه أسلوبية أخرى نبه إليها صاحب "دليل الفالحين" وهى من ثمرة التأمل الإيماني في جماليات البيان النبوي، حيث يقول: ("ثم" أتى بها، لتراخي رتبة المعطوف بها عما قبله، فتأمل سمت هذا الكلام، وتأمل جمال هذا التخريج البلاغي: فما قبل ثم: هم الحواريون والأصحاب، وما بعدها، هم الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون، وشتان ما بين الفريقين: فتأمل ماذا أضاف التعبير بثم وبماذا أوحى؟).

وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، كما قال الرافعي، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، وفي ضوء هذا التواصل المشرق بين البيان القرآني، والبيان النبوي: نتأمل: قوله ﷺ: ثم إنها تخلف من بعدهم: خلوف يقولون مالا يفعلون، إن المعنى هنا نابع ومستمد من قول الله عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2]، والشاهد في قوله عليه السلام: تخلف من بعدهم خلوف، و"خلوف" جمع خلف بإسكان اللام وهو الخالف بشرّ: وهو ما يتفق مع دلالة الآية الكريمة، ودلالة الحديث الشريف، أما: خلف بفتح اللام، فهو الخالف بخير، على الأشهر.

فالكلمة بمادتها اللغوية، وبضبطها الصحيح: تفصح عن المعنى المراد: وهذا من أدق أسرار لغتنا العربية وهي لغة القرآن الكريم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) سورة مريم، آية: ٥٩.

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١].

وتأمل صيغة المضارع التي سيطرت على هذا القِسْم من الحديث: حيث قال ﷺ: ثم إنها تخلف، ولم يقل "خَلَفتْ" إيحاءً باستمرار الانحراف عن المنهج الصحيح، وفي ذلك زيادة في تحذير أمته لأن هذا الصنيع ربما يتكرر بعد تباعد العهد بين زمن الأصحاب الأخيار وزمن هؤلاء "الخَلْف" الذين يقولون مالا يفعلون: مثل من سبقهم من الأمم السابقة، ولذلك جاءت صيغة المضارع في قوله في هذه الأفعال الأربع وهي من الأفعال الخمسة، يقولون: مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، للدلالة على استمرار هذا الصنيع مع كل نبي ورسول.

ولذلك يأتي القسم الثالث من الحديث محذراً من هذا النهج المخالف، وداعياً إلى جهاد هؤلاء ومن على شاكلتهم باليد وباللسان وبالقلب، وتوالت الجمل الداعية للجهاد وهي ثلاث جمل في صيغة الشرط: وتكرر الفعل جاهد ثلاث مرات: للتأكيد على الثبات على منهج السلف من الحواريين والأصحاب، ورفض منهج هؤلاء الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم.

وتكرر جواب الشرط في الجمل الثلاث بصيغة واحدة تكررت فيها صفة المؤمن، ثلاث مرات، حيث قال فهو "مؤمن ففعل" الشرط: "جاهدهم" كرر ثلاث مرات، وجواب الشرط: فهو "مؤمن": كرر ثلاث مرات، وهذا التكرار بشارة لكل من أمر بالمعروف، وقاوم المنكر، وجاهد المنحرفين الضالين.

وهذا التنويع في طرق الجهاد يدل على أن الجهاد في المفهوم الإسلامي، والبيان القرآني، والبيان النبوي، تتسع دلالته حيث تعني هذه الكلمة، كل ما يستطيع المسلم أن يبذله من جهد في سبيل إعلاء كلمة الحق، فليس الجهاد في الإسلام مقصوراً على حمل السيف، بل يتعداه إلى حمل القلم وبذل المال، وبذل الكلمة الحرة الشريفة في الميادين التي تجدي فيها الكلمة[٢]، والجهاد بالقلب: من أدق وأخفى صور الجهاد، لأن

(١) سورة يوسف، آية: ٢.

(٢) انظر: المنظور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم.

الأعمال بالنيات، والجهاد باليد، وباللسان وبالقلم لابد أن يكون ناتجاً من القلب: حيث العقيدة الخالصة، والشعور الإيماني الصادق.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق القول في الحديث رقم (١١٨) أنه قد اتفق الفقهاء على مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن اختلفوا في حكمه على أقوال عدة سبق بيانها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل وأهمية اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الحث على مجاهدة المخالفين للشرع.

سادساً: من موضوعات الدعوة: تنوع درجات إنكار المنكر.

سابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر:

لقد جاء في الحديث ما يدل على ذلك في قوله ﷺ "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب" وهذا يفيد اختصاص الأنبياء بالحوارين والأصحاب، وأسلوب القصر من الأساليب الدعوية التي تلفت انتباه المدعوين على أهمية ما اختص به الأنبياء.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم:

إن الصحابة رضي الله عنهم هم مفخرة الإنسانية، وخير جيل عرفته البشرية، نصر الله بهم نبيه ﷺ، فأقاموا الملة وحفظوا السنة، وهذا ما أكده نص الحديث من قوله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته

ويقتدون بأمره». وقد عظم النبي ﷺ فضلهم وحفظ لهم قدرهم، فقال: ((النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون))[١].

قال النووي: (إن الأمنة هي الأمن والأمان)[٢] وقال ﷺ في تأكيد عظم فضل أصحابه رضي الله عنهم: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه))[٣].

قال القاضي عياض: (ويقتضي ذلك تفضيلهم على من سواهم بتضعيف أجورهم؛ ولأن إنفاقهم كان في وقت الحاجة والضرورة وإقامة الأمر وبدء الإسلام، وإيثار النفس، وقلة ذات اليد ونفقة غيرهم بعد الاستغناء عن كثير منها مع سعة الحال، وكثرة ذات اليد؛ ولأن إنفاقهم كان في نصرة ذات النبي ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذلك جهادهم وأعمالهم كلها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾[٤]، هذا فرق ما فيهم أنفسهم من الفضل وبينهم من البون، فكيف لمن يأتي بعدهم؟ فإن فضيلة الصحبة واللقاء ولو لحظة لايوازيها عمل ولا ينال درجتها شيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[٥])[٦].

(وسب أصحاب النبي ﷺ وتنقصهم أو أحد منهم من الكبائر المحرمة والفواحش المنكرة، سواء من لابس الفتن منهم وغيره؛ لأنم مجتهدون في تلك الحروب متأولون،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤١.

(٤) سورة الحديد، آية: ١٠.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٨٠/٧.

وقد لعن النبي ﷺ فاعل ذلك، وذكر أنه من آذاه وآذى الله فإنه لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً)[١].

(والصحابة رضوان الله عليهم هم أعز مأثرة تلمع على جبين الحياة الإنسانية من بين مآثر النبوة، فكان كل فرد منهم نموذجاً رائعاً للتربية النبوية، ومفخرة وشرفاً للنوع الإنساني، لا توجد صورة من المصور الإنساني العالمي الواسع، بل في الكون كله، أجمل وأروع وأشرف من هذه النماذج الإنسانية والأنماط البشرية، باستثناء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

إن إيمانهم الراسخ، وعلمهم العميق، وقلبهم الصادق، وحياتهم الفطرية، وتواضعهم وخشيتهم لله، وعفتهم وطهرهم وعطفهم ورأفتهم، وشجاعتهم وجلادتهم، وتذوقهم للعبادة وحنينهم إلى الشهادة، وفروسيتهم بالنهار، وقيامهم بالليل، وتحررهم من سلطان الثروات، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة واستهوائها، وزهدهم في زخارف الدنيا، وعدلهم وحسن تدبيرهم، كل ذلك مما لا يوجد له نظير في الدنيا، ومن مآثر النبوة أنها صنعت رجالاً كانوا أفذاذاً من نوعهم في التاريخ، ولولا شهادات تاريخية متواترة عن هؤلاء الرجال، لما عدا ذلك خيالاً شعرياً، وقصة أسطورية، ولكنها الآن حقيقة تاريخية، وواقع معلوم لا مجال فيه للشك)[٢].

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء)[٣].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبة له وهو يتحدث عن أصحاب محمد ﷺ:

---

(١) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٥٨٠/٧، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٦.

(٢) انظر: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية، أبو الحسن الندوي، ٢٦، ٢٧.

(٣) أخرجه أحمد ٣٧٩/١ رقم ٣٦٠٠، وقال محققو المسند إسناده حسن ٨٤/٦.

(لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبتل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب)(١).

ويقول في خطبة ثانية: (أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال، فوَلَهوا وَلَهَ اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفّاً صفّاً، بعض هلك وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالموتى، مُرْه(٢) العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم)(٣).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل وأهمية اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته:

إن اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته، أحد ركائز دين الإسلام وأساسياته، بل إن ذلك من أعظم مسلمات الشريعة والأمور المعلومة منها بالضرورة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم هم القدوة في ذلك، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره".

وقد استفاضت النصوص الشرعية الصحيحة في إيجاب ذلك على المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٤). وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الراضي، تحقيق: د. صبحي الصالح ص١٤٣، نقلاً عن صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية، أبو الحسن الندوي، ٣٠، ٣١.

(٢) مُرْه العيون من البكاء: أي سقط ما بها من كحل، وخمص البطون: أي ضامري البطون، المعجم الوجيز في (م ر هـ، خ م ص).

(٣) نهج البلاغة، الشريف الراضي، ١٧٧، ١٧٨، نقلاً عن صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ، الندوي، ٣١.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[١].

(واتباع النبي ﷺ هو الاقتداء والتأسي به في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتروك، بعمل مثل عمله، على الوجه الذي عمله ﷺ، من إيجاب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو حظر، مع توفر القصد والإرادة في ذلك.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الاعتقادات: بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبي ﷺ على الوجه الذي - اعتقده من ناحية الوجوب أو البدعية، أو لكونه من أسس الدين أو ناقضاً لأصله، أو قادحاً في كماله.... إلخ، من أجل أنه اعتقده ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال: بامتثال مدلولها، وما جاءت به من معاني، لا أن تكرر ألفاظها وتردد نصوصها فحسب، فمثلاً: الاتباع لقوله ﷺ: ((صلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))[٢]. يكون بالصلاة كصلاته، والاتباع لقوله ﷺ: ((لا تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا))[٣]. بترك الحسد والنجش، والاتباع لقوله ﷺ: ((مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ عَلِمَهُ ثم كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ))[٤]. بنشر الإنسان لعلمه الصحيح النافع وعدم كتمانه له.

كما يكون الاتباع للنبي ﷺ في الأفعال: بأن نفعل مثل فعله، على الوجه الذي فعله، من أجل أنه فعله.

فقولنا: (مثل فعله)؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل وكيفيته.

وقولنا: (على الوجه الذي فعله): معناه المشاركة في غرض ذلك الفعل ونيته، إخلاصاً، وتحديداً للفعل من حيث كونه واجباً أو مندوبا؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف الغرض والنية، وإن اتحدت صورة الفعل.

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٣١.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٤٣، ومسلم ٢٥٦٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١٣٥).

وقولنا: (من أجل أنه فعله)؛ لأنه لو اتحدت الصورة والقصد ولم يكن المراد التأسي والاقتداء فإنه لا يكون اتباعاً.

ولتوضيح الاتباع في الفعل: لو أردنا أن نقتدي بالنبي ﷺ في صومه فلابد أن نصوم على الصورة التي صامها ﷺ، بحيث نمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بقصد التقرب إلى الله تعالى، فلو أمسك أحدنا عن بعض المفطرات فقط لم يكن متبعاً، كما لو أمسك في جزء من الوقت فقط لم يكن متبعاً.

كما لابد أن نصوم على الوجه الذي صامه ﷺ من ناحية القصد بحيث نريد بصيامنا وجه الله تعالى، وصيام الواجب أداء أو قضاء أو نذراً، أو النفل،- كالقصد الذي صام لأجله ﷺ.

كما لا بد أن نصوم من أجل أنه صام ﷺ؛ ولذا لا يعد الشخص متأسياً بشخص آخر- غير النبي ﷺ- يشاركه في الصورة والقصد إذا كان كل منهما يعمل ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى واتباعاً لرسوله ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في التروك: بأن نترك ما ترك، على الصفة والوجه الذي ترك، من أجل أنه ترك، وهي القيود نفسها في الاتباع في الأفعال.

ولتوضيح ذلك: قام النبي ﷺ بترك الصلاة عند طلوع الشمس، فيترك المتأسي الصلاة في ذلك الوقت على الوجه الذي ترك النبي ﷺ، لأجل أنه ترك)[1].

وقد جعل الحق تبارك وتعالى اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته شرطاً لقبول العبادات، قال ابن رجب: (فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب؛ فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء)[2]، وهذا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ٤٠٩/١٠، واتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني، ٩٣، ضمن بحوث حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧٦/١.

ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[١].

قال النووي: (قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود ومعناه، فهو باطل غير معتد به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات ...، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به)[٢].

وقد جعل الحق تبارك وتعالى اتباع النبي ﷺ والأخذ بسنته دليلاً على محبته تعالى، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

يقول ابن تيمية: (ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾، قالت طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ الآية، فبيّن سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول ﷺ، وأن اتباع الرسول ﷺ يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله؛ فإن هذا الباب تكثر فيها الدعاوى والاشتباه)[٤].

ويقول ابن كثير: (هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين المحمدي في جميع أقواله وأفعاله)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٩٧، ومسلم ١٧١٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٠٥.

(٣) سورة آل عمران آية: ٣١ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٨١/١٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢/٢.

وقال ابن القيم: (﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها؛ فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية)[١].

ويقول: (ثباتها أي محبة الله إنما يكون بمتابعة الرسول في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانها يكون نقصانها)[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح:

قد أشار الحديث إلى هذا الانحراف فقال ﷺ "ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون" وقد بين الحق تبارك وتعالى خطورة الانحراف عن المنهج الصحيح فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] قال ابن كثير (أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً أن تصيبه فتنة من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك)[٤].

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ بهذه الآية احتج العلماء على أن الأمر للوجوب. ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره. والفتنة هنا القتل؛ قاله ابن عباس، وقال عطاء: الزلازل والأهوال. جعفر بن محمد: سلطان جائر يسلط عليهم . وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٢٢.

(٢) المرجع السابق ٣/٣٧.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٩٠.

الرسول. والضمير في "أمره" قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى، قاله يحيى بن سلام وقيل: إلى أمر رسوله عليه السلام)[١]، فعلى المرء أن يحذر مخالفة النبي ﷺ، وأن يجتهد في اتباع هديه ﷺ فهو والله الفلاح في الدنيا والآخرة.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الحث على مجاهدة المخالفين للشرع:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" وهذا ما حث عليه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقد رهب ﷺ من مخالفة ذلك فقال:"والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"[٣].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: ((أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟» قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَىٰ. يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ، مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ. فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ. فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا. فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا. فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا. فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ، الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ، يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ، عِنْدَهُ غَداً. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَتْ. صَدَقَتْ. كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟))[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦/١٢/٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٩، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٨٦٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٠١٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الألباني، ٣٢٣٩).

"فقيام المسلم بواجبه في الاحتساب والغيرة على دينه والدفاع والحفاظ على القيم الإسلامية، كل ذلك من شأنه أن يحافظ على قوة المجتمع وسلامته وتماسكه وتأمينه من غضب الله، وحلول النقم عليه لأن الحسبة هى صمام الأمان في المجتمع، ومن خلالها يعرف المجتمع موقعه من الله تعالى فيما يتعلق بالقرب أو البعد لأن المجتمع المريض هو الذي يغرق في الشهوات، وتتلاشى فيه القيم الإسلامية لأن ترك الحسبة ومجاهدة المخالفين للشرع مؤشر خطير في المجتمع المسلم"[(١)].

سادساً- من موضوعات الدعوة: تنوع درجات إنكار المنكر:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن". (فهذا نص صريح من المصطفى ﷺ بأن المغير للمنكر لا يلزمه إزالته بطريقة واحدة، بل عليه أن يغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أقل الأحوال)[(٢)]، وقال الجصاص في ذلك: (إن إنكار المنكر على هذه الوجوه الثلاثة على حسب الإمكان، ودل على أنه إن لم يستطع تغييره بيده فعليه تغييره بلسانه، ثم إن لم يكن ذلك فليس عليه أكثر من إنكاره بقلبه)[(٣)]، (ويشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون قادراً على الأمر والنهي وتغيير المنكر، فإن كان عاجزاً فلا وجوب عليه إلا بقلبه أى: يكره المعاصي وينكرها ويقاطع فاعليها)[(٤)].

سابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

(إن الترهيب من الأساليب الدعوية الهامة التي يكون بها إخافة المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، وفي ذلك عظيم الفائدة، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة،

---

(١) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محي الدين عفيفي أحمد ص ٤٧.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د.عبدالعزيز أحمد المسعود، ٥٠٠-٥٠١.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/٣٦.

(٤) التشريع الجنائي، عبدالقادر عودة، ١/٤٩٧ .

وهو من الأساليب الناجحة للنفس الإنسانية التي جبلت على حب النفور من الضيق والعذاب)[١]. وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي الهام في الحديث من قوله ﷺ: (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)، حيث أفاد الترهيب من عدم إنكار المنكر، وبيان أن الإيمان في لزوم إنكاره ولو بالقلب.

---

(١) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦-٨٧.

الحديث رقم (١٨٦)

١٨٦- **الثالثُ:** عن أَبي الوليدِ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قال: «**بايعنا رسول اللّه ﷺ على السَّمعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ وَاليُسْرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وَعلى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ**[1].

(**إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدكُمْ مِنَ اللّه تعالَى فيه بُرهانٌ**) [2]، **وعلى أن نقول بالحقِّ أينما كُنَّا لا نخافُ في اللّه لَوْمَةَ لائمٍ**» متفقٌ عليه[3].

(المَنْشَط والمَكْره) بِفَتْحِ مِيميهما، أَيْ: في السَّهْلِ والصَّعْبِ. (والأَثَرةُ: الاخْتِصاصُ بالمُشْتَرك، وقَدْ سبقَ بيَانُها. (بوَاحاً) بفَتْحِ الْبَاءِ المُوَحَّدة بعْدَهَا وَاوثُمَّ أَلِفٌ ثُمَّ حاء مُهْمَلَةٌ أَيْ ظَاهِراً لاَ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلاً.

ترجمة الراوي:

عبادة بن الصامت: صحابي مشهور، وعلم من أعلام صحابة رسول الله ﷺ واسمهُ: عُبَادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس الأنصاري الخزرجي، وكان يكنى بأبي الوليد المدني، له صحبة ورواية، له في كتب الحديث ١٨١ حديثاً، وله في الصحيحين ستة، وانفرد كل منهما بحديثين.

شهد العقبة الأولى والثانية، فكان أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ وكان أحد نقبائهم الاثني عشر فكان نقيباً على القوافل من بني عوف بن الخزرج، وبعد هجرة المهاجرين إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مَرْثَد الغَنَوي، وله

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩/٤١، كتاب الإمارة، باب ٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٨).

(٢) الزيادة من رواية البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩/٤٢) قال الحميدي في جمعه (٤١٥/١، رقم ٦٦٦): وقد أخرجا هذا المعنى من حديث جنادة، عن عبادة، وزاد متصلاً بقوله: ولا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٠٩)، ومسلم (١٧٠٩/٤١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٩٨). **تنبيه:** جمع المنذري في ترغيبه بين لفظي الحديث، وتبعه عليه المؤلف.

جهادٌ كبير مع رسول الله ﷺ فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ فهو صحابي عَقَبيٌّ نقيبيٌّ أنصاريٌّ بدريٌّ، وشهد فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

استعمله النبي ﷺ على بعض الصدقات وجَمَعَ رضي الله عنه القرآن كله في صدره حفظاً على عهد رسول الله ﷺ فكان يعلم أهل الصُفَّة القرآن، ولما فتح الله على المسلمين بلاد الشام كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر أنه قد احتاج أهل الشام إلى مَنْ يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، فأقام عبادة بفلسطين، كما ولي إمارة رَبَعِ المَدَرِ، وذُكِر أن أبا عبيدة ولاه إمرة حمص ثم صَرفه.

وكان رضي الله عنه من أشد الناس ورعاً وحِلماً ولطفاً بغيره، أما عن صفاته الخِلْقية: فكان طوالاً، جسيمًا، جميلاً، وقال سعيد بن عفير كان طوله عشرة أشبار. ذكر أن عبادة بن الصامت لما حضرته الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن -يعني الدار- ثم قال: اجمعوا لي مواليّ وخدمي، وجيراني، ومن كان يدخل عليَّ فتجمعوا له فقال: إن يومي هذا لا أُراه إلا آخر يوم يأتي عليّ في الدنيا وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو والذي نفس عبادة بيده القصاص يوم القيامة، فأُحَرِّجُ[(١)] على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص قبل أن تخرج نفسي فقالوا: بل كنت والداً، وكنت مؤدباً، وما قلت لخادم سوء قط، فقال أغفرتم لي ما كان مني لكم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم أشهد، ثم قال: فاحفظوا وصيتي "أُحَرِّجُ على إنسان منكم يبكي عليّ، فإذا خرجت نفسي فتوضئوا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلي ثم يستغفر لِعُبَادَه ولنفسه، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[(٢)] ثم أسرعوا بي إلى حفرتي ولا تُتْبِعُنِّي ناراً، ولا تضعوا تحتي أرجواناً.

---

(١) أي أقول لا حرج من الإقدام على أخذ الحق، المعجم الوجيز في (ح ر ج).

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

مات بالرَّملة من أرض الشام، وقيل مات ببيت المقدس وقبره إلى الحائط الشرقي يعني بيت المقدس، مات سنة ٣٤ وقيل ٤٥هـ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة[١].

غريب الألفاظ:

المنشط: فسرها النووي[٢]، وفي النهاية: هو الأمر الذي تنشط له وتخفُّ إليه وتُؤثر فعله[٣].

المكره: فسرها النووي[٤]، وفي النهاية: هو الأمر المكروه[٥].

الأثرةُ: فسرها النووي في عقب الحديث[٦].

بواحاً: فسرها النووي في عقب الحديث[٧].

الشرح الأدبي

في ظل هذا الحديث الشريف: نستروح نسمات مشهد بيعة العقبة الأولى، وهي من المواقف والمشاهد التي كان لها الأثر العميق في تَثْبيت أركان الدعوة الإسلامية، وترسيخ دعائم دولة الإسلام، ويروي عبادة بن الصامت: وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أنهم بايعوا الرسول ﷺ أو الرسول بايعهم: أن يسمعوا ويطيعوا له ﷺ، ولغيره من ولاة الأمر في جميع الأحوال إلا في حال وقوع الكفر الصريح من ولي الأمر الشرعي فلا

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٤٦/٣، ٦٢١/٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٦٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٥٨/٣، ١٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٦٧٨، ٦٧٩، وسير أعلام النبلاء ٢٨٥/٢، ٢٨٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٦١/٤-٦٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٨٥/٢، ٢٨٦، والأعلام ٢٥٨/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول ١١٣٥/٢-١١٤٢.

(٢) رياض الصالحين ١٢٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش ط).

(٤) رياض الصالحين ٦٩، ١٢٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر هـ).

(٦) رياض الصالحين ٦٩، ١٢٥.

(٧) المرجع السابق.

سمع ولا طاعة؛ ولبداية الحديث رواية أخرى عن عبادة بن الصامت حيث: قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: "فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة ..." الحديث.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وهذا الجمال يكمن سره في تعدد دلالة الألفاظ، وتتعدد المعاني وتتسع تبعاً للدلالة اللفظية، وربما يكمن سر التعبير الجمالي في طريقة النظم: أى العلاقة بين الكلمات، وتعدد الصيغ، والاشتقاقات اللغوية، وتعدد الأساليب، وموحيات كل أسلوب؛ وأول ما يلفت الانتباه: بداية الحديث في هذه الرواية بالفعل بايعنا: والفعل بفتح العين، يعطي دلالة: العهد والمراد: دعانا رسول الله ﷺ إلى المبايعة فبايعناه، والمراد عاهدناه: ففيه استعارة تبعية، وأطلق على المعاهدة: المبايعة: لأن كلاً من المتعاهدين يمد يده للأخر لأخذ العهد، كما أن كلا من المتبايعين يمد يده لصاحبه، وقيل سميت مبايعة لما فيها من المعاوضة لما وعدهم الله من عظيم الجزاء، وحركة العين في الفعل، بايَعَنا، تحدد القائل لباقي عبارات الحديث: فسكون العين يجعل باقي كلمات الحديث من كلام عبادة بن الصامت، وفتح العين يرشد إلى أن الحديث إلى نهايته من كلام المصطفى ﷺ.

والجمع بين السَّمع والطاعة: له سرٌّ بلاغي دقيق: فالسمع: هو الإصغاء إلى الحديث: والمراد هنا: الإصغاء إلى الأمر مع قبول النفس له، وهذا يستتبع العمل به وهو الطاعة، وأما السمع بدون قبول النفس فلا يستتبع الطاعة: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[1].

ومواثيق هذه البيعة تتجلى في هذه العهود الأربعة: السمع والطاعة، والمبايعة على استئثار الأمراء بحظوظهم، وهو معنى "الأثرة" في قوله: على أثرة فينا، والمبايعة على أن لا ينازعوا الأمر أهله، وعلى أن يقولوا الحق أينما كان.

وتكرار الحرف "على"، في بداية كل عَهْد: يوحي بصدْق العهد، والالتزام بالمسؤولية، "والعسر واليُسْر"، و"المنشط والمكره" كناية عن الطاعة في جميع الأحوال:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٣.

لأن طاعة ولي الأمر واجبة إلا إن أظهروا الفسُوق أو الكفر البواح، أو البراح.

"وعندكم من الله فيه برهان"، أي نص صريح من القرآن أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل؛ وهذه العهود تضمن بقاء الأمة عزيزة قوية متماسكة البنيان ثابتة الأركان.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بحكم طاعة الإمام ومتى يجوز الخروج عليه، وقد أجمع جمهور العلماء[1] على أن طاعة أولي الأمر من الأمراء والحكام واجبة في كل زمان ومكان في المنشط والمكره، وأن الخروج عليه محرم، والخارج على الإمام باغ يعاقب بعقوبة البغي حتى يفيء إلى أمر الله، فإن ظهر من الإمام جور فهل يجوز الخروج عليه؟ قال الداودي: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: قول الحق وعدم الخوف.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

جاء في هذا الحديث في قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: "بايَعَنَا رسولُ الله على السمع

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٥٨/٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/١٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٩/١٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٠٧/٧ وما بعدها، والدراري المضية للشوكاني ٥٠٦/١ والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨ وما بعدها.

والطاعة" والبيعة وسيلة من وسائل الدعوة وهي تعني المعاقدة والمعاهدة على الأمر[١]. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً﴾[٢] قال ابن عاشور: (أي أوفوا بما بايعتم به النبي ﷺ على الإيمان والنصر)[٣] ولاشك أن البيعة من الوسائل الدعوية التي تحمل المدعوين على الامتثال بما بايعوا عليه، ويستفاد من ذلك مدى التزام الصحابة رضي الله عنهم بالسمع والطاعة في العسر واليسر واستجابتهم للنبي ﷺ، وحرصهم على مرضاة الله ورسوله ﷺ، وهذا مما ينبغي للدعاة إلى الله أن يركزوا عليه حتى يتأسى المدعوون بأصحاب النبي ﷺ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث: "وعلى أن لا ننازع الأمر أهله" قال الإمام ابن حجر: (أي لا تنازع في الملك والإمارة، وإن اعتقدت أن لك في الأمر حقاً فلا تعمل بذلك الظن، بل اسمع وأطع، إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة)[٤].

قال النووي: (ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولاياتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تَرَوْا منهم كفراً بواحاً، ومنكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين)[٥].

هذا وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦] وبين رسول الله

---

(١) النهاية، لابن الأثير ص ٩٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩٧/١٥/٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

ﷺ وجوب طاعة ولي الأمر وأن هذه الطاعة لا تكون في المعصية ففي الحديث ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وأكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ في الحديث "إلا أن ترو كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان" هذا وقد جعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2] ومن صفات الجماعة المؤمنة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3].

وحث رسول الله ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففي الحديث ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[4] قال الإمام الصالحي: (وتضمن الحديث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراتب ثلاث الأولى إزالته باليد وذلك يكون لمن كان له سلطان يُخاف والثانية إزالته باللسان وهذه يتصف بها العلماء، والثالثة من لم يكن له سلطان ولا هو من أهل العلم فينكر بقلبه)[5]. ولا شك أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية كثيرة في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٣٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة ص ٦٨.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: قول الحق وعدم الخوف:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية قول الحق وعدم الخوف والشاهد على ذلك من الحديث في قوله "وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم" قال الإمام النووي: (معناه نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في كل زمان ومكان، الكبار والصغار، لا نداهن فيه أحداً ولا نخافه هو، ولا نلتفت إلى الأئمة ففيه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجمع العلماء على أنه فرض كفاية)[١].

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[٢] وقد جاء في الحديث ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر))[٣] قال شرف الحق العظيم آبادي: (إنما صار ذلك أفضل الجهاد؛ لأن من جاهد العدو كان متردداً بين رجاء وخوف لا يدري هل يغلِب أو يُغلب وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف)[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٢.

(٣) أخرجه أبوداود، ٤٣٤٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥٠).

(٤) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣.

الحديث رقم (١٨٧)

١٨٧- **الرَّابع:** عن النعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ القَائِمِ في[1] حُدودِ اللَّه، والْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ فصارَ[2] بعضُهم أعلاهَا وبعضُهم أسفلَها وكانَ الذينَ في أسفلها إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصيبِنا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجوْا ونجوْا جَمِيعاً**» رواهُ البخاري[3].

القَائِمُ في حُدودِ اللَّه تعالى» مَعْنَاهُ: المُنْكِرُ لها، القَائمُ في دفعِهَا وإزالَتِهَا والمُرادُ بالحُدودِ: مَا نهى اللَّه عَنْهُ: «اسْتَهَمُوا»: اقْتَرعُوا.

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٤).

غريب الألفاظ:

القائم في حدود الله: أي المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها[4].

حدود الله: فسرها النووي[5].

الواقع فيها: أي الذي يقع في الحرام عمدًا.

استهموا: فسرها النووي[6].

وإن أخذوا على أيديهم: أي منعوهم من الحفر[7].

---

(١) لفظ البخاري (على) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١/٥٠١، رقم ٨٠٩)، وكذا عند المنذري.

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (فأصاب) والمثبت عنده برقم (٢٦٨٦). وكذا هو عند المنذري.

(٣) برقم (٢٤٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٥).

(٤) رياض الصالحين ١٢٥.

(٥) رياض الصالحين ١٢٥.

(٦) رياض الصالحين ١٢٥.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٣٤٩.

الشرح الأدبي

إن الصورة البيانية في الحديث النبوي حين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها ندرك أنها، كما يقول د. محمد رجب البيومي، تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحاً في الخاطر، وجلاء في الذهن، لتستحيل أفكاره الهادية دماً خالصاً يترقرق في عروق المسلم، ونوراً يمتد في عقله وبصره، ونفساً يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

وجمال التشبيه في هذا الحديث ينْبع من تصويره الرمزي لواقع الناس، وطريقة تعاملهم مع أوامر الله ونواهيه، وكيفية استقبالهم لحدود الله، والمحافظة عليها، وهذا التشبيه التمثيلي يقسم الناس إلى ثلاث فرق، وهو مستمد من مشاهد البيئة وواقع الناس، فالذين أرادوا غرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله، أى العاصي الذي يستهين بالحدود ويتعداها: ثم ما عدا هذا الفريق وهم قسمان: إما قائم في حدود الله: أي يقيم الحدود ويذب عن المحارم، ويحافظ على الأنفس والأعراض والأموال؛ وإما مداهن، وهو المرائى الذي يضيع الحقوق، ولا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر.

وحين نتأمل أطراف الصورة الأدبية ودلالتها وجمالها وقيمتها في إصلاح الواقع: ندرك أن الحياة مثل هذه السفينة: أو لثقل عمارة الأرض في ضوء التصور الإسلامي، تتجلى في هذه السفينة: أما الحياة المثلى فتتجلى في الإبحار الموفق، وهكذا تبرز رموز شتَّى تشع بها كلمة "السفينة"، وعملها، وما يحيط بها وكونها طابقين، فهؤلاء الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في عدم تكلف مشاق الصعود، وعدم إحراج وإرباك القوم في الأعلى، منهجهم فاسد: لأنهم يتخذون من الإفساد المتمثل في خرق السفينة طريقاً للحياة، وهو في حقيقته طريق للموت وإهلاك الأمة، فإن منعهم الآخرون سَلِمَت السفينة من الغرق، وفاز الراكبون جميعاً بالنجاة والحياة، والثقب المقترح رمز للفساد الذي ينم عن غباوة يتمتع بها الفسقة في كل عصر، وهو خرق للعقل كما هو خرق للسفينة[1].

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ١٦٠-١٦١.

وهذه الصورة الأدبية الواقعية تأتي في إطار النزعة القصصية: فهى تسرد حدثاً رمزياً يمكن أن يتكرر في كل عصر وفي كل مكان: وكثرة الأفعال الماضية مع العطف بالفاء، والحوار الداخلي: من الدلائل الفنية على أن هذه الصورة صيغت في قالب الحكاية وهى مشحونة بالحدث والشخصيات. والحبكة القصصية، والمفارقة التصويرية، والحل الذي يأخذ الجميع إلى طريق النجاة وهو مقاومة الفاسدين والكسالى، والجهلاء، وهذه المقاومة تشع بها الدلالة في قوله ﷺ: "وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعاً"، والعطف "بالفاء" يوحي بسرعة الأحداث ووجوب سرعة الإصلاح والمقاومة، وتكثر جمل الشرط في هذا الحديث إيحاء بأن النتائج رهن المقدمات، والجزاء من جنس العمل وجاء التعبير بأداة الشرط "إذا" مناسباً. في مقام طلب: السقيا: في قوله: "إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم"، لأن الماء سر الحياة، ولا يستغنى عنه مخلوق، "وإذا" تدل على التحقق: ولا مجال للشك في طلب السقيا، وإنما الخلل في المنهج والوسيلة التي أرادوا بها، الاستسقاء، وهى خرق السفينة.

وأداة الشرط "لو" جاءت في سياقها وموضعها لأنها أداة امتناع لامتناع، حيث امتنع جواب "لو"، وهو الحصول على الماء لاستحالة الوسيلة، وهى خرق السفينة، فبقيت أمنية هؤلاء في دائرة: المرفوض والمحرَّم، لأنها منفعة تجر خراباً وهلاكاً، وهى في الظاهر تتخذ من المراعاة والخوف على الغير قناعاً تخفي وراءه أطماعها المهلكة... وهذه فئة تتواجد في كل عصر، وعلى الأمة أن تأخذ على أيديهم، وأن تردهم إلى صوابهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

وتأمل اختيار أداة الشرط "إن" في الجملتين الأخيرتين من الحديث: فهو اختيار دقيق وعميق.

ولا غرو، فالقائل أفصح العرب، وهو الذي أوتى جوامع الكلم، وهو صاحب البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها: المصطفى ﷺ، والسر اللغوي والبلاغي في اختيار "إن" في هذا الجزء من هذا الحديث، يكمن في دلالة "إن" فهي تفيد

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

الاحتمال وعدم اليقين، والشك في وقوع الحدث أو الشرط والجواب.

وواقع الناس واستقبالهم للفتن والأحداث: يؤيد ذلك، لأن كل الناس لا يتركون الفاسدين يعيثون في الأرض فساداً، فبعضهم يقاوم، وبعضهم يداهن، وبعضهم يستسلم، فالأمر ليس يقينياً، لأن الطبيعة البشرية في مقاومتها للشر ليست على وتيرة واحدة.

وكذلك قوله: "وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً"، فالبعض يقوم بواجبه في مقاومة الضلال والفسوق، والبعض يركن إلى السلبية والانعزالية، والبعض يرضى ويستكين لهؤلاء المارقين.

فالتعبير بأداة الشرط "إن" يفصح عن دقة البيان النبوي، وعمق فهم النفس البشرية.

ولذلك لم يختم الحديث بالأمر الجازم، وإنما ختم بالتخيير الذي صور بحركة متقطعة، لا هؤلاء نقبوا، ولا هؤلاء منعوا، فالحديث مبني على محورين، وينتهي بخاتمة مفتوحة تدعو للتوقع وإعمال الفكر، وإثارة الخشية من الغرق والموت وسط مياه من كل الأطراف.

وما أعمق التصوير وما أجمله في هذا الحديث الشريف: إنه مستمد من الصورة القرآنية الفريدة الرائعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم الأخذ على أيدي المفسدين وعدم المجاملة في ترك الحدود وذلك؛ لأن التهاون في هذا الأمر مغبته كبيرة وعاقبته أليمة على الجميع، ولذا فقد اتفق

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

الفقهاء[1] على أنه لا يجوز للإمام التنازل عن الحد ولا إسقاطه بعد وجوبه ولا تجوز الشفاعة في حد من حدود الله أو العفو عنها حالة ثبوتها عند الحاكم، فإن تعافوا فيما بينهم ولم يبلغوا الحاكم فلا بأس في ذلك.

الثاني: حكم العمل بالقرعة وقد اتفق الفقهاء[2] على أن القرعة مشروعة ويعمل بها، وأنه متى تعينت المصلحة في جهة أو ظهر الحق دون خفاء لم يشرع العمل بالقرعة، فإن تساوت الحقوق ولم يظهر وجه الحق جاز العمل بالقرعة كما في القسم بين الزوجات، والقسمة بين الشركاء، وعتق أحد العبيد عند عدم تعيين أحدهم بالذات وغير ذلك، واختلفوا فيما تجري فيه وما لا تجري فيه من الأحكام مما لا مجال لتفصيله هنا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على حدود الله.

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان الأخطار التي تهدد المدعوين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

إن الداعية بحاجة إلى عدد من الأساليب الدعوية، التي يستطيع من خلالها بيان

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢١٢/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٦٣/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٨٧/١، والزواجر عن اقتراف الكبار ٢١١/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣١/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٤/٨، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٨٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٢٠/٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٢٨/٧.

(٢) المبسوط، السرخسي ٤/١٥، والفصول في الأصول للجصاص ٢٠٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٣٤٦/١، ٦٥٣/٢، والمدونة ٤٠٨/٢، وتبصرة الحكام ١١٢/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٥٨/١، والأم ٤/٨، وقواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ٩٠/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٥٠/٦، والطرق الحكمية لابن القيم ص ١٨١، ٢٤٥، والفروع، ابن مفلح ٥٣٥/٥، والقواعد لابن رجب الحنبلي ص ٣٤٨ وما بعدها وفيه حصر لمسائل القرعة في المذهب الحنبلي.

المعاني والمضامين الدعوية التي يريد توضيحها للمدعوين، ولعل من أهم أساليب الدعوة التي لا يستغنى عنها الداعية: أسلوب ضرب المثل، وقد ورد استعمال المثل في القرآن والسنة لبيان المعاني وتقريبها إلى أذهان المدعوين، ومن الشواهد على ذلك في الحديث الذي معنا ما ورد في قوله ﷺ: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم" ولا يخفى أن العقول تتفاوت في الفهم فيأتي أسلوب ضرب المثل الواقعي المحسوس ليقرب المعنى إلى الأذهان، وهذا يعتبر من أساليب الدعوة الهامة، لما له من تأثير حيث تبقى صورته ثابتة في النفس مما يزيد درجة الإقناع لدى المدعوين، وكثيراً ما استخدم القرآن هذا الأسلوب مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾[١] وقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[٢]. والنصوص النبوية كثيرة في ضرب المثل لتقريب المعاني إلى الأفهام.

قال ابن عثيمين: (وفي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ دليل على أنه ينبغي لمعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس، وكم من إنسان تشرح له المعنى شرحاً كثيراً وتردده عليه فلا يفهم، فإذا ضُرِب له مثلٌ بشيء محسوس يعرفه، فهم)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على حدود الله:

إن من الشواهد على أهمية الحفاظ على حدود الله ما ورد في الحديث في قوله ﷺ "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها" ولقد بين الله سبحانه وتعالى أنه يجب الحفاظ على حدود الله قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾[٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾[٥]. وقال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦.

(٢) سورة النور، آية: ٣٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٤٩٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٢].

ولما قام أسامة بن زيد رضي الله عنه يريد أن يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فاختطب فقال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((أقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم))[٤].

ومن خلال هذه النصوص يتبين أهمية الحفاظ على حدود الله وإقامتها.

ثالثاً- من واجبات الداعية: بيان الأخطار التي تهدد المدعوين:

حيث جاء في الحديث: "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً" ولذا فمن ألزم واجبات الداعية بيان الأخطار التي تهدد المدعوين لأن الداعية يجب أن يكون حريصاً على المدعوين. وقد قال الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾[٥]، وفي الحديث الشريف بيّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خطورة عدم المحافظة على المدعوين، ولقد كان شأن الأنبياء دائماً النصح لأقوامهم، قال الله عن صالح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٦].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

---

(١) سورة الطلاق، آية: ١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣، ١٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧٨٨، ومسلم ١٦٨٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢٥٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سن ابن ماجه ٢٠٥٨).

(٥) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٧٩.

إن من أخطر ما يعصف بالمجتمعات والأمم تركَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ويكون سبباً في حلول اللعنة، كما حدث في بني إسرائيل حيث أخبر سبحانه في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[١].

وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله ﷺ "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" قال ابن حجر: (وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها، وفي الحديث استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف وتبيين العالم الحكم بضرب المثل)[٢].

وقال المباركفوري: (ومعنى الحديث: إنْ مَنَع الناسُ الفاسق عن الفسق نجوا ونجا من عذاب الله تعالى، وإن تركوه على فعل المعصية ولم يقيموا عليه الحد، حل بهم العذاب وهلكوا بشؤمه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾[٣] أي بل تصيبكم عامة بسبب مداهنتكم)[٤]. وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من خطورة هذا الأمر فقال: ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم))[٥].

لذا يجب على الداعية تحذير المدعوين وتعريفهم بخطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨-٧٩ .

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٥/٢.

(٥) أخرجه الترمذي، ٢١٦٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٧٦٢).

الحديث رقم (١٨٨)

١٨٨- **الخامِسُ:** عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدٍ بنتِ أَبي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَراءُ فَتَعْرِفُونَ وتنكِرُونَ فَمنْ كَرِه فقدْ بَرِئ ومَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**» قالوا: **يا رَسُولَ اللَّه أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟** قَالَ: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاَةَ**» رواه مسلم[1].

مَعْنَاهُ: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ ولَمْ يَسْتطِعْ إِنْكَاراً بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الإِثْمِ وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ، ومَنْ أَنْكَرَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ المعصيةِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وتابعهم، فَهُوَ العَاصي.

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٣).

الشرح الأدبي

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من واجبات المسلم التي لا يجوز التهاون في التمسك بها؛ وعدم النهى عن المنكر من مسببات العقاب الشديد اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[2].

وهذا الحديث الشريف يعد من معجزات رسول الله ﷺ، لأنه من باب الإخبار عن المغيب، وكل أي "حدث" أخبر به ﷺ، فهو من معجزاته، وقد جمع أنواع المعجزات والخوارق ومنها العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية.

وإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق للعادة، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة، وقد ثبت أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ كما يقول القاضي الباقلاني، في كتابه إعجاز القرآن، إنه كان أميا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب

---

(١) برقم (١٨٥٤/٦٣) وزاد مسلم: (أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه).

(٢) سورة المائدة: ٧٩.

المتقدمين وأقاصيصهم وأبنائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، وقد علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى.

وحين تتأمل المضمون وصياغته في هذا الحديث الشريف تُدرك هذه الحقائق التي أنبأ عنها رسول الله ﷺ، وهى تتمثل في هؤلاء الذين يتولون أمور الناس ورعايتهم، ولكنهم أصموا آذانهم، وأغلقوا عيونهم، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، ورانت على أبصارهم غشاوة، فظلوا سادرين في غيهم، لا يقومون بحق الرعية، ولا يتقون الله في حقوق الناس، ولا يصغون لقول المصطفى ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[(١)]، ولكن كيف تستقبل الأمة هذا المروق.

يبدأ الحديث بالتأكيد وضمير الشأن: إشعاراً بجدية الأمر وأهميته وصدقه وواقعيته، والتعبير بالفعل: "يستعمل" في صيغة الفعل المضارع المبني للمجهول، والمادة اللغوية "عمل" يوحي بوظيفة هذا الأمير وهو العمل لصالح الرعية، ولكن هؤلاء الأمراء: يحيدون عن النهج السوي، ولا يقومون بواجبهم، وكثير منهم، كما أخبر رسول الله أكلوا الحقوق، وظلموا الرعية: وهم يتكررون في كل عصر.. ومنهم ذلك الوالي الذي شكاه الشاعر الراعي النميري، إلى عبدالملك بن مروان، لأنه كان يختلس كثيراً من أموال الزكاة لنفسه، فقال:

خليفة الرحمن إنا معشر ... حنفاء نسجُد بكرةً وأصيلا

عربٌ نرى لله في أموالنا ... حقّ الزكاة منزلاً تنزيلا

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأَتَوْا دواهي لو علمت وغولا

فارفع مظالم عيلت أبناءنا ... عنَّا وأنقذْ شِلْونا المأكولا

وهذا الشاعر، من الذين أنكروا بلسانهم، ورفعوا شكواهم إلى الخليفة، ولم يسكت عن حقه، وتنكير كلمة "أمراء" ترشد إلى عدم التحديد، وتوحي كذلك بتجاهل هذا الصنف الذي لا يراعي الحرمات، ولا يؤدي الحقوق، والإنكار يستلزم

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

الاعتراض باللسان أو باليد، ولكن الكره يعد مرحلة أدنى من ذلك حيث لا يقدر بعض الناس إلا على الشعور بالكره وعدم الرضا عن هؤلاء الأمراء والولاة والعمال، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم.

وفي الحديث: إيجاز بالحذف في كثير من عباراته: فكل فعل له متعلقاته المحذوفة: وهذا الحذف يفتح المجال للتفسيرات المتعددة التي تكمن وتشع في قوله: "تعرفون... وتنكرون، فمن كره... فقد برئ، ومن أنكر... فقد سلم، ومن رضي.. وتابع...".

والخبر في الجملة الثالثة محذوف: لدلالة الحال وسياق الكلام على أن هذا القسم ضد ما أثبته لقسيميه.

والحوار بين الصحابة ورسول الله ﷺ حول هذه القضية يبرهن على وجوب الإنكار، ومجابهة هؤلاء الولاة وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث قال الصحابة: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟

فإذا برسول الله يجيبهم: "لا"، ولكن ذلك يظل مشروطاً بإقامة هؤلاء الأمراء للصلاة، منعاً للفتنة وحرْصاً على توحيد الأمة، ورغبةً في إصلاح أمر هؤلاء، وهذه هي الثمرة المرجوة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب.

ثانياً: من دلائل النبوة: الإخبار عما سيقع في مستقبل الأيام.

ثالثاً: من واجبات المدعو: إنكار المنكر حسب طاقته.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة.

خامساً: من مهام الداعية: التحذير من إثارة الفتن.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والسؤال والجواب:

١- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "إنه" وهذا مما يفيد حدوث الأمر الذي أكّد عليه النبي ﷺ وعلى أهمية الاستجابة لما أمر به النبي ﷺ في هذا

الشأن(١). والتوكيد أهم الوسائل في تثبيت المعنى في القلوب وبثه في النفوس وحملها على التصديق والإيمان به، وهذا الأسلوب من الأشياء التي هديت إليه فطرة الإنسان ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب كوسيلة دعوية تجعل هذا الأمر المؤكد عند المرء عادة مستحكمة في أعماق قلبه ونفسه.

٢- **السؤال والجواب:** لقد جاء في الحديث في سؤال الصحابة رضي الله عنهم: (قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم)؛ ومما هو معلوم أن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية الناجحة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يؤدي إلى وجود الحوار والتفاعل بين الداعية والمدعوين، ويجب على الداعية أن يتسع صدره للإجابة على تساؤلات المدعوين، وتقديم الحلول لمشكلاتهم؛ لأن المدعو حينما يسأل يريد أن يزيل أي لبس أو غموض في نفسه، كما يريد أن يتعرف على آلية التعامل خاصة في القضايا الخطيرة التي قد تترتب عليها الفتن، إن لم تكن المعالم واضحة في أذهان المدعوين حسبما ورد في القرآن والسنة؛ لذا وجب على الداعية أن يبين المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل مع مثل هذه الأمور.

ثانياً- من دلائل النبوة: الإخبار عما سيقع في مستقبل الأيام:

يستنبط ذلك من قول النبي ﷺ في الحديث "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون" قال ابن علان: (أي تجعل الملوك عليكم أمراء عمالاً فتعرفون بعض أعمالهم لموافقتها ما عرف من الشرع وتنكرون بعضها لمخالفتها ذلك، وهذا من باب الإخبار عن المغيب فكان كما أخبر به ﷺ فهو من معجزاته)(٢).

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة تخبر عما سيقع في المستقبل، وهذا من دلائل نبوته فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَا مِنْ نَبِيَ بَعَثَهُ الله فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِم خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني ص ٣٠١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٣٤٩٠.

وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ))[١].

ثالثاً- من واجبات المدعو: إنكار المنكر حسب طاقته:

إن كل مسلم مطالب بإنكار المنكر بالطريقة المشروعة والمناسبة التي لا يترتب عليها منكر أشد، وهذا ما بينه الحديث: (فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم). قال النووي: (معناه من كره ذلك المنكر فقد برئ من إثمه وعقوبته وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه وليبرأ، والإثم والعقوبة على من رضي وتابع، وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه)[٢]. وقد بيّن النبي ﷺ درجات إنكار المنكر ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة:

إن من الشواهد التي تدل على أهمية الصلاة وإقامتها والحفاظ عليها ما جاء في الحديث أنهم لما سألوا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" ولاشك أن الصلاة لها المكانة السامقة في الإسلام فقد أمر الله تعالى بإقامتها فقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٤] وأمر بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[٥] ونبه إلى ضرورة الخشوع فيها فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[٦] وتوعد من يضيعها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ

---

(١) أخرجه مسلم ٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلمو، ١١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٦) سورة المؤمنون، آية: ٢.

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[3]. والصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى والبقاء في حظيرة الإسلام، والانخراط في سلك المؤمنين، وذلك لأن الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف، والطلب، والالتجاء، والاعتصام، والدعاء، والمناجاة لله تعالى[4].

ولقد بين الرسول الكريم فضل الصلاة فقال ﷺ: ((الصَّلاَةُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ. مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))[5] وقال ﷺ: ((مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ. يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ))[6] وحذر الرسول من تركها فقال ﷺ: ((بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة))[7] وقال ﷺ أيضاً: ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ))[8]. والنصوص الشرعية كثيرة ومتعددة في بيان أهمية الصلاة.

خامساً- من مهام الداعية: التحذير من إثارة الفتن:

إن المحافظة على سلامة وأمن المجتمع المسلم مسؤولية عامة يجب أن تتضافر كل الجهود لتحقيقها، خاصة الدعاة إلى الله تعالى، الذين يجب عليهم أن يَحُولُوا دون زعزعة الأمن في المجتمع، ويحثوا المدعوين على أهمية الحفاظ على سلامة المجتمع.

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة المدثر، الآيتان، ٤٢، ٤٣.

(٤) الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة، أبو الحسن الندوي ص ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٦) أخرجه مسلم ٦٦٨.

(٧) أخرجه مسلم ٨٢.

(٨) أخرجه الترمذي، ٢٦٢١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٣).

ومما يؤكد ذلك في الحديث أن النبي ﷺ لما سئل وقيل له: "ألا نقاتلهم؟ قال: لا. ما أقاموا فيكم الصلاة". وهذا نهي لكل مسلم وإبعاد له عن الفتن، ولا يخفى ما في قتال الحاكم من الهرج والمرج وإراقة الدماء. قال الإمام النووي: (وفي الحديث أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام)[١].

وقال ابن عثيمين: (ودل الحديث على أنهم -أي الأمراء- إذا رأينا منهم ما ننكر، فإننا نكره ذلك وننكر عليهم، فإن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر، لأن مقاتلتهم فيها شر كبير، ويفوت بها خير كثير إلا أن النبي ﷺ شرط ذلك بشرط قال: ما أقاموا فيكم الصلاة. فدل ذلك على أنه إذا لم يقيموا الصلاة فإننا نقاتلهم)[٢].

والإنكار على الحكام يكون بالأسلوب الذي يتناسب مع مكانتهم ويحفظ هيبتهم ويعمل على استقطابهم واستجابتهم، ولهذا وجب على الداعية التحذير من إثارة الفتن.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٩٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، ١/ ٥٠٠.

الحديث رقم (١٨٩)

١٨٩- السَّادسُ: عن أُمِّ الْمُؤْمِنِين أُمِّ الْحكَم زَيْنَبَ بِنْتِ جحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعاً يقُولُ: «لا إِلهَ إِلاَّ اللَّه، ويْلٌ لِلْعربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَربَ، فُتحَ الْيَوْمَ مِن ردْمِ يَأْجُوجَ وَمأْجوجَ مِثْلُ هـذِهِ» وَحلَّقَ بأُصْبُعه الإِبْهَامِ والَّتِي تَلِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رسول اللَّه أَنَهلِكُ وفِينَا الصَّالحُونَ؟ قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

زينب بنت جحش: وهي زينب بنت جحش بن رئاب من بني خزيمة، أم المؤمنين وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام وهي أسدية، وكان اسمها برة فلما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها زينب، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث وقيل سنة خمس للهجرة، وكان عمرها وقتئذ خمساً وثلاثين سنة، وكانت قبله عند زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي التي نزل فيها ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾[2].

روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر حديثاً وروى لها الجماعة.

وفي بيان فضلها قال النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه ((أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً))[3] أي أكثركن صدقة فكانت هي وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر عنها ((إنها أوَّاهَةٌ))[4].

كما وصفتها السيدة عائشة رضي الله عنها بالوصف الجميل في قصة الإفك وأن الله عصمها بالورع وقالت عنها يوم أن توفيت لقد ذهبت حميدةً، متعبدةً، مُفْزَع اليتامى والأرامل.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٩)، ومسلم (٢/ ٢٨٨٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٧).

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١١)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (١٠١)، والنسائي، كتاب الزكاة (٥٩).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٩٥/٤).

وكان عطاؤها اثني عشر ألفاً لم تأخذه إلا عاماً واحداً فجعلت تقول اللهم لا يدركني هذا من قابل فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة فبلغ ذلك عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، وكانت رضي الله عنها امرأة صنّاع اليدين، فكانت تدبغ وتَخْرِز وتتصدق به في سبيل الله وكانت كما وصفتها السيدة أم سلمة رضي الله عنها صوامة قوامة.

وكانت رضي الله عنها تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنها بنت عمته، وبأن الله زوجها له وهن زوجهن أولياؤهن.

وهي أول من مات من نساء النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشرين وهي بنت خمسين، وقيل عاشت ثلاثاً وخمسين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع، ويقال هي أول امرأة صنع لها النعش وحملت به من موتى العرب، وكانت الحبشة تحمل به فلما رآه عمر قال: ((نعم خباء الظعينة))[١] رضي الله عنها وعن سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

غريب الألفاظ:

ويل: الوَيْلُ: الحُزن والهلاك والمشَقَّةُ[٢].

الردم: هو السد الذي بناه ذو القرنين - بقطع- الحديد[٣].

الخبث: أي الفسق والفجور[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٨/١٠٩، ١١٠)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٠٦، ٩٠٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥/٤٦٥، ٦٩٥٥)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٩٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٨/٥٣٧)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٦٧٤)، والأعلام، الزركلي (٣/٦٦)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٢/٨٥٢-٨٥٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ي ل).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٧٧.

(٤) المرجع السابق ٢/١٧٧٧.

الشرح الأدبي

ما أجل هذا المشهد وما أعظم تأثيره، إنه مشْهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية المضيئة بالأحداث والمواقف والبطولات والنبوءات؛ هذا المشهد ينقل حواراً بين رسول الله ﷺ وأم المؤمنين زينب بنت جحش، وهى التي تقول زوجني الله من السماء، وكانت تفخر بذلك على نساء رسول الله ﷺ، وللحوار في ختام الحديث مقصد آخر، وهو التنبيه إلى ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى لا يقع الناس فريسة الهلاك والدمار إذا كثر الخبث، حيث لا يمنع من وقوع الهلاك وجود صالحين، وهذا الحديث مثل الحديث السابق يعد من معجزات رسول الله ﷺ حيث أطلعه الله سبحانه على أمور مستقبلية جعل أخبارها، وذِكْرَ أحداثِها على لسانه ﷺ تأييداً لصدق نبوته، ودليلاً على صحة رسالته. وهذه الأحداث بعضها وقع في حياة النبي ﷺ، وبعضها وقع بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعضها يتنبأ بالمستقبل، وستقع بمشيئة الله وإرادته، ومنها: أحداث الفتن المستقبلية، وأحداث قيام الساعة، ومن ذلك التنبؤ بخروج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف نجد الراوي يصور دخول المصطفى ﷺ على أم المؤمنين "فزعاً" يقول: "لا إله إلا الله"، ولا يفزع الرسول إلا لأمر جلل، ونبأ عظيم، والفزع هنا ليس خوفاً على ضياع مال، ولكنه الخوف على ضياع الأمة؛ وشهادة التوحيد التي تفوه بها رسول الله في هذا المقام.. تعيد الاطمئنان إلى كل من يقلقه الخوف، ويقضي مضجعه، "الفزع" وهى دعوة إلى الاحتماء بشرع الله عز وجل وإلى التمسك بعقيدة التوحيد، والعمل بكل مقتضياتها، ومقاصدها: فهى باب النجاة، وهي الطريق إلى الوقوف في ثبات أمام الطغاة، والغزاة؛ وهذا الخطر الجسيم تفصح عنه هذه الصيحة النبوية المنذرة، "ويل للعرب من شر قد اقترب"، والإيقاع الصوتي المتمثل في السجع الجميل يجعل التأثير أقوى وأعمق في النفوس: ولفظ "ويل" يقال في سياق العذاب والهلاك، وقد خُصّ العرب بذلك، لأن القرآن نزل بلغتهم، والرسول عربي، وصحابته عرب غالباً وهم الذين حملوا لواء الدعوة

إلى مشارق الأرض ومغاربها، وعليهم أن يظلوا: في رباط إلى يوم القيامة، وعليهم أن يستعدوا لمواجهة الأخطار، وأن ينبهوا المسلمين في جميع الأقطار، وإشارة الرسول ﷺ إلى "يأجوج ومأجوج"، تعد من سمات البلاغة النبوية: وهى بلاغة الإشارة التي أومأ إليها هند بن أبي هالة في تصوير منطق المصطفى ﷺ حيث يقول: "إذا أشار ... أشار بكفه كلها"، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى.

والإشارة التي تومئ إلى اقتراب يأجوج ومأجوج وتغني عن اللغة تبدو جلية في هذه العبارة، "فتح اليوم ردم من يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها"، أي جعل السبابة في أصل الإبهام وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير، كما جاء في تحفة القاري، والسؤال في ختام الحديث يُجسد حرص الصحابة رضي الله عنهم على النجاة: ولكن الهلاك يكون إذا كثر الخبث.

والخبث: كلمة واحدة ولكنها تتضمن كلَّ سبل الانحراف، ومظاهر الفساد، وطرق الضلال، نسأل الله النجاة والفوز بالجنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله عند الفزع.

ثالثاً: من مهام الداعية: تحذير الناس من الشر.

رابعاً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للناس.

خامساً: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ الإخبار عن بعض المغيبات.

سادساً: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان شؤم المعصية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ:

لقد كان لأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- دور عظيم في الدعوة إلى الله تعالى،

حيث قمن -رضي الله عنهن- ببيان ووصف أحوال النبي ﷺ ليتسنى للأمة الاقتداء به ﷺ، ويتضح هذا من رواية أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً، ولا شك أن هذا يدل على حرصها رضي الله عنها على وصف أحوال النبي ﷺ، وتتبع تصرفاته، وذلك باعتبار أن رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة كما قال الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(١)، وهناك مواطن يكون فيها النبي ﷺ بعيداً عن أصحابه رضي الله عنهم، كأن يكون عند إحدى زوجاته كما وقع في هذا الحديث.

إن ذلك يُسهم في بيان كيفية تعامل النبي ﷺ مع الأمور، وإيضاح عدد من الجوانب التي اضطلعت ببيانها أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- وكثيراً ما سُئلن من أصحاب رسول الله ﷺ عن عدد من الأمور وهديه فيها فأجبن على ذلك، مما أتاح الفرصة للاقتداء به ﷺ في كافة الظروف والأحوال.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله عند الفزع:

إن لذكر الله تعالى فضلاً عظيمًا، فبه تطمئن القلوب، وتغفر الذنوب، ولذا فإن رسول الله ﷺ كان دائم الذكر في كل حال مما يحمل على التأسي به ﷺ، ومن الشواهد على ذلك ما جاء في الحديث في قول زينب بنت جحش رضي الله عنها: (دخل عليها فزعاً وهو يقول: لا إله إلا الله) ولا شك أن ذكر الله أمان عند الفزع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢).

قال ابن عثيمين: (قال النبي: لا إله إلا الله في هذه الحال التي كان فيها فزعاً متغير اللون تثبيتاً للتوحيد، وتطميناً للقلوب لأن التوحيد هو القاعدة التي تبنى عليها جميع الشريعة)(٣)، وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((أَفْضَلُ الذِّكْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهِ. وَأَفْضَلُ

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠١.

الدُّعَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ))[١]، ولا شك أن النصوص القرآنية والنبوية كثيرة في هذا الموضوع، مما يؤكد على أهمية فضل ذكر الله تعالى في كل حال، لا سيما عند الفزع.

ثالثاً- من مهام الداعية: تحذير الناس من الشر:

إن من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية تحذيرَ الناس من الشر، وقد حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من الشر وإنذار الناس، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في هذا الحديث في قوله ﷺ: (ويل للعرب من شر قد اقترب).

قال ابن حجر: (خص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن بعد ذلك، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر، أو يكون المراد الإشارة بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده ﷺ فكثرت الأموال ووقع التنافس الذي جر الفتن)[٢].

وقال ابن علان: "ويل: كلمة تقال عند الحزن، والعرب هم خلاف العجم وخصص بهم لأن معظم مفسدتهم راجع إليهم، والتحذير من شر عظيم قد اقترب زمنه"[٣]، ولذلك قال الله عز وجل محذرًا من الشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٤] فهذا دليل على الوقاية من الأخطار وأخذ الاستعداد لكل خطر من أي شر. ولذا فإن من المهام الأساسية المنوطة بالداعية تحذير المدعوين من الشر وتوجيههم لأسباب الوقاية منه بتقوى الله والعمل الصالح، وإذا علم شراً أو ضرراً أن يحذر الناس منه.

رابعاً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للناس:

إن من الحقائق التي أشار النبي ﷺ إليها في هذا الحديث ما ورد في قوله: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)، ومعلوم أن مهمة النبي ﷺ البيان والبلاغ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٠٦٥).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٥/١٣.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٥٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٧١.

رَّبِّكَ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢]. لقد حرص الرسول ﷺ على إظهار وبيان الحقائق للناس. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فهذا شاهد ظهر منه أن القرآن شهد للنبي ﷺ بأنه إمام الدعاة في إظهار وبيان الحقائق.

قال ابن عثيمين: (لقد بيّن النبي ﷺ هذا الوعيدَ والشرَّ للعرب وهو الذي يحصل بيأجوج ومأجوج وفي إشارته بالسبابة والإبهام ما يعني أنه جزء ضعيف ومع ذلك فإنه يهدد العرب...)[٣]، وقد أشار القرآن إلى إفساد يأجوج ومأجوج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٤]، ويتضح من هذا أن من واجب الداعية بيان الحقائق للمدعوين.

خامساً- من موضوعات الدعوة: من خصوصية النبي ﷺ الإخبار عن بعض المغيبات:

لقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن بعض المغيبات إذ قال: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)، ولا شك أن هذا من خصائص النبي ﷺ، وهذا الإخبار من عند الله سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٥]، وقال النبي ﷺ عن نفسه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[٦]، ولا شك أن إخباره عن أمور ستقع في

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ٩٤.

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٦) سورة الأعراف، آية: ١٨٨.

المستقبل، أو قد وقعت بالفعل يعتبر من دلائل نبوته وخصائصه ﷺ.

سادساً- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

يستفاد هذا من سؤال أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها: يا رسول الله (أنهلك وفينا الصالحون)، قال ابن حجر: (وكأنها فهمت من فتح القَدْر المذكور من الردم أن الأمر إن تمادى على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون، وكان عندها علم أن في خروجهم على الناس إهلاكا عاما لهم)[١]، ولقد وجه القرآن الكريم المسلم أن يسأل عما ينفعه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان شؤم المعصية:

إن مما يستنبط من هذا الحديث بيان شؤم المعصية، وأنها تكون سبباً في الهلاك العام، ويجب التحذير من جملة المعاصي كبيرها وصغيرها لتكون زاجرة عن اقتحام حمى المعاصي والآثام الموجبة للهلاك والبعد والطرد عن دار السلام، وللخزي والهوان والذلة والخسران والبوار والدمار والوبال والعثار لا سيما في دار القرار[٣]. ومن الشواهد على ذلك ما قاله النبي ﷺ بعد أن سئل: (أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم. إذا كثر الخبث).

قال ابن عثيمين: (الصالح لا يهلك وإنما هو سالم ناج لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٤]، والخبث هنا يراد به شيئان: الأعمال الخبيثة والبشر الخبيث فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فإنهم عرضوا أنفسهم للهلاك وإذا كثر فيهم الكفار فقد عرضوا أنفسهم للهلاك أيضاً)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/١٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ص ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٠٢/١.

وقال النووي: (الخبث فسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً، والمعنى أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام، وإن كان هناك صالحون)[١]، وفي هذا ما يدل على شؤم المعصية وأنها سبب في الهلاك، وبشؤم المعصية يعم الهلاك الصالحَ والطالحَ. وكتب عمر بن عبدالعزيز لبعض عماله محذرًا من شؤم المعصية ومفاسدها: قال: (أما بعد فإذا مكنك الله القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تفعل بهم أمرًا من الظلم إلا كان زائلاً عنهم - أي بموتهم- باقيًا عليك -أي عاره وناره- في الآخرة)[٢].

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٢.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ص ٢٣.

الحديث رقم (١٩٠)

١٩٠- **السَّابعُ:** عنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﵁ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ فِي الطرُقَاتِ**» فقَالُوا: يَا رسَولَ اللَّه مَا لَنَا مِنْ مَجالِسنَا بُدٌّ، نَتحدَّثُ فِيهَا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِس، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**» قالوا: ومَا حَقُّ الطَّرِيقِ يا رسولَ اللَّه؟ قال: «**غَضُّ الْبَصَر، وكَفُّ الأَذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بالْمعْروفِ، والنَّهْيُ عنِ الْمُنْكَرَ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

بُدٌّ: عوض أو مفر[2].

الشرح الأدبي

إن للمكان في الإسلام حُرْمة وقيمة يجب أن لا يستهين بها المسلم، والطرقات أماكن عامة يرتادها الجميع، وهي صورة للحياة الواقعية: حيث لا تنتهي حركة الأحياء، ولا يسكن إيقاع الحياة، فالناس يجيئون ويذهبون، ويغْدون ويَرُوحُون، يَسْعَون على أرزاقهم، ويقضون حوائجهم، فالطرقات معابر السالكين، يجب أن تُصان حرماتُها، وأن تُؤدي حقوقُها، ولذلك في هذا الحديث الشريف يحذر الرسول ﷺ أصحابه، ويحذر كل مسلم من الجلوس في الطرقات لأنها تجر إلى الحرام من الفتنة بالمارات، وإلحاق الأذى بالمارين، والسكوت عن المنكر، وعدم الأمر بالمعروف[3].

والجلوسُ بلا عمل، مفْسدَة ومضيعة للأمل، وانهزام أمام إغراءات العابثين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١/١١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٠٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٢٥).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب د د).

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات: د. عبدالعال أحمد عبدالعال. ج٣.

واستجابةٌ لهمزات الشياطين، وتعطيل للقوى الإنسانية، وتكاسل عن الإنجازات الفردية والجماعية.

فالحديثُ من التوجيهات النبوية الرشيدة، والدروس الاجتماعية السديدة، ولذا قال: عبدالله بن الزبير، المجالسُ حِلَقُ الشيطان إن يروا حقاً لا يقومون به، وإن يروا باطلاً لا يدفعونه.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي، والبناء اللغوي في هذا البيان النبوي الذي يرشد كل أفراد الأمة إلى جمال السلوك، وحُسْن التصرف، ومراعاة حقوق الآخرين، والأخذ على يد اللاهين والعابثين؛ واتساقاً للمبني مع المعنى يبدأ المصطفى ﷺ الحديث بأسلوب التحذير، وهو من أساليب اللغة التي تأتي في سياق التنبيه على أمر مكروه لاجتنابه والابتعاد عنه، فالصيغة اللغوية تتفق مع الدلالة والفكرة النابعة من توجيهات المصطفى ﷺ حيث يقول: "إياكم والجلوس في الطرقات".

وهذه الصيغة اللغوية أدق في توصيل المعنى من أي صيغة أخرى مثل أن يقال: لا تجلسوا في الطرقات، والخطاب هنا للصحابة وللجماعة المسلمة كلها في أي زمان وفي أي مكان. ومجئ الضمير منفصلاً وهو معمول لفعل محذوف تقديره احذروا تلاقي أنفسكم والجلوس على الطرقات.

والحوار من وسائل الجدال بالتي هي أحسن وهو من سمات البيان النبوي حيث يعلّم الرسول ﷺ أصحابه رضي الله عنهم عن طريق الحوار والسؤال والجواب حتى يستجيب الناس وهم على بصيرة من أمرهم، وفقه في دينهم، واطمئنان لسلوكهم، ومن خلال الحوار تبين للصحابة أن النهى هنا والتحذير ليس على جهة التحريم، وإنما هو للتنزيه، ولذلك حينما قال الصحابة ما لنا بدٌّ: إنما هي مجالسنا نتحدَّث فيها، سمح لهم رسول الله ﷺ بشرط أن يعطوا الطريق حقها، وهذا السماح تحصنه الصياغة اللغوية حيث تجمع بين أسلوبين لغويين هما أسلوب الاستثناء وأسلوب الشرط، وفي ذلك إيحاء بأن الأمر ليس هيناً، وأن هذا السماح محفوف بالمكاره، ومقيد بالشروط التي يجب

تَنْفيذها، "فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه"، أي إذا امتنعتم عن الجلوس إلا في مجالس الطريق ... إلخ، وما أجمل هذه السلوكيات التي يأمر بها رسول الله، وينهى عن سلوكيات أخرى غير جميلة "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر"، وهذه الجمل يوشيها التناسق والتوازن في بنائها اللغوي، فهي كلها مصادر مضافة إلى ما بعدها، وكأن هذا التناسق صورة لتوازن سلوك المؤمن، وتناسق أفعاله، والعدول عن صيغ الأمر في هذه الخصال التي هي حق الطريق إلى صيغة المصدر وهى: غض، وكف، ورد، والأمر، والنهى، إيحاء بأن هذه السلوكيات من ينابيع شخصية المسلم، ومن مصادر شخصيته المتوازنة.

فقه الحديث

إن أمر المسلم كله ينبغي أن يكون مبنياً على فعل الخير وحب الخير للغير والبعد عما يغضب الله عز وجل، والطريق جعلت لمصالح الناس فلا ينبغي لأحد أن يتخذها مجالس للاطلاع على العيوب، وتتبع العورات، واغتياب الناس.

فإن أبى البعض إلا أن يجلس على الطريق فليعط الطريق حقها من غض البصر وكف الأذى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يبعد أذاه عن الطريق.

وقد اهتم الفقهاء[1] بالأحكام المتعلقة بالطريق فقالوا بحرمة البول على الطرق التي يمر بها الناس، وكذا نهوا عن حفر الآبار أو إنشاء الأشرعة التي تضر بالمارة ومن فعل ذلك كان عليه إزالة ما فعل، وإن تضرر أحد من فعله كان عليه الضمان، وغير ذلك من أحكام. ولقد اهتم بذلك باب الصلح في الفقه الإسلامي.

---

(١) انظر في ذلك مثلاً: المبسوط، السرخسي ٢٠٠/٢٣، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٧/٥، والمدونة لمالك ٦٦٥/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٧/١، ٣٤٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٦١/٤، والأم للشافعي ٣٠٦/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٢، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٣١١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٢٩/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٣٠٣/٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير، والسؤال والجواب.

ثانياً: من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم.

ثالثاً: من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الطريق.

أولاً- من أساليب الدعوة: التحذير، والسؤال والجواب:

١- **التحذير:** لقد ورد التحذير في قول النبي ﷺ: إياكم والجلوس، وهي صيغة وأسلوب تحذير، ومما هو معلوم أن التحذير أسلوب دعوي يستخدمه الداعية، لبيان خطورة أمر من الأمور حتى يتنبه المدعو، وينتهي عن إتيان ما حُذر منه، ويستخدم هذا ويعرف خطورة المحذر منه، قال ابن عثيمين: (هذه الصيغة صيغة تحذير يعني: أحذركم من الجلوس على الطرقات، وذلك؛ لأن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى كشف العورات، وربما يفضي إلى الكلام والغيبة فيمن يمر، ولذا حذرهم من الجلوس)[١].

٢- **السؤال والجواب:** لقد وردت تلك الصيغة في هذا الحديث في سؤال الصحابة رضي الله عنهم: "وما حق الطريق؟" ويعتبر أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة إذ يعين المدعو على فهم المقصود والمراد، وهو كذلك يدلل على تفاعل المدعو مع الداعية والسؤال في الشرع محمود، ويُعد من المؤشرات الإيجابية التي تبرهن على مدى استعداد المدعو للاستفادة من الداعية، طالما كان السؤال مشروعاً، والمدعو ليس لديه عناد أو مكابرة أو هوى. ولهذه الوسيلة قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لسبب أو أكثر[٢].

ثانياً- من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن الداعية يجب أن يكون حريصاً على المدعوين، وعلى تقديم النفع لهم، ودفع ما

---

(١) شرح رياض الصالحين ٥٠٢/١.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٥٨ بتصرف.

يضرّ بهم، وفي الحديث ما يؤكد على اهتمام النبي ﷺ بالمدعوين؛ لأنه لما رأى أن في الجلوس في الطرقات قد تحدث مفاسد شرعية حذر المدعوين من هذا الضرر ونهاهم عن الجلوس، ولما بينوا أنهم لا يستطيعون تركها أرشدهم إلى حق الطريق، قال ابن علان: (وقوله: إياكم تحذير والنهي للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وفي قوله فأعطوا الطريق حقه إشارة إلى تأكيد تلك الأمور والاهتمام بها)(١). لما فيها من آداب يجب أداءُها من غض للبصر وامتناع عن أذى المارة وإكرام المارة برد السلام وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

ولقد كان دَيْدَنُ أنبياء الله تحذير أقوامهم من عواقب الأمور فجاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾(٢) وجاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ مُّحِيطٍ﴾(٣) وهكذا يجب أن يكون حال الداعية دائماً يحذر المدعوين مما يضرهم، ويشفق عليهم من المعاصي ومن عقوبتها.

ثالثاً- من واجبات المدعو: السؤال عما يخفى عليه:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حريصين على معرفة أمور دينهم والعمل بما يعلمونه، ولذلك يجب على المسؤول أن يتسع صدره للأسئلة والإجابة عليها وللمناقشة البناءة المنصفة، لأن السائل يريد اكتساب المعرفة وفهم ما عليه(٤). ولذا فإنه لما أمرهم النبي ﷺ بأن يعطوا الطريق حقه قالوا: "وما حق الطريق يا رسول الله" وهذا مما يجب على المدعو أن يسأل عما يجهل من أمور الشرع وقد أمر الله بذلك في القرآن، قال

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ٣٥١.

(٢) سورة هود، آية: ٦٤.

(٣) سورة هود، آية: ٨٤.

(٤) فقه الدعوة إلى الله ٤٨، ٥٨.

تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] ومن المواقف التي أنكر فيها الرسول ﷺ عدم السؤال ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخْبِر بذلك فقال: ((قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال))[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان حقوق الطريق:

لقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث حقوق الطريق فقال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر). وهذه الحقوق لها شواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية.

١- غض البصر: وقد جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٣] وحذر النبي من إطلاق النظر فقال لعلي رضي الله عنه ((لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة))[٤].

٢- كف الأذى: حيث قال رسول الله ﷺ ((الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله))[٥]. ولما قال أبو برزة يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به قال: ((أمط الأذىٰ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ))[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٣) سورة النور، آية: ٣٠، ٣١.

(٤) أخرجه أبو داود ٢١٤٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٨١).

(٥) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦١٨.

٣- رد السلام: وقد جاء توجيه القرآن في ذلك ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾(١) وجعل الرسول الكريم رد السلام من حقوق المسلم ففي الحديث حق المسلم على المسلم خمس: ((ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))(٢).

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقد جاء الأمر به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣) وذم تاركيه فقال جلّ شأنه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٤) ووجه النبي ﷺ أمته إلى الالتزام به فقال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))(٥).

قال النووي معلقاً على هذه الحقوق: (هذا الحديث كثير الفوائد وهو من الأحاديث الجامعة وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يجتنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث، ويدخل في كف الأذى اجتناب الغيبة وسوء الظن، وإحقار بعض المارين وتضييق الطريق وكذا إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارون أو يخافون منهم ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك لكونهم لا يجدون طريقاً إلا ذلك الموضع)(٦).

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٥) أخرجه مسلم ٤٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٣٧.

الحديث رقم (١٩١)

١٩١- الثَّامنُ: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ اللّه ﷺ رأى خَاتماً مِنْ ذَهَبٍ في يَد رَجُلٍ[١]، فَنَزعَهُ فطَرَحَهُ وقَال: «يَعْمَدُ أحَدُكُمْ إلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيجْعلها في يَدِهِ» فَقِيل لِلرَّجُل بَعْدَ مَا ذَهَبَ رسولُ اللّه ﷺ: خُذْ خَاتمَكَ، انتَفعْ بِهِ. قَالَ: لا واللّه لا آخُذُهُ أبَداً، وقَدْ طَرحهُ رسول اللّه ﷺ. رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

فطرحه: أي ألقاه[٣].

الجمرة: القطعة الملتهبة من النار[٤].

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الدَّرْس الواقعي النبيل، وما أجمل هذا التوجيه النبوي الجليل، ومن يَقْدرُ على تغيير المنكر باليد غير مَنْ لا ينطق عن الهوى، ومَنْ أكثر إقناعاً من رسول الله ﷺ.

ومن أشدّ صرامةً من رسول الله في إقامة الحدود، وإقرار الحقوق، وإزالة المنكرات، وإطفاء الشبهات، وهذا الحديث لا يشرق فيه الحوار بين رسول الله والذين معه في هذا الحدث المخالف.

لأن ما رآه المصطفى المختار، لا يناسبه الحوار ولا يجدى معه الاختبار، فلبس الذهب حرام على الرجال: حلال للنساء، وكما قال العلماء: "لا اجتهاد مع النص".

---

(١) عن الدمياطي، أنه طلحة بن عبيد الله. تنبيه المعلم (٨٧٥).

(٢) برقم (٥٢/ ٢٠٩٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٤٨).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٥٣.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٣٤.

ولذلك يبدأ الحديث بالفعل "رأى" أي شاهد وتحقق، ولم يقل سمع أو علم، وإنما لا بد من التبين والتثبيت، ويؤيد ذلك نص الحديث السابق، من رأى منكم منكراً... الحديث، فالظن ليس معياراً للحكم وتحديد الخاتم بأنه من ذهب في يد رجل لتحديد علة التحريم وسبب الحكم، فالنهي ليس عن لبس الخاتم، وإنما النهي عن نوعية الخاتم، ولذلك حدد الذهب، لأنه حرام، إذا جَعَلَه الرجل زينة له، والصياغة اللغوية تفصح عن سرعة تغيير الرسول ﷺ لهذا المنكر: حيث جاء العطف بالفاء مرتين في قول الراوي، "فنزعه فطرحه"، ولم يترك الرسول ﷺ للرجل مساحة من الاختيار أو الاستجابة، ولم يقل: "انزعه"، لأنَّ الأمر حدوث للفعل في المستقبل، ويمكن للرجل أن لا يستجيب أو يتلكأ في تنفيذ الأمر، ولنتأمل كيف جاء اعتراض الرسول على هذا السلوك الذي لا يليق بالرجال، ولا يُنبئ عن الكمال والجمال، إن الرسول ﷺ، لم يردف قيامه بنزع الخاتم وطرْحه بالأوامر والنواهي، ولكنْه عمد إلى توصيف الحدث والتنفير منه في إطار مغلف بالتعريض والسخرية والترهيب، والتصوير الأدبي الدقيق: فالخاتمُ جمرةٌ من نارٍ يعْمَد بعض الناس إلى جعلها في يده، وليس هناك أبلغ من هذه الصورة في نقل الإحساس بفداحة الجرمُ، ولذْع الإحساس بالذنب، وهل هناك من يستطيع تحمل وضْع جَمْرةٍ من نار في يده، واكتفى المصطفى ﷺ بهذه الصورة ليتعظ كل من تراوده نفسه وتدفعه إلى ارتكاب مثل هذه الحماقات المترفة، وقيل: هذا الكلام على الحقيقة حيث قالوا: بأن هذا الخاتم نار في الآخرة، وقيل: إنه محمول على المجاز: أي يئول بلابسه لعظم إثمه على أن يجعل النار في محله، لأن الجزاء يكون على قدر الذنب، وحسبه، والتعبير بقوله: "فيجعلها في يده" المراد به في أصبعه.

وفيه مجاز مرسل حيث أطلق الكل وأراد الجزء؛ وبناء الفعل للمجهول في قوله. "فقيل للرجل" لأن الأهم هو الحكم الصحيح في هذه المسألة، والمقول له يمكن أن يكون أنموذجاً لكل من يقدم على مثل هذا السلوك، وتكرر فعل الأمر مرتين في قولهم: "خذ خاتمك: انتفع به" للدلالة على أن النهي ليس عن الخاتم بعينه، ولكن النهي عن لبس الرجال للذهب، ولكن يمكن الانتفاع به، وبملايين الخواتم التي يعطل الناس

قيمتها الاقتصادية والاستثمارية، وتظل مجمدة في أيديهم، ودورتها الاقتصادية معطلة، ويمكن أن تعود هذه القيمة بالنفع على الفقراء، وعلى الدولة في كل مرافقها، وهذه قيمة حضارية يعلي من شأنها الإسلام، وختام الحديث يفصح عن حرص الصحابي على التأسي بأمر رسول الله ﷺ وهذه مبالغة في امتثال أمر النبي ﷺ ومن حق المسلم الانتفاع بالذهب في كل آفاق حياته العامة التي ينتفع بها جميع الناس إلا ما ورد النهي عن الانتفاع به فيه فليس له أن يبرر الانتفاع به.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث حكم لبس الذهب بالنسبة للرجال وهو حديث صريح في الحرمة هنا وقد أجمع الفقهاء على حرمة ذلك على الرجال[(١)]، لكن:

-نقل ابن حجر قولٌ: بأنه مكروه للرجال كراهة تنزيهية، لكن قال بأن هذا القول انقرض واستقر الإجماع بعده على التحريم[(٢)].

-قال أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم بالإباحة! لكن هذا القول "شاذ" أو أنه لم يصله إخبار السنة بالحرمة؛ لأن الناس مجمعون بعده على خلاف قوله وهذا القول ذكره ابن حجر في الفتح[(٣)].

-أما عن جواز اتخاذ فص ذهب في الخاتم: جمهور الفقهاء على أنه يحرم من جملة تحريم الذهب اتخاذ فص ذهب، لكن ما نقل عن أحمد والحنفية في جواز ذلك ظاهره الجواز لكنه خطأ؛ لأنهم قالوا بالجواز في الجواهر الثمينة وليس الذهب[(٤)] والحنفية قالوا ليس الذهب الخالص بل المخلوط بغيره كالطرز[(٥)].

- أما النساء فيحل لهن التختم بالذهب ولبس الحرير.

---

(١) الإجماع لابن عبدالبر ص ٣٥٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣١٧/١٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥١/١، والفروع، ابن مفلح ٤٦٧/٢، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٩٤/٢.

(٥) الإجماع، ابن عبدالبر ص ٣٥٣، والعناية شرح الهداية ٢٤/١٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: الانتباه إلى أحوال المدعوين.

ثانياً: من مهام الداعية: إنكار المنكر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تغيير المنكر باليد.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: تحريم خاتم الذهب على الرجال.

خامساً: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة ﭫ لأوامر النبي ﷺ.

سادساً: من أساليب الدعوة: بيان الحكمة والترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: الانتباه إلى أحوال المدعوين:

كما أن المدعوين تكون أعينهم معلقة بالداعية تراقب أحواله وتصرفاته وشؤونه، فإن على الداعية من ناحية أخرى أن يكون منتبهاً غير غافل عن أحوال المدعوين، ذلك ليقوّم ما يحتاج إلى تقويم ويقرّ ما هو صحيح وصواب، ويفعل كما فعل النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره، فعندما رأى النبي ﷺ الرجل يلبس خاتماً من ذهب، فنزعه منه وألقاه، لذا كان على الداعية أن ينتبه إلى أحوال المدعوين حتى يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد كان النبي ﷺ يعرف ما يصلح المدعوين ويهديهم إلى طريق الحق والرشاد، ومن المواقف ذات الدلالة البليغة على ذلك ما رواه سلمان الفارسي ﷺ في قصة إسلامه الطويلة، وفيها: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان[1] له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف إني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: تحوّل، فتحوّلت،

---

(١) الشملة: شُقّة من الثياب ذات خَمْل يتوشح بها ويتلفع، وكساء من صوف أو شعر يتغطى به ويلتف به. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش م ل).

فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[١].

ومن أبلغ الأدلة على انتباه الداعية لأحوال المدعوين ما روته صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَكِفاً. فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً. فَحَدَّثْتُهُ. ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ. فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي. وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ. فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ. فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((عَلَى رِسْلِكُمَا. إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ)) فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ. وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرّاً)) أَوْ قَالَ: ((شَيْئاً))[٢].

قال النووي: (الحديث فيه فوائد منها بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[٣]، فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكان، فإن ظنّ السوْء بالأنبياء كفر بالإجماع والكبائر غير جائزة عليهم، وفيه أن من ظن شيئاً من نحو هذا بالنبي ﷺ كفر)[٤].

ثانياً- من مهام الداعية: إنكار المنكر:

على الداعية أن يبادر إلى إنكار المنكر، فقد نزع النبي ﷺ خاتم الذهب من يد الرجل وألقاه، وهذا ما فعله النبي ﷺ فكان ذلك منه ﷺ إنكاراً لهذا المنكر.

وقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٥]، أي: ولتكن منكم -أيها المؤمنون- جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وهو الدعوة إلى الإسلام وشرائعه وتنهى عن المنكر، وهو كل ما

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٣/٥ رقم ٢٣٧٣٧، وقال محققوه: إسناده حسن ا. هـ. وقد ذكروا من أخرجه من المحدثين فلينظر هناك ١٤٦/٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٣٥، ومسلم ٢١٧٥.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦١.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

خالف هدي النبي ﷺ وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم"[١]، وقد قال النبي ﷺ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قالوا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((للَّه وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[٢].

قال النووي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم... وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص)[٣].

وإن إنكار المنكر هو الذي يحفظ على المجتمع قيمه وأخلاقه ومبادئه السليمة الصحيحة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: تغيير المنكر باليد:

إن المنكر يجب أن يغير ويزال، وما دام في الإمكان تغييره باليد فإنه يغير بشرط ألا يترتب على ذلك مفسدة أكبر منه، وهذا واضح من الحديث، فقد نزع النبي ﷺ خاتم الذهب من يد الرجل، قال النووي: (فيه إزالة المنكر باليد لمن قدر عليها)[٤].

وقال ابن هبيرة: (فيه دليل على أن من رأى منكراً في يد شخص جاز له نزع المنكر من يده، وإنما استجاز طرحه من مكان لا يعدم ملتقطاً ينتفع به، إذا لو كان رميه إياه في مضيعة لا يراه آدمي أو في بحر لا يمكن استخلاصه لم يجز لأنه مال، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال)[٥].

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٢/٣. أما نهي النبي ﷺ عن إضاعة المال، فأخرج البخاري ٥٩٧٥، ومسلم ٥٩٣ من حديث المغيرة بن شعبة مرفوعاً: (إنّ اللهَ حرّم عليكم عُقوقَ الأُمّهاتِ، ووَأْدَ البناتِ، ومَنَعَ وهاتِ. وكرِهَ لكم قيلَ وقال، وكَثْرَةَ السّؤالِ، وإضاعةَ المالِ).

وقد جاءت النصوص بإنكار المنكر باليد لمن قدر على ذلك.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[1].

(أي: وتا الله لأمكرن بأصنامكم وأكسرها بعد أن تتولوا عنها ذاهبين، فحطم إبراهيم الأصنام وجعلها قطعاً صغيرة وترك كبيرها كي يرجع القوم إليه ويسألوه فيتبين عجزهم وضلالهم وتقوم الحجة عليهم)[2].

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمِرْبَدِ[3] فَخَرَجْتُ مَعَهُ فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَتَأَخَّرْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنْتُ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَتَنَحَّيْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِرْبَدَ فَإِذَا بِأَزْقَاقٍ[4] عَلَى الْمِرْبَدِ فِيهَا خَمْرٌ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُدْيَةِ[5] قَالَ وَمَا عَرَفْتُ الْمُدْيَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ - فَأَمَرَ بِالزِّقَاقِ فَشُقَّتْ ثُمَّ قَالَ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا وَسَاقِيهَا وَبَائِعُهَا وَمُبْتَاعُهَا وَحَامِلُهَا وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا وَآكِلُ ثَمَنِهَا))[6].

فعلى من يقدر على تغيير المنكر باليد أن يبادر إلى ذلك بشرط ألا يؤدي تغييره المنكر إلى ارتكاب منكر أشد.

قال ابن عثيمين: (معلوم أن هناك فرقاً بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين تغيير المنكر، لأن تغيير المنكر يكون من ذي سلطة قادر، مثل الأمير ومن جعل له

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: ٥٧ - ٥٨.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٣) الْمِرْبَد: قال السندي: بكسر ميم وفتح باء، موضع يجعل فيه التمر لينشف، ومربد الغنم: موضع على ميلين من المدينة، حاشية السندي على مسند أحمد ٢٨٩/٩ - ٢٩٠.

(٤) بِأَزْقَاقٍ: جمع زق - بكسر فتشديد: السقاء. حاشية السندي.

(٥) الْمُدْيَةِ: بالضم والكسر، وقيل: بتثليث الميم. هي السكين، حاشية السندي.

(٦) أخرجه أحمد ٧/٢ رقم ٥٣٩٠ وقال محققوه: حديث حسن والمرفوع منه صحيح بطرقه وشواهده ٢١٨/٩.

تغييره، ومثل الرجل في أهل بيته، والمرأة في بيتها وما أشبه ذلك، فهذا له السلطة أن يغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، أما الأمر فهو واجب بكل حال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بكل حال، لأنه ليس فيه تغيير، بل فيه أمر بالخير ونهي عن الشر، وفيه أيضاً دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: تحريم خاتم الذهب على الرجال:

إن لبس الذهب حرام على الرجال، وذلك لأن النبي ﷺ قد نزع خاتم الذهب من يد الرجل وطرحه، وقال: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار..." قال النووي: (فيه تصريح بأن النهي عن خاتم الذهب للتحريم)[2].

وقال ابن هبيرة: (في هذاالحديث من الفقه: تحريم خاتم الذهب)[3].

وقد جاءت أحاديث كثيرة بتحريم لبس الذهب على الذكور، من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ أَخَذَ حَرِيراً فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَباً فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ، ثُمَّ قال: إنَّ هذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي))[4].

قال النووي: (أجمع المسلمون على إباحة خاتم الذهب للنساء، وأجمعوا على تحريمه على الرجال...)[5].

والمسلم أمام الأحكام الشرعية يسلّم بها ويمتثل ويذعن لها ويخضع سواء علم الحكمة من ورائها أو لم يعلم، فهناك نوع من الأحكام الشرعية يطلق عليها التعبديات وهي -كما جاء في الموسوعة الفقهية-: (الأحكام الشرعية التي لا يظهر للعباد في تشريعها حكمة غير مجرد التعبد، أي التكليف بها، لاختبار عبودية العبد، فإن أطاع

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣/٢٣٢.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤٢٢).

(٥) الإجماع لابن عبدالبر ص ٣٥٣، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٣٢٩ - ٣٣٠.

أثيب وإن عصى عوقب، والمراد بالحكمة هنا: مصلحة العبد من المحافظة على نفسه أو عرضه أو دينه أو ماله أو عقله. أما مصلحته الأخروية -من دخول جنة الله تعالى والخلاص من عذابه- فهي ملازمة لتلبية كل أمر أو نهي، تعبدياً كان أو غيره... هذا وقد اختلف الفقهاء في أن التعبديات شرعت لنا لحكمة يعلمها الله تعالى وخفيت علينا، أو أنها شرعت لا لحكمة أصلاً غير مجرد تعبد الله للعباد واستدعائه الامتثال منهم، اختباراً لطاعة العبد لمجرد الأمر والنهي من غير أن يعرف وجه المصلحة فيما يعمل، بمنزلة سيد أراد أن يختبر عبيده وأيهم أطوع له، فأمرهم بالتسابق إلى لمس حجر، أو الالتفات يميناً أو يساراً مما لا مصلحة فيه غير مجرد الطاعة، قال ابن عابدين نقلاً عن الحلية: أكثر العلماء على القول الأول، وهو المتجه بدلالة استقراء تكاليف الله تعالى على كونها جالبة للمصالح وارئة للمفاسد)[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأوامر النبي ﷺ:

إنما بعث الله محمداً ﷺ ليطاع، فمن أطاعه فاز ومن عصاه خسر، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على امتثال أوامر النبي ﷺ، ذلك واضح في قول الراوي: فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ".

قال النووي: (فيه المبالغة في امتثال أمر رسول الله ﷺ واجتناب نهيه وعدم الترخص فيه بالتأويلات الضعيفة)[٢].

قال ابن عثيمين: (من فوائد هذا الحديث أيضاً: بيان كمال صدق الصحابة رضي الله عنهم في إيمانهم، فإن هذا الرجل لما قيل له: خُذ خاتمك انتفع به، قال: لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ، وذلك من كمال إيمانه رضي الله عنه، ولو كان ضعيف الإيمان لأخذه وانتفع به، ببيع أو إعطائه أهله أو ما أشبه ذلك)[٣].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢/٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٢٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٠٧.

وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة تبين امتثال الصحابة ﷺ لأوامر النبي ﷺ، من ذلك ما حدث في غزوة الأحزاب، فقد أمر النبي ﷺ حذيفة ﷺ أن يأتيه بخبر المشركين، فقال: ((اذْهَبْ. فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ))[١]، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ[٢]، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ. فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ[٣]، فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ الْقَوْسِ[٤]، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللّهِ: ((وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ)) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ. فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ، قُرِرْتُ[٥]. فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللّهِ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا[٦].

وعن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ﷺ قال: (كان للعباس ﷺ ميزاب على طريق عمر بن الخطاب ﷺ فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذُبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب صبّ ماء بدم الفرخين، فأصاب عمر، وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلّى بالناس، فأتاه العباس، فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ، فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، ففعل ذلك العباس ﷺ)[٧].

---

(١) أي: لا تفزعهم علي ولا تحركهم عليّ، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً عليّ لأنك رسولي وصاحبي، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٢) أي: لم يجد البرد الذي يجده الناس، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٣) أي: يدفئه ويدنيه منها، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٤) مقبضها، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٧.

(٥) هو بضم القاف وكسر الراء، أي: بردت، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٧) أخرجه أحمد ١/٢١٠ رقم ١٧٨٩، وقال محققو المسند: حسن ٣/٣٠٩.

سادساً- من أساليب الدعوة: بيان الحكمة والترهيب:

أما بيان الحكمة فواضح من قول النبي ﷺ: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار..." فقد بين النبي ﷺ سبب نزع الخاتم من الذهب وإلقائه وطرحه، وهذا البيان يثبت في النفوس الحكمة ويجعلها تزداد اقتناعاً به على اقتناع وامتثالاً على امتثال، وأما الترهيب فوصف خاتم الذهب بأنه جمرة من نار، فبين ﷺ عاقبة التختم بالذهب والجزاء على ذلك، وفي هذا تخويف لمن فعل فيقلع ويكف، ولمن لم يفعل فيمتثل ويبتعد ولا يقدم على ذلك.

الحديث رقم (١٩٢)

١٩٢- **التَّاسِعُ**: عَنْ أَبِي سعيدٍ الْحسنِ البصْرِي أَنَّ عَائِذَ بن عمْرٍو ﷺ دخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بن زيَادٍ فَقَالَ: أَيْ بنيَّ، إِنِّي سمِعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقولُ: «**إِنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الْحُطَمَةُ**» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنت مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقال: وهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيرِهِمْ، رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عائذ بن عمرو: وهو عائذ بن عمرو بن هلال بن عبيد بن يزيد المزني، يكنى أبا هُبيرة البصري.

له صحبة، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر الصديق، روى له الثلاثة، البخاري ومسلم والنسائي، له في البخاري حديث موقوف عليه وفي مسلم حديثان، شاركهما عنه النسائي، شهد بيعة الرضوان، وجاهد مع رسول الله ﷺ أصيب يوم خيبر، فدعا له رسول الله ﷺ وشفي ببركة رسول الله ﷺ فعنه أنه قال ((أصابتني رمية وأنا أقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم خيبر في وجهي فسالت الدماء على وجهي ولحيتي وصدري إلى ثُندُوتَيَّ[2] دعا لي، قال الراوي: فكان عائذ يخبرنا بذلك، فلما هلك غسلناه، نظرنا إلى ما كان يَصِفُ لنا من أثر يد رسول الله ﷺ إلى مُنتهى ما كان يقول لنا من صدره، فإذا غُرَّةٌ سائلةٌ كغُرة الفرس))[3].

وكان ﷺ من صالحي الصحابة، بالغ الكرم والعطاء فذُكر أنه زَوَّج في غَدَاةٍ واحدة أربعين رجلاً من مُزَينة - قومه- كل امرأة على ألف، كما كان بعيداً كل البعد عن إيذاء غيره فذكر ابن حجر أنه كان لا يُخرج من داره ماءً إلى طريقٍ من ماء

---

(١) برقم (١٨٣٠/٢٣).

(٢) الثُندُوتان للرجل كالثديين للمرأة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ن د).

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٤١٢/٩)؟.

سماءٍ ولا غيره، فرؤى له أنه في الجنة فقيل بم؟ قال: بكفه أذاه عن المسلمين، وكان قد سئل عن ذلك في حياته فقال: لأن أصب طستي في حجرتي أحب إليّ من أن أصبه في طريق المسلمين، وكان قد سكن البصرة، وابتنى بها، ومات بها وقبره في البصرة معروف، مات سنة (٦١) في إمارة عبيدالله بن زياد أيام يزيد بن معاوية، وصلى عليه (أبو بَرْزة الأسلميُّ) وكان قد أوصى بذلك لئلا يصلى عليه عبدالله بن زياد[١].

غريب الألفاظ:

الرعاء: جمع راعٍ[٢].

الحُطَمة: أي العنيف في رعيته لا يرفق بها في سوقها ومرعاها، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها ويزحم بعضها ببعض بحيث يؤذيها ويحطمها[٣].

النخالة: ما بقي في الغربال بعد نَخْل الدقيق[٤]، والمراد: لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم بل من سقطهم[٥].

ومن فقه الترجمة: أن الزواج الجماعي على نفقة الغير أمر عرفه الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم عائذ بن عمرو.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٥٨٣)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٤٦/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٦٥٠، ٦٥١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٢/٤، ٤٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٧٥/٢)، والسندي (٢٤٠/٣٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١١١٨/٢، ١١١٩).

(٢) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ع ي).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن خ ل).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يقدمه: الحسن البصري في سياق مواعظه التي يسوقها للحكام والولاة، حتى يستجيبوا لأمر المصطفى ﷺ في وجوب تغيير المنكر. وهم قادرون على ذلك، وفي الوقت ذاته لابد أن يكون الرِّفق منهجاً لهم، وإذا لم يستجيبوا لذلك فهم شر الرعاء.

وهذا المضمون الذي يقدمه الحسن البصري يسوقه في ظل هذه الرواية الواقعية أشخاصاً وأقوالاً، والحسن البصري من التابعين الذين أنعم الله عليهم برؤية كثير من الصحابة، ومَنّ الله عليه بشرف الرضاعة من أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث كانت أمه مولاة لأم سلمة، وفصاحته وتقواه تفيضان من هذا المنبع الطهور، ويقر الحسن البصري، بأنه تلقى علمه الذي لم يعهد الناس، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهذه الموعظة التي تتوهجُ في أفق هذا الحديث الشريف يؤطرها الحوار الجاد الصادق بين عبيدالله بن زياد، وعائذ بن عمرو وهو من صالحي الصحابة، واتسم بالورع والزهد، والصدق والإخلاص في النصيحة، ومعيار هذا الإخلاص وذلك الصدق أنه خاطب عبيدالله بن زياد بقوله: أي بُني: وهو والي البصرة، واختيار النداء "أي" يدل على حرص عائذ بن عمرو، على استمالة قلب هذا الوالي واستجابته للموعظة، والتعبير بقوله "بُني"، يفْصح عن عدم خوف عائذ، ولا رهبته، وكذلك ينبئ عن ابتعاده عن ممالأة هذا الوالي ونفاقه، وكان كثير من العلماء يتوجه بالنصح إلى الولاة والخلفاء ومنهم الحسن البصري، وسعيد بن المسيب وغيرهم، وعبيدالله بن زياد كان قاسياً وشديداً في ولايته، تأسياً واقتداء بأبيه زياد بن أبيه، صاحب "خطبة البتراء" التي هدد بها أهل البصرة في بدء ولايته.

واتباعاً للقاعدة البلاغية التي تقول: "لكل مقام مقال" تأتي موعظة عائذ لابن زياد حيث يذكّره بقول رسول الله ﷺ: إن شر الرعاء الحطمة، ثم يقول: "فإياك أن تكون منهم"، والنداء في أول كلامه يرشد إلى ضرورة الاهتمام والانتباه، والتأكيد في قوله: "إني سمعت"، يفصح عن جدية الأمر وخطورته، وتحديد الفعل بقوله: "سمعت"

لمزيد من الإصغاء لأنه سمع هذه الموعظة من رسول الله مباشرة، ولم ينقلها عن راوٍ، فالخبر مثبتٌ يقيناً، وكلام رسول الله يبدأ بالتأكيد "إنَّ" ثم أفعل التفضيل "شر"، أى أكثر الولاة والرعاة، شروراً وفجوراً ولفظ "الحطمة"، في مبناه سر معناه. وفي صياغته سرٌ بلاغته، فالحطم في اللغة الكسر، والحطمة، السنة الشديدة القاحلة الجدباء، والحطمة: الشديدة من النيران، واسم لجهنَّم، أو باب لها، والحُطمة: الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض(1). وهذه المعاني اللغوية تتلاقى مع صفات الوالي والراعي العنيف في رعيته: فهو لا يرفق في سوقها ومرعاها، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها وغيره(2). ويفعل ذلك مع أفراد الأمة ولا يحكم بينهم بالعدل ، ولا يرعى مصالحهم.

وأسلوب التحذير في قوله: "فإياك أن تكون منهم"، يتألق بالصدق والشجاعة في مواجهة هذا الوالي الذي استعلى على النصيحة ولم يصغ لذلك التحذير، واستهان بهذا الصحابي الجليل: وقال مستكبراً أجلس: فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ وهنا التعبير فيه استعارة حيث صور صغار الصحابة بقشور الدقيق ومنهم عائذ، فواجهه عائذ في حدَّة وصرامة واستفهام إنكاري وهو لا يخشى بأسه. وهل كانت لهم نخالة ؟ أى أن أصحاب محمد ﷺ كلهم كالنجوم في الهداية وليس فيهم قشور ولباب وإنما كلهم كرماء فضلاء يحب التآسي بهم، والاقتداء بأفعالهم.

ثم يختم عائذ بن عمرو هذا الحوار وتلك المواجهة بتعريض وسخرية من عبيد الله بن زياد، وكل من على شاكلته من الذين يسخرون من العلماء والوعاظ، ويتمادون فيسخرون من فريق من الصحابة، ويصوغ تعريضه وسخريته في أسلوب القصر، لمزيد من التأكيد والمواجهة، والحرص على الاحتفاظ بهيبة العلماء والناصحين المخلصين يقول الصحابي الجليل، عائذ بن عمرو. "إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم"، وكأنه يقول في تلميح دون تصريح، وعن طريق الإشارة لا العبارة، إنما أنت من النخالة

---

(1) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي مادة: حطم.

(2) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ، ٣٥٤، ٣٥٥.

لأنك لم تشرف برؤية رسول الله ﷺ، ولم تتذوق حلاوة هذه الرؤية، ولم تنعم بشرف الصحبة، ولا بزاد التقوى والأحاديث والمجالس النبوية الشريفة.

والاستعارة من الملامح الفنية في الحديث النبوي ولقد أثبتت الصورة الاستعارية في الحديث النبوي جدارتها كما في الحديث وفي غيره، وحافظت على مقدرتها الفنية على مدى العصور وتملكت ناصية الفن الراقي، واستحوذت على إثارة بالغة للوجدان والخيالات، كما كانت شكلاً فنياً مناسباً لمقاصد الفكرة، فلا يترك إلى شكل آخر، واعتمدت على عنصر المشابهة، وبذلك تنزهت عن الخطل، وأصابت حافة التأثير.

والشكل الاستعاري في الحديث النبوي بصفة عامة غني بتكوينه ومهامه، لأنه يعتمد على المشاهدات، وتقريب المتباعدات تقريباً منطقياً لائقاً بالفكر الديني السامي وغاياته الرفيعة، وهو غني بكونه وسيلة تجسيم وتشخيص، وعامل تنبيه وتأثير، فضلاً عن تبليغ الفكرة كاملة واضحة[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: نصح المدعو.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عاقبة الوالي الفظ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة رضي الله عنهم على من بعدهم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل والتوكيد والتحذير والاستفهام الاستنكاري والقصر.

أولاً- من مهام الداعية: نصح المدعو:

إن النصيحة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[٢]. لذا كان من المهام الأساسية للداعية القيام بالنصيحة للمدعوين، كما يتضح في هذا الحديث. فقد دخل عائذ بن عمرو رضي الله عنه على عبيدالله بن زياد والي البصرة وقد كان شديداً على رعيته[٣] وبلّغه حديث النبي ﷺ وحذره من أن يكون من هؤلاء الولاة القساة، لسوء

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ٢٤٠

(٢) التعريفات، الجرجاني ٢٩٦.

(٣) انظر: الأعلام، الزركلي ٤/١٩٣.

عاقبتهم عند ربهم. فقام الصحابي بواجب النصح تجاه المدعو.

وهذه سمة الدعاة دائماً، نصحُ المدعوين وإرشادهم إلى ما ينفعهم، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[(١)] وقال تعالى إخباراً عن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[(٢)].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع أصحابه على النصح لكل مسلم، قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم[(٣)].

فبالنصح الذي فيه لين ورفق تُصلح أحوال المقصرين ويتوافر العلاج السريع لما يظهر من مخالفات شرعية. جاء في الموسوعة الفقهية: (ذهب الفقهاء إلى أن النصيحة تجب للمسلمين، قال ابن حجر الهيتمي: يتأكد وجوبها لخاصة المسلمين وعامتهم، وقال الراغب الأصفهاني: عظّم النبي صلى الله عليه وسلم أمر النصح، فقال: "الدين النصيحة"[(٤)]. فبيّن صلى الله عليه وسلم أن النصح واجب لكافة الناس بأن تتحرى مصلحتهم في جميع أمورهم. وقال المالكية: النصيحة فرض عين سواء طلبت أم لم تطلب إذا ظن الإفادة؛ لأنه من باب الأمر بالمعروف. ونقل النووي عن ابن بطال أن النصيحة فرض كفاية يجزيء فيه من قام به ويسقط عن الباقين[(٥)]. وهي لازمة على قدر الحاجة أو الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه فإن خشي على نفسه أذىً فهو في سعة وقال غيرهم: إن ظاهر حديث "الدين النصيحة" وجوب النصح وإن علم أنه لا يفيد في المنصوح)[(٦)].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧، ومسلم ٥٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٠/٣٢٥-٣٢٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عاقبة الوالي الفظ:

إن الوالي مع رعيته كالوالد مع أبنائه يقوم على مصالحهم ويرعى أمورهم بالرفق واللين، لذا كانت عاقبة الوالي الفظ الغليظ سيئة. هذا واضح من وصف النبي ﷺ بأنهم شرُّ الولاة، وتحذير عائذُ الصحابيُ ﷺ عُبَيْدَ الله بن زياد من أن يكون منهم.

وقد أخبر الله تعالى عن سوء عاقبة الولاة المتجبرين، من ذلك ما أخبر عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[١]. أي: (إن فرعون تكبر وطغى في الأرض وجعل أهلها طوائف متفرقة يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل يذبح أبناءهم ويستعبد نساءهم، إنه كان من المفسدين ونريد أن نتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض ونجعلهم قادة في الخير ودعاة إليه ونجعلهم يرثون الأرض بعد هلاك فرعون وقومه)[٢].

وقد قال النبي ﷺ: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به))[٣]. قال النووي: (هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى)[٤].

قال الصنعاني: (شق عليهم: أدخل عليهم المشقة أي: المضرة. والدعاء عليه منه ﷺ بالمشقة جزاء من جنس الفعل، وهو عام لمشقة الدنيا والآخرة)[٥].

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٤-٥.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٥، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٤٠.

(٥) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٦٨.

وقال القاضي حسين المغربي: "ورواه أبو عوانة في صحيحه بلفظ: (ومن ولي منهم شيئاً فشق عليهم فعليه بهلة الله. فقالوا: يا رسول الله وما بهلة الله؟ قال: لعنة الله)، والحديث دليل على أنه يجب على الوالي تيسير الأمور على من وليهم والرفق بهم، ومعاملتهم بالعفو والصفح وإيثار الرخصة على العزيمة في حقهم، لئلا يدخل عليهم المشقة، وقد عدّ بعض العلماء مشقة الوالي على من وَلِيَه من الكبائر، وهو صريح حديث أبي عوانة، فإن اللعنة إنما تكون على من فعل الكبيرة"[(١)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فَضْلُ الصحابة رضي الله عنهم على من بعدهم:

الصحابة رضي الله عنهم هم خير القرون، وصفوة هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهذا واضح في هذا الحديث، وذلك في قول الصحابي: "وهل كانت لهم نخالة إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم" قال النووي: (وهذا من جزل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل من بعدهم وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم، وإنما جاء التخليط ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة)[(٢)].

وقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[(٣)].

وقال ابن حجر: (والأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة كثيرة)[(٤)] من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه))[(٥)]. قال النووي: (قال القاضي [أي عياض][(٦)]: ويؤيد هذا ما قدمناه في أول "باب

---

(١) البدر التمام في شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ٢٨٩/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦-١١٨٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤١.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٨٠/٧.

فضائل الصحابة" عن الجمهور من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم، وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾[1] هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[2].

فالصحابة رضوان الله عليهم خير القرون وهم القدوة لمن جاء بعدهم[3].

رابعاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل والتوكيد والتحذير والاستفهام الاستنكاري والقصر

أما ضرب المثل فقوله ﷺ: "إن شر الرعاء الحُطَمَة" قال ابن الأثير في تفسير الحُطَمَة: (هو العنيف برعاية الإبل في السَّوْق والإيراد والإصدار، ويُلْقِي بعضها على بعض ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السوء)[4].

وهذا المثل منتزع من بيئة المدعوين فيكون أبلغ في إيصال المعنى وتوضيحه. وقد ورد ضرب الأمثال في الأحاديث كثيراً، مثال ذلك قول النبي ﷺ: ((مَثَلي ومثَلُ ما بعثني الله كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال: رأيتُ الجيشَ بعَيني، وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنجاءَ النجاء، فأطاعتهُ طائفة فأدلجوا على مَهلِهم فنَجَوا، وكذَّبتهُ طائفة فصبَّحَهمُ الجيش فاجْتاحَهم))[5].

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٦. وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٢/١ - ٥٠٣.

(٣) وانظر: فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل ٢٤١هـ، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، والكتاب جزءان. وانظر: مقدمة المحقق.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢١٥.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

والتوكيد في قول النبي "إن شر الرعاء الحطمة" ليؤكد شر هؤلاء وسوء عاقبتهم. والتحذير: قول الصحابي: "فإياك أن تكون منهم". فهذا تحذير أفاد معرفة مدى ضرر المكروه المتوقع حصوله فيخاف من وقوعه خوفًا يدفعه إلى أخذ الحذر ومباشرة الأسباب لمنع وقوعه وتقليل الضرر[١].

والاستفهام الاستنكاري في قول الصحابي: "وهل كانت لهم نخالة؟" ليكون أبلغ في نفي النخالة عن الصحابة رضي الله عنهم[٢]. وهذا الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موقعه وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه كما يلقى إليه ليتمكن من فهمه ثم الإجابة عليه.

والقصر في قوله: "إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم" ليؤكد نفي أن يكون في الصحابة نخالة، فكلهم عدول قدوة.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٩٠، ٩١.

(٢) المرجع السابق ٤٤٦.

الحديث رقم (١٩٣)

١٩٣- الْعاشرُ: عَنْ حذيفةَ رضي الله عنه، أَنَّ النبي ﷺ قال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكم عِقَاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ**» رواه الترمذيُّ[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٤).

الشرح الأدبي

إن رسول الله ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، حتى: كأن كلامه يأخذ بمجامع القلوب، ويجذب الأرواح.

ففصاحة لسانه كما يقول الإمام أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني: غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه، يبين مراده، ويدعو به إليه عباده، فهو ينطق بحُكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذِكْره، أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمتثل شرعاً وحكماً، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته، وخليق بمن عبر عن مراد الله بلسانه، وأقام به الحجة على عباده ببيانه، وبيَّن مواضع فروضه وأوامره، ونواهيه وزواجره، ووعده ووعيده وإرشاده، أن يكون أحكم الخلق جناناً، وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وفي ضوء هذه الظلال الحديثية، والقبسات النبوية، والإشعاعات المحمدية نقرأ جماليات الأسلوب في هذا الحديث الشريف ونتأمل ما يتوج به تراكيبه العجيبة، ودلالاته الرحيبة، فالمصطفى ﷺ ينذر هذه الأمة ويوقظها ويأمرها بالسعي إلى النجاة والفوز المبين، والطريق إلى ذلك

---

(١) برقم (٢١٦٩). قال المناوي في كشف المناهج (٤/٣٥٧): سنده جيدٌ. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠٩).

الفوز هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلا فالهلاك هو المصير المحتوم، ولا يجدي الدعاء، ولا ينفع الرجاء.

ولأن الإنذار شديد، يبدأ الحديث بالقسم، وهو ذو صيغة خاصة لا تُقال إلا عند شدائد الأمور، حيث يقول المصطفى ﷺ "والذي نفسي بيده"، وقيل أتى بهذا القسم لتأكيد الأمر بعده، والقسم يسن لمثل ذلك، ثم يؤكد الرسول ما يريد تبليغه للناس وما يقسم عليه، والتأكيد يتضاعف حيث تجتمع لام الأمر مع نون التوكيد الثقيلة في جملتين متصلتين بواو العطف، للدلالة على أنه لا ترتيب ولا فواصل بين هذين الأمرين الواجبين "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر" فالاثنان متلازمان، ولا يجدي أحدهما في غياب الآخر.

والتكليف هنا جاء في صيغة الجمع للتدليل على أن المسؤولية جماعية، وعلى كل علماء الأمة وأفرادها وأمرائها أن يقوموا بهذا الواجب الشرعي: كل حسب طاقته وإمكاناته.

و"أو" عاطفة ولكنها للاختيار بين النجاة والهلاك، والفوز والخسران: فإما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو العذاب الشديد، والعقاب الأليم، والتعبير بقوله: "أو ليوشكن الله"، يوحي بإمهال الله للناس وإعطائهم فرصة للتوبة والرجوع والإنابة، والاستجابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الفعل "أوشك" من أفعال المقاربة، والمجيء به يعد تنبيهاً وإنذاراً قبل مجيء العذاب علهم يثوبون إلى رشدهم، وهو أبلغ وأنسب للمقام من أن يقال: "أو ليبعثن الله عليكم"، والتعبير بالفعل: "يبعث"، يؤكد هذا الإنذار، ويدعو لليقظة والتنبيه، ويزيده تأكيداً وإحساساً بالخطر، قوله: "عليكم" ولم يقل "لكم"، لأن التعبير بـ "عليكم"، يفصح عن العقاب والنذير الشديد، أما إليكم، فتفيد التبليغ والإرشاد بعيداً عن ظلال الخوف، وتنكير كلمة "عقاباً" للتهويل والتعظيم لأنه غير محدود ولا معروف، والتحديد بقوله: "منه"، يزيد الأمر حسمًا وقوة، لأن المعاقِبَ هو الله، والله شديد العقاب، وبناء الفعل للمجهول في

قولـه: "فـلا يُـسْتجاب لكـم"، لبيـان أن الله لا ينظـر إلى مثـل هـؤلاء، ولا يـزكيهم ولهم عذاب أليم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكـم الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر للحـاكم وغـيره، وقـد سـبق الكلام عنه تفصيلاً في الحديث رقم (١١٨).

الثـاني: حكـم النـصح للإمـام وقـول الحـق عنـده لـو كـان جـائراً، وقـد ذكـر الفقهاء[1] أن النصح للإمام الجائر، وتنبيهه إلى الضرر من أفضل الأعمال حتى عده رسول الله ﷺ من أفضل الجهاد، فإن وجد في نفسه القوة لهذا النصح فعل وإلا سقط عنه، وفي الحديث دليل على أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر متى رجا فيه نفعاً في الدين فبذل فيه نفسه حتى قتل فهو في أعلى درجات الشهداء.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء مخالفة أمر الله.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: القسم والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(إن الأمر بالمعروف: هو الأمر باتباع محمد ﷺ ودينـه الـذي جـاء بـه مـن عنـد الله، والنهي عن المنكـر: طلب الكـف عـن فعل مـا لـيس فيـه رضـى الله تعـالى)[2] لـذا كـان

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣٦١/١، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٥٠/٣، وأنوار البروق ٢٨٢/٤، والمدخل لابن الحاج ٧١/١، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٩٦، وقواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ١١١/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٠٤/٤، ومعالم القربة في معالم الحسبة ص ١٣، والسياسية الشرعية لابن تيمية ص ٢١٩، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٥٩/١، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٢١٤/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٧/٦.

إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيء العاقبة. وهذا واضح في قول النبي ﷺ "أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

قال المباركفوري: (والمعنى: والله إن أحد الأمرين واقع. إما الأمر والنهي منكم، وإما إنزال العذاب من ربكم ثم عدم استجابة الدعاء له في دفعه عنكم بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان، فإن كان الأمر والنهي لم يكن عذابٌ وإن لم يكن كان عذاب أليم)[1].

وقد أخبر تعالى بسوء عاقبة بني إسرائيل لإهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[2] فالله سبحانه يخبر (أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داود عليه السلام وهو الزبور وفي الكتاب الذي أنزله على عيسى وهو الإنجيل، بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها ولا يُنْهِي بعضُهم بعضاً عن أي منكر فعلوه. وهذا من أفعالهم السيئة وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى)[3]. (وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة تركهم النهي عن المنكر)[4].

لذا (فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطُه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد)[5].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٣-١٧٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٨-٧٩.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ١٢١.

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣/١١٩٣.

(٥) السابق ٣/١١٩٢. وانظر: نضرة النعيم ٣/٥٢٥-٥٣٩.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء مخالفة أمر الله:

مخالفة أوامر الله عز وجل لها عواقب وخيمة ونتائج خطيرة، من ذلك أنها قد تؤدي إلى إعراض الله عز وجل عمن خالف أمره، كما هو الحال في هذا الحديث، وذلك واضح في قوله ﷺ "أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" فقد بيّن النبي ﷺ أن الله يعرض عمن أهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يستجيب لهم إذا دعوه لرفع ما نزل بهم من جزاء لتركهم ما أمرهم الله به.

وقد ورد إعراض الله عن العاصين في بعض الأحاديث: من ذلك ما رواه وائل بن حُجْر رضي الله عنه قال: ((جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق. فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: ألك بينة؟ قال: لا. قال: فلك يمينه. قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه وليس يتورع من شيء فقال: ليس لك منه إلا ذلك، فانطلق ليحلف فقال رسول الله ﷺ لما أدبر، أما لئن حَلَف على ماله ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض))[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[3] ثم ذكر الرجل يطيل السفر[4] أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يا

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٩.

(٢) سور المؤمنون، آية: ٥١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٤) معناه -والله أعلم- أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٤.

رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك؟))[١].

قال النووي: (أي: من أين يستجاب لمن هذه صفته وكيف يستجاب له؟)[٢].

وقال ابن رجب: (معناه كيف يستجاب له فهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد وليس صريحا في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية فيؤخذ من هذا أن التوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه، وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضاً، وكذلك ترك الواجبات كما في الحديث أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع استجابة دعاء الأخيار، وفعل الطاعات يكون موجبا لاستجابة الدعاء ولهذا لما توسل الذين دخلوا الغار، وانطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم الصالحة التي أخلصوا فيها لله تعالى ودعوا الله بها أجيبت دعوتهم[٣])[٤].

وقد أخبر النبي ﷺ عن رجل جاء المسجد وهو ﷺ مع أصحابه في مجلس علم فأدبر ولم يجلس، أخبر عنه فقال ﷺ: ((أَعْرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنه))[٥].

قال ابن حجر: (قوله: "فأعرض الله عنه": أي سخط عليه، وهو محمول على من ذهب معرضاً لا لعذر، هذا إن كان مسلماً ويحتمل أن يكون منافقاً واطلع النبي ﷺ على أمره. كما يحتمل أن يكون قوله ﷺ فأعرض الله عنه إخباراً أو دعاء)[٦].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ٢٢١٥، ومسلم ٢٧٤٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٧٥/١ - ٢٧٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٦، ومسلم ٢١٧٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٩/١-١٩٠، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦٢.

(٧) سورة الحشر، آية: ١٩.

قال ابن القيم: (عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه وأحدث لهم هذا النسيان نسياناً آخر، وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك؛ لم يجدوا عن ضده محيصاً.

وهذا يبين لك كمال عدله سبحانه في تقدير الكفر والذنوب عليها وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل فهو سبحانه ماضٍ في عبده حُكْمَه، عدل فيه قضاؤُه)[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: القسم والترهيب:

أما القسم والأمر فقوله ﷺ: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر" وذلك ليؤكد الأهمية القصوى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطورته في حياة المسلمين، أما الترهيب فذكره ﷺ العقاب المترتب على إهمال الأمر بالمعروف وإهمال النهي عن المنكر، وذلك ليخوّف ويرهب من اقتراف هذا الشأن.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم محمد بن أبي بكر ٧٥٢هـ، وهي طبعة مصورة، دار المعرفة، بيروت: ١٣٩٨هـ ص ١٣٥.

الحديث رقم (١٩٤)

١٩٤- **الْحَادي عشَرَ:** عنْ أَبِي سَعيد الْخُدريِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عندَ سلْطَانٍ جائِرٍ» رواه أبو داود، والترمذيُّ[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

جائر: أي صاحب جور وظلم[2].

الشرح الأدبي

إن الجهاد في سبيل الله تتعدّد ألوانهُ، وتتكامل دوافعهُ، وتلتقي مشاربهُ، وكل ما يعلي من شأن العقيدة، ويعلي راية الإسلام، ويحفظ للمسلمين قوتهم ووحدتهم، وعزتهم وكرامتهم، هو جهاد في سبيل الله، أيا كانت الوسيلة، لأن الغاية سامية، والوسيلة مشروعة، فالجهاد بالنفس أو بالمال أو بالنصيحة أو باللسان أو بمواجهة الظالمين، وردع اللاهين العابثين، والحديث النبوي الشريف يتسم هنا بالإيجاز، ولكنه إيجاز غير مخل، فكل كلمة لها ظلالها، ولها إشعاعها، والحديث جملة واحدة، ولكنها تشع بكثير من المعالم والقضايا، وتوحي إلى كل صاحب قلم أن يترك العنان لقلمه كالجواد الجموح الأصيل ليكتب كلمة الحق، وليصول ويجول في ميدان الدعوة وتبصرة الناس وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوحي كذلك بل وتوجب على كل صاحب بيان، وقوة حجة، ونصاعة برهان أن لا يتفوه إلا بالحق، ولا يقر إلا بالعدل، لأنه لا يكب الناس في النار على وجوههم، إلا حصائد ألسنتهم، ولذلك يبدأ الحديث بأفعل التفضيل، وبالمادة اللغوية نفسها، "فضل"، فيقول: "أفضل الجهاد": ثم

---

(١) برقم (٢١٧٤) ولفظه: (إنَّ من أعظم الجهاد)، والمثبت لفظ أبي داود (٣٧٨١). قال الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص: ١٩٦): هذا حديثٌ حسنٌ. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٠١).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٦/٢.

يخبر عن هذا الأفضل بأنه كلمة عدل عند سلطان جائر.

والحديث جاءت صياغته في قالب "الجملة الاسمية"، وخلا من أى فعل مرتبط بزمن، حتى لا تتقيد الدلالة بزمن ما، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وإنما تظل هذه الحقيقة ثابتة دائمة في كل جيل، وفي كل مكان، فللعلماء كلمتهم، وللدعاة منهجهم، وكلمة العدل تنبه السلطان الجائر، وتردع الوالي الظلوم، وهم الذين صورهم رسول الله في قوله: "إن شر الرعاء الحطمة".

"والكلمة" في الحديث المراد منها النصيحة الصادقة لأئمة المسلمين وعامتهم، وابن مالك يقول: "وكِلْمة بها كلام قد يُؤم"، فالمراد ليس كلمة واحدة، ولكنه موقفٌ فيه مجابهة ومكاشفة ومناصحة.

والحديث يزدان بالمقابلة البديعية بين موقفين أحدهما محمود والآخر مذموم، فالمحمود كلمة العدل، والمذموم السلطان الجائر، وكلمة "عنده"، تفيد التحديد والمواجهة أى في حضرة هذا السلطان تكون حكمة البيان، وفصاحة اللسان، وثبات الجنان، وتحمل المشقة والمكابدة لأن السلطان الجائر ، كالسيف الباتر، قد لا يستجيب للإرشاد ، ويظل سادراً في الغي والفساد.

وعلى المجاهد الصبرُ والاحتسابُ ولا يهرب من ساحة الدعوة إلى سبيل الله، بل يقاوم ويصمد في الميدان. فالجهاد كلمة مأخوذة من الفعل: "جهد"، وجهد يجهد جَهْداً: واجْتهد: كلاهما بمعنى جد.

وأصل الجَهْد والجُهْد هو الطاقة، وقيل، الجَهْد: المشقة، والجُهْد: الطاقة، وقال ابن الأثير، تكرر لفظ الجَهْد والجُهْد في الحديث، وهو بالفتح المشقة، وقيل المبالغة والغاية، وبالضم: الطاقة.

وفي القرآن الكريم: ورد الفعل جَاهَد، وما يشتق منه في إحدى وأربعين آية،وقد حمل معنى كل ما في الوسع والطاقة، من قول أو فعل أو بذل في مواجهة الأعداء، ومادة "عدل"، في القرآن الكريم، جاءت تحمل عدة معان ومنها العدل في القول، والعدل في الحكم، والعدل في الإشراك، والعدل : أي الفدية، والعدل بمعنى قصد

الحق في الحكم هو الذي شاع في حياة المسلمين، وصار بعد نزول القرآن أحد القواعد الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام.

فالحاكم الجائر غير عادل وهو في حاجة إلى كلمة عدْل: أي حق في معانيها، نابعة من شعور صادق، ونية خالصة. وهذا هو أفضل إليها "كلمة حق عند سلطان جائر".

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل كلمة الحق عند السلطان الجائر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراتب الجهاد ودرجاته.

رابعاً: من آداب المدعو: السؤال عن معالي الأمور وأفضلها.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب، والسؤال والجواب.

أولاً- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين:

إن الداعية بما عنده من علم يرشد المدعوين إلى ما يكون فيه صلاحهم وفلاحهم، ومن ذلك أن يرشدهم إلى أفضل الجهاد كما في هذا الحديث وذلك في قول النبي ﷺ "كلمة حق عند سلطان جائر" جواباً على سؤال الرجل "أي الجهاد أفضل"، فقد أرشده ﷺ إلى ما سأل عنه وأفاده.

وهكذا الداعية دائماً يرشد المدعوين إلى ما فيه خيرهم ونفعهم: قال الله تعالى: عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((إن فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ أُتي بسبي، فأتته تسأله خادماً فلم توافقه، فذكرت لعائشة رضي الله عنها، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشة له. فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال: على مكانكما حتى وجدت برد قدميه على صَدْري

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٩٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٩٥).

(٢) سورة غافر، آية: ٣٨.

فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبِّرا الله أربعاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين فإن ذلك خير لكما مما سألتماه))[١].

فالنبي ﷺ (علمهما - كما قال ابن حجر- ما هو الأولى بحالهما من الذِكْر عوضاً عما طلباه من الخادم، فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يطلب إيذاناً بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد والصبر على مشاق الدنيا والتجافي عن دار الغرور)[٢].

وقال ابن هبيرة: (فيه أن التسبيح خير من خادم، لأنه جمع لها بين تسبيح الله ثلاثاً وثلاثين وحمده ثلاثاً وثلاثين وتكبيره أربعاً وثلاثين يكمل ذلك مائة. فكتب الله به ألف حسنة، ولقد عوضها رسول الله ﷺ بِنِعْم العوض، فإن كل من سبح بهذه التسبيحات عاملاً بهذا الحديث، ممن بلغه ويبلغه إلى يوم القيامة فإن لفاطمة رضي الله عنها بركة من عمله، لأنها هي التي أثارت هذه السنة بسؤالها المبارك، فصار العاملون كلهم بهذا الحديث حيث كانت هي المثير له، خادمين بالثواب الذي يتصل من علمهم إليها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل كلمة الحق عند السلطان الجائر:

لقد وصف النبي ﷺ قول كلمة الحق عند السلطان الجائر أنها أفضل الجهاد. وذلك لأنه (جهاد - كما يقول السندي- قلّ من ينجو فيه، وقلّ من يُصوِّب صاحبه، بل الكلُّ يخطئونه أولاً، ثم يؤدي إلى الموت بأشد طريق عندهم بلا قتال بل صبراً[٤]، والله تعالى أعلم)[٥].

وكلمة الحق عند السلطان الجائر تكون (بما أفاد أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من لفظ أو ما في معناه ككتابة ونحوها)[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٣١١٣، ومسلم ٢٧٢٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٢٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١/٢٥٦.

(٤) قتله صبرا: حبسه حتى مات. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٠٦.

(٥) حاشية السندي على سنن النسائي ٧/١٨١.

(٦) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٥.

وقد أخبر النبي ﷺ أن من أمر السلطان الجائر ونهاه فقتله كان سيد الشهداء، قال ﷺ: ((سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله))[١].

وقال أبو حامد الغزالي: (لما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قَدِمُوا على ذلك موطّنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله)[٢].

ومما يذكر في نصح الولاة والأمراء والسلاطين ما ذكر: أن عطاء بن أبي رباح دخل على عبدالملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: أمير المؤمنين؛ اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإن بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين. وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم. واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل أفعل. ثم نهض وقام فقبض عليه عبدالملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجةً لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراتب الجهاد ودرجاته:

سؤال الرجل: أي الجهاد أفضل؟ وجواب النبي ﷺ بأنه كلمة الحق عند السلطان الظالم، دل على أن للجهاد مراتب ودرجات. وكان جهاد الولاة الظالمين بكلمة الحق من أفضل الجهاد، (وإنما صار ذلك أفضل الجهاد - كما يقول الخطابي-؛ لأن من

(١) أخرجه الحاكم ١٩٥/٣، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٣٧٤).

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١٢٥٦/٣.

(٣) المرجع السابق ١٢٦٠/٣.

جاهد العدو كان متردداً بين الرجاء والخوف لا يدري هل يغلِب أو يُغلب وصاحب السلطان مقهور في يديه فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف)[١].

كما كان أفضل الجهاد؛ (لأن ظلم السلطان يسير في جميع من تحت سياسته وهو جم غفير، فإذا نهاه عن الظلم فقد أوصل النفع إلى خلق كثيرٍ بخلاف قتل كافر)[٢].

(إن قيمة جهاد الكلمة وبلوغ ممارسها منزلة سيد الشهداء في سبيل الله، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ إنما تعود إلى الأمور التالية:

١- أن الكلمة الشجاعة القوية تعرض صاحبها للمخاطر والمهالك؛ لأن المجاهد في الميدان ضد الكفار يجاهد في معركة جلية، وهو بين احتمالين: نصر وعزة في الدنيا، أو شهادة يذوق فيها الموت مرة واحدة، أما مجاهد الكلمة: فهو فرد أعزل أمام سلطة ذات بأس شديد، واحتمال هلاكه أكثر من سلامته.

٢- المجاهد بالكلمة الصادقة في معركة خفية مبهمة عند الناس، ولاسيما في زمن انتشار البدع وضعف الإسلام وقلة حماته، وبالتالي: فهو يتعرض -ميتاً وحياً- للتشويه والتجريم، فهو عند السلطة التي لا تحكم بالإسلام مرتكب خيانة ومجرم سياسي خطير، فيتسنى لها إلصاق التهم به واستخدام كل الوسائل المؤثرة لديها لتحقيق ذلك من خلال الشرطة، والإعلام، وتحريف الكلم والحقائق. واعتبار قول الحق انحرافاً ورجعيةً، والاحتساب بذلك -في نظرها- فتنة وجريمة وخروج عن السلطة الحاكمة بأمرها.

٣- إن مجاهد الكلمة معرَّض للفتنة أكثر من مجاهد السلاح واليد، والنجاة من الفتنة أشق؛ لأن فتنة التعذيب والسجن قد تسبب الانهيار العصبي والكآبة، فقد ينقلب من صف المصلحين إلى نقيضهم.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٨/٧، وعون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٨٨٣.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٨/٧.

ومن هنا: ندرك مغزى ورود نصوص الجهاد والأمر بالمعروف، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)، ومن هذه الآية يفهم أن كلمة الحق واجب عيني على جماعة القادرين من أهل العلم والدراية، كالعلماء ورجال الفكر والمختصين في الميادين التي يشيع فيها المنكر)(٢).

أما جهاد العدو بالسلاح فالآيات والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة(٣)، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(٤).

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: ((سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله))(٥).

قال العز بن عبدالسلام: (يشرف البذل بشرف المبذول وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله من بذل نفسه في أعلى رتب الطائعين وأشرفها بشرف ما بذله، مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز الدين وصون دماء المسلمين)(٦).

رابعاً- من آداب المدعو: السؤال عن معالي الأمور وأفضلها:

يتمايز الناس فيما ينشغلون به وبما يسألون عنه(٧)، وكلما كان المدعو شغوفاً

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تأملات في فقه الجهاد، محمد بن عبدالله الشباني، مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١٠٩ ص ٣٤-٣٥.

(٣) انظر: كتاب الجهاد من رياض الصالحين، الأحاديث ١٢٨٧-١٣٥٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

(٦) أحكام الجهاد وفضائله: عز الدين بن عبدالسلام، تحقيق نزيه حماد.

(٧) ويقول المتنبي: وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في العين العظيم العظائم.

بالسؤال عن معالي الأمور ليعمل بها، كان ذلك علامة صدق على إيمانه فعلى المدعو أن يسأل عن أفضل الأمور كما في ذلك الحديث. وهذا واضح من سؤال الرجل للنبي ﷺ "أي الجهاد أفضل" فإن الرجل لا يسأل عن فضل الجهاد بوجه عام وإنما يسأل عن أكثر الجهاد ثواباً وأجراً عند الله، وقد أثنى الله تعالى على عباده الذين يتبعون أحسن ما يسمعون.

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] (أي يقدمون الأحسن الذي هو أشد حسناً على الأحسن الذي هو دونه في الحسن ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن)[2]، (ويدخل تحته إيثار الأفضل من كل نوعين اعترضا، كالواجب مع الندب والعفو مع القصاص والإخفاء مع الإبداء في الصدقة، وهكذا)[3].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال، وكذلك عن أكبر الذنوب. فهذا أبوذر رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ: ((أي الأعمال أفضل))[4] وحكى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ هذا السؤال[5] وابن مسعود رضي الله عنه يسأله ﷺ: ((أي الأعمال أحب إلى الله؟))[6] وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يحكي أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ [أي أمور الإسلام][7]، وفي رواية ((أي المسلمين خير؟))[8] وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقول: ((قالوا يا رسول الله، أي الإسلام

(١) سورة الزمر، آية: ١٧-١٨.
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمدالأمين بن محمد المختار الشنقيطي ٤٨/٧.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٢٠٢/١٤.
(٤) أخرجه البخاري ٢٥١/٨، ومسلم ١٣٦-٨٤.
(٥) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ١٣٥-٨٣.
(٦) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ١٣٧-٨٥/١٣٩.
(٧) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٦٣-٣٩.
(٨) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٦٤-٤٠ وهذا لفظه.

أفضل؟))[١] وفي رواية ((أي المسلمين أفضل؟))[٢].

وهذا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يحكي أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ((أي الذنب أكبر عند الله؟))[٣]. وإنما سأل الصحابة رضوان الله عليهم عن أفضل الأعمال ليعلموها ويعملوا بها وعن أكبر الذنوب ليجتنبوها أشد الاجتناب

خامساً: من أساليب الدعوة: الترغيب والسؤال والجواب:

لقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم أفعل التفضيل "أفضل"، ليرغب في هذا العمل ويحببه إلى المدعوين.

والجواب على السؤال أسلوب من أساليب الدعوة استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم ليوضح ما سأل عنه السائل فيشبع رغبته في العلم ومن ثمّ العمل.

---

(١) أخرجه البخاري ١١، ومسلم ٦٦-٤٢ واللفظ لفظ البخاري.

(٢) أخرجه مسلم ٦٦-٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٦١، ومسلم ١٤٢-٨٥.

الحديث رقم (١٩٥)

١٩٥- الثَّاني عَشَر: عَنْ أَبِي عبدِ اللَّه طارِقِ بنِ شِهابٍ الْبُجَلِيِّ الأَحْمَسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً سأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وقَدْ وَضعَ رِجْلَهُ فِي الغَرْزِ: أَيُّ الْجِهادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كَلِمَةُ حقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائِرٍ**» رَوَاهُ النسائيُّ[١] بإسنادٍ صحيحٍ.

«الْغَرْز» بِعَيْنٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحةٍ ثُمَّ راءٍ ساكنة ثم زَاي، وَهُوَ رِكَابُ كَورِ الْجمَلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ، وَقِيلَ: لاَ يَخْتَصُّ بِجِلدٍ وَخَشَبٍ[٢].

ترجمة الراوي:

طارق بن شهاب البَجَليُّ: وهو طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سَلَمة بن هلال بن عوف بن جُشم البَجَليُّ الأَحَمَسيُّ، يكنى بأبي عبدالله، وهو في عداد الكوفيين.

أدرك الجاهلية، ورأى النبي ﷺ وهو رَجلُ، فروى عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وغزوت في خلافة أبي بكر وعمر ثلاثاً وثلاثين أو ثلاثاً وأربعين من غزوة إلى سرية[٣].

دعا رسول الله ﷺ لقومه فعن طارق بن شهاب البَجَلي أنه قال: قدم وفد أحَمَسَ ووفد قَيْس على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ابدءوا بالأحْمَسيين قبل القيسيين، ثم دعا لأحَمَسَ فقال: اللهم بارك في أحَمَسَ وخيلها ورجالها، سبع مرات[٤].

قال عنه يحيى بن معين "ثقة"، وقال أبو داود: قد رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً، وأرسل عن النبي ﷺ، وقال الإمام ابن حجر في الإصابة إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على الراجح، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل

---

(١) المجتبى (٤٢٠). وقال المنذري في الترغيب (١٧٨/٣): رواه النسائي بإسناد صحيح. وأورده في ترغيبه (٣٤٠٢).

(٢) بنصه في الترغيب (١٧٨/٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٠/٣١) رقم (١٨٨٣٥)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٩/٣١) رقم (١٨٨٣٤)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

صحابي، وقال أبو حاتم "صدوق" وقال الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء "فأما قول أبي الفرج بن الجوزي ضَعَّفَه علماء النقل فهفوة، فإلى الساعة ما وجدت أحداً ضعفه، وحسبك قولُ المتَعنِّتِ في النقد أبي حاتم فيه" قال "صدوق".

أما عن وفاته فقال الهيثم بن عدي مات أيام الجماجم، وابن البرقي في سنة ٨٢، وعمر بن علي ٨٣، وقيل سنة ٨٤[(١)].

غريب الألفاظ:

الغرز: فسَّرها النووي، و المراد: أنه أراد السَّفر[(٢)].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يتفق في معناه وفي لفظه مع الحديث السابق، ولكن الراوي ليس واحداً، وهذا الحديث يتضمن زيادة في مقدمته: وهى أن هذا الحديث لم يقله الرسول ﷺ مشافهة أو مجرداً من السؤال والجواب، حيث يقدمه الراوي في صيغة حوارية، بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة، وفي هذا الحديث إضافة أخرى تتضمن وصف هيئة النبي ساعة ركوبه البعير، مصوراً حال النبي ﷺ حيث قال: وقد وضع رجله في الغرز، فهي جملة خالية من مفعول سأل، والغرز: هو ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب، وقيل: لا يختص بجلد وخشب وهذا الوصف يظهر دقة الصحابة في نقل الهيئة والنص.

والسؤال الذي توجه به ذلك الرجل إلى رسول الله هو: "أي الجهاد أفضل"؟ وهذا السؤال في ذلك السياق يوحي بأن الرسول ﷺ كان يستعد للجهاد، ولذلك سأل

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦٦/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٦٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦٨/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٦٣٢، ٦٣٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٠٤٨/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٩١/٣، ٤٩٢)، والسندي (١٢٤/٣١).

(٢) رياض الصالحين ١٢٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ ر ز).

الرجل عن أفضل الجهاد، وبداية الحديث السابق تقوى من ذلك التفسير، لأن الروايات المتعددة للحديث الواحد يجب الموازنة بينها، والوقوف على أوجه الإتفاق وأوجه المغايرة، فإن بعضها يفسر البعض الآخر.

وإجابة المصطفى ﷺ في هذا الحديث، لم يرد فيها صدر الحديث السابق، "أفضل الجهاد" لأن سؤال الصحابي قد تضمن ذلك، ولذلك لم يكرر الرسول: ما جاء على لسان السائل؟.

وذلك من سمات البلاغة النبوية: حيث اتسمت بالخلوص والقصد والاستيفاء والإيجاز كما يقول الرافعي، ويقول أحمد حسن الزيات، أن أخص ما يميز الأسلوب النبوي الأصالة والإيجاز، فالأصالة هي خصوصية اللفظ وطرافة العبارة، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية، ويرتجله من الأوضاع التركيبية، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية، وبلاغة الرسول من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن مقياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه، وإنما نعلم خبره، وهل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة؟[1].

والجملة الحديثية هنا تضمنت "كلمة حق" وفي الحديث السابق جاءت "كلمة عدل"، وهما يتوهجان بكثير من الدلالات، ويتلاقيان في كثير من الإيحاءات والتصورات، "فالحق" في دلالته اللغوية والاصطلاحية كما جاء في القاموس المحيط من أسماء الله تعالى أو من صفاته، وهو القرآن، وضد الباطل وهو الأمر المقضي والعدل، والإسلام، والمال، والملك، والموجود الثابت، والصدق، والموت والحزم، "وكلمة الحق" يمكن أن تتضوأ في آفاقها كل هذه الدلالات، ومن هنا ندرك منبع الإيجاز في بلاغة المصطفى المختار.

وقوله "كلمة عدل" في الحديث السابق، تعطي دلالات كثيرة، وتغرس في قلب المؤمن الثبات والقدرة على المواجهة وقول الحق والنصيحة الخالصة، وقوله هنا "كلمة

---

(١) انظر: وحي الرسالة ٨١/٣.

حق" تؤكد هذا المنهج الصادق الصارم الذي يدفع المؤمن إلى أفضل الجهاد وهو الجهاد بالكلمة، وما أحوج الأمة في هذا العصر إلى أن يجأر علماؤها وحكماؤها بكلمة الحق العادلة: في وجه كثير من الولاة والطغاة الجائرين المستبدين، وهذا أفضل الجهاد لأنه كما يقول صاحب دليل الفالحين، يدل على كمال يقين فاعله، وقوة إيمانه، وشدة إيقانه، حيث تكلم بتلك الكلمة عند ذلك الأمير الجائر المهلك عادة بجوره وظلمه، ولم يخف منه، ولا من جوره وبطشه، بل باع نفسه في سبيل الله، وقدّم أمر الله وحقه على حق نفسه، وقد وردت كلمة الحق في القرآن في مائتين وسبع وعشرين آية، وهي تُعَلي من شأن هذا المنهج الصادق الصارم.

المضامين الدعوية[(١)]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٩٦)

١٩٦- **الثَّالِثَ عشَرَ**: عن ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ مَا دخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّق اللّه وَدعْ مَا تَصنْعُ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لك، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ (وَهُو عَلَى حالِهِ)[1]، فلا يمْنَعُه ذلِك أَنْ يكُونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ ببَعْضٍ» ثُمَّ قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيمِ ذلِك بما عَصَوْا وكَانوا يعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعلُون تَرى كثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٧٨، ٨١] ثُمَّ قَالَ: «كلاَّ، وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بالْمعْرُوفِ، وَلَتَنْهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً، ولَتقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللّه بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» رواه أبو داود، والترمذي[2]، وقال: حديث حسن.

هَذَا لفظ أَبي داود، ولفظ الترمذي، قَالَ رَسُول اللّه ﷺ: ((**لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي المَعَاصي نَهَتْهُم عُلَمَاؤهُمْ فلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعضِهِمْ بِبعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسانِ دَاوُد وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بما عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ**)) فَجَلَسَ رَسُول اللّه ﷺ وكان مُتَّكِئاً، فَقَالَ: ((**لا، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أطْراً**)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

---

(١) قوله: (وهو على حاله) لا يوجد عندهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) واللفظ له، والترمذي (٣٠٤٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤١٣) وقال: رواه من طريق أبي عبيدة، عن أبيه، ولم يسمع منه، وقيل: سمع منه، ورواه ابن ماجه ٤٠٠٦ مرسلاً.

غريب الألفاظ:

تَأطِرُوهم: أي تعطفوهم.

ولتقْصُرُنَّهُ: أي لتحبِسُنَّه.

الشرح الأدبي

إن المنهج الإسلامي الصحيح هو مطابقة الأفعال للأقوال، وإذا اختل هذا المنهج فإن حياة المسلم يغزوها الفساد، ويحكمها القلق والاضطراب؛ وفي ظل التمسك بهذا المنهج يُحذر الحق سبحانه جموع المؤمنين من أن ينزلقوا إلى هذه الهوَّة، وإلا فقدوا مصادر العزة والقوة، وفي سورة الصف يأتي ذلك التحذير إشارة إلى أن المنهج هو الطريق إلى تكاتف الجماعة المؤمنة الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. والفعل المناقض للقول من مظاهر النفاق هو منهج بني إسرائيل، وإيغالهم فيه، هو الذي زلزل كيانهم، وشتت شملهم، لأنهم كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه، وكانوا ينصحون العاصين نصيحة كلامية، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وكانوا يصاحبون هؤلاء الآثمين، ويجلسون في مجالسهم ويشاركونهم مأكلهم ومشربهم، وأماكن لهوهم.

ويحذر الرسول أصحابه وكل المسلمين أن يكونوا على شاكلة بني إسرائيل حتى لا يكون مصيرهم الفتن والهلاك.

وفي ظل هذا المنهج السَّديد، نتأمل ونتدبر جماليات الأداء الأسلوبي والتصوير الفني، والبناء اللغوي في هذا الحديث الشريف، والحديث يتكون من ثلاثة أقسام... وكلها تتكامل ويشد بعضها بعضاً لتوصيل المعنى وتأكيد المقصد.

والقسم الأول: هو تقديم الأنموذج السلبي المتمثل في بني إسرائيل: حينما حادوا عن المنهج، وخالفت أفعالُهم أقوالهم، وتوظيف أحداث التاريخ، والاقتداء بمصائر الأمم

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

السابقة، إيجاباً وسلباً من خصائص ووسائل الإقناع في المنهج الإسلامي، لأنها شواهد حية، وعبر صادقة.

والقسم الثاني: يمثل ظاهرة من ظواهر التكوين الأدائي في الحديث النبوي، وهي تضمّن الأحاديث بعض آيات القرآن الكريم، التي تلتحم بالمعنى وتقوي المبني، وتضاعف من التأثير والإقناع والإمتاع.

وفي قلب الحديث الشريف تشرق آيات من سورة المائدة وهي أصدق شاهد على انحراف بني إسرائيل عن المنهج الإلهي في مقاومة التعدي على حدود الله، ومقاومة الظالمين الآثمين ، الذين يداهنون العصاة، ويتولون الكافرين ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[1].

والقسم الثالث: هو المقصد الأسنى لهذه الأمة من ذلك الحديث الشريف: ويتمثل في هذه الأوامر الصارمة، والأساليب المؤكدة، والأمر بالأخذ على يد الظالم، وإلا فالمصيرُ معروف: وهو سيكون مثل مصير بني إسرائيل : "ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعن بني إسرائيل".

ويبدأ الحديث بالتأكيد بإنَّ في سياق الإخبار عن بني إسرائيل، وتعليل دخول النقص عليهم وتشتيت شملهم وهو أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: ياهذا اتق الله، ثم بعد ذلك يصاحبه وهو على حاله من الإثم.

وهذه الجملة أيضاً تبدأ بالتأكيد وضمير الشأن أنّه، ولفظ أول، في الجملة الأولى:

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٧٨-٨١.

يوحي بخطورة هذا المسلك، الإمَّعيّ: وخاصة من العلماء الناصحين، ويؤيد ذلك ما جاء في الرواية الثانية للحديث، لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم: فلم ينتهوا فجالسوهم، وواكلوهم، وشاربوهم.

وفي الحديث إيجاز بالحذف لإثارة الاهتمام، وإعمال العقل، وكد الفكر، فقوله: كان الرجل يلقي الرجل أي: كان الرجل الناصح العالم، يلقي الرجل الفاعل معصية، والعطف بالفاء في قوله: فيقول: يرشد إلى ضرورة الإسراع في النصيحة، وعدم التأني، وعدم الخجل، ولكن الصدق ينجي، والدين النصيحة.

والنداء بحرف الياء مع اسم الإشارة: يفصح عن أهمية التوجيه والتنبيه، وضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعدول عن حرف النداء "الهمزة"، وهو للقريب إلى الياء وهو للبعيد للإيحاء بأن هذا العاصي سادر في غيه، وكأنه بعيد عن صوت النصيحة، ويحتاج إلى صوت قوي شديد، ونداء كأنه صادر من بعيد.

وقوله: ياهذا، يوحي بالسخرية والتحضير، واسم الإشارة في سياقات أخرى محمودة يدل على التمييز الكامل، أما هنا فالسياق مختلف، وفعلا الأمر "اتق الله ودع ما تصنع"، يزيدان الموقف جلاءً، والأمر تأكيداً، وقدم التقوى على ترك الفعل الآثم، لأن التقوى طريق الصلاح والطاعة، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

والعطف "بثم" في قوله: ثم يلقاه من الغد، يومئ إلى عدم متابعة هذا الناصح لذلك العاصي، وفي ذلك تقصير، وياليت الأمر يقف عند هذا التقصير، وسوء التدبير، ولكن ذلك العالم الناصح يُهْزَم أمام إغراء المعصية، ولنتأمل هذه المفارقة العجيبة التي تكشف هشاشة موقف علماء بني إسرائيل ومن على شاكلتهم من خطباء الفتنة، وبعض الدعاة المنافقين، المأجورين، والأدعياء الغافلين.

ولنتأمل هذه الصيغة اللغوية التي كررت ثلاث مرات: أكيله وشريبه وقعيده، وهى تدل على المشاركة والمنادمة والمباسطة، والرضا بما يفعل، والوقوع في شرك هذا الفعل

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

الآثم؛ وما أخطر هذا السلوك الذي انتشر في المجتمعات الإسلامية تحت عناوين زائفة، ومسميات راجفة، ودعاوى مجحفة، ومنها الصداقة، والحرية، وعدم الإجبار، والرغبة في التجريب، واكتساب الخبرة.

ولكن الجزاء الأوفى السريع يُفصح عنه العطف بحرف الفاء، وأشار إلى هذا السلوك المنحرف باسم الإشارة "ذلك" في قوله: فما فعلوا ذلك، تضخيماً لهذا الأمر، وتشنيعاً له؛ والعقاب يأتي جواباً للشرط وهو قوله: ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وتأمل وتدبر ما وراء قوله قلوب بعضهم ببعض، إنها تفوح بكل روائح الكراهية والعداء والحسد والتمزق؛ والفعل: ضَرب، يصور ذلك الصراع الكامن في النفوس، وقوله: بعضهم ببعض، يصور التصادم الشعوري، والنفسي والفكري، كما قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[1]. فما أدق هذا الأسلوب، وما أجمله، وما أوجزه، وإنه كما قال صاحبه من جوامع الكلم.

وتتوهج الآيات الكريمات في قلب الحديث كالشمس في كبد السماء، تتماوج دلالاتها الإشعاعية، وتكشف عورات بني إسرائيل الفكرية والسلوكية، وتحذر الأمة الإسلامية من هذا المصير المحتوم.

ويبدأ القسم الثالث: بالزجر والقسم في قوله: كلا والله، حرصاً على الأمة، وخوفاً على مصيرها وكيانها، وتتوالى التأكيدات في الجمل الست التالية.. التي تعد إنذارات للأمة، وأوامر جازمة صارمة: لا تقبل المراء ولا الالتواء، والأوامر صادرة من رسول الله للأمة جمعاء، وجاءت في صيغة المضارع التي تعلن عن وقوع هذه الأحداث المأمور بها في الحاضر والمستقبل: فهي سلوكيات تستمر مع الأمة كلها، لأنها من معالم منْهَجِها الثابت الشامل المتوازن الواقعي النابع من الإيمان بالألوهية والربوبية إيماناً ثابتاً لا تزلزله العواصف، ولا تهز ثباته الرياح، ولنتأمل هذا الإيقاع الصوتي: الذي يجسد المعنى، ويشخص الفكرة، حيث يتوالى في هذه الأفعال المضارعة التي تبدأ بلام الأمر، وتنتهي

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٤.

بنون التوكيد الثقيلة، "لتأمرن – لتنهون، لتأخذن"، وفي سياق الأمر بالأخذ على يد الظالم نجد الإيقاع الصوتي المؤكد يقترن بضمير الغائب العائد على الظالم: لمزيد من التأكيد على مقاومته ويتصاعد الإيقاع والتوازي الأسلوبي، وتُلْقي الألفاظ بجُرْسها وظلالها على المعنى المراد: حتى يتأصل في النفوس، وتشحذ العقول وتظل الأمة في حالة استنفار، لمجابهة الاستعلاء والاستكبار من قبل الظالمين، وتتكرر عبارة علي "الحق" مرتين في سياق محاصرة الظالم، وإجباره على العودة إلى ساحة العدالة، وواحه الطاعة والسلام، ولنتأمل هذه القوة المعنوية والأسلوبية والإيقاعية في هاتين الجملتين، "ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصراً"، إن السجع هنا يشد من عضد المعنى، وهو من بدائع الصياغة، ومن دلائل إحكامها، وختام الحديث يعانق أوله، حيث يؤكد المصطفى تحذيره للأمة من مخالفة المنهج حتى لا يكون مصيرها كبني إسرائيل.

فقه الحديث

١-لعن الكافرين: قال القرطبي: (قوله تعالى "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم" فيه جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء، وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم ومعنى "على لسان داود وعيسى ابن مريم" أي: لعنوا في الزبور والإنجيل. فإن الزبور لسان داود والإنجيل لسان عيسى، أي: لعنهم الله في الكتابين)[1].

٢- النهي عن المنكر: قال القرطبي: (قوله تعالى: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى "كانوا لا يتناهون" أي: لا ينهى بعضهم بعضًا، "لبئس ما كانوا يفعلون" ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذمُّ من فعله فعلهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٤/٨.

الثانية: قال ابن عطية[١]: (والإجماع[٢] منعقد على أن النهي عن المنكر فرضٌ لمن أطاقه ونهى بمعروف وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه، وقال حذاق أهل العلم: ليس من شرط الناهي أن يكون سليمًا عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضًا. وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضًا، واستدل بهذه الآية، قال لأن قوله "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه" يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي)[٣].

٣-هجر المجرمين وعدم مجالستهم: قال القرطبي: (وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم، وأكد ذلك بقوله في الإنكار على اليهود، ترى كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا)[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: بيان حال بني إسرائيل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: من واجبات الداعية: الإنكار على المخالفين.

رابعاً: من صفات الداعية: الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر.

خامساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سادساً: من أساليب الدعوة: القسم.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الاعتبار بالأمم السابقة.

ثامناً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) المحرر الوجير "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٢٩.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/ ٢٤٨ ومراجعها.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي٨/ ١٠٦.

(٤) المرجع السابق ٨/ ١٠٦.

أولاً- من تاريخ الدعوة: بيان حال بني إسرائيل:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث بيان حال بني إسرائيل ويظهر هذا في قوله ﷺ "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله... الخ الحديث" فبيّن ﷺ حال بني إسرائيل إذ كان علماؤهم ينهوهم عن المنكر فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم ولم يعرضوا عنهم لذلك استحقوا اللعن قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

قال ابن كثير: (يخبر سبحانه أنه لعن الكافرين من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾. أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾)[2].

وقد بالغ القرآن الكريم في ذم العلماء وأولي الأمر من بني إسرائيل على أن الله تعالى قد بوأهم مكانة مرموقة من إصلاح الأمة، ولكنهم قصروا عن أداء مسؤوليتهم. فكانوا يرون الناس حولهم يعصون الله، ويعتدون على غيرهم ولا يفرقون بين الحلال

(١) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ - ٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٦٠.

والحرم فلا يحاولون تغيير الوضع البتة. يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1].

قال الرازي وهو يفسر الآيتين: "إن الله تعالى استبعد من أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي. وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد"[2].

وليس ذلك فحسب بل اشار الرازي وغيره من المفسرين إلى أن القرآن الكريم قد ذم تارك النهي عن المنكر بأشد مما ذم به مرتكبه فإنه قال في الأول: (يصنعون) بينما اكتفى في الثاني بقوله: (يعملون).

ولذلك رأى علماء الحق دائماً في هذه الآية توبيخاً شديداً لهم، يقول ابن جرير الطبري: (كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها).

وروى ذلك عن عبدالله بن عباس والضحاك وعطاء أيضاً في تفسير هذه الآية[3].

وذكر النبي ﷺ فساد بني إسرائيل الاجتماعي وهلاكهم، ثم أوصى أمته فقال: (كلا. والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً)[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظهر ذلك من قوله ﷺ "أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٦٢، ٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، الرازي ١٣٨/٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٥٥٠/٨، ٥٥١.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، السيد جلال العمري ص ١٩٦ - ١٩٨.

ليلعنكم كما لعنهم" أي: لا تنجون من العذاب حتى تميلوهم عن الباطل إلى الحق وتمنعوهم الظلم[١].

ذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لصلاح المجتمع واستقامته، وسلامته من الفواحش والمنكرات الظاهرة، فإذا أهملت هذه الشعيرة، ترتب على ذلك فشو المنكرات والمجاهرة بها، وظهور الخبث وكثرته، وكان ذلك دليلاً على تمكن أهل المنكر وقوتهم، وذريعة لاقتداء الناس بهم، وتقليدهم إياهم، وما تزال المنكرات تفشو وتنتشر حتى تتمكن في النفوس، وتصبح أمراً مألوفاً يهرم عليه الكبير ويشب عليه الصغير.

وحين يصبح المجتمع بهذه المثابة فإنه يستحق العقوبة العامة والعذاب الإلهي الشامل الذي يحيق بالطالحين والصالحين إلا من كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. أما مجرد الصلاح من غير قيام بواجب الأمر والنهي فإنه لا ينجى من عذاب الله إذا نزل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٢].

فهذا تحذير من الله تعالى للذين سكتوا عن إنكار المنكر وأقروه بين أظهرهم: أن يعمهم العذاب مع الظالمين وإن كانوا لم يشاركوهم في فعل المنكر[٣].

قال القرطبي: (قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت، هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر، وعدم التغيير)[٤].

وقال الشنقيطي: (والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره، هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب: صالحهم

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٢٣٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في تحقيق الأمن، د. عبدالعزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤/٧/٣٩٢.

وطالحهم، وبه فسرها جماعة من أهل العلم، والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك)[١].

قال رسول الله ﷺ ((إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلاَ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ))[٢].

وقال أيضاً ﷺ: ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه))[٣].

وبترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحصل ضرر كبير على الفرد والمجتمع في جميع جوانب الحياة الخاصة والعامة فينبغي على الدعاة والمدعوين أن يهتموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل أن يأتيهم أمر لا مرد له من الله[٤].

ثالثاً- من واجبات الداعية: الإنكار على المخالفين:

إن واجبات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث الإنكار على المخالفين حيث بين رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل وأنكر عليهم صنيعهم وأمر المسلمين بإنكار المنكر حتى لا يأثموا.

وقال ﷺ في بيان ذلك: "إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها" وقال مرة: "أنكرها" ((كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا))[٥].

فهذا الحديث بيَّن أن المسلم الذي يرى الخطيئة لابد أن ينكرها فمن باب أولى الداعية إلى الله؛ لأنه القائم بالدعوة الدال على الخير.

---

(١) أضواء البيان، ٢/١٧١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٩٢/١٧٧٢٠، وقال محققو المسند حسن لغيره.

(٣) أخرجه الترمذي برقم ٢٦١٨ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٧٦١).

(٤) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ١/٢٤٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٣٤٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥١).

رابعاً- من صفات الداعية: الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث الالتزام والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، بأن يكون قدوة للمدعوين فيما يأمر وينهى، أما إذا ترك ما يأمر به من معروف ولم ينته عما ينهى عنه من منكر فهذا ما حذر الله تعالى منه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

قال السعدي: أي: لما تقولون الخير، وتحثون عليه، وربما تمدحتم به، وأنتم لا تفعلونه أو تنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؛ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟

ولهذا ينبغي للآمر بالخير، أن يكون أول الناس مبادرة إليه، والناهي عن الشر، أن يكون أبعد الناس عنه[٢].

لأن الداعية إذا لم يتطابق فعله مع قوله، وإن لم يتوافق واقعه مع منطقه؛ فإنه يسيء أكثر مما يحسن، ويضر أكثر مما يصلح، بل ربما كان سبباً في إشاعة المروق والفسوق والمعصية بين الناس لأن بعض الناس؛ يقولون: لولا أن هذا الداعية يعلم في قرارة نفسه أنه لاوزناً لزواجره ومواعظه وتخويفاته، لما أقدم على ما أقدم عليه من مقارفة للمناهي والمفاسد والمنكرات[٣].

يقول ابن القيم: علماء السوء، جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم؛ فكلما قالت: أقوالهم للناس: هلمُّوا، قالت أفعالهم: لا

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٧٩٦.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية ومعه بحث تمهيدي عنوانه: علامات ضوئية على طريق الدعاة، د. محمد جميل غازي ص ٨.

تسمعوا منهم. فلو كان ما كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له؛ فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطاع الطرق[(١)].

خامساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترهيب حيث ذكر رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل وعدم التزامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(٢)] ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوا[(٣)]. فرهب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورهّب من عدم الامتثال لهما، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المهمة حيث يستخدمه الداعية فيما يريد أن يخوف المدعوين منه ويجعلهم لا يأتونه خشية العقاب.

سادساً- من أساليب الدعوة: القسم:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب القسم وهذا يظهر في قوله ﷺ "والله لتأمرن..." فأقسم ﷺ على أمته أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا إن دل فإنما يدل على أهمية الأمر المقسم عليه وحرص رسول الله ﷺ عليه لأمته لما فيه من خير لهم.

وأسلوب القسم من أساليب الدعوة المهمة في الدعوة إلى الله حيث يُعلم المدعوين بضرورة المقسم عليه وأهميته وحرص الداعية عليه بتأكيده بالقسم عليه.

فأسلوب القسم من الأساليب المؤثرة في الدعوة إلى الله، ذلك لأن الكلام المؤكد أوالذي يحمل صيغة التأكيد ذو تأثير لا يسعنا إنكاره في حياتنا الفردية والاجتماعية، وهذا التأثير لا يتم إلا إذا استندت هذه المؤكدات إلى دعائم قوية، هذه الدعائم موجودة في القسم، كيف لا والقسم إنما يكون بذات عظيمة هي ذات الخالق سبحانه وتعالى[(٤)].

---

(١) الفوائد، ابن القيم ٩٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/ ١٦٠.

(٤) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصرالله محمد نياز ص ١٣٤.

(فإذا ما كان القسم بالعظيم من عظيم دل في وضوح على أن المقسم عليه عظيم)[١].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الاعتبار بالأمم السابقة:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الاعتبار بالأمم السابقة فقد بين رسول الله ﷺ ما كان عليه بنو إسرائيل لأخذ العبرة من قصصهم والاستفادة من أخطائهم، فإن ما انتقده القرآن على علماء بني إسرائيل وأحبارهم فيه عبرة وموعظة ودرس كبير للأمة المسلمة، ولا سيما العلماء منها. فإنها تؤكد لهم أنهم سوف يتعرضون لسخط الله وعقابه إذا توانوا في أداء واجبهم والقيام بمسؤولياتهم، وتركوا مهمة إصلاح الأمة وأعرضوا عنها، لأن الله تعالى لا يوالي أحداً لذاته، فيحبه على سيئاته كما لا يعادي أحداً لذاته فيبغضه على حسانه[٢]، لذا فينبغي أخذ العبرة من أخطاء الأمم السابقة، وهذا ما نبه عليه المولى تبارك وتعالى، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٣].

قال السعدي: (أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم من كرامة، أو إهانة)[٤].

فينبغي للداعية أن يذكر الناس بقصص الأمم السابقة لأخذ العبرة منها ليبتعدوا عن أسباب هلاكهم.

---

(١) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٤٥.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جلال العمري ص ١٩٧.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٦٢.

ثامناً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من واجبات الداعية نحو المدعوين أن يحثهم على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما أمر به المولى تبارك وتعالى فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه[2]، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[3].

فالداعية إلى الله من أهم واجباته حث المدعوين على القيام والالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٩١.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩.

الحديث رقم (١٩٧)

١٩٧- **الرَّابعَ عَشَر**: عن أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ. قال: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تقرءونَ هَذِهِ الآيةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] وإني سَمِعت رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّه بِعِقَابٍ مِنْهُ**» رواه أبو داود، والترمذي والنسائيُّ[١]، بأسانيد صحيحة.

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

فلم يأخذوا على يديه: لم يمنعوه عمّا يُريد، كأنهم أمسكوا يدَه[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به الإمام النووي باب "في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"، وهو يتلاقى في مضمونه ومقصده مع الأحاديث السابقة، التي تحض الأمة على مقاومة الظلم، وردْع الظالمين، الذين يشوِّهون قيم الحياة الجميلة، ويشيعون الفساد والرذيلة، لأنهم يظلمون أنفسهم، ويظلمون أمتهم، ويشوهون الفطرة الإنسانية، فالظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو الانتقاص من الشيء: قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾[٣]. أي: ولم تنقص، والدلالة الحسية للكلمة تعني الاضطراب، والانحراف عن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، و٣٠٥٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١١٠٩٢). قال ابن كثير في التفسير (١١٠/٢): وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلا، ومنهم من رواه عنه به موقوفًا على الصديق، وقد رجّح رفعه الدارقطني في العلل (٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ خ ذ).

(٣) سورة الكهف، آية: ٣٣.

الوجْه المألوف، فَقَوْل العرب: ظلم الأرض: أى حفرها في غير موضع حفرها، ويقول العرب: ظلم البعير أي: نحره من غير داء.

وهذه الدلالات اللغوية التي أوردها صاحب القاموس المحيط تؤكد وتؤصل انحراف هذا السلوك البشري الفاسد.

ويبدأ الحديث الشريف بداية تحذيرية لكل مسلك: وهذا التحذير يقدمه الراوي الأعلى للحديث وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث ينبه الناس إلى ضرورة التأمل والتدبر، وإلى فقه المعنى، والوصول إلى المقصد الأسنى من هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[1]، وهو يرمي إلى إزالة الشبهة من عقول الذين يقرءون ولا يفقهون، حيت يظنون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس واجباً، وليس مسؤولية جماعية، الإنسان في مسيرة حياته لا يعير العاصين انتباهاً، ولا يهمه أمر صلاحهم لأنه كما يتوهم ليس مسؤولاً إلا عن نفسه، وأنه استناداً إلى فهمه القاصر، لا يضره من ضل إذا اهتدى ، وأراد أبو بكر بعد تضمين الحديث هذه الآية الكريمة أن يقيم الحجة على هؤلاء الواهمين الذين لا يتدبرون القرآن، ولا يفقهون أسراره ومقاصده، فأتى بهذا النص النبوي الذي يوضح المشكل في هذه الآية، ويفصل المجْمل، ويهدي المرتابين، والواهمين إلى المنهج السَوي الصحيح.

ولنتأمَّل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الكريم، وهو يتكون من جملة واحدة: وهذه الجملة اسمية، خبرية: تتكون من مبتدأ وخبر، وهذا التكوين يضم في إطاره عدة جمل، جملة الشرط، إذا رأوا الظالم، وبعدها جملة معطوفة، فلم يأخذوا على يديه، ثم تأتي جملة جواب الشرط، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

وتداخل الجمل المكونة لخبر إن، وتشابكها يوحي بثقل الظلم وفداحته، والتحفز لمقاومته، وهذا التفسير النابع من التشكيل اللغوي، يتفق مع ما قاله عبدالقاهر في دلائل الإعجاز، وهو يؤسس لنظرية النظم حيث يقول الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه، وأداة الشرط هنا "إذا"، وهى للتحقق، وفي ذلك إيحاء وتوجيه بأن رؤية الظالم متحققة، وبأن الظلم موجود، ولابد من مقاومته، والتعبير بالفعل رأوا، يؤكد هذا المعنى، لأن رأى: تحمل دلالتين، المشاهدة، والعلم وكلاهما من شواهد وجود الظلم، والظالمين، وقوله: فلم يأخذوا، يتضمن وجوب ردع الظالم ورده عن ظلمه: لأن الأخذ على يده أقوى وآكد من المنع، فربما يمتنع ثم يعود ولكن الأخذ على يده ينهي هذه الخصلة المسيئة والسلوك الأهوج، وجواب الشرط تأتي مادته اللغوية موحية برحمة الله بعباده، فالفعل أوشك من أفعال المقاربة، وهو اختيار لغوي من شأنه أن يعطي ويمنح الظالمين فرصة للتوبة والمراجعة، قبل أن يعمهم الله بعذاب من عنده، واختيار الفعل: يعمهم دون غيره، بعد منح الفرصة لهؤلاء الذين لم يأخذوا على يد الظالم، يرشد إلى أن النقمة تعم، والنعم تخص، فالعقاب يقع على الظالم لظلمه، وعلى غيره لإقراره عليه، وقد قدر على منعه، أما المعذور فلا يتناوله بفضل الله هذا المحذور، وتنكير لفظ عقاب لإفادة عموم العذاب، وتعدد ألوانه وأنواعه، وتحديد العقاب بأنه منه أى من الله لإشاعة الرهبة والخشية حتى يرتدع الظالم عن ظلمه، وحتى لا يفرط الناس في مقاومته كى تستقيم أمور الحياة، وينعم الناس بالأمن والنجاة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الأخذ على يد الظالم ومعونة المظلوم، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجب على كل مسلم أن يُعين على وقف الظالم عن ظلمه بما يستطيعه على قدر طاقته، وأن يعين المظلوم حتى يحصل على حقه، وأن الظالم يجوز

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٢/٢٦٦، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/١١٠، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٣/١٩٠، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣/٤٩٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٥/١١١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/١٦٦، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٦/١٦٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٩/١٥٣، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٤٧٠، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٢٠، والمحلى، ابن حزم ١١/٣٥٠.

دفعه بما يكفي لردعه فإن لم يرتدع إلا بالقتل جاز قتله كمن راود امرأة عن نفسها ولم تجد سبيلاً للخلاص منه إلا قتله، وكمن قطع الطريق على الناس، أو خوفهم بما يقلقهم وقتل منهم ونال من أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك مما بينه الفقهاء تفصيلاً في حكم دفع الصائل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانياً: من واجبات الداعية: تصحيح فهم المدعوين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل ما سمعوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب النداء وقد ورد في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "يا أيها الناس...".

وأسلوب النداء من الأساليب الدعوية المهمة، فهو يلفت انتباه المدعوين إلى الدعوة ويجعل الداعية يوجه دعوته لمن يريد من المدعوين، فإن أراد الدعوة عامة وجهها عامة كما فعل أبو بكر رضي الله عنه وقال: "يا أيها الناس" وأن أرادها خاصة بشخص وجهها إليه وقال: (يا فلان).

ثانياً- من واجبات الداعية: تصحيح فهم المدعوين:

من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث تصحيح فهم المدعوين، فأبو بكر رضي الله عنه قال: (يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا

﴿يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [(١)]، فخاف الصديق أن يتأول الناس الآية غير تأويلها فيدعوهم ذلك إلى ترك الأمر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك، وأن الذي أذن في الإمساك عن تغييره عن المنكر هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صولحوا عليه، فأما الفسوق والعصيان والريب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه[(٢)]، فهو بذلك صحح فهم الناس للآية لذا يجب على الدعاة إلى الله تصحيح فهم المدعوين.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نقل ما سمعوه عن رسول الله ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث حرص الصحابة ﷺ على نقل ما سمعوه عن النبي ﷺ ويظهر ذلك من قول أبي بكر ﷺ: (وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول)؛ فالصحابة كانوا حريصين على سماع سنة الرسول ﷺ وحريصين على نقلها، وقد ورد ما يؤيد حرصهم على سماعها دون أن يفوتهم منها شيء فقد ورد عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: ((كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ - وهيَ مِن عوالي المدينةِ- وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله ﷺ، يَنزِلُ يوماً وأَنزِلُ يَوماً، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبَرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعلَ مِثلَ ذلِكَ....))[(٣)].

وكانوا كذلك حريصين على نقل ما سمعوه عن رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أنه ﷺ القدوة لجميع الأمة والمعلم لها، فينقلون ما يقول ويفعل حتى تقتدي به أمته، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[(٤)]، وقد أمر ﷺ بالتبليغ عنه فقال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً))[(٥)].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٧٦٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٨٩.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

قال ابن حجر: "ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ"[١]، فكان صحابته ﵃ ممتثلين لهذا الأمر حريصين على النقل والتبليغ.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

إن من أساليب الدعوة التي تضمنها الحديث أسلوب الإخبار وهذا يظهر من إخبار أبي بكر ﵁ عما سمعه من رسول الله ﷺ، وأسلوب الإخبار يفيد منه الداعية في إخبار المدعوين بسنة الرسول ﷺ والإخبار عن تعاليم الدين وبحقيقة دعوته فينبغي على الداعية استخدام أسلوب الإخبار في دعوته.

خامساً- من موضوعات الدعوة: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد بيّن أبو بكر ﵁ أن الآية ليس المقصود بها عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان المسلم مهتد، فقد بين أن رسول الله ﷺ ذكر أن عدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى وقوع عقاب الله على التاركين.

"ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في غاية الأهمية بالنسبة للمجتمع الإسلامي، فبها تصلح أحوال المسلمين العامة والخاصة، وإذا أهمل انتشر الفساد في البر والبحر، وعمّت الفوضى، واضطرب حبل الأمن والأمان، ودبّ الضعف في بنية الأمة وكيانها، وهذا يفضي إلى الهزيمة والخذلان"[٢].

وما أجمل ما قاله الغزالي في هذا الشأن: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٥/٦.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. محمد عبدالقادر أبو فارس ص ٢٩.

العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد)[١].

ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن جعله الله صفة للنبي ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[٢]، فهذا بيان لكمال رسالته، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر وأحلّ كل طيب، وحرّم كل خبيث... وكذلك وصف الأمة الإسلامية بما وصف به نبيها حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة.

فبيّن الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق[٥].

ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قول حذيفة رضي الله عنه: (الإسلام ثمانية أسهم: وذكر منها الأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له)[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ١١٩٢/٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٤) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، ومعه: بحث تمهيدي عنوانه (علامات ضوئية على طريق الدعاة)، د. محمد جميل غازي ص ٣٣ - ٣٥.

(٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ١٢٥/١.

ومما يدل أيضاً على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما بيّنه رسول الله ﷺ من أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صدقة يؤجر المرء على قيامه بها فقد روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي: يا رسول الله ذهب أهل الدُثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال ﷺ: ((أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللّهِ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُل تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ))[١].

وقال ﷺ: ((مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلاَ يُسْتَجَابَ لَكُمْ))[٢]، فيعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وسائل الأمان والحماية والحفاظ على كيان المجتمع الإسلامي، فهو بمثابة صمام الأمان الذي يوفر السلامة والحماية للمجتمع، وذلك بالحث على الالتزام بالمعروف وفعله، وترك المنكرات التي تؤثر على سلامة المجتمع[٣].

سادساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الترهيب وهذا يظهر في قوله ﷺ: ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ))، حيث رهّب ﷺ من عدم إنكار المنكر ورد الظالم عن ظلمه وبيّن أن ذلك يكون سبباً في عقاب الله لهم، وذلك؛ لأن عدم إنكار المنكر يكون من دواعي اللعنة والعذاب، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

(٢) أخرجه ابن ماجة ٤٠٠٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٣٥).

(٣) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محيي الدين عفيفي أحمد ص ٣٢.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عُذِّبَ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ))[١].

والمقصود بالترهيب: كل ما يخيف وكل ما يحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه[٢].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٩٢/٤ رقم ١٧٧٢٠، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الحرية المطلقة لا يعرفها الإسلام والكبت التام لا يقره الإسلام، بل الحرية المنضبطة بضوابط الشرع، ومعايير الالتزام مردها إلى أمرين:

١/ معروف عرفه الناس وأقره الشرع ودعا إليه.

٢/ منكر أنكره الناس وأقره الشرع أو جاء به ابتداءً.

والمسلمون مطالبون تربوياً بما يلي:

التربية على الإيجابية:

قد ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على أن يكونوا إيجابيين إزاء المزالق الأخلاقية للآخرين، فعلى المؤمن أن لا يقف مكتوف اليدين عندما يرى المنكر والباطل يجاهر به؛ بل عليه أن يتحرك بإيقاف هذا المنكر، وسعه ذلك، يقول: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ..."، فإن المسلم لا يليق به أن يكون سلبياً، ولقد أتاح النبي ﷺ لكل المؤمنين على قدر قواهم ومكانتهم أن يغيروا المنكر، باليد أو باللسان أو بالقلب، يقول ﷺ: "فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ".

فالمرء إذا لم يكن إيجابياً غيوراً على الحق فإن ذلك مهدد بضياع الفضيلة، وانتشار الرذيلة، فالغيرة الصادقة تبعث صاحبها على الفضائل، وتنهض به إلى محاربة الفساد بكل صوره، وتأخذ بيده إلى مكافحة المبطل أو المفسد وتقويم عوجه في تثبت وحزم، أما ضعف الغيرة على الحق أو فقدها، فنقيصة تزل بصاحبها إلى الحضيض[1]، وأي حضيض أحط من السكوت على الحق، والسلبية في مواجهة الباطل؟!.

ثانياً- التربية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يقول ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ ..."، ويقول: "فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد ص ٧٥.

مُؤْمِنٌ، ...، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ..."، وذلك السلوك الذي ربى عليه النبي ﷺ صحابته الكرام هو سمة هذه الأمة، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1].

ولا تزال الأمة بخير ما دامت تأخذ بهذا المبدأ التربوي العظيم، الذي يميزها عن سائر الأمم التي يشيع فيها الضلال والفاحشة، ثم لا يتناهون عما يفعل ضُلالهم، بدعوى الحريات الشخصية، وتحرير المجتمعات من قيود العقائد والانحراف، وتلك هي النتيجة الطبيعية لترك هذا السلوك العظيم "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من طرق التربية الخلقية المباشرة، وهو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي بعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوي بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهمل، لعطلت النبوة، وفشت الضلالة وشاع الجهل، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، فله دور هام في التربية الخلقية والتهذيب، وهو واجب على الناس جميعاً، خاصة أهل العلم منهم، وهذا الأمر أيضاً واجب وجوب كفاية على المسلمين، وهو دليل الصدق في الله والدين ولابد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشفقة والرأفة واللين في القول، وذلك حتى يؤتى ثماره في إحداث الغاية المرجوة من تهذيب الأخلاق[2].

ثالثاً- التربية بضرب المثل:

وقد استعمله النبي ﷺ في تشبيه القائمين على حدود الله والواقعين فيها، يقول ﷺ: "مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدودِ اللَّهِ ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، ..."، وقد أراد ﷺ من وراء ضرب المثل في هذا الموضع تصوير الأمر وتقريبه إلى أذهان صحابته رضي الله عنهم، وقد شبه هنا المعنوي بالحسي، أو الغائب بالحاضر، فإن السفينة من

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب ص ٢٦١.

الأشياء التي كانت معروفة لدى الصحابة، خاصة من سافر منهم إلى الشرق أو الغرب، ولهذا ضرب ﷺ المثل بها، حيث اشترك فيها مجموعة من المسافرين، فحل بعضهم بالطابق العلوي، والآخرون في الطابق الذي يلي الماء مباشرة، وإذا أراد الذين هم بأسفلها الماء صعدوا إلى أعلى، وهنا أراد بعضهم طلباً للراحة خرق السفينة للحصول على الماء دون عناء الصعود إلى أعلاها، وهذا فيه من الخطر على الجميع، فلو أخذ الناس على يد هؤلاء ومنعوهم نجا الجميع، وإلا فالهلاك سيكون مصيرهم لا محالة.

وهكذا الحال بالذين يفعلون المنكرات ويخرقون قواعد الدين ويمرقون عنها، فلو نهوا عن المنكر لنجا المجتمع كله من الفساد، ولو تركوا وما يفعلون، فما أقرب أن يضيع المجتمع كله، ويفشو الفساد، مثلما حدث في كثير من المجتمعات في عصرنا الحديث.

ولضرب المثل فوائد جمّة للمتربين، منها[1]:

١-تقريب المعنى إلى الأفهام، وزيادة التوضيح بذكر الشيء الذي تماثله.

٢-تجسيد الشيء المعنوي في صورة حسنة، فتوضح حاله، وتجعله قريباً للفهم.

٣-توضيح المجهول في صورة المعلوم، فتنكشف عن حقيقته، وتوضيح حسنه أو قبحه.

٤-تؤثر في النفس تأثيراً واضحاً بذكر المثل الواضح الذي يشجع على العمل أو ينفر منه.

رابعاً- التربية على السمع والطاعة لولي الأمر:

فطاعة الحاكم من الأسس التي ربى النبي ﷺ عليها صحابته الكرام؛ لما في ذلك من أثر على وحدة الأمة وتماسكها، إلا أن يخرج هذا الحاكم عن المعلوم من الدين بالضرورة، وترك الصلاة، فحينها يجب على الرعية الخروج عليه، ومقاتلته، وليس في غير ذلك مبرر للخروج عليه، حتى إن أتى بغير ما يحبون من قسمة الأموال وتعيين الولاة وغير ذلك من الأمور الدنيوية.

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ٢٠٦.

وقد جعل الماوردي خروج الإمام عن أساسيات الدين والعدل سبباً في الخروج عليه، وإيقافه عن بغيه، يقول: "وإن كانت أفعاله -يعني الإمام- خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز إقراره عليها، ولزمه أن يستنصر من يقبض يده ويزيل تغلبه"[١].

خامساً- التربية بالترهيب:

من الأحاديث التي استعمل فيها النبي ﷺ أسلوب الترهيب، قوله: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرَ قَدِ اقْتَرَبَ ..." ففيها تخويف لصحابته من هذا الخطر المحدق بهم؛ خطر يأجوج ومأجوج، وفي ذلك إعداد نفسي للمؤمنين، ليستعدوا لهذا الخطر القادم، من خلال ترهيبهم، وعندما سألته زينب بنت جحش رضي الله عنها: "أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟"، أجابها: "نَعَمْ. إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ".

وفي موضع آخر يرهب النبي ﷺ من لبس الذهب، عندما نزع الخاتم عن يد لابسه، وقال: "يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ؟"، إنه تخويف من عاقبة لبس الرجال للذهب، فما هذا الخاتم في يد لابسه إلا جمرة من النار، وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الترهيب حتى يوقف هذا الرجل عن فعله الخاطئ، ويكف عن لبس الذهب، فكان هذا الأسلوب مانعاً له، حيث ترك الخاتم ولم يرض بمجرد بيعه، والانتفاع به، قائلاً: "لاَ. وَاللّهِ لاَ آخُذُهُ أَبَداً. وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ".

وفي حديث ثالث يُرهب النبي ﷺ من السكوت عن الحق وإقرار الباطل بقوله: "لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ و لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ"، لأن السكوت على الباطل يؤدي إلى انتشاره وشيوعه في المجتمع، فعلى المسلمين أن يتواصوا بالحق فيما بينهم، حتى لا يقع عليهم عذاب الله الذي لا رادّ له.

ولأهمية أسلوب الترهيب في العملية التربوية، فقد استخدمه رسول الله ﷺ في المواقف التي تحتاج إلى بيان الوعيد أو التهديد بالعقوبة لمن يعمل عملاً لا يوافق الشريعة الإسلامية ويغضب الله تعالى، فكان رسول الله ﷺ يربي الصحابة رضي الله عنهم على تجنب المنكرات والوقوع بها"[٢].

---

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ص ٢٠.

(٢) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن عبدالوهاب البابطين ص ٣٨.

سادساً- التربية بالتحذير:

وهو من الأساليب التربوية الهامة التي وردت في أحاديث هذا الباب، وقد استخدم النبي ﷺ أداة التحذير "إياكم" يقول: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»، لما فيها من عرضة لاقتراف المعاصي، من الغيبة والنميمة والنظر إلى ما حرم الله، ولهذا حذرهم من الجلوس فيها، إلا بحقها، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورد السلام وكف الأذى وغض البصر.

والتحذير يكون بالتحرز من إتيانٍ أو فعلٍ أو امتناعٍ عنه، لكونه سبباً في غضب الله تعالى وعذابه، أو سبباً في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك[1].

سابعاً- التربية على الشجاعة:

ويظهر ذلك في أحاديث هذا الباب في موضعين، أولهما: موقف عائذ بن عمرو رضي الله عنه حين دخل على عبيد الله بن زياد فقال: «أي بني....» وعندما قال كلمة الحق عنده وحدثه بحديث رسول الله ﷺ وذكره بالله، استهزأ به عبيد الله، فردّ عائذ بن عمرو كلامه، رغم علمه ببطشه الشديد، وقسوته وجبروته، ولكن شجاعته أبت إلا أن يقول ما يريد دون خوف العواقب.

أما الموضع الثاني فهو قوله ﷺ عندما سئل: أي الجهاد أفضل؟ فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر»، ذلك هديه في التربية على الشجاعة وغرسها في نفوس صحابته الكرام رضي الله عنهم، ولهذا فقد اعتبر الذي يقول كلمة الحق عند السلطان الجائر في منزلة أعلى من المجاهد في سبيل الله بنفسه ودمه؛ لأن الجامع بينهما الشجاعة والفداء والتضحية؛ غير أن الذي يذكر ولي الأمر الظالم بظلمه أكثر شجاعة؛ لأنه ينطق دون غيره، ويخرج من المسالمة والخنوع، بل ومن الراحة ، إلى تعريض نفسه لبطش السلطان، وإذا ما أجدت نصيحته ونفعت، فإن النفع يعم الناس جميعاً؛ لأن صلاح السلطان صلاح للرعية كلها.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٤٩.

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه هو عزة إيمانه، وعزة الإيمان غير كبرياء الطغيان؛ إنها أَنَفَةُ المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتضع في مكان، أو يكون ذنباً لإنسان، هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما، فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التطامن، فيها من الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأطايب الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، وطلاب العظمة من أصدق سبلها[1].

ثامناً- التربية بالقصة:

وذلك في ورود قصة بني إسرائيل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ...» ثم يروي ﷺ كيف تحولوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى السكوت على الحق، ثم الانغماس في المعصية حتى فسدوا وقست قلوبهم حتى لعنوا.

وفي هذه القصة من العبرة والعظة ما يفي بإيصال المبدأ التربوي إلى نفوس المتلقين، وأسلوب القصة من أبلغ الأساليب في التربية بالموعظة؛ ففيها سحر يسحر النفوس، سحر قديم قدم البشرية... خاصة إذا أظهرت بشكل واضح المواعظ والعبر التي يراد نقلها للمتعلمين، وإذا كانت المعلومات التي تتضمنها حقيقة وسليمة، وإذا كانت أحداثها مشوقة حتى يظل المتعلمون مشدودين إليها[2].

تاسعاً- التربية على إسداء النصح لأولياء الأمر:

إن ما ورد في الخبر عن النبي ﷺ وصحابته في إسداء النصيحة لولي الأمر وعدم خشيته، لدلالة قاطعة على حث الإسلام على الإيجابية في التعامل مع ولي الأمر، وأداء واجبه على الرعية، على أن يؤدوا إليه النصح والإرشاد، فهذا عائذ بن عمرو رضي الله عنه يؤدي النصيحة إلى عبيد الله بن زياد، ويبلغه حديث رسول الله ﷺ: «إن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ.». فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ.

---

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٩٦.

(٢) تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد ص ١٩٧-٢٠١ بتصرف.

وذلك لأن النبي ﷺ سئل: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فأجاب: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». ويقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللّٰه بِعِقَابٍ مِنْهُ»؛ فأداء النصيحة لوليّ الأمر، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم مهددون بالعذاب العام من قبل الله عز وجل.

ويجب على العامة أن ينصحوا لولاة الأمر، وأن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، ويعينوهم على طاعة الله وإقامة شرعه، وتتعين النصيحة على أهل العلم لأنهم هم أحق بها وأهلها... ولابد أن يبتغي المرء بنصيحته لولاة الأمر ولغيرهم وجه الله ولا يفعل هذا سمعة ورياء، وكذلك يجب عليه أن يكون رفيقاً بمن ينصحهم وأن يكون هدفه الأول والأخير ردهم إلى الحق والصواب، وإعانتهم على إقامة شرع الله، وما فيه من صلاح الرعية[1].

عاشراً- التربية على مراعاة آداب الطريق:

الإسلام أول دين وضع آداباً للطريق، وجعلها فرض عين على كل من يجلس على قارعة الطريق. وإذا كانت النظم الحديثة أنشأت وزارات للبيئة، وعقدت مؤتمرات من أجلها، فإن الرسول ﷺ لم يقف عند حد الصيانة الحسية، بل أوجب الحق الأدبي للطريق ليبقى للإسلام فضل السبق في ميدان التربية والتعليم، وقد اهتم بالطريق من أمرين:

الأمر الأول: رعاية حق الطريق من سبيل المحسوسات، وذلك في قوله: "كف الأذى"، وهي كلمة جامعة لكل صور الأذى، فالحفر والقاذورات وترك المخلفات وإيقاف السيارات في غير ما حدد له من أمكنة كل هذا من باب الأذى.

الأمر الثاني: رعاية حق الطريق من سبيل القيم وذلك بـ:

- غض البصر صوناً ورعاية للحرمات ودرءً لنار الشهوة ورعاية لحقوق الآخرين.

---

(١) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج محمد أحمد ص ٥٤.

- رد السلام وذلك لسيادة روح الخير، لأن إلقاء السلام يعني إعطاء الأمان ممن ألقاه، وعدم إلقائه يعني بقاء روح الشر قائمة به، ورد السلام يراد به إعلان مقابلة السلم بالسلم والأمان بالأمن.
- الأمر بالمعروف حتى ينصبغ المجتمع بهذه الروح "المعروف" وذلك بالدعوة إلى كل خير يمكن فعله ونشر كل فضيلة يتأتى القيام بها.
- النهي عن المنكر لقطع دابر الشر في المجتمع.



٢٤- باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف

أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢-٣]، وَقالَ تَعَالَى إخباراً عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود: ٨٨].

الحديث رقم (١٩٨)

١٩٨- وعن أَبي زيدٍ أُسامة بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيامةِ فَيُلْقَى في النَّار، فَتَنْدلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحا، فَيجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَالَكَ؟ أَلَمْ تَكُن تَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيه، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**» متفق عليه[1].

قولُهُ: «**تَنْدلِقُ**» هُوَ بالدَّالِ المهملة، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ. و«**الأَقْتَابُ**»: الأَمْعَاءُ، واحِدُهَا قِتْبٌ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٠).

الشرح الأدبي

هذه الصورة من صور العذاب يوم القيامة، وهي تنقل إلينا مَشْهداً من مشاهد مصير هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون، وهم العلماء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وفي القرآن ترد صورتهم منفرة وهم في الدنيا، والصورة نفسها في الحديث الشريف تتطور إلى عذاب أليم، فهم في الدنيا: كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وهم في الآخرة: لا يستطيعون إخفاء ما يكتمونه في الدنيا، ويرمز الحديث إلى ذلك بالأمعاء

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩/٥١) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٢٩).

التي تتدلق من بطنه، وهو لا يستطيع منها خلاصاً، ولكن يدور كما يدور في الرحى، فتلتف عليه الأمعاء، فيبقى هكذا يدور، وهي تدور عليه عبرة ونكالاً، وتزداد الصورة عمقاً حين يفاجئه أهل النار الذين كانوا يرتكبون الكبائر في دنياهم وهو ينهاهم: ويستنكر هؤلاء العصاة موقفه، ومصيره، فيعترف بأنه كان من المنافقين وأنه: عاش حياته في تناقض بين المظهر والمخبر، وبين القول والفعل، فيقول في حسرة وندم: "كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"!!! ولات ساعة مندم.

وهذه الصورة الدقيقة العميقة تسمى "الصورة الحركية الدائرية"، حيث يتوحد المكان مع الزمان، وتتجمع كل خيوط الأحداث، وتتراءى في الصورة معالم التناقض السلوكي، من خلال توظيف معطيات البيئة: حتى تكون الصورة مؤثرة وواضحة.

وتتضمن هذه اللوحة خمسة مشاهد متوالية متعاقبة بفعل الزمان والمكان، الإلقاء في النار، اندلاق الأمعاء، والدوران، اجتماع أهل النار، جواب المرائي في وعظه، والمشهدان الأخيران: حوار في أحشاء النار بين هذا المرائي المنافق. والعصاة الذين كان يعظهم في الدنيا.. ولا يصغون إلى مواعظه الزائفة.

ويتجلى الرعب في مشهد لا يُعْهد في الدنيا، إذ يدور المرء بأمعائه، وكأنه أصيب بصرع، إذ يحار إلى أين يذهب بما رأى من أمعائه، ونجد صفة الإكراه في صيغة الفعلين، يؤتي ويلقى، والبناء للمجهول هنا له ميزتان، إيماء إلى القوة الخارجية التي تصنع ما تصنع، ولفت نظر المتلقي إلى الحدث نفسه لأهميته التصويرية، ويبتدي القبح في مغايرة المشهد للمعهود، وفي تشبيه الدوران بدوران الحمار حول الرحى، مما يزيد في تصوير بهيمية المرائي، وحياته الغريزية، إذ يغدو عبداً لغرائزه، فضلاً عن اندلاق الأمعاء المثيرة للتقزز مع الرعب؛ أما بناء الفعلين الأخيرين في صورة (هذا المرائي "للفاعل") فيشير -كما يقول د. عزالدين السيد- إلى حصولهما منه، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز، وهو أمر تحدثه القذفة، والدوران بها إثر الصدمة، وهو ما تحدثه الفواجع، وكثيراً ما يحدث تلقائياً عند المباغتة، أما أنها أفعال مضارعة (يلقى - تندلق - يدور...) لم تقرن بالتسويف مع أنها أمور أخروية مستقبلة ، فذلك لاستحضارها في

الحال، كأنها تدرك وتحس، كما يُدْرِك ويحس دورانُ الحمار بالرحى، والتشبيه بأمر يتصل بالحمار لا يكون إلا تقبيحاً، وذلك سر اختياره دون ما يجر الرحى من سائر الحيوانات"[١].

وهذا التصوير القبيح إحدى أمارات تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر، وخالف قوله فعله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطورة مخالفة القول العمل.

رابعاً: من واجبات الداعية: مطابقة عمله قوله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض مشاهد يوم القيامة وهذا يظهر في قوله ﷺ "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق ... الخ الحديث" فقد أخبر ﷺ بما يلقى بعض أهل النار يوم القيامة وهذا من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب المستقبلة وإخباره عنها ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده: قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٢] ولكن جاءت أدلة أخرى تفيد: أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه عن طريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم[٣].

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف ص ٦٦٢، ٦٦٣.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٤٢، ٥٤٣.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(١) فإخباره ﷺ عن بعض مشاهد يوم القيامة هو من الإخبار بالمغيبات التي هي بوحي من الله للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته وقد ورد عنه الكثير من أخبار تختص بيوم القيامة وما يحدث فيه منها: قوله ﷺ: ((إنكم مُلاقو الله حفاةً عراةً غُرْلاً))(٢) وقوله: ((يعرَق الناسُ يومَ القيامةِ حتى يذهَبَ عَرَقهم في الأرض سَبعين ذراعاً، ويُلجِمهم حتى يَبلغَ آذانهم))(٣). وغيرها من مشاهد يوم القيامة المروية عنه ﷺ مثل ثبوت الشفاعة له ﷺ وأحوال أهل النار وأهل الجنة وكل ذلك من دلائل نبوته التي أيده الله بها ﷺ.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الترهيب، حيث رهب ﷺ من مخالفة القولِ العملَ، وبيّن أن عقاب ذلك إلقاؤه في النار وتعذيبه فيها، وهو ترهيب قوي يخيف الدعاة والمدعوين من مسألة مخالفة القول العمل. فينبغي للداعية استخدامه في تخويف المدعوين من عواقب المعاصي والذنوب مع تذكره ذلك بحق نفسه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطورة مخالفة القول العمل:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث خطورة مخالفة القول العمل حيث بيّن أن ذلك من أسباب وقوع العقوبة في قوله ﷺ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه. ففي ذلك خطورة مخالفة القول العمل قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾(٤) أي أعظم ذلك المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضاً

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٢٤، ومسلم ٢٨٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٣١، ومسلم ٢٨٦٢.

(٤) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

شديداً أن تقولوا "ما لا تفعلون" وأن تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم توفوا به[١].

وفي كتب السنة عشرات الروايات التي تحض على تطابق الظاهر مع الباطن، والقول مع الفعل.. كما تنذر وتحذر المعرضين عن ذلك بالعواقب الوخيمة والعقوبات العظيمة.

وتظهر خطورة مخالفة القول العمل في عدم قبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخالفه[٢].

فالذي يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، وأخلاقه سيئة لن تكون دعوته مستجابة ولن يلقى إلا الصد والأعراض.

والذي يدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله، دون أن يكون مجاهداً أو على ثغرة من ثغور الجهاد لن يتجاوب الناس مع دعوته. والذي يحض الناس على البذل والتضحية والعطاء وهو شحيح لن يلقى أذناً صاغية في الناس أجمعين.

والذي يدعو الناس إلى التواضع وهو مختال فخور، وإلى الإيثار وهو صاحب أثرة، وإلى الصدق وهو كذاب، وإلى الأمانة وهو خائن، وإلى الاستقامة وهو منحرف، وإلى الطاعة وهو عاص، وإلى التماس الحلال الطيب وهو غارق في المحرمات والخبائث. إن إنساناً كذلك قد يتمكن من خداع الناس حيناً ولكنه لن يتمكن من خداعهم في كل حين[٣].

قال أبو العتاهية:

يا وَاعِظَ النّاسِ قد أصْبَحتَ مُتّهَماً ... إذ عِبتَ منهُمْ أُموراً أنتَ تَأتيهَا

كالمُلبِسِ الثّوْبَ من عُرْيٍ، عورته ... للنّاسِ بادِيَةٌ ما إنْ يُوارِيهَا

وَأعْظَمُ الإثمِ بَعدَ الكُفرِ نعلمه ... في كُلّ نَفسٍ عَمَاهَا عَنْ مَساوِيهَا

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ١٠٨/٨.

(٢) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، الشيخ: فتحي يكن ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق ٢٢-٢٣.

عِرْفانُهـا بعُيُـوبِ النّـاسِ تَبـصِرُها مـنهُمْ، وَلا تُبـصرُ العيـبَ الـذي فيهَـا[١]

رابعاً- من واجبات الداعية: مطابقة عمله لقوله:

من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث مطابقة عمله لقوله، ويظهر ذلك من بيان سبب عذاب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، أنه كان لا يطابق عمَلُه لقوله بل كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه.

فإن من الأمور اللازمة لنجاح الداعية أن يفعل ما يأمر به ويجتنب ما ينهى عنه. والذي لاشك فيه أن الداعية إلى الله لا يستطيع أن ينفذ بدعوته إلى مستمعيه ما لم يكن قدوة حسنة، فعلى الدعاة أن يترسموا منهج الدعوة في كل شأن من شئونهم في أقوالهم وأفعالهم في حياتهم الخاصة والعامة.. في أنفسهم كأفراد، وفي بيوتهم كأزواج وآباء... وهذا ما أكدّ عليه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: ((من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه لسيرته قبل تهذيبه بلسانه، فمعلم نفسه، ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم))[٢].

إن الواجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حريصاً على إصلاح سره كما يجب عليه أن يكون حريصاً على إصلاح جهره... عليه أن يكون صريحاً مع نفسه فلا يخادعها، ومع الناس فلا يرائيهم ولا ينافقهم... وليسمع قول ابن السماك في هذا المعنى: (كم من مذكر بالله ناس لله... وكم داع إلى الله فار من الله... وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله)[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، ٦٧٢/١.

(٢) مشكلات الدعوة والداعية، فتحي يكن ص ٦٩، نقلاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ص١٥٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

التربية بالقدوة أشد تأثيراً من التربية بالقول، والانفصال بين القول والفعل بسبب أزمة نفسية عند المستمع، إذا كان ما يدعو إليه الداعي محموداً، فلماذا لم يتحلّ به، وإذا كان مذموماً فلماذا يدعوني إليه، ولأن هذا السلوك يضر أكثر مما ينفع، فقد حرص الإسلام على أن لا يفصل الإنسان بين قوله وفعله، وحسبنا أن الرسول ﷺ ما أمر بأمر إلا وكان أول الملتزمين به، وما نهى عن أمر إلا وكان أول المقلعين عنه.

وعلماء الأمة في هذا الجانب أكثر مسؤولية من غيرهم، فهم خلفاء الرسول ﷺ وهم القدوة وهم الأولى بالاتباع، ولهذا حذر الرسول ﷺ من مخالفة القول بالفعل، ومن هدي الرسول ﷺ أنه شبه ذلك بأسوأ صورة يتصورها الإنسان، ومن المفاهيم التربوية ما يلي:

أولاً- التربية بالترهيب:

في هذا الباب ورد حديث يستخدم فيه النبي ﷺ أسلوب الترهيب على نحو صريح، حيث يبين مصير الذين يأمرون بالمعروف ولا يفعلونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، يقول ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ..»، ثم يصور صورة مرهبة لمصيره، حيث تخرج أمعاؤه من بطنه، ثم يدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحا، وعندما يسأله أهل النار عن حاله، يجيب بأنه لم يكن صادقاً في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

إن فعله في الدنيا لم يدخله النار فحسب، بل إنه جعل له عذاباً غريباً، يتعجب منه أهل النار جميعاً، عذاباً شاذاً ومختلفاً، تماماً كشخصيته في الدنيا؛ حيث كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر ويفعله، ففضحه الله بين أهل النار.

وتلك صورة يرهب بها النبي ﷺ أمته من عاقبة هذا الفعل؛ حتى يجتنبوه، عندما بيّن عاقبة فاعليها؛ لأن كثيراً من الناس لا يصلحهم الإقناع الفكري المجرد... وأنجح علاجات الإصلاح بالنسبة لهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من

تأثرهم بالمرغبات؛ وذلك لأنهم قد يكونون ممن يتأثرون باللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة ويؤثرونها على الخيرات الآجلة مهما كانت جليلة، ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيبات بالثواب الجزيل على فعل الخير وترك الشر، لكنهم إذا مثلت المخاوف المخففة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا"[١].

ثانياً- التربية على الصدق في الدعوة إلى الله:

فعلى الداعي إلى الله والمربي أن يكون مثالاً للشفافية والنقاء، فهو لا يأمر بمعروف ويتركه، ولا ينهى عن منكر ويأتيه، بل هو مثال صادق وقدوة صالحة؛ كما أن دافعه الإيماني يزجره عن الازدواجية في حياته، والانفصال التام بين أقواله وأفعاله، إن مطابقة الأقوال للأفعال سمة أساسية في المربي، حتى يكون لدعوته الأثر في المتلقين، حين يجدونه يتمثل بكل ما يقول ويأمر نفسه وينهاها قبل أن يأمر الآخرين وينهاهم.

يقول ابن القيم: "علماء السوء من جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلمّوا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدِلّاء، وفي الحقيقة قطاع الطريق"[٢].



---

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبد الرحمن حسن حبنكة ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) الفوائد، ابن القيم ص ٨٠.

٢٥- باب الأمر بأداء الأمانة

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[الأحزاب: ٧٢].

الحديث رقم (١٩٩)

١٩٩- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية[2]: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وزعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الصدق من أهم معالم الشخصية الإسلامية، ومن أهم سمات توازنها وأمارات تواجدها وأثرها في حركة المجتمع المسلم، ويَرْصد هذا الحديث الشريف سلوكيات تلقى بالمسلم في دائرة النفاق، وتجرفه إلى الابتعاد عن ملامحه الإسلامية التي وسم الله بها عباده المؤمنين في كثير من سور القرآن الكريم، وتجمعت في صفات عبادالرحمن، في سورة الفرقان.

ويبدأ الحديث بتقرير حقيقة ثابتة عن طريق الجملة الإخبارية الاسمية: "آية المنافق ثلاث".

والآية: هي: العلامة الظاهرة الواضحة لكل ذي لب؛ وجاءت كلمة آية مفردة.. ثم قال: "ثلاث" بعد ذلك والسياق أن يقول: آيات المنافق ثلاث: أي ثلاث خصال، قيل: أفرد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩/١٠٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٥). وسيكرره المؤلف برقم (٦٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩/١١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٥). وسيكررها المؤلف برقم (٦٨٩).

الآية على إرادة الجنس: أي جنس الآية أو العلامة وهل للمنافق علامات ثلاث فقط؟؟ إن هناك أحاديثًا أخرى تضيف إلى هذه الخصال خصالاً أخرى، وقبل إن الآية هى أعم من الخصلة والعلامة، فكأن هذه الآيات الثلاث تتضمن كل ما يمكن أن يتصف به المنافق: الذي يتعمد الكذب في الحديث: في أي شأن من شؤون دنياه، ويتعمد إخلاف الوعد في أي مسلك يسلكه وأي طريق يتخذه في أي مكان، وأى زمان، ويتعمد خيانة الأمانة مع سبق الإصرار والترصد، والدلالة اللغوية للنفاق تجسد سلوك المنافق، وترصد حركته في الحياة، فالنفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير، وإبطان خلافه؛ ودلالة النفق في اللغة تتفق مع سلوك المنافق: فالنفق هو : سرب في الأرض له مخلص إلى مكان ؛ فالمنافق يتوهم أنه سينجو بكذبه، وسيغنم بإخلاف الوعد، وسيزداد ثراء وقوة بخيانة الأمانة، وهو أشبه بمن يسرب في النفق ويختفي عن عيون محدثيه أو مواعديه أو مؤتمنيه، وقيل: النافقاء والنفقة: إحدى حجرات اليربوع: يكتمها ويظهر غيرها، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي دخل في السرب وهرب، وهل المنافق الذي رسم المصطفى ﷺ معالمه وحدد آيته... في هذه الخصال وغيرها إلا صورة من هذا اليربوع الذي يصمم مسكنه كما يصور المنافق تفاصيل حياته، ومحاوراته وأفعاله مع الله ومع نفسه ومع الناس.

والنفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين: "أحدهما: النفاق الأكبر: وهو أن يظهر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه؛ والثاني النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك"[(١)].

والبناء اللغوي للحديث يفصح عن مقاصده، ومعانيه، فهو يتكون من أربعة جمل: الأولى: تحدد أو ترشد إلى ما يفضح المنافق.. وقد حددت في ثلاث خصال في هذا الحديث: ثم يأتي التفصيل بعد الإجمال. في ثلاث جمل شرطية وتلاحظ أن أداة الشرط

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، وجامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس .

هى: إذا: وهى ظرف لما يستقبل من الزمان: وتفيد التحقق ودلالة ذلك أن هذه الخصال ستظل موجودة لأنها من طبائع البشر الفاسدة: وعلى المسلم أن يقاوم ذلك ما استطاع إليه سبيلاً، والتعبير بلفظ "حَدّث"، أبلغ من "تكلم" لأن التحدّث يفيد المشاركة، حيث يحدث غيره، أما المتكلم فقد يتكلم المرء في عدم وجود من يسمعه.

والتعبير بـ "وعد" أبلغ من أوعد، لأن الوعد لا يكون إلا بالخير، أما أوعد فهي تعني الوعيد، فالمنافق يخلف الوعد في مجال الخير، ولكنه إذا أوعد كما يفهم من صياغة الفعل فإنه ينفذ وعيده، حَيْث الشر والضرر، وبناء الفعل للمجهول في قوله: وإذا أؤتمن خان"، يرشد إلى أن إعطاء الأمانة يكون سرًا ومن غير شهود: ولذلك يخون المنافق هذه الأمانة: وهى كل ما يؤتمن عليه الإنسان من الأقوال والأعمال والأموال والأحوال.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الكذب، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

الثاني: حكم الوفاء بالوعد، وقد اختلف الفقهاء في حكم الوفاء بالوعد على أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية في المشهور[٢] والشافعية[٣] والحنابلة في المذهب[٤] إلى أن الوفاء بالوعد مندوب لا واجب.

القول الثاني: ذهب المالكية في قول[٥] وأحمد في رواية وهو قول ابن تيمية[٦] إلى

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٩/٢١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٢/٥.

(٢) شرح الخرشي ٢٥/٤، وأنوار البروق للقرافي ٧٩/٣.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٨٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٨٧/٢.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٤١٥/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٥٢/١١.

(٥) شرح الخرشي ٢٥/٤، وأنوار البروق ٤٧/٤.

(٦) الفتاوى الكبرى ٥٥٤/٥، والفروع، ابن مفلح ٤١٥/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٥٢/١١.

أن الوفاء بالوعد واجب لأن الخلف من صفات المنافقين استدلالاً بهذا الحديث.

القول الثالث: المشهور عند المالكية إلى أن الوعد يلزم إن كان لسبب ولا يلزم لغيره، كما لو قال لغيره تزوج وأعطيك؛ لأنه إذا كان معلقًا على سبب، يظهر منه معنى الالتزام(١) أي يجب الوفاء به.

الثالث: حكم أداء الأمانات والودائع، وقد اتفق الفقهاء(٢) على أن من أودع شيئًا عند آخر كان أمينًا على الوديعة، ويجب عليه المحافظة عليها، وردها إلى صاحبها متى طلبها.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: بيان الخصال المذمومة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإنذار والتحذير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر النفاق.

أولاً- من واجبات الداعية: بيان الخصال المذمومة:

من واجبات الداعية في دعوته أن يبين للمدعوين الخصال المذمومة ليجتنبوها، ويظهر ذلك في بيانه ﷺ خصال النفاق فقال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" ومع جمع الخصال الأخرى التي وردت في غير هذه الرواية.

قال ابن حجر: (وجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث؛ لأنها منبهة على ما عداها، إذا أصل الديانة منحصر في ثلاثة: القول، والفعل، والنية. فنبه إلى فساد القول

---

(١) غمز العيون والبصائر ٢٣٧/٣، والفروع، ابن مفلح ٤١٦/٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١١/٦.

(٢) البحر الرائق ٢٧٥/٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢١١/٦، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤١٩/٣ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣/٧ وما بعدها، ومغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٢٦/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٩٨/٧، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٢/٢ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٤٧٩/٤.

بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف؛ لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارنًا للوعد)(١).

وقال ابن هُبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن النفاق أصله من النافقاء، وهو أحد حجرة اليربوع، فالكذب يناسبه، والإخلاف يلائمه، والخيانة تطابقه. هذه الأشياء المذكورة ترجع إلى أصل واحد، وهو النفاق الذي تنافيه الأمانة، ويباينه الصدق، ويزايله الوفاء. والمراد من هذا الحديث أن تكون هذه الخلال مستمرة على هذا الشخص، وغالبة على أحواله، فأما إن بدرت منه أو ندر منها شيء لم يخرجه عن درجة الإيمان)(٢).

فينبغي على الداعية أن يبين هذه الخصال المذمومة خشية أن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾(٣)؛ فالداعية إلى الله يجب أن يكون مبينًا للخير مطالبًا له ومبينًا للشر ناهيًا عنه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإنذار والتحذير:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر من هذا الحديث أسلوب الإنذار والتحذير فقوله ﷺ آية المنافق ثلاث ... إلخ الحديث. خرج على سبيل الإنذار للمرء المسلم، والتحذير له أن يعتاد هذه الخصال، فيفضي به إلى النفاق، لا أن من ندرت منه هذه الخصال، أو فعل شيئًا من ذلك من غير اعتياد أنه منافق(٤).

فينبغي للداعية إنذار المدعوين مما يخاف عليهم منه، وتحذيرهم من اعتياده فيكون لهم طبعًا ويفضي بهم إلى المعصية؛ فأسلوب الإنذار والتحذير أسلوب يفيد الداعية في بيانه للمدعوين حتى يبيّن لهم معالم الخطر ووجوب اجتنابه.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٢٦٣، ٢٦٤، رقم ١٩٧٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/١٩١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطر النفاق:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث خطر النفاق حيث بيّن رسول الله ﷺ خصال المنافقين لما فيها من خطر على المسلمين.

وخطر النفاق عظيم، من أجل ذلك أطال القرآن في بيان صفات المنافقين، وأنزل سورة كاملة باسمهم وذكرهم في كثير من آياته، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، ولم يكتف القرآن بذلك القدر من التحذير بل قال "قاتلهم الله"، وهو دعاء عليهم بالهلاك بعد أن حذرنا منهم وعرّفنا أنهم عدو الأمة اللدود قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾[1] وداؤها العضال وهم طريق نكبتها، وسبب استعباد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[2].

فينبغي على الداعية أن ينبه المدعوين إلى خطر النفاق، وخطر التخلق به.

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٤.

(٢) انظر: دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة، لبنان: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص ٤٧٠.

الحديث رقم (٢٠٠)

٢٠٠- وعن حُذيْفَة بنِ الْيمانِ ﵁ ، قال: حدثنا رسولُ اللَّه ﷺ حَديثْين قَدْ رَأيْتُ أَحدهُمَا ، وَأَنَا أَنْتظرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أَنَّ الأَمَانَة نَزلتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزلَ الْقُرآنُ فَعلموا مِنَ الْقُرآن، وَعلِموا مِنَ السُّنَّةِ، ثُمَّ حَدَّثنا عَنْ رَفْعِ الأَمانَةِ فَقال: «**يَنَامُ الرَّجل النَّوْمَةَ فَتُقْبضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيظلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ ينامُ النَّوْمَةَ فَتُقبضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيظَلُّ أَثَرُهَا مِثْل (أثر)**[1] **الْمَجْلِ، كجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلكَ، فَنفطَ فتَراه مُنْتبرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيءٌ» (ثُمَّ أَخذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا عَلَى رِجْلِهِ)، فَيُصبحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فَلا يَكادُ أَحَدٌ يُؤدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إنَّ فِي بَنِي فَلانٍ رَجُلاً أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجلِ: مَا أَجْلدهُ مَا أَظْرَفهُ، مَا أَعْقلَهُ، وَمَا فِي قلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ.**

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بايعْتُ، لئِنْ كَانَ مُسْلمًا ليردُنَّهُ عَليَّ دِينُه، ولَئِنْ كَانَ نَصْرانيًا أَوْ يَهُوديًّا لَيُردُنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيه، وأَمَّا الْيَوْمَ فما كُنْتُ أُبايُعُ مِنْكمْ إلاَّ فُلانًا وَفلانًا» متفقٌ عليه[2].

قولـه: (جَـذْر) بفتح الجيم وإسكان الذال المعجمة: وَهُوَ أصل الشيء وَ(**الوكت**) بالتاء المثناة من فوق: الأثر اليسير. وَ(**المَجْلُ**) بفتح الميم وإسكان الجيم: وَهُوَ تَنَفُّطٌ فِي اليدِ ونحوها من أثرِ عمل وغيرِهِ. قوله: (**مُنْتَبرًا**): مرتفِعًا[3]. قوله: (**ساعِيهِ**): الوالي عَلَيهِ.

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٤).

---

(١) الزيادة ليست عندهما، في هذه الرواية، وإنما هي عند البخاري برقم (٧٠٨٦)، وكذا هو عند الحميدي في (١/٢٨٠، رقم ٣٩٤)، والمنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٠٥).

(٣) بنصه في الترغيب (٥٩٣/٣).

غريب الألفاظ:

المجلُ: تنَقطٌ في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره. وقيل: هو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة[١].

فنفطت: أي قرحت[٢].

مثقال حبة: أي مقدار شيء قليل[٣].

الخردل: حبّة الخردل سدس حبّة الشعير، والمراد: ليس في قلبه شيءٌ من الإيمان[٤].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف قصة "الأمانة" في رحلتها مع الإنسان، وكيف تحولت من فطرة فطر الله الناس عليها إلى نبض غريب في قلب ضجيج الحياة، وإلى طير مهاجر لا يستقبله إلا فضاء النفوس المؤمنة والقلوب التي عقدت على الإيمان، ولم تتمكن منها وساوس الشيطان، واحتمت بآيات الكتاب، وسنة المصطفى ﷺ.

فالأمانة هنا ليست سلوكًا مؤطرًا بالزمان أو المكان، ولكنها كما قال العلماء "عين الإيمان"، فإذا استمكنت من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجَدَّ في إقامتها.

وقصةُ الأمانة كما يروي تفاصيلها رواية عن رسول الله ﷺ، حذيفة بن اليمان: تبدأ بالمرحلة الأولى وهى تتمثل في الحديث الأول، وقد جاء تصويرها في صورة كنائية" فقوله ﷺ: نزلت في جذر قلوب الرجال، كناية عن أن الأمانة فطرة في الإنسان: قد فطر الله الناس عليها، وهى الأمانة التي حملها الإنسان: وأما السموات والأرض

---

(١) رياض الصالحين ١٣٠، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٩.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٦٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٧٧٠.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٧٢.

والجبال: فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، والصورة هنا تحمل كل أصول الفطرة النقيَّة، فالقلوبُ مثل شجرة سامقة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وما أدق هذا التصوير البياني في قول المصطفى ﷺ: نزلت: أى استقرت في جذر قلوب الرجال، وفي ذلك إيحاء بأن هذه الفطرة مهما ذبلت أغصانها، وجفت ثمارها، ويبست سوقها، فإن جذعها... وجذرها لا يزال ضاربًا في أعماق الفطرة الإنسانية.

والقلة المؤمنة الذين يقبضون على الجمر، ويعضون بالنواجذ على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، هم عصارة هذا الجذر الإيماني الطهور، وهم الذين عَلِمُوا من القرآن معالم تلك الأمانة، وعَلِمُوا من السنة كيف تؤدي الأمانة، وكيف يحملها الإنسان، وينجو من أن يكون فريسة للشيطان، فيظلم نفسه، ويلقى بها إلى مهاوي التهلكة، وينجو من أن يتردى في حمأة الجهل والرذيلة والفساد، والمرحلة الثانية: في قصة: الأمانة: تصور معالمها عدةُ مشاهد تحدد أبعادها الشخصيات والأحداث من خلال التصوير الدقيق الرامز لتفريط الإنسان في الأمانة، والنوم عن الفرائض والواجبات هو من مظاهر الغفلة وهو الطريق إلى المعصية، والتفريط في الأمانة، ولذلك يأتي التشبيه لتوضيح كيفية انطفاء وهج الأمانة في القلوب، ولا يبقى إلا مثل الوكت، وهو سواد يسير، أو أثر يسير، يبقى في القلب دالاً على رسوخ الفطرة في مكونات الإنسان، وتأتي ثم لتربط بين المرحلتين، وهي توحي بأن المرحلة الأولى في هذا الضياع لها زمن طويل ثم تبدأ المرحلة الجديدة، وهي أشد ضياعًا وتضييعًا للأمانة.

ويمكن أن تكون سمة للفرد، أوْسِمةَ في المجتمع، ولذلك يتكرر حدث النوم رمزًا للغفلة والسهد، وضعف الإيمان، والصورة هنا تتحرك وتزداد وضوحًا وتأثيرًا، حتى كأن الأمانة المضيعة مشخصة أمامنا في هذه الصور الواقعية المتتالية، فيظل أثرها مثل المجل: وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء، فهي ظاهرة مرضية تشوه فطرة الإنسان، وتحرق معالمه، ولذلك تأتي الصورة الثانية في ذلك التشبيه الدقيق التصويري الحركي الذي يوحي بأن الشيء قد يرتفع ويخدع الحواس، ولكنه نمو سرطاني، وتفاعل شيطاني تفصح عنه هذه الصورة (كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا،

وليس فيه شيء"، ولتتأمل كثرة صيغ التعجب في سياق هؤلاء الذين يحاولون أن ينأوا بالصفات الخُلقيةُ عن ساحة الإيمان، وتعاليم الإسلام، وهم ليسوا في قلبهم مثقال حبة من خردل من الإيمان.

وقصة الإيمان تختم ختامًا تحذيريًا: حيث فرط أهل الكتاب في الأمانة، ولم يبق إلا القلة التي تحافظ على بيعة المصطفى ﷺ أي على عهده، وهي: القابضة على الجمر، والتي تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة، وهم الذين نزلت الأمانة في جذر قلوبهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التوكيد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض ما يحدث في آخر الزمان ومراحل ضياع الأمانة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر في هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ وهذا يظهر فيما أخبر به حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ: حدثهم حديثين فقال: "قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر..".

وهذا يدل على يقينه وعلمه أن ما أخبر به رسول الله ﷺ سوف يقع لا محالة. فحرص الصحابة رضي الله عنهم لعلمهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَىٰ﴾[1] وأن ما أخبر به حق.

وقد ورد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قالَ: ((كُنْتُ أكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَى، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فأَوْمَأَ بأصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ فقالَ: أكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ))[2].

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا حريصين على كل ما سمعوه من رسول الله ﷺ وذلك من أجل حفظه وتبليغه ومتابعة وقوعه إذا أخبر عن شيء مستقبل كما في هذا الحديث.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها، ويظهر هذا من قول حذيفة ابن اليمان حدثنا "أن الأمانة نزلت في جذر..." حيث بيّن ثبوت الأمانة في القلوب، وقال: ثم حدثنا عن رفع الأمانة؛ فبين منزلة الأمانة وأهميتها وخطورة تضييعها.

قال ابن هبيرة: (ومدار هذا الحديث هو التنبيه على الأمانة التي تثبت وتنفع في الدنيا والآخرة هي التي كانت لله ومن أجل الله، وأن الأمانة التي يستعملها الناس لأجل الناس ولحراسة معايشهم ولحفظ أقوالهم بين الناس، ولصلاح دنياهم، فإنها هي التي تقبض من قلوبهم وترفع لارتفاع أسبابها، ولانقضاء ما كانت لأجله، فأما ما كان منها لله تعالى، فإنه لا يزول لدوام الله سبحانه وتعالى)[3].

فحين تستقيم الفطرة وتسلم من اتباع الهوى تتمثل في صاحبها بخلق الأمانة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٦٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٩٩).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢١٤ رقم ٣٩٤.

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[١] يقول القرطبي: (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على صحيح الأقوال)[٢] كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٣] (والأمانة والعهد: يجمعان كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به)[٤].

وحين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي أؤتمن أمانته، سواء أؤتمن على قنطار أو دينار، لأن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات، وجعل من صفات المفلحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم. والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين[٥].

فالأمانة لها أهمية ومنزلة عظيمة، قال رسول الله ﷺ: ((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُم، وَأَدُّوا الأَمَانَةَ إِذَا ائْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))[٦].

أما خطورة تضييع الأمانة فقد قال فيها ﷺ ((إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعة))[٧]. وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه عندما تضطرب الموازين وتفسد القيم تضيع الأمانة وذلك بقوله ﷺ: ((سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ. يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ. وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيَخُونُ فِيهَا الأَمِينُ. وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٤/٧.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٧/١٢/٦.

(٥) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٥١٣.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٥٨/٤، رقم ٨١٣٠، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٩٦.

قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ))[(١)].

فينبغي على الداعية حث المدعوين على التحلي والتمسك بالأمانة، وبيان منزلتها وأهميتها في الحياة، وبيان خطورة تضييعها.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التوكيد:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب التوكيد ويظهر في قوله ﷺ "إن في بني فلان رجلاً أمينًا" حيث أكّد ما يقال فيمَنْ توجد فيه الأمانة بعد رفعها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: اختصاص النبي ﷺ بالإخبار عن بعض ما يحدث في آخر الزمان ومراحل ضياع الأمانة:

إن من موضوعات الدعوة التي تضمنها هذا الحديث إخباره ﷺ عن بعض ما يحدث في آخر الزمان.

وهذا يظهر في بيانه لمراحل ضياع الأمانة فبعد أن بيّن ﷺ نزول الأمانة في جذر أي أصل قلوب الرجال بيّن مراحل ضياعها فقال "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه... إلخ الحديث.

أي أن الأمانة تزول عن القلوب شيئًا فشيئًا، فإذا زال أول جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالْوَكْت وهو اعتراض لون مخالف للّون الذي قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى التنفط وأخذ الحصاة ودحرجته إياها أراد زيادة البيان وإيضاح المذكور[(٢)].

وإخباره عن رفع الأمانة من الإخبار بالأشياء المستقبلة التي هي من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته التي خصه الله بها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٦١).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨٣.

فقد جاءت الأدلة على أن الله اختُص بمعرفة الغيب وحده ولكن استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾[1].

وقد وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بكثير مما يحدث في آخر الزمان. منها قوله ﷺ: ((ولا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الفُحْش والتَّفَاحُشُ وَقَطِيْعَةُ الرَّحِمِ وَسُوْءُ المُجَاوَرَةِ، وَحَتَّى يُؤْتَمَنَ الخَائِنُ، وَيُخَوَّنَ الأمِيْنُ))[2]. وغيرها من أخبار آخر الزمان مثل كثرة المفاتن من عري ومال... الخ.

خامسًا- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب ضرب المثل لتوضيح المقال ويظهر ذلك في قوله "فيظل أثرها مثل الوكت... فيظل أثرها مثل المجل" "ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله...). فقد ضرب مثل لرفع الأمانة وبقاء أثرها مثل الوكت أي أثر النار ونحوه، والمجل أثر العمل في الكف[3].

ثم أخذ حصاة ودحرجها على رجله، وذلك لتوضيح المعنى المذكور وزيادة إيضاحه.

وأسلوب ضرب المثل أسلوب مفيد في تقريب المعنى للمدعوين وزيادة إيضاح الدعوة لهم، فينبغي على الداعية أن يستخدم أسلوب ضرب المثل في دعوته لتكون دعوته مبسطة ليس بها تكلف. فلضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس - فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته - ذلك أن الهدف تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح[4].

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٣/٣ رقم ٦٥١٤، وقال محققو المسند صحيح لغيره ٦٤/١١.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٢/١١.

(٤) هداية المرشدين، علي محفوظ ص ١٧٧.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الصلة بين الإيمان وأداء الأمانة، ويدل على ذلك قوله "ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت: لئن كان مسلمًا ليردنه عليّ دينه وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علي ساعيه. وفي هذا دلالة على أن المسلم دينه يجعله يؤدي الأمانة، والحاكم المسلم أيضًا بإيمانه يجعل اليهودي والنصراني يلتزمان بأداء الأمانة، فتكون صلة الإيمان بالأمانة صلة وطيدة. فالأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[1].

وكانت تلك شهادة أعدائهم فيهم، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل حيث قال هرقل: ((سألتُك بماذا يأمُرُكم؟ فزعمتَ أنهُ يأمرُ بالصلاةِ والصِّدق والعفاف والوفاءِ بالعَهدِ وأداءِ الأمانة، قال: وهذه صِفَةُ نبيٍّ))[2]. قال رسول الله ﷺ: ((لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمانَةَ لَهُ))[3]، وقال ﷺ: ((المُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ))[4].

فهذا الحديث ينفي الإيمان عن من لا أمانة له وهذا لضرورة الأمانة لوجود الإيمان.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٨١.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٤/٣ رقم ١٢٥٦٧، وقال محققو المسند: حديث حسن ٢٣/٢٠.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٤/٣ رقم ١٢٥٦١، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٩/٢٠.

الحديث رقم (٢٠١)

٢٠١- وعن حُذَيْفَةَ، وَأَبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللّه تَبارك وَتَعالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤمِنُونَ حَتَّى تَزْلفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيأْتُونَ آدمَ صلواتُ اللّه عَلَيْهِ، فَيَقُولُون: يَا أَبَانَا اسْتفتحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فيقُولُ: وهَلْ أخْرجكُمْ مِنْ الْجنَّةِ إلاَّ خَطِيئَةُ أبِيكُمْ[1]، لَسْتُ بصاحبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إبْراهِيمَ خَلِيل اللّه، قَالَ: (فَيأتُونَ إبْرَاهِيمَ)[2]، فيقُولُ إبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بصَاحِبِ ذَلِك إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وراءَ، اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الذي كَلَّمهُ اللّه تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فيقُولُ: لسْتُ بِصَاحِب ذلكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسى كَلِمَةِ اللّه ورُوحِهِ، فَيقُولُ عيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمانَةُ والرَّحِمُ، فَيَقُومَان جنْبَتَي الصراطِ يَمِينًا وشِمالاً، فيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قال: «أَلَمْ تَرَوْا[3] كَيْفَ يمُرُّ ويَرْجعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الريحِ ثُمَّ كَمرِّ الطَّيْرِ؟ وَأَشَدُّ الرِّجالِ تَجْرِي بهمْ أَعْمَالُهُمْ، ونَبيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصرِّاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجئَ الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا، وفِي حافَتَي الصرِّاطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرْدَسٌ في النَّارِ».

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهنَّم لَسبْعُونَ خَرِيفًا، رواه مسلم[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

---

(١) عند مسلم زيادة: (آدم) وهي ليست في جمع الحميدي.

(٢) الزيادة ليست عند مسلم.

(٣) عند مسلم زيادة: (إلى البرق).

(٤) برقم (٣٢٩/١٩٥). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٢٩).

غريب الألفاظ:

تَزلِف: تقترب[١].

وراء وراء: وهي كلمة تذكر على سبيل التواضع أي: لست بتلك الدرجة الرفيعة[٢].

جنبتي الصراط: جانباه[٣].

حافتي الصراط: جانباه[٤].

الكلاليب: جمع كُلاب، وكَلُّوب وهو حديدة معوّجة الرأس ينشلُ بها الشيء أو يعلق[٥].

خدشُ: هو الأثر في الجلد حين يخدش والجمع: خدوش[٦].

المكردس: الذي جُمِعت يداه ورجلاه وأُلقي إلى موضع[٧].

خريفًا: أي سنة[٨].

الشرح الأدبي

ما أشد حاجة المسلم إلى الشفاعة، وما أكثر احتياجه إلى عفو ربه، ورحمته. وأداء الأمانة على وجهها الصحيح يقتضي أن يظل المؤمن متيقظًا لا تستهويه الغفلة، ولا تهزمه أحوال الحياة، بل لابد أن يظل في رباط إلى يوم القيامة، حتى يستحق شفاعة المصطفى ﷺ، فالإنسان لا ينفعه إلا عمله، ولا يُجدي إلا ما قدمت يداه، في هذا اليوم ﴿يَوْمَ

---

(١) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ز ل ف).

(٢) رياض الصالحين ٢٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ل ب).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٢٠.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر د س).

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٨.

يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾(١).

والحديث الشريف يقدم هذه الحقائق الناطقة بفضل رسول الله ﷺ فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو صاحب لواء البشارة والنذارة، كما يقول القاضي عياض في كتابه الشفا، وقد خصه الكبير المتعال بفضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء، والرؤية والقرب، والدنو والوحى، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والحوض المورود.

وينقل الحديث لنا مشاهد المؤمنين وهم ينعمون بالقرب من الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقد خص الرسول ﷺ المؤمنين بهذه المَكْرُمة حيث قال: "فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة"، وقبلها أخبر بأن الله تعالى "يجمع الناس"، ولكن لا ينعم بالقرب من الله إلا المؤمنون، والتعبير بالفعل المضارع، "يجمع" يفصح عن أن هذا الأمر سيحدث في المستقبل: حتى يستعد كل من يؤمن ويعمل صالحاً ويطمح إلى الفوز بالجنة.

وتتعدد مشاهد الحديث وحواراته بين المؤمنين وبين آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- إن هذه المشاهد الحوارية تتجلى فيها وحدة العقيدة، فالدين عند الله الإسلام، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾(٣).

والحديث في بنائه الفني، وصياغته الأسلوبية يتسم بعدة ظواهر فنية وأسلوبية، ومنها:

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٩٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ١٣.

أ-الصياغة القصصية من حيث تسلسل المواقف، والحوارات المتعاقبة بين المؤمنين والأنبياء والرسل.

ب-تسارع المواقف، وتوالي الأحداث: حيث توالت الأفعال المضارعة معطوفة بالفاء إيحاء بسرعة الحركة، ورغبة في طلب الشفاعة التي لا يستحقها إلا من أدى الأمانة وحملها بصدق وَوَصَل الرحم.

ج-النداء والاستعطاف في قول المؤمنين: يا أبانا: استفتح لنا الجنة، أى اسأل لنا من الله فتحها لندخلها، والاستفهام في إجابة آدم: يحمل أنفاس الاعتراف والتوبة، والمحبة لكل المؤمنين، وآدم قد اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، والأنبياء معصومون من الكبائر، ومعصومون من الصغائر التي تزرى بفاعلها أو تحط منزلته أو تسقط مروءته.

د-التَكْرَار في كثير من العبارات ومنها قول كل نبي "لست بصاحب ذلك" حتى ذهبوا إلى محمد ﷺ وهو صاحب الشفاعة، وتكرار الفعل "فَيَأْتُونَ" عند وصف مجيئهم للنبي آدم، وإبراهيم وموسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

هـ-تشخيص المعنويات، وتجسيدها مثل الأمانة والرحم، وكأنهما شخصان، يدركان ما يدور حولهما، وفي ذلك إشارة إلى أن صلة الرحم، وأداء الأمانة من مفاتيح الجنة، ومن أسباب الفوز بشرف الشفاعة.

و-تقسيم المؤمنين إلى ثلاث مراتب وهم يمرون على الصراط، وتشبيه كل طائفة حسب درجتها من القبول وإتقان العبادة، فأولهم كالبرق، وثانيهم كمدِّ الريح، وثالثهم كمدِّ الطير.

ز-وصف الصراط وتصويره للترهيب، حتى لا يغفل الناس، وحتى لا ينسوا هذه المشاهد التي قدمها الحديث في أحسن بيان، وأوضح برهان، ترغيبًا في الطاعة، وترهيبًا من المعصية، حتى يفوز المؤمنون بفضل الله ورحمته.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات البعث وجمع الخلائق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة النبي ﷺ بين الأنبياء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عظم أمر الأمانة وصلة الرحم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: مرور الناس على الصراط.

سادسًا: من واجبات المدعو: التزود بالأعمال الصالحة والاستعداد لأهوال يوم القيامة.

سابعًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو.

ثامنًا: من آداب المدعو: سؤال الداعية بأدب واحترام.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: الإخبار عن مشاهد يوم القيامة.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والتقرير.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إثبات البعث وجمع الخلائق:

الدنيا دار عمل بلا حساب، والآخرة دار حساب بلا عمل، وشاء الله أن يجمع الناس بعد موتهم للحساب: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[(١)]، وقد بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: (يجمع الله تبارك وتعالى الناس)، وذلك بعد بعثهم بأرض المحشر، والبعث والنشور من عقيدة المسلم، وقد جاءت بذلك كثير من الآيات والأحاديث، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]. أي: "قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث: الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة طه، آية: ١٥.

(٢) سورة التغابن، آية: ٧.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٢٦.

يحييكم في الدنيا ما شاء لكم الحياة، ثم يميتكم فيها، ثم يجمعكم جميعًا أحياء إلى يوم القيامة لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله محييهم بعد مماتهم"[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[٢]، و"الحشر هو الجمع"[٣].

ومن الأحاديث قول النبي ﷺ: ((يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذلِكَ))[٤].

وإنما يبعث الناس ويحشرون للحساب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٥].

"إن الحكمة من المعاد الأخروي الذي هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٦].

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتًا كبيرًا في أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وفي سعادتهم وشقائهم. فمنهم الظالم الغشوم ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغني الثري ومنهم الفقير الشقي، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافيًا للحكمة

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٥٠١.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٧.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة ص ٦٥٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ٣٢٢ - ١٩٣.

(٥) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

مجانبًا للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء وحكم بهما، فهما كائنان لا محالة"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة النبي ﷺ بين الأنبياء:

أفضلُ الخلقِ الأنبياءُ عليهم السلام، وأفضلُ الأنبياءِ محمدٌ ﷺ، فهو أكرمهم على الله، وهو صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وهذا واضح في قول النبي ﷺ: (فيأتون محمدًا فيقوم فيؤذن له)، مما يدل على أن الله فضّل محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وقد قال ﷺ: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))[٢].

وهو أول من يبعث يوم القيامة، فقد قال ﷺ: ((لا تُفضلوا بينَ أنبياء الله، فإنهُ يُنفخُ في الصُّورِ فيَصعَقُ مَن في السماوات ومن في الأرضِ إلا مَن شاءَ الله، ثمَّ يُنفخُ فيهِ أُخرى فأكونُ أولَ مَن بُعِثَ))[٣].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((فأكون أوّلَ مَن تَنشَقّ عنه الأرضُ))[٤].

كما قال ﷺ: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ. وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ))[٥].

وقال النووي: (وهذا الحديث دليل لتفضيله على الخلق كلهم)[٦].

وقال ابن حجر: (وفيه تفضيل محمد ﷺ على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم، وقد ظهر فضله في هذا المقام العظيم)[٧].

---

(١) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤١٤، ومسلم ٢٣٧٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤١٢، ومسلم ٢٣٧٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٣.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/١١.

كما أنه صاحب الشفاعة العظمى وذلك عندما يشفع لأهل الموقف في أن يقضي بينهم ربهم بعد أن يتدافعها أفضل الرسل، وهي المقام المحمود المذكور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1]، وقد فسّر المقام المحمود بالشفاعة جمعٌ من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين منهم: حذيفة وسلمان وأنس وأبو هريرة وابن مسعود وجابر بن عبدالله وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة وغيرهم[2] وقال قتادة: "كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة"[3]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة: ((ثم يُقال: يا محمد ارفَعْ رأسَك، وسَلْ تُعطَه، وقُل يُسمَع، واشفعْ تُشفَّع))[4].

قال ابن هبيرة عن حديث الباب: (في هذا الحديث من الفقه أن الشفاعة مما يجب الإيمان به،وأنها كرامة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أمته، وذلك أن الذنوب قد يتفاقم منها الذنب إلى أن تكون الجناية فيه لا يفي بها مقدار عمل عاملها، ولا حد مقامه، فإذا قابلها مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض جاهه في ذلك المقام المحمود، نهض بها، وكانت مكانته صلى الله عليه وسلم وكريم قدره يغسل ذلك الحوب[5]، وهذا على ما كان فيه فإنه إظهار لجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأولين والآخرين، ولا جرم أنه ينتشر كرمه وشرف مقامه حتى يتسع لأهل الجمع كلهم حين يضيق الخجل بالهداة عليهم السلام، فإن آدم عليه السلام يبلغ منه الأمر إلى أن يعترف لذريته بأن خطيئته كانت سبب إخراجهم من الجنة فهو في خجله منهم باق، ولقد كان قمينًا[6] أن يتدارك ذلك بأن يشفع في يوم القيامة، ولكن

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٢) انظر تلك الأقوال في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٥/٤٢ - ٤٧، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥/١٠٣ - ١١٠، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/٤١٩ - ٤٢٧.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ص ١٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٤٠، ومسلم ١٩٤.

(٥) الحُوب: الإثم. المعجم المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح و ب).

(٦) القمين: الجدير بالشيء. المعجم الموسيط في (ق م ن).

رأى أن ذلك مقام يلائم من شمل أمره الكل، وأن ذلك لا يتحقق إلا فيمن صدق المرسلين، وهو خاتم النبيين ﷺ، وأما إرسال آدم ببنيه إلى إبراهيم عليه السلام فإنه تلويح يشير إلى أن الأمر يتسلسل إلى محمد ﷺ لكن بعد أن يدفعه الواحد منهم إلى الواحد حتى لا يبقى في قلب أحد شك أنه لما أرشد الأنبياء عليهم السلام كلهم إلى محمد ﷺ قام بها وقال: (أنا لها)[١].

وقول إبراهيم عليه السلام: (إنما كنت خليلاً من وراء وراء)، أي من خلف حجاب ومحمد ﷺ اتُخِذ خليلاً بعد أن أسري به.

وقوله في موسى "كلمه الله تكليمًا" فقوله تكليمًا مصدر مؤكدة لقوله "كلَّم" ولو لم يكن الكلام فيه زيادة على الوحي لما قال لهم إبراهيم عليه السلام: "اذهبوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليمًا، إذ أن الأنبياء كلهم قد كان يوحى إليهم. وقول موسى عليه السلام: (لست بصاحب ذلك) عِلْمٌ منه وإشارة إلى أن هذا المقام هو مقام محمد ﷺ الذي وعده الله تعالى به بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[٢]، فكأن موسى عليه السلام قال: لست بصاحب ذلك أي أن له صاحبًا اذهبوا إلى عيسى فسيرشدكم إليه، وما كان له أن يدل هو عليه، لأن عيسى بينهما، فيكون غَضًّا مِنْ عيسى عليه السلام، وإنما أمرهم بقصد عيسى عليه السلام ليرشدهم إليه.

وفي حديث آخر أن عيسى عليه السلام يدلهم على محمد ﷺ فيأتون محمدًا ﷺ[٣].

وبنفس قول عيسى عليه السلام لست بصاحب ذلك تعيين الأمر لمحمد ﷺ"[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

إن الأنبياء عليهم السلام هم صفوة الله من خلقه، أكملهم أدبًا وأحسنهم خلقًا، وهذا واضح في الحديث، وذلك أن كل نبي من الأنبياء ما عدا محمدًا ﷺ يقول عندما

---

(١) أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣ (٣٢٦).

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ١٩٣.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢٤٥ - ٢٤٧.

يسأله الناس يوم القيامة أن يستشفع إلى ربه: لست بصاحب ذلك، أي: (لست بتلك الدرجة الرفيعة)[١]، وفي حديث أنس رضي الله عنه: (لست هناكم)[٢].

قال القاضي عياض: (هذا يقولونه تواضعًا وإكبارًا لما سُئِله، وقد تكون إشارة من كل واحد منهم إلى أن هذه الشفاعة وهذا المقام ليس له، بل لغيره)[٣].

وقد استنبط ابن حجر من حديث الشفاعة عدة فوائد، منها: (أن المسؤول إذا لم يقدر على تحصيل ما سئل يعتذر بما يقبل منه ويدل على من يظن أنه يكمل في القيام بذلك، فالدال على الخير كفاعله، وأنه يثني على المدلول عليه بأوصافه المقتضية لأهليته، ويكون أدعى لقبول عذره في الامتناع)[٤].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المفاضلة بين الأنبياء، قال أبو هريرة رضي الله عنه: بينما يهوديٌّ يَعرِضُ سِلعَتُه، أعطِيَ بها شيئًا كرهَهُ، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعَهُ رجل منَ الأنصارِ فقامَ فلَطمَ وجهَهُ وقال: تقولُ والذي اصطفى موسى على البشرِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ أظهُرنا؟ فذهبَ إليهِ فقال: أبا القاسمِ، إن لي ذمةً وعهدًا، فما بالُ فلانٍ لَطمَ وَجهي؟ فقال: لم لطمتَ وَجهَهُ؟ فذكرهُ، فغَضِبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى رُئيَ في وجهِهِ، ثم قال: ((لا تُفضلوا بينَ أنبياءِ اللهِ....))[٥].

ونهيه صلى الله عليه وسلم عن المفاضلة، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٦]، فيه تعارض ظاهري، أجاب عنه العلماء بعدة أجوبة[٧] من ذلك قول ابن أبي العز: "إن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٦٥، ومسلم ٣٢٢ - ١٩٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٧/١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/١١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤٩/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤١٤، ومسلم ٢٣٧٣.

(٦) أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٧) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤١٣، والشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢٥٨/١ - ٢٦٠.

التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذمومًا.. فإن الله حرّم الفخر. وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(١)]، فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول"[(٢)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عظم أمر الأمانة وصلة الرحم:

إن الأمانة وصلة الرحم لهما مكانة كبيرة في دنيا الناس، لذا حضّ الإسلام المدعوين على التحلي بهما، وعظّم من شأنهما، وأخبر بالعاقبة المحمودة لمن تحلى بهما، وبالعاقبة السيئة لمن خلا منهما، هذا واضح في قوله ﷺ: (وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالاً)، قال النووي: (وأما إرسال الأمانة والرحم فهو لعظم أمرهما وكثير موقعهما فتصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى، قال صاحب التحرير: في الكلام اختصار، والسامع فهم أنهما تقومان لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما)[(٣)].

قال ابن هبيرة: (وقوله: "وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط" يريد بهذا قيام الجد، من قولهم قام زيد بالأمر، وكل من أدى الأمانة فيما بينه وبين ربه وبين المسلمين ظهر خفيها وبرز كامنها، فكان في ذلك الموطن لأنها من الإيمان المحض الصرف، فيدفع الله بها الجبال من الزلات والمعاصي، وكذلك الرحم فإنها مما عظم الله تعالى شأنه، وجعلها آمرة[(٤)] في ذلك الموطن علمًا وحكمة، فإن الرحم من الوالدين والأقربين هي في المعنى تسببت في وجود الآدميين فالله تعالى خلق عبده في ذلك فهو كما قال عز وجل: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[(٥)]، فإذا رعى الآدمي ما ذرأه الله فيه وجعله إكليلاً

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي الفداء العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ١/١٥٩ - ١٦٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٨.

(٤) في المطبوع: آمرة، وضبطها هو اجتهاد قد يصيب، ويحتمل أن تكون: أمارة. والله أعلم.

(٥) سورة الشورى، آية: ١١.

عليه من جوانبه كان ذلك من أكرم الصلات وأكثر الوسائل لمن وصلها، كما أنه من أعظم الحُوب لمن قطعها، مثل الأمانة؛ فإن من أداها لله عز وجل كان له الفوز العظيم ومن خانها وأضاعها خسر الخسران المبين، والرحم إنما اشتد الأمر في صلتها ثوابًا، وفي قطعها عقابًا؛ من حيث أن طباع الآدميين لهجة بالحسد من الأقرب فالأقرب، والغيظ من الأدنى فالأدنى، ولأن الأقارب قل ما يخلصون من موجبات الشر والخير في المشاركات والمحاورات والمعاملات ونحو ذلك، فللمسلم على المسلم حق، وللمسلم على المسلم إذا كان ذا رحم حقان، فإذا قطعه فقد قطع حقين كما أنه إذا وصله وصل سببين أكد الأول منهما الثاني)[١].

وقد جاءت النصوص بتعظيم أمر الأمانة والرحم، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٢]، أي: "إنا عرضنا الأمانة -التي ائتمن الله عليها المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهي- على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وخفن ألا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان، والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه"[٣].

وقد جعل النبي ﷺ ذهاب الأمانة علامة من علامات الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعة)). قال: كيفَ إضاعتُها يا رسولَ الله؟ قال: ((إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتظرِ الساعة))[٤].

وأما ما يتعلق بالرحم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٧/١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٩٦.

نَعَمْ. أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَاكِ لَكِ)). ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١)))(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: مرور الناس على الصراط:

يؤمن المسلم بالصراط وأن الناس يمرون عليه، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ كما في هذا الحديث وذلك في قوله: (فيمر أولكم كالبرق... ونبيكم قائم على الصراط).

و(الصراط في اللغة: الطريق الواضح. وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم، يَرِدُه الأولون والآخرون، وهو طريق أهل المحشر لدخول الجنة، وقد دلّت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات الصراط قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣)، ذهب أكثر المفسرين أن المقصود بورود النار هنا: المرور على الصراط. وهو منقول عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وكعب الأحبار وغيرهم.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو حديث طويل في الرؤية والشفاعة، وفيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ثمَّ يؤتى بالجَسْر فيُجْعَلُ بين ظهرَيْ جهنَّمَ))، قلنا يا رسول اللَّهِ وما الجَسر؟ قال: ((مَدحَضَةٌ مَزلةٌ عليه خَطاطيف وكلاليبُ وحسكةٌ مفلطَحَةٌ لها شوكةٌ عُقيفاء تكون بنَجْد يقال لها السعدانُ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّم وناجٍ مخدُوشٌ ومُكَرْدَسٌ في نار جهنَّم حتى يَمرَّ آخرُهُم يُسحب سحبًا))(٤).

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٢٢ - ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨٣٠، ٤٨٣١، ومسلم ٢٥٥٤ واللفظ له.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ٧٤٣٩ واللفظ له، ومسلم ١٨٣.

"وقد جاء وصف الصراط في نصوصٍ كثيرة وملخص ما جاء فيها أنه أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، "دحض مزلة" لا تثبت عليه قدم إلا من ثبته الله، وأنه ينصب في ظلمة فيعطى الناس أنوارًا على قدر إيمانهم، ويمرون فوقه على قدر إيمانهم على ما جاء في الحديث السابق"(١).

سادسًا- من واجبات المدعو: التزود بالأعمال الصالحة والاستعداد لأهوال يوم القيامة:

إن الدنيا دار عمل بلا حساب، والآخرة دار حساب بلا عمل، لذا كان على المدعو أن يتزود بالأعمال الصالحة التي على قدرها يجتاز المؤمنون الصراط، وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك فقال: (وأشد الرجال تجري بهم أعمالهم... حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل لا يستطيع السير إلا زحفًا، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناجٍ ومُكَرْدَس في النار...).

قال ابن هبيرة: (ومعنى قوله: "كمر البرق" فإنه يجوز أن يكون التشبيه واقعًا بالسرعة ويجوز أن يكون بالنور فإن الناس في ظلمة يوم القيامة، وإنما إيمان المؤمنين ينير لهم، فالبرق أسرع الأشياء ثم الريح بعده، فمن أسرع به في ذلك الموطن عمله حمد سرى ليله، ومن أبطأ به كان متثاقلاً عن الطاعات فأبطأت به)(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٣٧- ٢٣، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي الفداء العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ٢/٦٠٥-٦٠٦، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي ٦٧١هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، دون بيانات أخرى ص ٣٢٩ - ٣٣٥، والبداية والنهاية، ابن كثير ٢٠/٨٠ - ٩١.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢٤٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٤) سورة الحشر، آية: ١٨.

لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾[١].

قال القرطبي رحمه الله: (وقيل: أي قدمت عملاً صالحًا لحياتي، أي: لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لا حياة لهم، فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة)[٢].

وقد بيّن رسول الله ﷺ أن الناس يمرون على الصراط ويكون ذلك بحسب أعمالهم، كما في حديث الباب، وكما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: ((يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ))[٣].

قال ابن القيم: (طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتديً به فيه يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيّله، زاهدًا في كلّ ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب محبًا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائمًا على نفسه بالرغبة والرهبة طامعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسه غير مرسل شيئًا من حواسه عبثًا، ولا مسرحًا خواطره في مراتب الكون، وملاك ذلك: هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب، وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الأدب مع الكشف"[٤].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥٦/٢٠/١٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٥٩ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٢٦).

(٤) الفوائد ص ٢٧١ - ٢٧٢.

سابعًا- من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو:

إن من الصفات الأساسية التي يتحلى بها الداعية الإشفاق على المدعوين، وذلك لأنه على الداعية أن يسوق الخير لهم بكل طريق ووسيلة ممكنة، وهذا نابع من شفقته عليهم ورحمته بهم، هذا واضح في قول النبي ﷺ: (ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم)[1]، وقد قال الله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ولعل أشد المواقف التي تبين شفقة النبي ﷺ على أمته حديث الشفاعة الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: ((فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي. فَيُؤْذَنُ لِي. فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ. يُلْهِمُنِيهِ اللهُ. ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأْسكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ. ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. وَسَلْ تُعْطَهْ. وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ))[3].

---

(١) قال ابن هبيرة: "يجوز أن يكون من قول النبي ﷺ يوم القيامة، ويجوز أن يكون من قول حذيفة"، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢/٢٤٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم واللفظ له ١٩٣.

ثامنًا- من آداب المدعو: سؤال الداعية بأدب واحترام:

إن من أدب المدعو وفطنته أن يسأل الداعية بأدب واحترام وإجلال، لأن الداعية هو الذي يرشده لما فيه نفعه ويعلمه ما لا يعلمه، وذلك واضح من أدب الصحابة عند رسول الله ﷺ، وذلك في قول الصحابي للرسول ﷺ متسائلاً: (بأبي وأمي أي شيء كمر البرق)، قال النووي: "معناه: أنت مفدي أو أفديك بأبي وأمي"[١].

وقد ورد مثل هذا القول عن الصحابة رضي الله عنهم عندما سألوا النبي ﷺ من ذلك قول أبي ذر رضي الله عنه: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: ((هُمُ الأَخْسَرُونَ. وَرَبِّ الْكَعْبَةِ)) قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ. فَلَمْ أَتَقَارَّ[٢] أَنْ قُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي مَنْ هُمْ؟))[٣]، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟))[٤].

وقد خاطب الله المؤمنين فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[٥].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: الإخبار عن مشاهد يوم القيامة:

لقد بعث الله تعالى محمدًا إلى العالمين وأيده بالمعجزات والدلائل التي تدل على صدق نبوته وأنه مرسل من عند الله تعالى، ومن دلائل نبوته ﷺ إخباره عن بعض الغيبيات كمشاهد يوم القيامة، كما هو الحال هنا، فهذا الحديث كله إخبار عن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤.

(٢) أي: لم يمكني القرار والثبات، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٣٨، ومسلم ٩٩٠.

(٤) أخرجه مسلم ٣١.

(٥) سورة الحجرات، آية: ٢، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/٢٩٧ - ٤١١.

بعض مشاهد يوم القيامة وعن بعض ما يحدث فيه، وقد كان النبي ﷺ يذكّر أصحابه بالجنة والنار ويصفهما لهم حتى كأنهم يرونهما رأي العين، فهذا حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه يقول: ((نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ))[1].

لذا كثرت تلك الأحاديث التي تتكلم عن يوم القيامة وأحداثه وعن الجنة والنار[2].

ويكفي أن نذكر في هذا المقام قول عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه: ((صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ. وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ. فَنَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ. ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى. ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ. فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ. فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا))[3].

عاشرًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والتقرير:

أما الترغيب: فذكر الجنة، وهذا ترغيب، على حين أن ذِكْر النار: تخويف وترهيب، فتشتاق الأنفس إلى الجنة، وتستعيذ من النار.

أما التقرير فواضح من قول النبي ﷺ جوابًا لسؤال الصحابي: (ألم تروا كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟) ولا شك أن التقرير أبلغ في الإفهام والتوضيح، لأن التقرير يكون مستندًا لشيء يعلمه ويعرفه السائل.

لذا كان على الداعية أن يستخدم هذه الأساليب في دعوته، كلما رأى أنها أنفع في موضعها وأنسب في مكانها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٥٠.

(٢) ولقد جمعها المحدثون في كتبهم، فهذا البخاري يدونها في صحيحه، وبخاصة في كتاب الرقاق، ومسلم يفرد في صحيحه كتابًا اسمه صفة القيامة، وقد اعتنى المتأخرون في جمع هذه المرويات في كتب متخصصة من أمثال ذلك كتاب (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة) للقرطبي (٦٧١هـ)، وأفرد ابن كثير (٧٧٤هـ)، جزءًا كبيرًا من آخر كتابه (البداية والنهاية) لذكر هذه المرويات، ومن هذا القبيل كتاب (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار)، لابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ).

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٩٢.

الحديث رقم (٢٠٢)

٢٠٢- وعن أَبي خُبَيْبٍ بضم الخاءِ المعجمة عبد اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قال: لَمَّا وَقَفَ الزبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعانِي فقُمْتُ إلَى جَنْبِهِ، فقَالَ: يَا بُنَيَّ إنَّهُ لا يُقتَلُ الْيَوْمَ إلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإنِّي لا أُرَانِي إلاَّ سَأُقْتَلُ الْيَومَ مَظْلُومًا، وَإنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أفتَرَى دَيْنَنَا يُبْقى مِنْ مالنا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: بعْ مَالَنَا واقْضِ دَيْنِي، وأَوْصَى بالثُّلُثِ، وثُلُثِهُ لبنيه، يَعْنِي لبَنِي[1] عَبْدِ اللَّه بن الزبير ثُلُثُ الثُّلُث. قالَ: فَإن فَضل مِنْ مالِنَا بعْدَ قَضاءِ الدَّيْنِ شَيءٌ فثُلُثُهُ لِبَنِيك[2].

قَالَ هِشَامٌ: وكان وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَني الزبَيْرِ خُبيبٍ وَعَبَّادٍ، وَلَهُ يَوْمَئذٍ تَسْعَةُ بَنِينَ وتِسعُ بَنَاتٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّه: فَجعَل يُوصِينِي بدينِهِ وَيَقُول: يَا بُنَيَّ إنْ عَجِزْتَ عنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بموْلاي[3]. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَرِيْتُ ما أرادَ حَتَّى قُلْتُ يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلاكَ؟ قَالَ: اللَّه. قال: فَواللَّهِ مَا وَقَعْتُ في كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزبَيْرِ اقض عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيَهُ. قَالَ: فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ ولَمْ يَدعْ دِينَارًا ولاَ دِرْهَمًا إلاَّ أَرَضِينَ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإحْدَى عَشرَةَ دارًا بالْمَدِينَةِ. ودارَيْن بالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بالْكُوفَة وَدَارًا بِمِصْرَ.

قال: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الذي كَانَ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ[4] يَأْتِيهِ بالمالِ، فَيَسْتَودِعُهُ إيَّاهُ، فَيَقُولُ الزُّبيْرُ: لا وَلَكنْ هُوَ سَلَفٌ إنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَة. وَمَا ولِي إمَارَةً قطُّ ولا جِبَايَةً ولا خَرَاجًا[5] ولا شَيْئًا، إلاَّ أنْ يَكُونَ في غَزْوٍ مَعَ رسول اللَّه[6] ﷺ، أَوْ مَعَ أَبِي بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رضي الله عنهم.

---

(١) لفظ البخاري: (بني) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٢) لفظ البخاري (لولدك).

(٣) لفظ البخاري: (مولاي) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) عند البخاري زيادة: (كان).

(٥) لفظ البخاري: (ولا جباية خراج)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه..

(٦) لفظ البخاري: (النبي) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

قَالَ عَبْدُ اللَّه: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ.

فَلَقِيَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ عَبدَ اللَّهِ بْن الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ[١]: مِائَةُ أَلْفٍ. فَقَالَ: حَكِيمٌ: وَاللَّه مَا أُرَى أَمْوَالَكُمْ تَسعُ هَذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَرَأَيْتُكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفَي أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي.

قَالَ: وكَانَ الزُّبَيْرُ قد[٢] اشْتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومِائَة أَلْف، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِألف ألفٍ وسِتِّمِائَةِ أَلْفَ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْءٌ[٣] فَلْيُوافِنَا بِالْغَابَةِ، فَأَتَاهُ عبْدُ اللَّهِ بْنُ جعفر، وكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبعُمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ لعَبْدِ اللَّه: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّه: لا، قال فَإِنْ شِئْتُمْ جعلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤخِّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ، فقال عَبْدُ اللَّه: لا، قال: فَاقْطَعُوا لِي قِطْعَةً، قال عبْدُ اللَّه: لَكَ مِنْ هاهُنا إِلَى هاهُنَا. فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ[٤] مِنْهَا فَقَضَى عَنْهُ[٥] دَيْنَه وَوَفَّاهُ، وبَقِيَ منْهَا أَرْبَعةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ.

فَقَدم عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعَنْدَهُ عمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبيْرِ، وَابْن زَمْعَةَ. فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قَوَّمَت الْغَابَةَ؟ قال: كُلُّ سَهْمٍ بمائَةِ أَلْفٍ قال: كَمْ بَقِي مِنْهَا[٦]؟ قال: أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ ونِصْفٌ، فقال الْمُنْذرُ بْنُ الزَّبَيْرِ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا[٧] سَهْمًا بمائَةِ أَلْفٍ، وقال عَمْرُو بنُ عُثْمان: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا[٨] سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ. وقال ابْن زمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنها[٩] سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ مُعَاوِيةُ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قال: سَهْمٌ ونصفُ سَهْمٍ[١٠]، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ

---

(١) لفظ البخاري: (فقال) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٢) (قد) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٣) لفظ البخاري: (حق)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٤) (عبد الله) لا يوجد عند البخاري، وهو عند الحميدي في جمعه.

(٥) (عنه) لا توجد عند البخاري.

(٦) (منها) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه في جميع المواضع التي بعدها.

(٧) (منها) لا توجد عند البخاري.

(٨) (منها) لا توجد عند البخاري.

(٩) (منها) لا توجد عند البخاري.

(١٠) (سهم) لا توجد عند البخاري.

بِخَمسينَ ومائَةِ ألف.

قَالَ: وبَاعَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَعْفَرٍ نصيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ. فَلَمَّا فَرغَ ابنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قَضاءِ دينِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا ميراثَنَا. قَالَ: وَاللَّهِ لا أَقْسِمُ بيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بالموسم أَرْبَع سِنِين: أَلَا مَنْ كان لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ.

فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي فِي الْمَوسمِ، فَلَمَّا مَضى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسم بَيْنَهُمْ ودَفَعَ الثُّلث وكَان للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ[1]، فَأَصاب كُلَّ امْرَأَةٍ أَلفُ أَلفٍ ومِائَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْف أَلْفٍ ومِائَتَا أَلْفٍ. رواه البخاريُّ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن الزبير بن العوام: صحابي مشهور، وهو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب، القرشي، الأسدي، أحد العبادلة، وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها من مكة وهي حامل به، فولدته في السنة الأولى من الهجرة، وفرح المسلمون بمولده فرحًا شديدًا، وحنّكه رسول الله ﷺ بالتمر ودعا له وبرّك عليه، فعن عروة بن الزبير وفاطمة بنت المنذر بن الزبير قالا: خرجت أسماء بنت أبي بكر حين هاجرت، وهي حبلى بعبدالله بن الزبير فقدمت قُبَاء، فنُفِست بعبدالله بقُباء، ثم خرجت حين نُفِست إلى رسول الله ﷺ ليُحنِّكه فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حِجْره، ثم دعا بتمرة، قال: قالت عائشة: فمكثنا ساعة قبل أن نجدها، فمضغها ثم بصقها في فيه، فإن أول شيء دَخَل بطنه لَرِيقُ رسول الله ﷺ ثم قالت أسماء: ثم مسحه، وصلى عليه - أي دعا له- وسماه عبدالله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مُقبلاً إليه ثم بايعه[3].

وكان يكنى بأبي بكر، ويقال أبوبكير، وله كنية أخرى وهي "أبو حبيب"

---

(١) عند البخاري زيادة: (ورفع الثلث)، وهي لا توجد عند الحميدي، وقد تبع فيها المؤلف الحميدي في جمعه.

(٢) برقم (٣١٢٩)، انظر: الجمع للحميدي (١/١٨٢، رقم ١٧٦).

(٣) أخرجه البخاري ٣٩٠٩، ومسلم واللفظ له ٢١٤٦.

وكان أسنَّ ولده، ولعبدالله بن الزبير رواية. له في كتب الحديث (٣٣) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على واحد، وانفرد البخاري بستة، ومسلم بحديثين، وكان رضي الله عنه شهمًا ذا أَنَفَةٍ، وكان له لَسَانَةٌ وفصاحة، وكان أطلسًا لا لحية له ولا شعر في وجهه، كما كان صَوّامًا قوّامًا، طويل الصلاة، عظيم الشجاعة، وكان من العلماء المجتهدين، وما كان أحد أعلم منه بالمناسك، وكان من خطباء قريش المعدودين يُشَبَّه في ذلك بأبي بكر، قال عنه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ((أما أبوه فحَواريُّ النبي صلى الله عليه وسلم -يريد الزبير- وأما جَدُّه فصاحب الغار -يريد أبابكر-، وأما أمه فذات النطاقين -يريد أسماء- وأما خالته فأم المؤمنين - يريد عائشة-، وأما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم يريد خديجة، وأما عمة النبي صلى الله عليه وسلم - فجدته- يريد صفية، عفيف في الإسلام، قارئ للقرآن))[1].

حضر موقعة اليرموك مع أبيه، وشهد خطبة عمر بالجابية، كما شهد فتح إفريقية مع عبدالله بن أبي السرح زمن عثمان بن عفان، وشهد الجمل مع أبيه وخالته، وبويع له بالخلافة سنة (٦٤) عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز، واليمن، وخراسان، والعراق وأكثر الشام، وكانت ولايته ٩ سنوات، وحج بالناس ثمان حجج، وجعل قاعدة ملكه المدينة المنورة، وكان نقش الدراهم في أيامه بأحد الوجهين (محمد رسول الله) وبالآخر (أَمَرَ اللهُ بالوفاء والعدل) وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيَّروا إليه الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام عبدالملك بن مروان، فانتقل إلى مكة وعسكر الحَجَاج في الطائف، ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتل عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة بعد أن خذله عامة أصحابه، وقاتل قتال الأبطال، وهو في عشر الثمانين، وبعد أن قُتِلَ صلبه الحجاج منكوسًا في مكة بمكان يُسمى عقبة المدينة يوم الثلاثاء لسبع عشر خلت من شهر جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، وعمره نيف وسبعون سنة[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٦٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٩٩-٤٠٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٤١/٣-٢٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٧٧٢، ٧٧٣، وسير أعلام النبلاء ٣٦٣/٣-٣٨٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٣٢/٤-١٣٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٣٣/٢، ٣٣٤، والأعلام ٨٧/٤، والسندي ٢٢/٢٦، وموسوعة عظماء حول الرسول ١١٩٩/٢-١٢٠٨.

غريب الألفاظ:

يوم الجمل: الوقعة المشهورة التي كانت بين علي بن أبي طالب ومن معه وبين عائشة ومن معها ومن جملتهم الزبير بن العوام في جمادى الأولى أو الآخرة ٣٦هـ[١].

وازى: أي ساوى[٢].

الغابة: هي أرض عظيمة شهيرة من عوالي المدينة[٣].

سَلَفٌ: أي ما كان يقبض من أحد وديعة إلا إن رضي صاحبها أن يجعلها في ذمته[٤].

الجباية: أي جمع الدولة من المال المترتب في ذمم الرعيّة من الزكاة والجزية والخراج ونحو ذلك[٥].

السهم: هو الحصّة والنصيب[٦].

الشرح الأدبي

إن الحرص على أداء الأمانة هو الدرس المستفاد من هذا الحديث الشريف الذي يعد تطبيقًا لسنة المصطفى ﷺ، وتنفيذًا لأمر الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٧].

واتباعًا لأمر رسول الله ﷺ في قوله: "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك".

وهذا الدرس الجليل، والمقصد النبيل يُتَوَّجُ به هذا الحوار المتعدد بين عبدالله بن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (و ز ى).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٥٦.

(٥) معجم لغة الفقهاء ، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٣٨.

(٦) المرجع السابق ٢٢٥.

(٧) سورة النساء، آية: ٥٨.

الزبير وأبيه، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم حيث يختم الحديث بهذا القسم في سياق حرص عبدالله بن الزبير على أداء الأمانة وقضاء الدين الذي كان في عنق أبيه، ولم يقبل أن يقسم الميراث إلا بعد أن يتأكد من ذلك، وظل أربع سنوات ينادي في موسم الحج: "ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلْنَقْضه".

ولنتأمل كيف صيغ هذا الدرس، وكيف قُدِّم لجماهير الأمة المسلمة في هذا السياق الواقعي، المشوق، إنه جاء في صورة قصة حقيقية، ومحاورات واقعية ليست من صنع الخيال: لأن الوقائع والأحداث صحيحة، فموقعة الجمل، من المواقع المعروفة والمشهودة في تاريخ الأمة، وهى أول مواجهة حربية بين المسلمين، كلٌّ يرى أنه صاحب الحق، وكانت بين علي بن أبي طالب ومن معه، وبين عائشة ومن معها: بسبب المطالبة بدم عثمان والقصاص من قتلته، وكانت هذه الموقعة سنة ستة وثلاثين من الهجرة، والزبير بن العوام، كان من الموالين لأم المؤمنين عائشة: أخت زوجه ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، والحوارات التي دارت: هى حوارات واقعية بين أشخاص حقيقيين: فعبدالله بن الزبير: تدور بينه وبين أبيه المحاورة **الأولى**، ثم تدور المحاورة **الثانية** بينه وبين حكيم بن حزام، والمحاورة **الثالثة** تدور بين عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر ابن أبي طالب، والمحاورة **الرابعة** تمتد وتطول حيث تدور بينه وبين أربعة من الصحابة هم معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن عثمان بن عفان، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبدالله بن زمعة، والمحاورة **الخامسة** تدور بين عبدالله بن الزبير وإخوته وأمه وزوجات أبيه حول تقسيم الميراث: وأداء الأمانة ، وقضاء الديون، وهذه المحاورات كلها تؤكد حرص عبدالله بن الزبير على تنفيذ وصية أبيه بقضاء الديون وأداء الأمانات إلى أهلها.

وفي الحوار بين عبدالله وأبيه الزبير، يتضح موقف عبدالله بن الزبير من الصراع بين الطائفتين في موقعة الجمل: حيث جاء هذا الموقف في صياغة تنبئ عن الجدٍّ، وعن الورع وإسلام الأمر لله لأنها فتنة تذر الحليم حيرانًا، وجاء كلام الزبير مُحصنًا بعدة أساليب تفصح عن هول الأمر، وقرب النهاية: حيث النداء بالياء وهى للبعيد وحيث: أسلوب القصر في جملتين يوضحان موقفه من هذه الحرب، وتوقعه: الموت: (إنه لا يقتل اليوم

إلا ظالم أو مظلوم وإن لاأراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا وإن من أكبر همي لديني): وهذه الجملة المؤكدة هى بؤرة القضية في الحديث، حيث قضاء الدين وأداء الأمانة، ثم يأتي الاستفهام الحائر والقلق: "أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئًا"، ثم يأتي، الحل الجازم الحاسم في صورة هذه الوصية الآمرة الواجبة "يا بني بع مالنا واقض ديني"، وحرصًا من الزبير على أداء الأمانة، وقضاء الديون: يستعين بالله ولا يعجز، ويوصي ابنه بالاستعانة بالله والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب، وفي مقدمتها بيع كل ما يملك الزبير، وما أصدق هذا الاعتراف الإيماني الواقعي إذ يقول عبدالله الذي أمره أبوه أن يستعين على قضاء الدين بمولاه، فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير: "اقض عنه دينه، فيقضيه" وهذا الإقرار العظيم تصاحبه عدة أساليب تؤكد معناه، وتُجمل مبناه وهي: القسم وأسلوب القصر، والنداء، والدعاء، ثم تكون الاستجابة الإلهية. والديون لم تكن نتيجة التبذير والإسراف، ولكن كانت بدافع من الورع والخوف على ضياع الأمانة، فكان الزبير يحول كل أمانة إلى قرض ويظل ملتزمًا به حتى لو ضاعت عين الأمانة، وما أصدق هذا المحاورات بين عبدالله بن الزبير وحكيم بن حزام، وعبدالله بن جعفر، ومعاوية بن أبي سفيان، وإخوته، والحوارات كلها تتضافر وتتعاون لتنفيذ وصية ابن الزبير، وقضاء ديونه، وكلهم يحاول أن يشارك في تخفيف العبء، وإرجاع الأمانات والديون، وبارك الله في مال ابن الزبير بفضل استعانته بمولاه، رضي الله عن الزبير وأرضاه وجعل الجنة مثواه هو وابنه عبدالله: حواري رسول الله، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم قضاء دين الميت بعد وفاته، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٧٠).

الثاني: ذكر ابن حجر أن في الحديث دليلاً على ندب الوصية عند حضور أمر يخشى منه الفوت، وأن للوصي تأخير قسمة الميراث حتى توفي ديون الميت وتنفذ وصاياه إن كان له ثلث، وأن له أن يستبرئ أمر الديون وأصحابها قبل القسمة وأن يؤخرها

بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده، ولا يخفى أن ذلك يتوقف على إجازة الورثة، وإلا فمن طلب القسمة بعد وفاء الدين الذي وقع العلم به وصمم عليها أجيب إليها ولم يتربص به انتظار شيء متوهم فإذا ثبت بعد ذلك شيء استعيد منه[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الوصية عند حضور الموت.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الوثوق بالله والاستعانة به.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: عِظَم أمر الدَّين.

رابعًا: من آداب المدعو: إرشاد إخوانه لما هو أصلح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بركة المجاهد في ماله.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الصحابة رضي الله عنهم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على أداء الدَّين.

ثامنًا: من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه.

تاسعًا: من وسائل الدعوة: الإعلان عن أمر ما في جمع من الناس لإبراء الذمة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الوصية عند حضور الموت:

يخرج الإنسان من هذه الحياة بالموت، فتنتهي علاقته بالدنيا، فإذا أحس بدنو الأجل، فإنه يوصي بأهم الأمور التي تشغله، ومنها الدين كما فعل الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهذا واضح من قول عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: "لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمت إلى جنبه فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأقتل مظلومًا وإن أكبر همي لَدْيني ... يا بني بع ما لنا واقض ديني... فجعل يوصيني بدينه..." فقد حثه على أن يقضي دَيْنَه نظرًا لأنه أكبر أمر أهمَّه. وفي رواية الحاكم ((انظر يا بني ديني فإني لا أدع شيئًا أهمَّ إليّ منه))[2] قال ابن حجر: (في هذا الحديث من الفوائد

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ابن حجر ٦/٢٣٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٣٦٤ رقم ٥٦٢٠.

ندب الوصية عند حضور أمر يخشى منه الفوت)[١].

وقد كان النبي ﷺ يوصي في مرضه الذي مات فيه؛ فعن جندب بن عبدالله بن سفيان البجلي رضي الله عنه أنه قال: ((سَمِعْتُ النَّبِيَّ ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ))[٢].

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموتُ: ((الصَّلاةُ الصَّلاةُ وما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ)) حتى جعل رسولُ الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[٣].

جاء في الموسوعة الفقهية: (الوصية مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول... وأما المعقول. فهوحاجة الناس إلى الوصية زيادة في القربات والحسنات وتداركًا لما فرط به الإنسان في حياته من أعمال الخير.

وحكمة مشروعية الوصية تحصيل ذكر الخير في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العالية في الآخرة، لذا شرعها الشارع تمكينًا من العمل الصالح، ومكافأة لمن أسدى للمرء معروفًا، وصلة الرحم والأقارب غير الوارثين، وسد خلَّة المحتاجين، وتخفيف الكرب عن الضعفاء والبؤساء والمساكين وذلك بشرط التزام المعروف أو العدل، وتجنب الإضرار في الوصية، لقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾[٤])[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٩.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ٣/١١٧ رقم ١٢١٦٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٩/٢٠٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٣/٢٢٢-٢٢٣.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الوثوق بالله والاستعانة به:

إن المؤمن الحق هو من يثق بالله وبما عنده تمام الثقة، ويستعين به عز وجل في جميع أحواله وشؤونه؛ لأن ذلك علامة الصدق والرسوخ في الإيمان. لذا كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس وثوقًا بالله. كما في هذا الحديث. وذلك واضح في قول الزبير لابنه رضي الله عنهما يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي، فقال له عبدالله: من مولاك؟ قال: الله. قال عبدالله: فوالله ما وقعت في كربة من دَيْنه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه.

قال ابن حجر: (وفيه بيان منزلة الزبير عندنفسه، وأنه في تلك الحالة كان في غاية الوثوق بالله والإقبال عليه والرضا بحكمه والاستعانة به)[1]. وقال ابن هبيرة: (وفيه ما يدل على غزارة دينه وثقته بالله عز وجل في أمره ولده بأن يستعين بمولاه الكريم في قضاء دينه)[2]. والمؤمن دائمًا يثني على الله تعالى ويستعينه، ولسان حاله ومقاله دومًا قولُ الحق: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3].

والنبي ﷺ يوصي أصحابه بالاستعانة بالله والوثوق به، فقال: ((احرص عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ))[4] قال النووي: (معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة)[5].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما يوصيه: ((وَإِذَا سَأَلْتَ فاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ))[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ، ٣١٤/١.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٥١٦ ، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

ومن الأمثلة التطبيقية للثقة بالله، ما فعلته أم موسى عندما ألقته في اليم ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾[(١)]. (فإن فعلها هذا -كما يقول ابن القيم- هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه. وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف)[(٢)].

وقال ابن القيم كذلك: (والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به-لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به)[(٣)].

وقال ابن رجب محذرًا من عدم الاستعانة به سبحانه: (ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكَّله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً وهو كذلك في أمور الدنيا)[(٤)]، (فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول)[(٥)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: عِظم أمر الدَّيْن:

إن الاستدانة وإن كانت مباحة إلا أن الإقدام عليها والتوسع فيها بدون حاجة، أمر ينطوي على كثير من الخطورة، سواء في حياة المستدين أو بعد موته، ولذا كان على المسلم أن يكون على حذر من أمر الدين. ويعمل على أن يوصي أن يقضى دينه بعد موته، كما في هذا الحديث. وهذا واضح من قول الزبير: (وإن من أكبر همّي لدَيْني... يا بني بع ما لنا واقض دَيْني) وقال عبدالله بن الزبير: (والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم).

---

(١) سورة القصص، آية: ٧.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ٤٠٤.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٦١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٤٨٢.

(٥) المرجع السابق ١/ ٤٨٢.

قال ابن حجر: (وفيه شدة أمر الدين، لأن مثل الزبير مع ما سبق له من السوابق وثبت له من المناقب - رهب من وجوه مطالبة من له في جهته حق بعد الموت)[١].

ومن شدة أمر الدين أنه ﷺ كان لا يصلّي على من مات وعليه ديْنٌ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أَنَّ رَسُولَ اللّهِ كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمَيِّتِ، عَلَيْهِ الدَّيْنُ، فَيَسْأَلُ: «هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟» فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلاَّ قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»))[٢] قال النووي: (إنما كان يترك الصلاة عليه ليحرض الناس على قضاء الدين في حياتهم والتوصل إلى البراءة منها لئلا تفوتهم صلاة النبي ﷺ، فلما فتح الله عليه عاد يصلي عليهم ويقضي دين من لم يخلف وفاء)[٣].

بل أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يغفر له ذنوبه كلها إلا الديْن فقال ﷺ ((يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ، إلاَّ الدَّيْنَ))[٤] وفي رواية: ((القتل فِي سَبِيلِ اللّهِ يُكَفِّر كُلَّ شَيْءٍ، إِلاَّ الدَّيْنَ))[٥].

ومن الأمثلة التطبيقية لقضاء الدين، ما ذكره ابن تيمية أن أحمد بن حنبل سئل عن رجل ترك مالاً فيه شبهة وعليه دين فسأله الوارث: هل يتورع عن ذلك المال المشتبه؟ فقال له أحمد: أتترك ذمة أبيك مرتهنة؟ فقال ابن تيمية معقبًا: (وهذا عين الفقه، فإن قضاء الدَيْن واجب، ولا يجوز إضرار الميت بترك ذمته مرتهنة، ففي الإعراض عن التركة إضرار الميت وإضرار المستحق، وهذان ظلمان محققان بترك واجبين)[٦].

رابعًا: من آداب المدعو: إرشاد إخوانه لما هو أصلح:

إن من الآداب السامية التي يتحلى بها المدعو هو أن يرشد إخوانه لما هو أصلح لهم وذلك قيامًا بالنصيحة، وهذا ما فعله الزبير مع إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم. فقد كان

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٧١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٩٨، ومسلم ١٦١٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٧، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٥٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٨٦، ١١٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٨٦، ١٢٠.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/١٥٥ ٢٩/٢٧٩.

الزبير إذا جاءه الرجل بماله ليودعه عنده يقول له: "لا ولكن هو سلف أخشى عليه الضيعة" قال ابن حجر: (فيه مبالغة الزبير في الإحسان لأصدقائه، لأنه رضي أن يحفظ لهم ودائعهم في غيبتهم ويقوم بوصاياهم على أولادهم بعد موتهم، ولم يكتف بذلك حتى احتاط لأموالهم -وديعة أو وصية- بأن كان يتوصل إلى تصييرها في ذمته مع عدم احتياجه إليها غالبًا، وإنما ينقلها من اليد للذمة مبالغة في حفظها لهم)(١). وقد روى الزبير ابن بكار من طريق هشام بن عروة أن كلاً من عثمان وعبدالرحمن بن عوف ومطيع ابن الأسود وأبي العاص بن الربيع وعبدالله بن مسعود والمقداد بن عمرو أوصى إلى الزبير بن العوام(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بركة المجاهد في ماله:

إن المجاهد الصادق قد نذر حياته وماله في سبيل الله والدفاع عن دينه، لذا فإن الله عز وجل -بكَرَمه ومنّه- يكافئه بفضله العميم، ومن ذلك: البركة في ماله، وهذا واضح جليٌّ في قول عبدالله بن الزبير عن أبيه: وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج ولا شيئًا إلا أن يكون في غزوةٍ مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولهذا أخرجه البخاري في كتاب "فرض الخمس" تحت باب "بركة الغازي في ماله حيًا وميتًا مع النبي ﷺ وولاة الأمر"(٣).

ويمكن أن يذكر هنا قصة أبي قتادة رضي الله عنه في غزوة حنين قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فبعت الدرع [التي كانت للقتيل الذي قتله] فابتعت به مخرفًا(٤) في بني سَلِمة، فإنه لأول مال تأثلته(٥) في الإسلام(٦).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٧٠.

(٢) كما في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٦.

(٣) كتاب فرض الخمس رقمه ٥٧ والباب رقمه ١٣.

(٤) المخرف، المشهور في ضبطه: فتح الميم وكسر الراء: والمراد به هنا: البستان، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢٥.

(٥) أي اقتنيته وتأصلته، وأثلة الشيء: أصله، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢٥.

(٦) أخرجه البخاري ٢١٠٠ واللفظ له، ومسلم ١٧٥١، ٤١.

قال الراغب الأصفهاني: (البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البِرْكة. والمبارك ما فيه ذلك الخير.. ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجهٍ لا يحصى ولا يحصر قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة)[2].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الصحابة رضي الله عنهم:

تحلى الصحابة رضي الله عنهم بالأخلاق العالية والآداب الرفيعة ولا عجب في ذلك فقد كانوا خير القرون، لذا كانوا جامعين لفضائل الأخلاق ومحاسن الخصال، فمن أخلاقهم.

١- المعاونة: وهذا واضح من قول حكيم بن حزام رضي الله عنه: يا ابن أخي كم على أخي من الدَيْن؟ وقال كذلك: فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

وقد روى يعقوب بن سفيان من طريق عبدالله بن المبارك أن حكيم بن حزام بذل لعبدالله بن الزبير مائة ألف؛ إعانة له على وفاء دين أبيه فامتنع، فبذل له مائتي ألف فامتنع إلى أربعمائة ألف[3]. قال ابن هبيرة: (وفيه ما يدل على كرم حكيم بن حزام ببذله الإعانة في قضاء دين الزبير ابتداءً منه)[4].

٢- السماحة: وذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنه وكان له على الزبير رضي الله عنه أربعمائة ألف: إن شئتم تركتها لكم... فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون. وقد روى يعقوب بن سفيان في الرواية السابقة أن عبدالله بن جعفر قال: هي لك. قال: لا أريد ذلك قال: فأعطني بها نعليك هاتين أو نحوها. قال: لا أريد. قال: فهي عليك إلى يوم القيامة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن ٤٤.

(٣) نقلًا عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٦٦.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١/٣١٤.

قال: لا. قال: فحكمك[١]. قال ابن حجر: (وفيه بيان جود ابن جعفر لسماحته بهذا المال العظيم)[٢].

٣- قوة النفس: قال ابن حجر: (وفيه قوة نفس عبدالله بن الزبير لعدم قبوله ما سأل حكيم بن حزام من المعاونة وما سأله عبدالله بن جعفر من المحالة)[٣].

كل هذا يوضح كيف كانت أخلاق الصحابة ﵃، وقد صدق عبدالله بن عمر ابن الخطاب ﵄ عندما قال: (أولئك أصحاب محمد ﷺ وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة)[٤].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على أداء الدَيْن:

إن من علامة المؤمن الصادق حرصه على أداء الدين، لذا كان الصحابة ﵃ أحرص الناس على أداء الدين. وذلك واضح في قول عبدالله بن الزبير: (والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم، فلما مضى أربع سنين قَسَم بينهم).

قال ابن حجر عن فوائد هذا الحديث: (إن للوصي تأخير قسمة الميراث حتى توفى ديون الميت، وأن له أن يستبرىء أمر الديون وأصحابها قبل القسمة، وأن يؤخرها بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده. والذي يظهر أن ابن الزبير إنما اختار التأخير أربع سنين لأن المدن الواسعة التي يُؤتى الحجاز من جهتها إذ ذاك كانت أربعًا: اليمن والعراق والشام ومصر، فبنى على أن كل قطر لا يتأخر أهله في الغالب عن الحج أكثر من ثلاثة أعوام فيحسن استيعابهم في مدة الأربع)[٥]. وقال ابن هبيرة: (وفيه جواز تأخير قسمة الميراث

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٦/٦، وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/٦.

(٣) المرجع السابق ٢٧١/٦.

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني ٣٠٥/١-٣٠٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٠/٦.

احتياطًا لقضاء الدَيْن كما فعل عبدالله بن الزبير)[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((مَن أخَذَ أموالَ الناسِ يُريدُ أداءَها أدّى اللهُ عنه، ومَن أخَذَ يُريدُ إتلافَها أتْلَفَهُ الله))[٢]. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه الحضّ على ترك استئكال أموال الناس والترغيب في حسن التأدية إليهم عند المداينة وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل)[٣].

وقال عبدالله البسام: (وفيه تعظيم حقوق العباد وأموالهم ووجوب التحرز منها والابتعاد عنها إلا بحق)[٤].

ثامنًا- من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه:

إن على المدعو أن يسأل عما خفي عليه، حتى يتبين له حقيقةالأمر، وهذا واضح في قول الزبير لابنه: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي. قال عبدالله: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله.

قال ابن حجر: (إن الزبير قال لابنه: استعن عليه بمولاي. والمولى لفظ مشترك فجوَّز ابن الزبير أن يكون أراد بعض عتقائه مثلاً، فاستفهمه فعرف حينئذٍ مراده)[٥].

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون عما لا يتضح لهم من أمور الدين، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[٦] شقَّ ذلكَ على المسلمينَ فقالوا: يا رسول اللهِ أيُّنا لا يَظلِمُ نفسَهُ؟ قال: ليسَ ذلك، إنما هو الشركُ، ألم تَسمعوا ما قال لُقمانُ لابنهِ وهو يَعِظُه: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٨٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٦/٥.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٧٢/٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧١/٦.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)]))[(٢)].

تاسعًا- من وسائل الدعوة: الإعلان عن أمر ما في جمع من الناس لإبراء الذمة:

إن الإعلان بالأمر في جمع بين الناس من وسائل الدعوة الفعالة، إذا اقتضى الأمر ذلك، كما هو الشأن في هذا الحديث. فقد نادى عبدالله بن الزبير رضي الله عنه في موسم الحج أربع سنوات: "ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه" (واختار الموسم - كما قال ابن حجر- لأنه مجمع الناس من الآفاق)[(٣)]؛ فإذا اقتضت المصلحة الإعلان أو الإعلام بأمر من الأمور فلا بأس، وقد آذن أبو بكر رضي الله عنه الناس يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((بعَثني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مُؤَذِّنينَ يومَ النَّحرِ نُؤَذِّنُ بِمنىً أَن لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ ولا يطوفُ بالبيتِ عُريان. ثمَّ أردَفَ رسولُ اللّهِ ﷺ عليًّا فأَمَرَهُ أن يؤَذِّنَ ببراءة. قال أبو هريرةَ: فأَذَّنَ مَعنا عليٌّ في أهلِ مِنىً يومَ النحرِ: لا يحجُّ بعدَ العامِ مُشركٌ ولا يَطوفُ بالبيتِ عُريان))[(٤)].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٢٨، ومسلم ١٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٧٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣٦٩، ومسلم ١٣٤٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

كثرت وصايا الرسول ﷺ بالأمانة، وحذر عليه السلام من تفلتها، ونص على أنها نزلت في أصل القلوب، وإنها بمضي الزمن تتفلت شيئاً فشيئاً، وتترك بقية من أثر لها في القلب حتى تأتي اللحظة التي لم يبق منها شيء في قلوب الناس.

وقد شبه الرسول ﷺ أثر الأمانة وأجرى تجربة عملية أمام الصحابة، وفي الباب من الجوانب التربوية التعليمية ما يلي:

أولاً- التربية بالوصف أو التقييم الذاتي:

وقد ورد ذلك في وصفه للمنافق، يقول ﷺ: «آية المنافق ثلاث...»، ثم يعدّد هذه الصفات الثلاث، وهي الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، رغبة منه ﷺ في إيصال هذه الصفات إلى المسلمين؛ ليحذروا الوقوع فيها، ويحذروا الانخداع بالمنافقين، ويميزوهم بين الناس.

والوصف أو التقييم الذاتي: هو أن يكسب الإنسان علماً تفصيلياً بصفات الخير والشر والمعاني السامية والمعاني الهابطة، والأعمال التي ترضي الله تعالى وتقرب منه وعكسها، فتجعل لديه ميزاناً خاصاً يزن به نفسه ويعرض عليه حاله في أي وقت شاء؛ ليحصل لديه تقويم ذاتي صحيح للوضع الذي هو فيه، وهذا الميزان هو وسيلة تربوية من وسائل الرسول ﷺ وضع المواصفات لأغلب الأمور والقضايا الدنيوية والأخروية، وأمر الجميع بأن يزنوا أنفسهم على ضوئها، فنستطيع أن نزن أنفسنا ونحاسبها من خلال هذه الصفات التي أخبرنا بها[1].

ثانياً- التربية بضرب المثل والتشبيه:

ويظهر ذلك من قوله ﷺ: «الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ...»، ثم بقوله: «فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ»، ويشبه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٤٣٤، ٤٣٥ بتصرف يسير.

النبي ﷺ فقدان الأمانة بالتمثيل: "ثم أخذ حصاة فدحرجه على رجله"، وكل هذه طرق في تقريب المعنى إلى قلوب المسلمين، لأن بعض المبادئ التربوية تحتاج لتوصيلها إلى التصوير والتشبيه.

والأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس فتقبله العقول؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع المعنى الرائع في عبارة موجزة، ويضرب المثل للترغيب فيما ترغب فيه النفوس، أو التنفير حينما يكون الممثَّل به مما تكرهه النفوس[(١)].

ثالثاً- التربية بالترهيب:

يقول ﷺ في تصوير النار والصراط: «وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ. مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ...».

إنه لا جدوى من التربية إن لم يستغرقها الترهيب، لأن الإنسان لن يمتنع عن العمل إلا إذا علم أن وراءه شراً محدقاً ينبغي اجتنابه، فإن عمل خيراً نال السرور، وإن عمل شراً ذاق الألم والمرارة[(٢)].

رابعاً- من مهام المربي: البيان والإيضاح:

وذلك يظهر في توليه ﷺ تبيان الأمور الظاهرة للمتربين، فضلاً عن إبانته للغيبيات، وتلك خاصية تخص النبي ﷺ وحده، فعلم الغيب عند الله، وقد اطلع نبيه ﷺ على بعض الأمور الغيبية، ويظهر ذلك في أحاديث هذا الباب في عدة مواضع:

أولها: مراحل تضييع الأمانة، يقول ﷺ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ...»، حتى يصل الأمر في نهاية الزمان إلى أن يندر الأمناء، حتى يقول الناس: «إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِيناً»، حتى ينزع الإيمان كله من القلوب.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦.

ثانيها: حديثه ﷺ عن يوم القيامة، وما فيه من أهوال، تدفع الناس إلي طلب الشفاعة من الرسل والأنبياء، حتي يقوم النبي محمد ﷺ بالشفاعة.

فإن بيان الحقائق دلالة أكيدة على علم المربي وإحاطته بما يجهله المتلقون، ولاشك "أن زاد العلم والثقافة لا بد منه حتى يجد الناس عند المربي إجابة التساؤلات، وحلول المشكلات، إضافة إلى ذلك هو العدة التي بها يعلم الداعية الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضاً يكون قادراً على الإقناع"(١).

خامساً- التربية بالقصة:

من الأساليب التربوية التي استخدمها النبي ﷺ في أحاديث هذا الباب: التربية بالقصة، ويظهر ذلك في حديثه عن يوم القيامة باعتباره حادثًا لا محالة، فكان حديثه عن المستقبل بصيغة الماضي، فكأن هذه القصة في يقين حدوثها وحتمية وقوعها ماضياً وقع لا مستقبلاً ينتظر وقوعه.

ذلك الأسلوب القصصي من الأساليب التربوية الناجحة في إيصال القيم إلى المتربين من خلال أحداث القصة، فضلاً عما يفيدونه من معرفة ما سيقع يوم القيامة، وأهم ما في هذه القصة هو إشارته ﷺ إلى أمرين:

أولهما: أنه صاحب الحظوة والشفاعة عند الله يوم القيامة، ولهذا يشفّعه ويفتح له.

ثانيهما: الإشارة إلى مكانة الرحم يوم القيامة ومكانة الأمانة، وأنهما تكونان على جنبي الصراط يميناً وشمالاً.

والقصة النبوية تشد القارئ، وتوقظ انتباهه دون توانٍ أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعاتها، حتى آخر كلمة فيها؛ ذلك أن القصة تبدأ غالباً وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السامع

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح ص ٥٧.

شوقاً وانتباهاً، وتلهفاً على الحلّ أو النتيجة[١].

ومن الجوانب القصصية التي تفيد في العملية التربوية ما رواه عبدالله بن الزبير: «لما وقف الزبير يوم الجمل ...» ثم ذكر وصيته بسداد دينه، واستشهاده في معركة الجمل، وفي القصة حرص شديد من جانب الزبير بن العوام على تسديد ديونه من بعده، رغم أنه كان في خطر الحرب، وبين السيوف والرماح.



(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٨٩.

٢٦- باب تحريم الظلم والأمر بردِّ المظالم

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[الحج: ٧١].

وأمّا الأحاديث فمنها: حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المتقدم في آخر باب المجاهدة[1].

الحديث رقم (٢٠٣)

٢٠٣- وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حملَهُمْ على أَنْ سفَكَوا دِماءَهُمْ واسْتَحلُّوا مَحارِمَهُمْ**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الشُح: شدة البخل[3].

سفكوا دماءهم: السفك: أي الإراقة والإجراءُ لكل مائع، والمقصود من سفك الدماء: القتل وإزهاق الأنفس والاعتداء[4].

الشرح الأدبي

إن الظلم من أمارات فساد الفطرة الإنسانية، ومن دلائل الانحراف عن الصراط السوي في حياة البشرية، وما شاع الظلم في أمة إلا وكان عاقبتها الهلاك والدمار.

---

(١) برقم (١١١).

(٢) برقم (٢٥٧٨/٥٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٧٩).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٢٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٣٣.

فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ اللَّهَ لَيُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(١))).

وقال أحد الشعراء:

لاَ تَظْلِمَنَّ إِذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا	فَالظُّلْمُ مَصْدَرُهُ يُفْضِي إلى النَّدَمِ
تَنامُ عَيْناكَ والمَظْلومُ مُنْتَبِهٌ	يَدْعو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

والحديث الشريف في فسيحه اللغوي يبدأ بالأمر الحاسم الواجب التنفيذ: في قول رسول الله ﷺ: اتقوا الظلم، والتعبير بالفعل، "اتقوا" يحمل دلالة التحذير، لأن التقوى من الوقاية وكأن الظلم من موارد الهلاك، والإنسان يتجنب هذه الموارد التي يتردى فيها إن أقدم على الظلم، فالظالم لغيره ليس منتصرًا، ولكنه يظلم نفسه قبل ظلمه لغيره، ويهلك نفسه قبل أن يهلك غيره، بسبب الجور والفساد والظلم، وقد حرم الله الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرم على كل عبد أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه حرام مطلقًا، وهو نوعان: أحدهما: ظلم النفس وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢)، والثاني ظلم العبد لغيره.

والجملة الثانية: تأتي تعليلًا للأمر باتقاء الظلم، في قول رسول الله ﷺ: "فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"، وهذا التعليل يأتي في قالب الجملة الاسمية المبدوءة بالتوكيد، دلالة على ثبات المعنى، وعدم تغير هذه الصورة المنفرة للظلم، حيث شبهه الرسول ﷺ بأنه: ظلمات يوم القيامة، وليس ظلمة واحدة، وفي ذلك إشارة إلى أن الظالم لن يكون في زمرة هؤلاء المؤمنين الذين يسعى نورهم بين أيديهم، وبأيمانهم"، وفيه تحذير من المصير الذي سيؤول إليه الظالم، ويسيح في ظلمات بعضها فوق بعض،

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.

وأرشد المصطفى ﷺ إلى ذلك في قوله: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها..."[(١)] الحديث، لأنه إن لم يفعل ذلك سيأتي يوم القيامة وظلمات الظالم تغشاه بمقدار ما ظلم، وبمقدار ما نكب الناس، وفجر في نفوسهم الألم.

والمشاكلة بين لفظ الظلم والظلمات من خلال هذا التشابه في المادة اللغوية يؤكد مصير الظالم في دنياه وآخرته.

والقسم الثاني من الحديث يسير في السياق نفسه: حيث الأمر باتقاء الشح: والأمر جماعي، والشح أشد البخل وقيل هو: البخل مع الحرص، وقيل البخل في أفراد الأمور، والشح عام، وقيل: البخل يكون بالمال أما الشح يكون بالمال والمعروف، كما ذكر صاحب دليل الفالحين.

وتعليل الأمر باتقاء الشح يجيء في السياق اللغوي الذي جاء فيه تعليل اتقاء الظلم، وهو التأكيد في صيغة الجملة الاسمية، ولكن الآثار المترتبة على الشح أقرب إلى ما يشاهد من عذاب في الدنيا، وهو من شواهد العذاب في الآخرة، فالشح أهلك الأمم السابقة، واسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل يرشد إلى كل إنسان وكل أمة فشا فيها الشح، وغدا منهاجًا لها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)]، فالتعبير بـ"من" لا يعني الإفراد، وإنما للدلالة على كل من يهزم أمام شح نفسه، لأن الشح يحمل على سفك الدماء: حرصًا على جمع الأموال، أو السرقة أو الإرث قبل الأوان، والشح يقود إلى استحلال المحارم هربًا من تكاليف ومسؤوليات الزواج، فالشح في ظاهره وباطنه شاهد سلوكي من شواهد ظلم النفس، وظلم الغير، وباب من أبواب الفتن والفساد في الأرض، والهلاك في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

فقه الحديث

تحريم الظلم: أصل الظلم في اللغة: (وضع الشيء في غير موضعه، والجور يجاوزه الحدّ والميل عن القصد، ثم كثر استعماله حتى سمي كل عسف ظلمًا)[١].

ولا يخرج في الاصطلاح عن معناه اللغوي[٢].

والظلم محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٣].

وأما السنة فمنها: حديث الباب، وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي . وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا))[٤]. وقد أجمع الفقهاء على تحريم الظلم[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة الظلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الشح.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: بيان أسباب هلاك الأمم السابقة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حفظ المقاصد الخمسة.

خامسًا: من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

---

(١) لسان العرب والمصباح المنير وجمهرة اللغة "ظلم".

(٢) فتح القدير ٥/٤٣٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٦٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/١٦٩.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/١٧٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٠٠.

أولاً- من موضوعات الدعوة: سوء عاقبة الظلم:

إن الظلم يؤدي إلى الفساد والإفساد في الأرض، لذلك كانت عاقبته سيئة، ففي هذا الحديث حذر النبي ﷺ من الظلم، لأنه "ظلماتٌ يوم القيامة".

قال الصنعاني: "الحديث من أدلة تحريم الظلم وهو يشمل جميع أنواعه سواء كان في نفس أو مال أو عرض، في حق مؤمن أو كافر أو فاسق"[(١)].

قال القاضي عياض: (قوله: "الظلم ظلمات يوم القيامة" قيل: إنه ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم. ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، وبه فسَّروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(٢)] أي شدائدهما. ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات)[(٣)].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عن ظلمه شيء)[(٤)].

فالمؤمنون -كما قال عبدالله البسام-: (مستضيئون بنور إيمانهم، ويقولون: ربنا أتمم لنا نورنا، وأما الظالمون لربهم بالشرك أو لأنفسهم بالمعاصي أو لغيره في الدماء والأموال أو العرض، فهؤلاء يمشون في دياجير الظلم فلا يهتدون سبيلاً)[(٥)].

---

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٩٦١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢١/٥.

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦.

وقد وردت آيات وأحاديث تحذر من سوء عاقبة الظلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[1]. أي (ومن يرتكب ما نهى الله عنه من أخذ المال الحرام كالسرقة والغصب والغش معتديًا متجاوزًا حدَّ الشرع فسوف يدخله الله نارًا يقاسي حرَّها وكان ذلك على الله يسيرًا)[2].

وقال النبي ﷺ: ((ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَك فِيهِنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ))[3].

ومن الأمثلة الفعلية لأثر دعوة المظلوم ما رواه عروة بن الزبير أن أرْوى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنت آخُذُ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ! قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين" فقال له مروان: لا أسألك بيّنة بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فَعَمِّ بَصَرَها واقتلها في أرضها. فما ماتت حتى ذهب بصرُها ثم بينا هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الشح:

إن الشح من الأخلاق الذميمة التي إذا تمكنت من الفرد والمجتمع أدت إلى نتائج

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٢٩-٣٠.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٨٣.

(٣) أخرجه أبوداود ١٥٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٥٩).

(٤) أخرجه مسلم ١٦١٠، ١٣٩، وهو في البخاري (٢٤٥٢، ٣١٩٨)، بدون هذه القصة، وإنما باللفظ المرفوع فقط.

خطيرة، لذلك حذّر النبي ﷺ من الشح، معللاً ذلك بأنه "أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم" قال القاضي عياض: (يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم، ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر. ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة. قال جماعة: الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل...)[1].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المثبطين عن الجهاد في سبيل الله، بأنهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] أي (بخلاء عليكم أيها المؤمنون بالمال والنفس والجهد والمودة لما في نفوسهم من العداوة والحقد حبًا في الحياة وكراهة للموت)[3].

كما أخبر ﷺ أن الشح من شر صفات الرجل، فقال: ((شرُّ ما في رجل شُحٌّ هالعٌ، وجُبْن خالعٌ))[4]. قال ابن مفلح: (أصل الهلع: الجزع والهالع هنا ذو الهلع ومعناه: أنه إذا استُخرج منه الحق الواجب عليه هلع وجزع منه، والجبن الخالع هو: الشديد الذي يخلع فؤاده من شدته)[5].

كما أخبر النبي ﷺ أن الشح من أسباب الهلاك كما في حديث الباب وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ((ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ مُنْجياتٌ، وثلاثٌ كفّاراتٌ أمّا

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ١٩.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٢٠.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥١١ من حديث أبي هريرة وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٢).

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسي ٧٦٣هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ٣٠٢/٣.

المهلِكاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوَىً مُتَّبعٌ وإعْجَابُ المَرْءِ بنفْسِهِ...))[١]. قال ابن رجب: (قال طائفة من العلماء: الشحُّ هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها من حقوقها، وحقيقته شره النفس إلى ما حرّم الله ومنع منه، وألا يقنع الإنسان بما أحل الله من مال أو خرج أو غيرهما، ... فمن اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن، ومن تعدّى ذلك إلى ما منع منه فهو الشح المذموم، وهو منافٍ للإيمان ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة والفجور وبالبخل. والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده، والشح: تناول ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مال أو غيره حتى قيل: إنه رأس المعاصي كلّها)[٢].

قال الصنعاني: "(فإن قلت) وما حقيقة البخل المذموم وما من أحد إلا وهو يرى نفسه أنه غير بخيل ويرى غيره بخيلاً وربّما صدر فعلٌ من إنسان فاختلف فيه الناس فيقول جماعةٌ: إنه بخيل ويقول آخرون: ليس بخيلاً فما حدُّ البخل الذي يوجب الهلاك وما حدُّ البذل الذي يستحقُّ به العبد صفة السخاوة وثوابها؟ قلت: السخاء هو أن يؤدي ما أوجب الله عليه والواجب واجبان: واجب الشرع وهو ما فرضه الله تعالى من الزكاة والنفقات لمن يجب عليه إنفاقه وغير ذلك، وواجب المروءة والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب العادة والمروءة فإن منع واحدًا منهما فهو بخيل لكن الذي يمنع واجب الشرع أشد بخلاً، فمن أعطى زكاة ماله مثلاً ونفقة عياله بطيبة نفسه ولا يتيمم الخبيث من ماله في حق الله فهو السخي.

والسخاء في المروءة أن يترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات وغيرها فإنّ ذلك مستقبح ويختلف استقباحه باختلاف الأحوال والأشخاص وتفصيله يطول فمن أراد استيفاء ذلك راجع

---

(١) أخرجه البزار -كما في كشف الأستار ٨٠- وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال ٥٢٥، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ٩٦١، وحسنه الألباني بمجموع طرقه وشواهده (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨٠٢).

(٢) شرح حديث "ما ذئبان جائعان" ضمن مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي ٧٩٥هـ، تحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، ١/٦٩-٧٠.

الإحياء[1] للغزالي. واعلم أن البخل داء له دواءٌ وما أنزل الله من داءٍ إلا وله دواء، وداء البخل سببه أمران: الأول: حب الشهوات التي لا يتوصل إليها إلا بالمال وطول الأمل، والثاني: حب ذات المال والشغف به وببقائه لديه فإن الدنانير مثلاً رسولٌ يُنَال بها الحاجات والشهوات فهو محبوب لذلك ثم صار محبوبًا لنفسه لأن الموصل إلى اللذات لذيذٌ فقد تقضى الحاجات والشهوات وتصير الدنانير عنده هي المحبوبة، وهذا غاية الضلال فإنه لا فرق بين الحجر والذهب إلا من حيث أنها تقضى به الحاجات. فهذا سبب حب المال، ويتفرع منه الشحُّ وعلاجه بضده فعلاج الشهوات القناعة باليسير وبالصبر وعلاج حب المال وطول الأمل، الإكثار من ذكر الموت، وذكر موت الأقران والنظر في ذلك طول تعبهم في جمع المال ثم ضياعه بعدهم وعدم نفعه لهم، وقد يشح بالمال شفقة على من بعده من الأولاد. وعلاجه أن يعلم أن الله هو الذي خلقهم فهو يرزقهم وينظر في نفسه فإنه ربما لم يخلّف له أبوه فلسًا ثم ينظر ما أعده الله تعالى لمن ترك الشح وبذل ماله في مرضاة الله تعالى، وينظر في آيات القرآن المجيد الحاثّة على الجود المانعة عن البخل، ثم ينظر في عواقب البخل في الدنيا فإنه لا بدّ لجامع المال من آفات تُخرجه على رغم أنفه وذل أمره، فالسخاء خيرٌ كله ما لم يخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه.

وقد أدب الله تعالى عباده أحسن الآداب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[2]، فخيارُ الأمور أوسطها وخلاصته أنه إذا وجد العبدَ المالَ أنفقه في وجوه المعروف بالتي هي أحسن ويكون بما عند الله أوثق منه بما هو لديه وإن لم يكن لديه مال لزم القناعة والتكفف وعدم الطمع"[3].

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٤/١٨٠٦-١٨١٠.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٦٢، ٨/٢٨٠ - ٢٨٢، وانظر: إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٤/١٨١٠ - ١١٨٤.

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: بيان أسباب هلاك الأمم السابقة:

إن المسلم يأخذ العظة والعبرة من قصص الأمم السابقة، حتى لا يقع فيما وقعوا، مما أدى إلى هلاكهم وفنائهم، لذا أخبر النبي ﷺ المسلمين أن من أسباب هلاك مَنْ قبلنا من الأمم الشُحَ لأنه دفعهم إلى أن يستحلوا ما حرّم الله، واستباحوا القتل والتقتيل. وإنما ذكر النبي ﷺ ذلك لكي نأخذ العظة والعبرة فلا نفعل ما فعلوا حتى لا نتعرض للهلاك مثلهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال عبدالله البسام: (يدل الحديث على التحذير من الشح والبخل، فإنه صار سبب هلاك الأمم السابقة، حملهم على الحرص على المال وعلى الاعتداء على أموال غيرهم، فصارت الحروب والفتن التي صارت سبب هلاكهم واستحلال محارمهم، وهذا هلاك في الدنيا. كما أنه سبب للهلاك الأخروي، فإن الاعتداء على مال الغير والاعتداء على محارمه وسفك دمه من أكبر الظلم وأشد الإثم، وهذه المعاصي هي سبب الهلاك في الآخرة وعذاب النار)[2].

وقد كان ﷺ يذكر أصحابه بأسباب هلاك الأمم السابقة، فلما جاءه أسامة ابن زيد رضي الله عنه يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، قال له: ((أتَشفَعُ في حدٍ من حُدودِ الله ؟ ثم قام فاختطَبَ ثم قال: إنما أهلكَ الذين قبلَكم أنهم كانوا إذا سرَقَ فيهمُ الشريفُ تَركوه، وإذا سرقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ))[3].

قال النووي: (ذكر مسلم في الباب: الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك سبب هلاك بني إسرائيل)[4].

وقال عبدالله البسام: "إن إقامة الحدود على الضعفاء وتعطيلها في حق الأقوياء،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦، وانظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام، للقاضي المغربي ٢٧٥/٥ - ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٨٣.

سبب الهلاك والدمار، والشقاوة في الدارين"[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حفظ المقاصد الخمسة:

إن الغاية من تكاليف الشريعة الإسلامية حفظ المقاصد والكليات الخمس، لذا حضت على كل ما يحفظها في الوجود، ومنعت من كل ما يعطل حفظها، كما هو الأمر في هذا الحديث. وذلك واضح جلي في تحذير النبي ﷺ من الظلم والشح، فإن ذلك دفع الأمم السابقة إلى الاعتداء على النفس وما حرم الله تعالى.

قال الشاطبي: (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية. والثاني: أن تكون حاجية. والثالث: أن تكون تحسينية... والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود. والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.. ومجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة[٢].

وقال الغزالي: (وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها، يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع، التي أريد بها إصلاح الخلق، لذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب المسكر)[٣].

خامسًا- من مهام الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن علم الداعية يتيح له معرفة ما ينفع المدعوين وما يضرهم، فيرشدهم إلى نفعهم ويحذرهم مما يضرهم يتضح ذلك في قول النبي ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات... واتقوا الشح..." فقد حذر النبي ﷺ أتباعه من الظلم والشح. وقد كان النبي ﷺ

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣١٥/٥.

(٢) الموافقات: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، بعناية مشهور بن حسن آل سلمان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعوية: ١٤٢٤هـ، ١٧/٢-٢٠.

(٣) المستصفى من علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي ٢٨٨/١.

يحذّر أصحابه دومًا مما يضرهم، وقد جاءت أحاديث كثيرة بذلك[١] منها: ((إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ))[٢].

وقد ذكر سبحانه أن الغاية من قيام العلماء والفقهاء بمهامهم، تحذيرهم لأقوامهم من سوء العواقب وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣] أي: ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره وليعلموا غيرهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ففي هذا فضيلة العلم، خصوصًا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور وأنه من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى.

وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لم يعلمون فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؛ وأي نتيجة من عمله؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا)[٤].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ: "اتقوا الظلم واتقوا الشح" والأمر صيغة مباشرة للامتثال وإنما استخدم هنا لخطورة هذين الصفتين السيئتين وأثرهما على الفرد والمجتمع.

أما التعليل فبيان العاقبة السيئة لفعل الظلم والشح، والتعليل يُزيد المخاطب امتثالاً على امتثال، وطاعةً فوق طاعة، فقد بُيِّن له الحكمة من الأمر.

---

(١) انظر على سبيل المثال الفهارس العامة لمسند أحمد بن حنبل ٤٧/٢١٨-٢٢١، فقد ذُكر فيها الأحاديث التي تبدأ بلفظ "إياك، وإياكم، وإياكن".

(٢) أخرجه مسلم ١٦٠٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٢، ٣١٣.

الحديث رقم (٢٠٤)

٢٠٤- وعن أَبِي هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ، حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يقاد : يُقْتَصُّ[2].

الجلحاء: التي لا قرن لها[3].

القرناء: طويلة القرنين[4].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الثاني في باب تحريم الظلم، والأمر برد المظالم، ولغة الحديث تتسم بالصرامة والجد والحسم والجزم، لأنها تقدم قضية من أجلِّ القضايا في حياة الناس أجمعين، وهي: عدم التردي في مهاوي الظلم، والوقوف أمام إغراء السطوة والجاه والمال، والعِرْق، والنسب، فكلها من البواعث التي تدفع الإنسان إلى ظلم أخيه الإنسان.

وبعض الغافلين يتوهمون أن القوة الغاشمة، والسلطة القاصمة، من الموانع التي تمنع الظالم من العقاب، وتحميه من غضبة المظلومين، ولكن هذا الوهم، وإن تحقق في مظاهر الحياة الخادعة، وإن لمعت بوارقه في سراب الحركة الحياتية الواهمة، فإن الحق المغتصب لن يضيع، وإن قلوب المظلومين الواجفة لن يجمد نبضها ويدفن في الصقيع.

---

(١) برقم (٢٥٨٢/٦٠). أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٧٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق و د).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ل ح).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ر ن).

فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، والظالم لن يظل متحصنًا بالوهم آمنًا من العقاب، والحق سبحانه وتعالى يتوعد الظالمين وينذرهم بالعقاب الشديد، وبأنهم إن أخافوا الناس وأرهبوهم في الحياة الدنيا، فإنهم يوم القيامة مالهم من ولي ولا نصير، وهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

ولأن الظالمين نهبوا حقوق الناس، وسطوا على أرزاقهم، ولم يرجعوا الحقوق إلى أصحابها: يبدأ الحديث الشريف بتأكيد إرجاع الحق إلى أهله: يوم القيامة.

وقد تضافرت عدة أساليب في هذا الحديث الشريف لتوصيل المعنى المقصود، والهدف المنشود وهو إرجاع الحق إلى أصحابه، ولنتأمل هذه الأساليب اللغوية والفنية التي يشع بها هذا الحديث الموجز في مبناه المتسع في دلالته ومعناه فقوله عليه الصلاة والسلام: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة"، فيه قسم وتأكيد، وبناء للمجهول وإيجاز، وهذه السمات الأربع اجتمعت في كلمة واحدة "لَتُؤدُّنَّ" فاللام مؤذنة بقسم مقدر لتأكيد المقام: والتقدير، والله ليؤدِّن الله الحقوق،ومع هذا القسم يأتي التأكيد المتمثل في نون التوكيد الثقيلة، والإيجاز تنبئ عنه الصيغة النحوية وهي: البناء للمجهول، والفاعل ليس مجهولاً ولكنه معلوم ولا يحتاج تعريفًا لأنَّ المؤمنين يعرفون أن الله يوم القيامة، سيعطي كل ذي حق حقه، وأما الظالمون فهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً﴾[2].

فالفعل في صيغته المتضمنة للأداء وهو الإعطاء جاء محصنًا بالقسم والتوكيد والإيجاز والتنويه بمعرفة المؤمنين بعدالة خالقهم، والتعريض بغباء الظالمين حيث ختم

---

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩.

الله على قلوبهم وأسماعهم، ندركه من خلال صيغة البناء للمفعول "وأل" في "الحقوق"، للعهد والاستغراق، و"الحقوق"، جاءت جمعًا: لأن الحقوق متعددة ومتنوعة بتعدد المظالم، وتعدد المواقف، وتعدد الأزمنة، وتعدد الأمكنة، والتعبير بقوله: "إلى أهلها"، أبلغ في نسبة الحق إلى ذويه، من قوله: إلى أصحابها، لأن صاحب الحق قد يفرط فيه، أما أهله فهم منه وهو منهم فهما كيان واحد، وليسا صاحبين يمكنهما أن يتفرقا، وقوله "يوم القيامة" فيه إنذار للظالمين، وبشارة للمظلومين كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]، والسجع في نهاية الحديث: والطباق بين صورتي: الجلحاء والقرناء، يؤكد دلالة رجوع الحق: ومع الرجوع يكون القصاص من الظالمين الذين أفلتوا من العقاب في الدنيا، ولكنهم لن يفلتوا من عقاب الآخرة "إن ربك لبلمرصاد".

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الحقوق لأهلها.

ثالثًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى:

(العدل من أسماء الله الحسنى، وبه قامت السماوات والأرض، وانتظم أمر الخليقة)[2] في الدنيا والآخرة كما هو واضح جليٌّ في قوله النبي ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة)، فقد أخبر النبي ﷺ أن يوم القيامة هو يوم تأدية الحقوق إلى أهلها ومعاقبة مغتصبيها، فهو يوم العدل بين الناس والقصاص (حتى يقاد للشاة الجلحاء [وهي التي لا قرن لها] من الشاة القرناء).

قال عبدالرحمن الميداني: "إن الحشر يعم الإنس والجن والملائكة، وكل دواب

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/٣٠.

الأرض وطيورها.

أما حشر الإنس والجن فلأنهم مكلفون، وأما حشر الملائكة فليقوموا بوظائفهم وفق سنة الله تعالى في خلقه.

وأما دواب الأرض وطيورها، فقد جاء في إثبات حشرها قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يدل على الفائدة من حشرها.

فمن ذلك: القصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها.

ونعتقد أن ذلك على مقدار إدراكها لمعنى الظلم الذي لا تقبله نفس من النفوس، مهما قلت مداركها العامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة، حتى يُقَادَ للشاة الجَلْحاء من القَرْنَاء تَنْطحُها)).

ومن ذلك أيضًا: تأديتها وظيفة الشهادة على الناس بحسب مشاهداتها في الدنيا، وتسخيرها لتعذيب العصاة الذين عصوا الله بها في الدنيا، حينما كانت مذلّلة لهم، مسخرة لمصالحهم وحاجاتهم.

ومن ذلك: مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا، وتعويضها عن ذلك طبق قانون العدل الرباني، حتى إذا تمت الحكمة الإلهية من حشرها، يقضي الله عليها بأمره، فتكون ترابًا"[2].

وقد حذّر النبي ﷺ من أن الظلم يؤدي بصاحبه يوم القيامة إلى أن يكون مفلسًا من حسناته بسبب القصاص العادل، فقال ﷺ يخاطب أصحابه: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟)) قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها ٦٥٤ – ٦٥٥.

يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَى هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[1].

قال النووي: (حقيقة المفلس هو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)[2].

وقال ابن هبيرة: (هذا الحديث يقتضي أن القصاص يأتي على جميع الحسنات، حتى لا يبقى منها شيء، فينبغي لمن عليه مظالم أن يستكثر من الحسنات)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في أداء الحقوق لأهلها:

إن الإسلام يحرص أشد الحرص على تأدية الحقوق لأهلها، لذا حثّ المدعوين على ذلك وهذا مستنبط من قوله ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة)، فإن الحق إذا لم يؤدَّ إلى صاحبه في الدنيا أُدِّي إليه يوم القيامة، فكان هذا أمرًا بأداء الحقوق والمسارعة إلى ذلك قبل أن تنقضي الحياة الدنيا، وقد وردت آياتٌ وأحاديث تحذر من أن تأخير الحق وعدم أدائه يكون سببًا للعذاب يوم القيامة، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[4]، أي: (والذين يمسكون الأموال ولا يؤدون زكاتها ولا يخرجون منها الحقوق الواجبة فبشرهم بعذاب موجع يوم القيامة،

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٩/٨.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

توضع قطع الذهب والفضة في النار فإذا اشتدت حرارتها أحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم، وقيل لهم توبيخًا: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، فذوقوا العذاب الموجع بسبب كنزكم وإمساككم)[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أتت امرأتان في أيديهما أساور من الذهب فقال لهما رسول الله ﷺ: ((أَتُحِبَّانِ أَنْ يُسَوِّرَكُمَا رَبُّكُمَا بِأَسْوِرَةٍ مِنْ نَارٍ؟)) قالتا: لا، قال: ((فَأَدِّيَا حَقَّ هَذَا الَّذِي فِي أَيْدِيكُمَا))[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ حُنَيْنٍ، إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ . ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ. فَأَخَذَ مِنْهُ قَرَدَةً. يَعْنِي وَبَرَةً. فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هذَا مِنْ غَنَائِمِكُمْ. أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، فَمَا دُونَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَشَنَارٌ وَنَارٌ))[٣].

قال العز بن عبدالسلام: "إنما شرفت المسارعة إلى الطاعات لأنها أحسن في الطواعية وامتثال الأمر، ولما في المسارعة من أمن فوات الطاعات، فالمسارعة إلى أفضل الأعمال أعلى رتب المسارعات، وكذلك تترتّب المسارعات برتب فضائل الطاعات"[٤].

ثالثًا- من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين:

إن من المهام الأساسية للداعية أن ينصح المدعوين، فيحثهم على ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم، وهو إذ يفعل يقتدي بالأنبياء ، وإمامهم محمد ﷺ الذي بذل النصح للمدعوين في هذا الحديث بأن أخبرهم أن الحقوق سوف تؤدى إلى أصحابها يوم القيامة، وفي هذا نصح لهم، كما نبّه ﷺ على ذلك بأن قال: (حتى ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)، قال النووي: (وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة)[٥].

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص ١٩٢.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٨/٢ رقم ٦٦٦٧ وقال محققو المسند: حديث حسن صحيح ٢٤٨/١١.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٨٥٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه).

(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبدالسلام، تحقيق: إياد خالد الطباع ٢٠٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام - مقام نصح المدعوين بما قد يغيب عن أذهانهم - بما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من أن عبد الله بن أبي سلول - رأس المنافقين - قال معرِّضًا بالنبي صلى الله عليه وسلم: واللَّهِ لئن رجَعنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقال عمرُ بنُ الخَطاب رضي الله عنه: دَعني يا رسولَ الله أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافقِ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((دعهُ، لا يتَحدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُلُ أصحابَه)) (١).

قال النووي: (فيه ترك بعض الأمور المختارة والصبر على بعض المفاسد خوفًا من أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان صلى الله عليه وسلم يتألف الناس ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين وتتم دعوة الإسلام ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة قلوبهم، ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى)(٢).

ولا بأس هنا بإيراد ما رواه ابن إسحاق عن أمر عبد الله بن أبي سلول بعد هذا، فقد روى: "وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتَه يوم قلتَ لي أقْتُلُه، لأُرعْدَت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؛ قال عمر رضي الله عنه: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري"(٣).

قال النووي: (وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم وتوقير

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥١٨، ومسلم ٢٥٨٤، ٦٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٣٠٥/٣، وقد رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وهو من صغار التابعين فتكون روايته معضلة.

كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم إلى الطاعات، وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والترهيب:

أما التوكيد فقوله ﷺ "لتؤدن"[٢]، وذلك ليؤكد أمر تأدية الحقوق وخطورته، وأما الترهيب فذكره ﷺ: "يوم القيامة"، وما يستحضره الذهن من أهواله وشدائده، وكذلك ذِكْره القود من الشاة القرناء للجلحاء، وفي كل هذا ترهيب من أكل الحقوق واغتصابها من أهلها، والخلاصة: أنه ترهيب من الظلم.

وتأتي أهمية الترهيب في تحذير الإنسان من الانغماس في الشهوات والاعتداء على حدود الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان "لما كان يعيش في الدنيا ويشاهدها ويحس بها ويتعرض لإغراءاتها مما قد يجره إلى الركون إليها والتعلق بها ونسيان الآخرة، وظلم النفس أو الغير، فلا بد إذن من تنفير المدعوين من إيثارها على الآخرة لا من الفرار منها جملة مع بيان حقيقتها وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى الآخرة ونعيمها.

ويقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب -أسلوب الترغيب والترهيب- في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قِبل الداعي المسلم"[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٢) انظر: شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دون بيانات أخرى، ٢/٣٠٩.

(٣) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧-٤٤١.

الحديث رقم (٢٠٥)

٢٠٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا نَتحدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْن أَظْهُرِنَا، وَلاَ نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوداع، حَتَّى[1] حمِدَ اللَّه رسول اللَّه ﷺ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَر الْمسِيحَ الدَّجَالَ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: «**ما بَعَثَ اللَّه مِنْ نَبيٍّ إلاَّ أَنْذَرَهُ أُمَّتهُ: أَنْذَرَهُ نوحٌ وَالنَّبِيُّون مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فما خفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفِي عَلَيْكُمْ[2] إِنَّ رَبَّكُمْ لَيس بأَعْورَ، وَإِنَّهُ أَعورُ عَيْن الْيُمْنَى، كَأَنَّ عيْنَهُ عِنبَةٌ طَافِيَةٌ.**

ألا إن اللَّه حرَّم عليْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوالكُمْ، كَحُرْمَةِ يوْمكُمْ هذا، فِي بلدِكُمْ هذا، فِي شَهْرِكُم هذا ألاَ هل بلَّغْتُ؟ » قَالُوا: نَعَمْ، قال: « **اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاثًا ويْلَكُمْ أَوْ: ويحكُمْ، انظُرُوا: لا ترْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» رواه البخاري[3]، وروى مسلم بعضه[4].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

بين أظهرنا : بيننا[5].

أطنب: أكثر في ذكره[6].

---

(١) (حتى)، و(رسول الله ﷺ) لا توجدان عند البخاري في هذه الرواية، وهما عند الحميدي في جمعه (١٩١/٢، رقم ١٢٩٥).

(٢) عند البخاري زيادة: (إنَّ ربكم ليس على ما يخفى عليكم ثلاثًا). وهي ليست عند الحميدي في جمعه، فتبعه عليه المؤلف.

(٣) برقم (٤٤٠٢ - ٤٤٠٣).

(٤) أخرج مسلم (٦٦/١٢٠) طرفًا منه، وهو قوله: (ويحكم، أو: قال: ويلكم، لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)، وقد أخرج البخاري (٦٠٤٣) هذا الطرف منه في موضع آخر من حديث محمد بن زياد أيضًا عن جده.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ظ هـ ر).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط ن ب).

عنبة طافية: أي ناتئة ناشزة[١].

كفَّارًا: لا بسي السلاح، يُقال كفَر فوق دِرْعِه، فهو كافر: لبس فوقها ثوْبًا، كأنه أراد بذلك النهي عن الحرب[٢].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يعد النموذج الأعلى للبلاغة العربية بعد البيان بالقرآن الكريم، فهو قبس من أضواء الذكر الحكيم، وهو نموذج سام للبيان العربي الدال المفيد، ويكفي أنه صاحبه قد أوتي جوامع الكلم.

وفي خطبة حجة الوداع، تتجلى معالم البيان النبوي، وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبي كاد يندثر في عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبي الراقي، إنه فن الإلقاء، وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر في المتلقى، وتأسر أحاسيسه، وتثير انفعالاته، وتمتع عقله، وتشبع عاطفته، وحين نتأمل هذه الخطبة في نصوصها الكاملة، ورواياتها المتعددة نجدها كنزًا من الأساليب المضيئة بالإيمان، والناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم.

وفي ظلال هذا الحديث الشريف: نتأمل ونقتبس ما وراء الكلمات من معان ومقاصد وأهداف، وما توحي به مقدمة الحديث من أثر جليل، ومقصد جميل، والحديث يفيض بهذه الظواهر الفنية والأسلوبية:

١-قول ابن عمر: "ولا ندري ما حجة الوداع"، وهو يؤكد هذا المعنى حينما قال مصورًا حال الصحابة رضي الله عنهم وهم لا يدرون ما هذه الحجة؟ والكلام ليس على عمومه، ولكن المراد هو غياب هذا الاسم عنهم، لأنه لم يكن مشهورًا لديهم: وقيل: كأنه شيء ذكره النبي ﷺ فتحدثوا به، وما فهموا أن المراد من الوداع، وداع النبي ﷺ حتى وقعت وفاته بعد ذلك بقليل: فعرفوا ذلك، وهذا من معجزات النبي ﷺ، وإخباره عن بعض الأمور الغيبية.

---

(١) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ١٩٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

٢-تقديم الحمد على الثناء في قوله: حتى حمد الله وأثنى عليه، وقيل: قُدِّم لفظ الجلالة للاختصاص، وقيل إن الحمد هنا مناسب للموقف، لأن المصطفى ﷺ يحمد ربه على قضائه وقدره، وعلى قرب أجله، وهو في هذا الموقف لم يجزع، ولم ييأس، ولم يتوجه بالشكوى إلى ربه أو الدعاء بطول العمر، ولكنه: أثنى على ربه، واستقبل هذا الأمر بالرضا والتسليم والبشارة، ثم بدأ يحذر أمته من فتنة المسيح الدجال: مخافة أن يرجعوا كفارًا متحاربين.

٣-لفظ المسيح يحمل في مادته اللغوية المعنى المراد منه والذي يتضمن خصائصه ووظيفته في إضلال الناس، وقيل في تفسير الاسم: لأنه يمسح معظم الأرض، أي: يقطعها في أيام معدودة، حتى يضل الناس، وقيل لأنه ممسوح من كل خير: أي مبعود ومطرود، ولذلك جاء وصف : الدجال مصورًا لوظيفته وهيئته.

٤-قوله: "فأطنب في ذكره"، أكثر دقة من قوله مثلاً: "أسهب"، لأن الإطناب محمودٌ إذا كان المقام يستدعيه أما الإسهاب، فهو غير محمود.

٥-أسلوب القصر في قوله: "ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته"، يؤكد صدق خبر مجيء المسيح الدجال، ولفظ "من" يدل على الاستقصاء.

٦-التأكيد والشرط في تصوير هيئة الدجال ينبه كل مؤمن إلى حتمية الحذر، وضرورة المقاومة، وعدم الضعف أمام إغراءات فتن المسيح الدجال. وهي تتعدد وتتلون، وتغرى ضعاف الإيمان بسرابها الخادع: وورد التأكيد أكثر من مرة في هذا السياق بإن وكأن في قوله: "وإنه إن يخرج فيكم، إن ربكم ليس بأعور، وإنه أي: المسيح، أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، وهذه الصورة التشبيهية مع التأكيد والشرط تعد مثيرات ومنبهات أسلوبية كى يتحصن المسلم بدينه أمام هذه الفتن.

٧-التكرار: ويمتزج التكرار بالتوكيد في قوله: "ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا"، وتكرار اسم الإشارة يفسر لنا حرص رسول الله ﷺ على حرمة الدم للمسلم، وحرمة مال المسلمين، وحرمة الأماكن المقدسة، وثمرة ذلك الحرص: المحافظة على البلد الأمين،

واستقراره وأمنه بما فيه من أناس وطير وشجر وحيوان، فكلها من خلق الله، والإنسان مطالب بأن لا يظلم أخاه الإنسان، وكذلك لا يظلم الطير والنبات والحيوان، في هذا البلد الأمين، والآمن.

٨-في ختام الحديث يتوهج الاستفهام والحوار والتكرار والتحذير والنهي: حتى يظل المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وهم بمنجى من فتنة المسيح الدجال: وقوله: "ويحكم أو ويلكم"، إنذار للأمة وتحذير لها.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من فتنة الدجال.

ثالثًا: من مهام الداعية: وصف الأمر بما يتميز عن غيره.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حفظ النفس وحفظ المال.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن قتال المسلم.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

سابعًا: من أساليب الدعوة: القصر، والتوكيد، والتنبيه، والتشبيه، والتقرير، والنداء والتكرار، والتحذير، والأمر والنهي.

أولاً- من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

كانت حجة الوداع في السنة العاشرة، قال ابن كثير: (ويقال لها حجة البلاغ وحجة الإسلام وحجة الوداع، لأنه ﷺ ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها، وسميت حجة الإسلام لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، وسميت حجة البلاغ لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه عليه الصلاة والسلام، فلما بيّن لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ

دِينًاۚ ﴾[١])[٢].

وقال النووي: (إن النبي ﷺ ودّع الناس فيها وعلمهم في خطبته فيها أمر دينهم وأوصاهم بتبليغ الشرع فيها إلى من غاب عنها)[٣]، (وكان هذا إيذانًا بإكمال الدين وإتمام النعمة وبلوغ الرسالة غايتها)[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من فتنة الدجال:

كان النبي ﷺ كثيرًا ما يحذر أصحابه رضي الله عنهم وأمته فتنة الدجال، وذلك لخطورة فتنته وشدة أمره على من يدركه ويعاصره، وهذا واضح في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "فأطنب في ذكره وقال: ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته؛ أنذره نوح والنبيون من بعده"، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما بُعِث نبيٌّ إلا أنذَرَ أمته الأعورَ الكذابَ، ألا إنه أعورُ وإنَّ ربَّكم ليسَ بأعْوَر، وإنَّ بين عينيه مكتوبٌ: كافر))[٥].

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أمر الدجال وتحذر من فتنته[٦]، من ذلك ما رواه النواس بن سمعان: ((ذَكَرَ رَسُولُ اللّهِ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ. حتى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلك فِينَا. فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَداةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ. حتى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ. إنْ يَخْرُجْ، وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ. وَإِنَّ يَخْرُجْ، وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ. وَاللّهُ خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ. عَيْنُهُ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣. والحديث في نزول هذه آية في يوم عرفة أخرجه البخاري ٤٥، ومسلم ٣٠١٧.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٠٤/٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٩/٢/١.

(٤) تاريخ الدعوة، د. محمد إبراهيم الجيوشي ص ١٤١.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٣١، ومسلم ٢٩٣٣.

(٦) انظر: الأحاديث في ذلك: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٦٥٨-٦٧٥، والبداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير "الفتن والملاحم" ١١٣/١٩-٢١١.

طَافِئَةٌ. كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العزى بْنِ قَطَنٍ. فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ. إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ. فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً[(١)]. يَا عِبَادَ اللّهِ فَاثْبُتُوا». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا. يَوْمٌ كَسَنَةٍ. وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ. وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ. وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ فذلك الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لاَ. اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. فَيَأْتِي على الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ. فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرِ. وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ. فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ[(٢)]. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ. فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ. فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ[(٣)]....))[(٤)].

قال النووي: (قال القاضي عياض: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى: من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء

---

(١) العيث: الفساد أو أشد الفساد والإسراع فيه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧.

(٢) وأسبغه: أي أطوله لكثرة اللبن، وكذا أمدّه خواصر لكثرة امتلائها من الشبع، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧.

(٣) يعاسيب النحل: هي ذكور النحل وقال القاضي عياض: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٧، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨٤/٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.

والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافًا للجبائي المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها وزعموا أنه لو كان حقًا لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وهذا غلط من جميعهم، لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفًا من أذاه، لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص فيصدقه من صدقه في هذه الحالة ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله، ثم يحييه: (ما ازددت فيك إلا بصيرة)[1]،[2].

ثالثًا- من مهام الداعية: وصف الأمر بما يتميز به عن غيره:

يقع التشابه بين كثير من الأمور في نفوس المدعوين، وهنا يأتي دور الداعية بأن يوضح الأمر بما يميزه عن غيره ويوضحه، بحيث يقع في نفوس المدعوين، واضحًا جليًا لا لبس فيه. وهذا واضح من قول النبي ﷺ: "إن ربكم ليس بأعور وإنه أعور عينه اليمنى، كأنها عنبة طافية".

قال ابن حجر: (إنما اقتصر على ذلك مع أن أدلة الحدوث في الدجال ظاهرة لكون العور أثر محسوس يدركه العالِم والعامي، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٨٢، ومسلم ٢٩٣٨.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٩/٤٧٥، ٤٧٦، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٤.

الربوبية وهو ناقص الخلقة - والإله يتعالى عن النقص- علم أنه كاذب، وزاد مسلم[١] في رواية يونس والترمذي[٢] في رواية معمر: قال الزهري: (فأخبرني عمر بن ثابت الأنصاري أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال يومئذ للناس وهو يحذرهم ((تَعَلَّمُون أَنَّهُ لَنْ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ))[٣]. وعند ابن ماجه[٤] نحو هذه الزيادة من حديث أبي أمامة، وعند البزار من حديث عبادة بن الصامت. وفيه تنبيه على أن دعواه الربوبية كذب؛ لأن رؤية الله تعالى مقيدة بالموت والدجال يدعي أنه الله ويراه الناس مع ذلك[٥].

وقال ابن كثير عن ملخص سيرة الدجال: (هو رجل من بني آدم خلقه الله تعالى ليكون محنة واختبارًا للناس في آخر الزمان فيضلُّ به كثيرًا ويهدي به كثيرًا، وما يضل به إلا الفاسقين)[٦] وقبله قال النووي: (إنه شخص ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى ... كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك)[٧].

ويمكن أن يستأنس لما ذكر من أن من مهام الداعية توضيح الأمر بما يتميز به عن غيره، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾[٨] أي: (إن الذين يتعاملون بالربا قالوا: إنما البيع مثل الربا في أن كلاً منهما حلال ويؤدي

---

(١) صحيح مسلم ١٦٥، ٩٥.

(٢) سنن الترمذي ٢٢٣٥.

(٣) قال النووي: قال المازري: هذا الحديث فيه تنبيه على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، وهو مذهب أهل الحق، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٣، والمعلم بفوائد مسلم ٤٤٥/٢.

(٤) سنن ابن ماجه ٤٠٧٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٣/١٣.

(٦) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٠٣/١٩، وانظر في صفحه ٢٠٨/١٩-٢١٦.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩٤.

(٨) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

إلى زيادة المال، فأكذبهم الله وبين أنه أحل البيع وحرم الربا؛ لما في البيع والشراء من نفع للأفراد والجماعات ولما في الربا من استغلال وضياع وهلاك)[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حفظ النفس وحفظ المال:

إن الشريعة جاءت بحفظ المقاصد الخمسة، منها حفظ النفس وحفظ المال، كما جاء في هذا الحديث فقد قال النبي ﷺ: "إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا... لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض" فقد حذر النبي ﷺ من الاعتداء على الأنفس والأموال، وقد روى أبوبكرة رضي الله عنه هذا الحديث فذكر أن النبي ﷺ قال: ((أيُّ يومٍ هذا؟ فسكَتْنا حتى ظَنَنّا أنه سيُسَمِّيهِ سوى اسْمِه. قال: أليسَ يومَ النَّحر؟ قلنا: بلى . قال: فأيُّ شَهرٍ هذا؟ فسَكَتْنا حتى ظَننا أنه سيُسَمِّيه بغيرِ اسمهِ، فقال: أليسَ بذِي الحِجَّة؟ قال: فإنَّ دِماءَكمْ وأموالَكم وأعْراضَكمْ بَينَكم حَرامٌ كَحرْمةِ يومِكم هذا، في شَهرِكمْ هذا، في بَلَدِكمْ هذا))[٢].

قال القرطبي: (سؤاله ﷺ عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان استحضارًا لفهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا" وهذا منه ﷺ مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء، وزيادة في التنفير عن الوقوع فيها، لأنهم كانوا قد اعتادوا فعلها، واعتقدوا حليتها)[٣].

قال النووي: (المراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك)[٤]، وقال ابن حجر: (إن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٤٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٥.

نفوسهم مقررًا عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض فكانوا في الجاهلية يستبيحونها فطرأ الشرعُ عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم)[1] ومن ثم (فإن التشريع الإسلامي يجعل من حياة الإنسان وبدنه وماله وعرضه، أشياء مقدسةً أو حرمات)[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن قتال المسلم:

المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، فضلاً عن أن يقاتله، لأن ذلك يتنافى مع الأخوة التي أثبتها الشرع ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، لذا نهى النبي ﷺ عن أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، ووصف الفاعلين لهذا بأنهم كفار، فقال: ((لا تَرجِعوا بَعدي كُفَّارًا، يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ))، وفي هذا الوصف ترهيب ما بعده ترهيب لأن يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، كما قال ﷺ: ((سِبابُ المسلِم فسوقٌ وقتالُه كفرٌ))[4].

قال ابن عبدالبر: (ومثل هذا كثير من الآثار التي وردت بلفظ التغليظ، وليست على ظاهرها عند أهل الحق والعلم؛ لأصول تدفعها أقوى منها من الكتاب والسنة المجتمع عليها والآثار الثابتة أيضًا من جهة الإسناد)[5].

وذكر النووي عدة أقوال في تفسير قوله ﷺ: "لا ترجعوا كفارا"، منها: الرابع: (أنه فعل كفعل الكفار) أي: لا تتشبهوا بالكفار في قتل بعضكم بعضًا"[6]، ثم قال النووي: (وأظهر الأقوال الرابع وهو اختيار القاضي عياض)[7].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٩١.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، تعريب د. عبدالصبور شاهين ص ٢٧٠.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨، ومسلم ٦٤.

(٥) التمهيد ٢٣/٣٦٤ موسوعة شروح الموطأ.

(٦) شرح السنة ١٠/٢٢٢.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١/٢/٤٨.

ولفظ القاضي عياض: "نهاهم عن التشبيه بالكفار في حالة قتل بعضهم بعضًا ومحاربة بعضهم لبعض، وهذا أولى مما يتأول عليه الحديث"[١].

والمقصود أن المؤمن أبعد الناس عن فعل ما يشبه فعل الكفار لأن الله تعالى أكرمه بالإيمان والإسلام، وإلا فكيف يكون أثر العقيدة على سلوكه وأفعاله إن هو تشبه بهم وأتى مثل أعمالهم فرفع السيف في وجه أخيه وقاتله واعتدى على حرماته كما يفعل الكافر مع الكافر وغير الكافر؟

إن المسلم له حرمة يجب أن تصان بكل الوسائل والطرق ويمنع من الاعتداء عليها بشتى السبل الممكنة، كما أن شعار المسلمين فيما بينهم يجب أن يكون الحفاظ على هذه الحرمات وتعظيم حقها.

سادسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن من وسائل الدعوة ذات التأثير الكبير والفعال، الخطبة، وقد استخدمها النبي ﷺ كثيرًا، كما في هذا الحديث، قال ابن عمر رضي الله عنهما: "حمد الله رسول الله ﷺ وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره..." قال ابن حجر: (وهذا يدل على أن هذه الخطبة كلها كانت في حجة الوداع وقد ذكر الخطبة في حجة الوداع جماعة من الصحابة لم يذكر أحد منهم قصة الدجال فيها إلا ابن عمر، بل اقتصر الجميع على حديث "إن أموالكم عليكم حرام..." الحديث)[٢]. وقال النووي: (علمهم في خطبته أمر دينهم وأوصاهم بتبليغ الشرع فيها إلى من غاب عنها)[٣].

إن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معانٍ معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٢٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٠/٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٨.

علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة[١].

سابعًا- من أساليب الدعوة: القصر والتوكيد والتنبيه والتشبيه والتقرير والنداء والتكرار والتحذير والنهي:

أما القصر فقول النبي ﷺ "مابعث الله من نبي إلا أنذره أمته" وهذا يؤكد عظم فتنة الدجال، لذا حذّر كل نبي أمته من اتباعه، وأما التوكيد فـ"وإنه.. وإن.. وإنه.. وإن" كل هذا ليؤكد مضمون الجملة ومفهومها لدى المخاطب.

وأما التنبيه فقوله ﷺ "ألا إن الله حرم ...." لينبه على أهمية حرمة الدماء والأموال. وأما التشبيه فقوله ﷺ "كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا"، واستخدم ﷺ هذا التشبيه ليوضح هذه الحرمة، لأن حرمة اليوم والشهر كانت أثبت في أذهان السامعين[٢].

أما التقرير فقوله ﷺ: ألا هل بلغت؟ وجوابهم عليه: قالوا: نعم، وذلك (ليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه)[٣].

وأما النداء فقوله ﷺ: "اللهم[٤] اشهد" وقد أكد ﷺ ذلك (بإشهاد الله عليهم بأنهم شهدوا أنه قد بلغ ما أرسل إليهم به)[٥].

("اللهم اشهد ... اللهم اشهد... اللهم اشهد". وما أعظمها من سعادة!؟ سعادة رسول الله ﷺ بشبابه الذي أبلاه وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدَّم والعمر الذي بذل، أصواتًا ترتفع وتعج بتوحيد الله، وجباهًا تعنو ساجدة لدين الله وقلوبًا خفاقة تجيش بحب الله. ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر في القفار، وعذاب

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٩١.

(٣) السابق ١/١٩١.

(٤) اللهم: أصله يا الله، وأبدل حرف النداء ميمًا في الآخر.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧١٠.

السخرية والإيذاء، في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله!

ولا والله، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب ولكنها شهادة المسلمين في كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها ومقالها: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته)[١].

أما التكرار فكان بقوله ﷺ "اللهم اشهد" ثلاثًا، والتحذير كان في قوله ﷺ "ويلكم أو ويحكم"، فالويل (حلول الشر أو كلمة عذاب. والويح قيل بمعنى الويل)[٢].

وأما الأمر فقوله ﷺ: "انظروا".

وأما النهي فقوله ﷺ "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض".

ولا شك أن هذه الأساليب الدعوية مفيدة في بابها، ولذا يحسن بالداعية أن يُفيد منها، مراعيًا في ذلك مناسبة هذه الأساليب للقضايا التي يتناولها الداعية، حتى ينجح في حسن العرض والبيان والإقناع وإزالة أي غموض أو لبس لدى المدعوين.

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ي ل).

الحديث رقم (٢٠٦)

٢٠٦- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ((**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**)) متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

طُوِّقَهُ: خسف الله به الأرض فتصير البُقعة المغصوبة منها في عنقه كالطَّوق[2].

الشرح الأدبي

إن الإيجاز من أدق خصائص البيان النبوي، ومن أصدق الدلائل على سمو بلاغة المصطفى ﷺ، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي ندرك أن الإيجاز في مبناه هو الطريق إلى اتساع مداه، وعمق معناه، وقد ينشأ اتساع المعنى من تعدد دلالات الكلمة الواحدة، ومن تعدد آراء العلماء في الوصول إلى المقصد، والوصول إلى مضمون الرسالة الموجهة عَبْر ذلك الخطاب الذي شيدته لغة الحديث الشريف، والحديث تشكله، جملة لغوية واحدة، وهى الجملة الشرطية ... حيث الأداة "مَنْ" وهي للعاقل، وكأن ذلك إشارة إلى أن الذي أكرمه الله بنعمة العقل حري به أن ينأى عن الوقوع في دائرة الظلم المظلمة، وجملة الشرط هي "ظلم قيد شبر من الأرض"، وهي ترشد وتحذر من الاستهانة بأي سلوك ظالم مهما صغر حتى لو كان قدر شبر من الأرض، وكلمة "قيد" معناها: قَدْر، ولكن المصطفى ﷺ عَدَل عن لفظ "قدر" واختار لفظ "قيد" حتى لا يلتبس لفظ، قدر في دلالته هنا بدلالاته في سياقات أخرى، مثل الشرف والعظم، وغير ذلك، أما "قيد" فهي تعطي دلالة: القيد، والطوق، والعقاب،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢/١٤٢) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٨١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ق).

ويمكن أن يشير هذا اللفظ إلى القود، وهو القصاص، من ذلك الظالم "والأرض" اختيار يوحي بأن الظلم محرم في أى مكان، وفي أي زمان، من أي جنس وأي لون، وأي مذهب: فالأرض لا تكون إلا بما يعمرها من الخلق في تحركاتهم الحياتية المتدافعة.

ويأتي جواب الشرط: مصورًا مصير هذا الظالم تصويرًا دقيقًا عميقًا من خلال المادة اللغوية للفعل "طوق" ومن خلال بناء هذا الفعل للمجهول: لأن الله سبحانه هو الذي يلحق به ذلك العقاب، فمصدر العقاب معلوم، ولا يظن أن لهذا العقاب مصدرًا آخر، وضمير الغائب المتصل بالفعل: يفصح عن حتمية ذلك العقاب: فلم يفصل بين المعاقب: وفعل العقاب بأي فاصل: فتأمل هذه الدقة اللغوية، في هذا الكلام الجامع.

وهذه الدلالات المتعددة كلها صحيحة، وهي تنبع من الثراء اللغوي، والاتساع الدلالي في قوله: "طوقه من سبع أرضين"، فالألفاظ هنا لها ظلال تموج بالمعاني المشرقات، ولها ثمار تعطى أكلها لكل من تفتح قلبه لهذي الآيات البينات، ويقول العلامة: أحمد محمد شاكر: في القرآن الكريم -وفي الحديث النبوي الشريف- فيهما وحدهما تبلغ الفكرة في نفسها، ثم بتعبيرها وألفاظها، ثم بشمول معانيها لجميع الحقائق الواشجة بها ثم بتنسمها في ألفاظها وكلماتها نسمة الروّح العطِر في جو السَّحر، ثم فوق ذلك البساطة واللين والتقارب والتعاطف بين هذه المعاني كلها: يبلغ كل هذا مبلغًا يكون منه ما هو كنسيم الجنة في طيبه ونعمته، ويكون منه ما هو كحدِّ المواسي في علائق القلوب، ويكون منه ما هو كالنار تستعر وتتلذَّع، ويكون منه ما ينتظم البنيان الإنساني البليغ المتفهم فيهزه هز الزلزلة أعصاب الأرض، وبهذا كان القرآن معجزًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبمثله كان حديث الرسول ﷺ: هو ذروة البلاغة البشرية التي تتقطع دونها أعناق الرجال"[١].

---

(١) من مقال في مجلة المقتطف: عدد يوليو سنة ١٩٣٤: للتعريف بكتاب مفتاح كنوز السنة، للمحدث: أحمد محمد شاكر.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغصب، وهو: الاستيلاء قهرًا وظلمًا على مال الغير عقارًا كان أو منقولاً وحرمانه منه، والمال أحد الكليات الخمس التي اهتم الشرع الشريف بحفظها وحمايتها من أي اعتداء أو الاستيلاء عليها بدون وجه حق.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الغصب حرام لما فيه من الاعتداء على مال الغير الذي تكفل الشرع بحفظه، ويجب على الغاصب رده متى كان باقيًا على حالته، ومتى تلف المغصوب بأي سبب فإن الغاصب يكون ضامنًا له.

قال ابن حجر[2]: وفي الحديث تحريم الظلم والغصب وتغليظ عقوبته، وإمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم.

ثالثًا: من مهام الداعي: بيان عواقب الأمور.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٤٣/٧، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٢٢/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٧٣/٥، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٤٢/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٣٦/٢، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١٥٩/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٢٤٣/٣، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٤٣٤/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٩٦/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤١/٥، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٥/٥.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٥/٥.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

اشتمل هذا الحديث على أسلوب الترهيب، حيث رهّب النبي ﷺ من الظلم، وبيّن عاقبته، فقال: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" والمقصود بالترهيب: كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، لأن بعض النفوس لا تُساس إلا من خلال الترهيب الذي يكون باعثًا على البعد عن المعاصي والحذر منها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم[1].

إن استخدام أسلوب الترهيب في الدعوة -مع الاقتصاد فيه- له من الفوائد الكثيرة التي تعود بالأثر الإيجابي على الدعوة والمجتمع، ومنها:

-إن الترهيب يجعل العصاة والمستهترين يقفون على حقيقة ما لهم في الآخرة.

-يزود المؤمن بما يدفع من إغواء الشياطين فيقلع عن المعاصي.

-يعجل بتوبة التائبين حتى لا يدركهم الموت وهم عصاة.

-الترهيب يورث الخوف من عذاب الله عز وجل، ويولد الرهبة حتى تصير طبعًا في الإنسان توصله إلى تقوى الله عز وجل[2].

-يبين الآثار المترتبة على بعض الجرائم في الدنيا فيمنع من وقوعها وذلك كالحدود والتعزيرات.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم:

لقد حذر النبي ﷺ من الظلم في أحاديث كثيرة -ومنها هذا الحديث الذي معنا- حتى ولو كان شيئًا بسيطًا، فقال ﷺ: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)، والظلم من الأعمال السيئة التي جاء التصريح في النهي عنها وبيان عقاب الله

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرون، ٢١٩٥/٦.

عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1]، فتأخير العذاب ليس رضا من الله بأفعالهم بل هي سنة الله في إمهال العصاة[2]، وقال: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3].

أي: ليس لهم قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع لهم[4]، وصرح الله بتحريم الظلم فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا... الحديث))[5]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... الحديث))[6].

فإن العدل سبب لبقاء الأمم وسؤددها، والظلم سبب لفنائها وانهيارها، قال ابن تيمية: (ينصر الله الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة)[7] فإذا ساد العدل في المجتمع كان له أعظم الأثر في كافة نواحي الحياة: في القضاء وفي الحكم وفي مختلف النواحي الاجتماعي بحيث تتاح الفرص المتساوية لأبنائه في طرق الكسب المادي، وفي الوضع المعنوي فلا يهضم حق فرد أو فئة فيه، كل يحصل على حقه دون زيادة أو نقصان[8].

وأرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التحلل من الظلم إن وقع فيه إنسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دينارٌ ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٧٦/٩/٥.

(٣) سورة غافر، آية: ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٧/٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨.

(٧) الحسبة، ابن تيمية ص ١٧٠.

(٨) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٦٨.

سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[1]، لذا ينبغي على الداعي والمدعو اجتناب الظلم اجتنابًا لموارد التهلكة، وتحذير المدعوين من الوقوع فيه.

ثالثًا- من مهام الداعي: بيان عواقب الأمور:

من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية بيان عواقب الأمور، وتحذير المدعوين من مغبة تلك العواقب، وفي الحديث بيّن ﷺ عاقبة الظلم ترهيبًا منه وترغيبًا وإرشادًا إلى اتخاذ العدل طريقًا ومنهاجًا، فقال: ((مَن ظَلَمَ قيدَ شِبرٍ منَ الأرضِ طُوِّقَهُ مِن سبعِ أرَضينَ))، وكأنه ذكر الشبر إشارة إلى استواء القليل والكثير في الوعيد[2].

قال الخطابي: (قوله: "طُوِّقَه" له وجهان: أحدهما أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه، لا أنه طوق حقيقة، الثاني معناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه)، وقيل: معناه كالأول، لكن بعد أن ينقل جميعه يجعل كله في عنقه طوقا ويعظم قدر عنقه حتى يسع ذلك، وقيل: يكلف أن يجعله له طوقًا ولا يستطيع ذلك فيعذب بذلك، وقيل: إن معنى التطويق: تطويق الإثم والمراد به أن الظلم المذكور لازم له في عنقه لزوم الإثم[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[4].

وفائدة الإخبار بالعواقب (أن يتنبه الإنسان فيأخذ في الأسباب التي تخلص من تلك العواقب والأهوال، ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة، ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٥/٥.

(٣) انظر: المرجع السابق ١٢٥/٥.

(٤) سورة الإسراء، آية: ١٣.

(٥) انظر: المرجع السابق ٤٠٢/١١.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال:

من المقاصد الرئيسة لشريعة الإسلام أنها تحفظ للإنسان دينه ونفسه وعرضه، وعقله وماله، وفي الحديث الذي معنا إشارة إلى حفظ مال الإنسان وحرمة أخذه بغير حق وبيان عاقبة ذلك، فقال ﷺ: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوق من سبع أرضين" وفي الحديث تحريم للظلم والغصب وأخذ مال الغير بغير حق وتغليظ عقوبته[1].

ومن ثم فقد حرم الإسلام كل ما فيه ضرر بأموال الغير فحرم الربا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، حرم تطفيف المكاييل والتلاعب بالموازين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[3]، حرم السرقة وحد لها حدًا رادعًا من الاعتداء على أموال الغير، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4]، حرم أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[5].

يتناول الباطل الغصب والنهب والتدليس والغش والرشوة وغير ذلك، وذلك كله مناف للخلق الكريم وجالب للضرر بالآخرين وسبب من أسباب اضطراب الأمن العام، فضلاً عن أنه كسب من غير جهد[6]، وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرا، يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: ((وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ))[7].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٦/٥، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

(٣) سورة المطففين، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٦) انظر: عناصر القوة في الإسلام، سيد سابق ص ١٠٨ - ١١٠.

(٧) أخرجه مسلم ١٣٧.

فأكل أموال الناس بالباطل حرمه الإسلام تحريمًا قاطعًا، حتى وإن استولى عليها بطريقة لا يتمكن المجتمع بتوجيه أصابع الاتهام إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض لأن ذلك جناية على نفس الآكل وجناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبهم سهم من كل جناية تقع عليها، ولذا اختار الله لفظ "أموالكم" للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، فمال البعض هو مال الكل، لأن المال عصب الأمة، فكان لزامًا على الجميع أن يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه.

ومعنى قوله تعالى: "وتدلوا بها إلى الحكام" أي ولا تلقوا بها إلى الحكام رشوة لهم، فالاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم؛ لأن حكم الحكام لا يغير الحق ولا يحله للمحكوم إذا كان محرمًا عليه.

وإذا كان الله قد حرم آكل أموال الناس عامة، نراه في موضع آخر يشدد هذا المنع في فئات خاصة منها:

-تحريم أكل أموال اليتامى ظلمًا، والوعيد لمن يفعل ذلك بالعقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢).

-وذم الله رجال الدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٤.

فهذه الآية حذرت من الأحبار والرهبان الذين يأخذون أموال الناس بغير حق، ويقاس على ذلك ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله ليدعو لهم عند الله في قضاء حوائجهم، فالدعاء مطلوب دون أخذ الأموال.

-ومنها ما يأخذه سدنة قبور الأولياء من الهدايا والنذور التي يحملها إلى تلك المواضع من لا يعقلون معنى التوحيد المجرد، كل هذا مما حاربه الإسلام[1].

---

(١) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبَّارة ص ٣٢٥، ٣٢٦.

الحديث رقم (٢٠٧)

٢٠٧- وعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ، متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

يُملي للظالم: الإملاءُ: يمهله ويؤخِّره ويُطيل عمره[2].

لم يُفلته: أي لم ينفلَت منه. ويجوز أن يكون بمعنى: لم يُفلِته منه أحد. أي: لم يخلّصه[3].

الشرح الأدبي

إن القانون الإلهي هو ميزان العدالة بين الناس، والناس مجزيون بأعمالهم: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا العدل الإلهي لا يترك الظالم سادرًا في غيِّه، ولا التقى يئن تحت وطأة الظلم، وجبروت الظالمين، وإن هذا الحديث الشريف يؤكد هذا المنهج الرباني الذي لا تستقيم حركة الحياة إلا في ظلاله الوضيئة، وتعاليمه الهادية العطرة المضيئة، فالظالم تقوده أوهامه إلى استمراء الظلم والتوغل في بواديه، حين يرى نفسه آمنًا في سربه وفي بدنه وذويه.

وحين يَصُمُّ أذنيه عن أن تستمع لأنين المظلومين، ويغلق عينية كى لا تشاهد عذابات المحرومين، وكأن الحقوق التي سلبها غدت من ممتلكاته الموروثة، ومن نفائسه ومدخراته المكنونة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٦١/٢٥٨٣) ولفظهما سواء.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م هـ ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ل ت).

ولكن هيهات، هيهات، فإن ربك لبالمرصاد ، ولا يظلم ربك أحدًا، وفي هذا الحديث الشريف يتحدد مصير هؤلاء الظالمين السادرين في غيِّهم، والغارقين في ضلالاتهم، ولم يفيقوا من سباتهم، ولم يرتدعوا، ولم يتخلصوا من غواية طريقهم الآثم، ولم يبصروا نور الهداية في آفاق أحلامهم.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: إحداهما: إخبارية اسمية مؤكدة.. تحمل صدق الخبر، وتأكيده ... مع الإشعار بالقسم إيذانا بجدية الأمر، وخطورة المصير، وإنذارًا بأنه لا طريق للعودة يتلمسه الظالمون، بعد أن أمهلهم الله، وأفسح لهم طريق التوبة والنجاة، وتتمثل هذه الرؤى في قول رسول الله ﷺ: "إن الله يملى للظالم"، وفي رواية "ليملى" أي يمهل الظالم، ولا يعاجله بالعقوبة الوقتية حتى يثوب إلى رشده، ويعود إلى السلوك السوي، والطريق المستقيم، والتعبير بالفعل المضارع يملى، يوحى باستمرار الظالم في سلوكه، وإمهال العزيز الجبار له، ولكنه لم يستيقظ من غفوته، ولم يرجع عن سطوته، ولم يَحْتَّم بحول الله وقوته، فكان مصيره كما حددته الجملة الثانية من الحديث وهى، "فإذا أخذه لم يفلته"، وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق، فجواب الشرط محقق لتحقق فعل الشرط، وفعل الشرط "أَخَذَه"، يفيد العقاب على الذنب: ولكنه عقاب أليم: لأن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، والآخذ هو الله: وهو على كل شيء قدير، وجواب الشرط يتجلى في قوله: "لم يفلته"، أي: لا يدفع عنه الهلاك أبدًا، وقيل إن النفي في جواب الشرط، للتأبيد إن كان هذا الظالم كافرًا.

والآية الكريمة تشير إلى أن الظلم قد يكون سلوكًا جماعيًا، وقد يكون منظمًا بدافع التخطيط لنهب الأموال، أو الأعراض، أو الأنفس، أو الثمرات: ويقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]، وقد

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

قص علينا القرآن أن الله عاقب بعض خلقه الذين عَتَوْا عن أمره بسبب الظلم، وأكلوا أموال الناس بالباطل: فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١]، وأكل مال اليتيم باب من أبواب الظلم، وهو يقود إلى أبواب جهنم، حيث توعدهم الله بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٢].

ويقول رسول الله ﷺ ترغيبًا في قطع الطريق على الظلم والظالمين، وفتحًا للطريق أمام الراغبين في العودة إلى واحة النجاة، ورياض الحياة، "كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه"[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تحذير الظالمين من مكر الله.

رابعًا: من مهام الداعي: تبصرة المدعوين بعواقب الأمور.

خامسًا: من آداب الداعي: الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

استعمل النبي ﷺ أسلوب التوكيد في الحديث لتوكيد حقيقة كلامه فقال: (إن الله ليملى للظالم)، وتأكيد الداعي لكلامه يأخذ منه الداعي لنفسه ولأتباعه

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٦٠-١٦١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) أخرجه مسلم، ٢٥٦٤.

(٤) سورة فصلت، آية: ٤٦.

ولأعدائه، أما لنفسه فإنه يداوم على الإيمان والعمل ويوصي بالحق ، ولأتباعه يدلهم على طرق الخير والتمسك بها ولأعدائه يعلم أنهم من الضالين الهالكين ويحذرهم مما هم فيه[(١)].

وقد استخدم القرآن الكريم التوكيد كثيرًا في تقريره لكثير من القضايا وعرضها على الناس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[(٣)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء أسلوب الترهيب واضحًا في الحديث، حيث رهّب الظالم من مكر الله وأن الله إذا أخذ ظالمًا بعقوبة لم يفلته، فقال ﷺ: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) والترهيب من أهم الأساليب الدعوية، وأن الرغبة والرهبة إذا اجتمعتا في قلب إنسان وصل إلى النجاة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[(٤)]، أي: "يسارعون في عمل القربات وفعل الطاعات ويدعوننا رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا"[(٥)]، والترهيب هو التخويف والتوعد والمقصود به في الشرع كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه، والترهيب أنسب ما يكون مع أولئك الذين يلهثون

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٣٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٥١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٠/٥.

وراء الشهوات ويجرون وراء المادة ويشغفون بالمنكر، فيقرعهم الترهيب ويوقظهم التخويف من عواقب ما هم فيه[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تحذير الظالمين من مكر الله:

جاء التحذير من مكر الله في الحديث، لأنه لا يأمن مكر الله تعالى إلا من غفل عن الحقيقة وأورد نفسه موارد التهكلة والخسران، فإن أَخْذ الله شديد وعَذَابه أليم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢]، أي عقوبته موجعة غليظة[٣]، فعلى الإنسان الظالم ألا يغتر بنفسه، ولا بإملاء الله له، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته، لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلاً فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم، لكن إذا أملى له واكتسب آثامًا أو ازداد ظلمًا ازدادت عقوبته[٤].

وقد جاء الحديث مبينًا أن ترك الظالم بدون عقوبة ليس إهمالاً ولا نسيانًا وإنما إملاء وإمهالاً فقال ﷺ: "إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته...".

قال القاضي عياض: (أي أن الله يمهل للظالم ويؤخر ويطيل له المدة، "فإذا أخذه لم يفلته" أي: لم يطلقه ولم ينفلت منه، وقيل يكون معناه: أي لم يخلصه أحد منه.

وقد حذر الله من أن يُؤمن مكره، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[٥]، أي يأتيهم عذابنا ونكالنا ليلاً وهم نائمون ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[٦]، أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩٦/٩/٥، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٦.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٢٤/٢ - ٢٥.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٩٧.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٩٨.

يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَسِرُونَ﴾[١]، ولهذا قال الحسن البصري: (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن)[٢].

فإن العبد المؤمن لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلاً، أن يبتلى ببلية، تسلب ما معه من الإيمان، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة.

رابعًا- من مهام الداعي: تبصرة المدعوين بعواقب الأمور:

إن الداعي بالنسبة للمدعوين، كالراعي لرعيته والأب لأولاده لا يرى خيرًا إلا دلهم عليه ولا شرًا إلا حذرهم منه، ويبين لهم عاقبة كليهما؛ ولذا نجد الرسول ﷺ يبين لنا هذا المنهج الذي نسير عليه فيما يتعلق باجتناب الظلم وعاقبة الظالم التي يكون فيها هلاكه ونهايته الأليمة، وقدأمر الله نبيه بإنذار الظالمين، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[٣]، ونهانا الله عز وجل عن مجرد الميل والركون إلى الظالمين ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ولا تستعينوا بهم فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم"[٥].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/١٠٠.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٤٤.

(٤) سورة هود. آية: ١١٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٣٥٤.

خامسًا- من واجبات الداعية: الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة:

إن مما يجب على الداعية الالتزام به في معالجته لموضوعات الدعوة، الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، لأن ذلك مما يوثق كلامه ويكسبه نوعًا من المشروعية نظرًا لما يلتمسه من الشواهد من القرآن والسنة، وفي هذا الحديث الذي معنا يستشهد النبي ﷺ على كلامه بآية من كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، فالاستدلال والإثبات وتأييد الكلام بالدليل هو عمود الخطاب وقطبه[2]، وأعلى الأدلة وأعظمها وأولاها بالتقديم نصوص القرآن الكريم، فالقرآن الكريم أعظم سلاح يستعمله الدعاة إلى الله سبحانه في دعوتهم للناس والتأثير فيهم[3].

إن الاستشهاد بالنصوص الشرعية له وقع كبير في نفوس المدعوين لا سيما إذا كانوا مسلمين، لذا لا بد للداعية أن يعيش مع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليأخذ منهما زادًا لقلبه ويقتبس منهما نورًا لعقله، ويستمد منهما ريًا لروحه، ثم يمد الآخرين بعد ذلك من فيض هذا الري وذلك النور، ومما ينبغي أن يلفت النظر إليه في هذا المجال حسن الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، فإن الداعية إذا أحسن الاستدلال بالنص ووضعه في موضعه أزاح كل شبهة وقطع كل تعلة وأخرس كل معارض، فلا دليل بعد القرآن[4]، ولا كلام لبشر بعد رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٢) انظر: الخطابة "أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب"، الشيخ محمد أبو زهرة ص ١٠٥.

(٣) انظر: الدعوة إلى الله بالقرآن الكريم، د. خالد القريشي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد ٣١، رجب ١٤٢١هـ ص ٢٧٣-٢٧٨.

(٤) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٢١، ٣٠.

الحديث رقم (٢٠٨)

٢٠٨- وعن مُعاذٍ رضي الله عنه قال: بعَثَنِي رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «**إنَّكَ تَأْتِي قوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب، فادْعُهُمْ إلَى شَهَادة أَنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّه، وأَنِّي رسول اللَّه فإنْ هُمْ أَطاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمهُمْ أَنَّ اللَّه قَدِ[1] افْترضَ علَيْهِم خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يومٍ ولَيْلَةٍ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ، فَأَعلِمْهُمْ أَنَّ اللَّه قَدِ افْتَرَضَ عَلَيهمْ صدَقَةً تُؤْخذُ مِنْ أَغنيائِهِمْ فتُرَدُّ عَلَى[2] فُقَرائهم، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ، فَإيَّاكَ وكَرائِمَ أَمْوالِهِم، واتَّقِ دعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْس بينها وبيْنَ اللَّه حِجَابٌ**» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

كرائم أموالهم: أي نفائسها[4].

الشرح الأدبي

هذه وصية من أبلغ الوصايا في بيان المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه: بعثه رسول الله ﷺ، أميرًا على اليمن، وأوصاه بهذه التعاليم الواضحة حيث المنهج الصحيح الذي يتدرج في إقناع الناس، واستمالة قلوبهم، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: وأول مظهر من مظاهر الجمال في هذا البيان النبوي أنه يبدأ بخطاب معاذ بن جبل رضي الله عنه: في صيغة التأكيد: "إنك"، لتحديد المسؤولية، وعدم التفريط فيها، ومع أن الحدث مستقبلي فإن الفعل "تأتي"، لم يقترن بما يدل على التسويف: السين أو

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (في) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (١/٣٩٨، رقم ٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩/٢٩) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٠٧٩) وبرقم ١٠٧٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ر م).

سوف، للإشعار بضرورة الإسراع في القيام بهذه المهمة، وأنها ليست من الأمور المؤجلة أو المسوَّفة، ولنتساءل: لماذا نكر كلمة "قومًا"، ولماذا: لم يحدد هؤلاء القوم: وهم معروفون بأنهم أهل اليمن؟ إن عدم التحديد هنا عن طريق أدوات التعريف أو تعيين هؤلاء القوم للإشعار بأن معالم هذا المنهج ثابتة لكل قوم يُدْعَوْن إلى الإسلام في كل مكان، وحتى لا يقع في الوهم، أن هذه التعاليم خاصة بأهل اليمن، وخصص القوم بأنهم من أهل الكتاب: حتى يستعد معاذ بن جبل رضي الله عنه لمحاورتهم وإقناعهم: لأنهم أهل علم سابق، وإذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة فلن يعاندوا مثل المشركين.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "فادعهم" إيجاز بالحذف، والإيجاز هنا مناسب للمقام، لأن المقام لا يحتاج إلى تفصيل والمهم هو: التبليغ والتوصيل، والتقدير: فإذا أتيتهم فادعهم؛ وقد رُتِّبت القواعد التي سيبلغها إلى هؤلاء القوم لبيان الأهم فالأهم، فالمسلم لابد أن يبدأ بأول الواجبات، وهو التلفظ بكلمة الشهادة مُصَدِّقًا بها، فالشهادة ركن، وفرض على الجميع تصديقًا بالجنان، وإقرارًا باللسان، وهي أسس الإيمان، والصلاة لا تسقط عن الإنسان إلا إذا كان مجنونًا، ويؤمر بها وهو صبي ابن سبع سنين، ويضرب على تركها وهو ابن عشر سنين، أما الزكاة فلا تجب إلا على من يملك النصاب، فالذين يؤدون الزكاة أقل بكثير من المصلين، وقد يتساءل سائل: لماذا اقتصر الحديث على هذه الأركان الثلاثة، ولم يشر إلى الصوم أو الحج: وهما قد شرعا في ذلك الوقت؟ قال بعض العلماء الحكمة في ذلك: أن الأركان الخمسة منها ما هو اعتقادي وهو الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة، فاقتصر في الدعاء عليها ليفرع الركنين الآخرين عليها، فإن الصوم بدني محض كالصلاة، والحج بدني مالي، يجمع في الشبه بين الصلاة والزكاة[1].

وقيل إنه من باب التدرج في الدعوة، واتباعًا لسنة التدرج في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أمر بإعلان التوحيد أولاً ثم الصلاة ثم الزكاة.

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ١/٤٤٧.

وتتوالى بعد ذلك وصايا رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه في صيغة: "الشرط والجواب"، وفي تدرج منطقي، وتسلسل إقناعي وجاءت أداة الشرط "إن" ، في كل الجمل الثلاثة: وهذه الأداة بدلالتها غير اليقينية تفصح عن طبيعة القوم، وتكشف عن استجابة البعض، ورفض البعض، وهذا هو الواقع الذي يكون عليه الناس، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فانظر السر الكامن وراء اختيار الحرف، وليس الكلمة أو الجملة، وفي الجملة الثانية تجيء كلمة "هم" ضمير الغائب العائد على هؤلاء القوم، ومع أنه لم يذكر في الجملة الأولى: للإيحاء بوجودهم، وأيضًا لتأكيد أنهم أطاعوا: لأن الكلام يتضمن إيجازًا بالحذف: والتقدير، فإن أطاعوا -هم- أطاعوا، والصدقة هنا: المراد بها الزكاة، وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذلها؛ والتعبير بالفعلين: ترد وتُؤْخَذ، يرشد إلى وجوب الأخذ من الأغنياء، وإعطاء الفقراء حسب القواعد الشرعية، ولا يترك الأمر اختيارًا، وأسلوب التحذير في قوله: "فإياك وكرائم أموالهم"، ينبه إلى عدم أخذ أي مال زائد عن النصاب من نفائس أموالهم.

وأسلوب الأمر في اتقاء دعوة المظلوم، فيه تحذير للولاة وللحكام بعدم الجور على الأغنياء مع الحرص على الفقراء.

فقه الحديث

قال النووي: (في هذا الحديث:

١-قبول خبر الواحد ووجوب العمل به.

٢-وفيه أن الوتر ليس بواجب، لأن بعث معاذ إلى اليمن كان قبل وفاة النبي ﷺ بقليل بعد الأمر بالوتر والعمل به.

٣-وفيه من السنة أن الكفار يدعون إلى التوحيد قبل القتال.

٤-وفيه أنه لا يحكم بإسلام أحد إلا بالنطق بالشهادتين. وهذا مذهب أهل السنة.

٥-وفيه أن الصلوات تجب في كل يوم وليلة.

٦-وفيه بيان عظم تحريم الظلم وأن الإمام ينبغي أن يعظ ولاته ويأمرهم بتقوى الله تعالى ويبالغ في نهيهم عن الظلم ويعرفهم قبح عاقبته.

٧-وفيه أنه يحرم على الساعي أخذ كرائم المال في أداء الزكاة، بل يأخذ الوسط ويحرم على رب المال إخراج شرّ المال.

٨- وفيه أن الزكاة لا تدفع إلى كافر ولا تدفع أيضًا إلى غني من نصيب الفقراء.

٩- واستدل به الخطابي وسائر أصحابنا على أن الزكاة لا يجوز نقلها عن بلد المال لقوله ﷺ "فترد في فقرائهم" وهذا الاستدلال ليس بظاهر، لأن الضمير في فقرائهم محتمل لفقراء المسلمين ولفقراء أهل تلك البلدة والناحية. وهذا الاحتمال أظهر.

١٠- واستدل به بعضهم على أن الكفار ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة من الصلاة والصوم والزكاة وتحريم الزنا ونحوها لكونه ﷺ قال: "فإن هم أطاعوا لذلك أن عليهم ..." فدلّ على أنهم إذا لم يطيعوا لا يجب عليهم، وهذا الاستدلال ضعيف. فإن المراد أعلمهم أنهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا. والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها يزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، ولأنه ﷺ رتب ذلك في الدعاء إلى الإسلام، وبدأ بالأهم فالأهم، ألا تراه بدأ ﷺ بالصلاة قبل الزكاة ولم يقل أحد أنه يصير مكلفًا بالصلاة دون الزكاة، والله أعلم.

ثم اعلم أن المختار أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، هذا قول المحققين والأكثرين. وقيل: ليسوا مخاطبين بها. وقيل: مخاطبون بالنهي دون المأمور، والله أعلم.

١١- قال النووي: ("فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم" قد يستدل بلفظة "من أموالهم" على أنه إذا امتنع من الزكاة أخذت من ماله بغير اختياره، وهذا الحكم لا خلاف فيه، ولكن هل تبرأ ذمته ويجزيه ذلك في الباطن، فيه وجهان لأصحابنا، والله أعلم)[(١)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، مج١/١/١٧٦-١٧٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: إرسال الرسل والكتب وإيفاد البعثات الدعوية.

ثانيًا: من فقه الداعي: مراعاة الفروق بين المدعوين.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب).

رابعًا: من مهام الداعي: تبصير المدعوين بحقائق وأصول الدين.

خامسًا: من فقه الداعي: مراعاة الأولويات في الدعوة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: توقي دعوة المظلوم.

أولاً- من وسائل الدعوة: إرسال الرسل، والكتب وإيفاد البعثات الدعوية:

من الوسائل الدعوية التي أفاد منها النبي ﷺ في دعوته إرسال الرسل والكتب، وكان ﷺ ينتقي الرسل الذين كانوا يوفدون من قبله إلى الأقوام، فقد اختار مصعب بن عمير رضي الله عنه حين أرسله إلى المدينة قبل الهجرة، واختار معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن، وفي هذا الحديث يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ فقال: (إنك تأتي أهل الكتاب) وينبغي أن يلاحظ أن وسيلة إرسال الكتب والرسل وإيفاد البعثات الدعوية أفاد كثيرًا في تبليغ الدعوة وهي وسيلة صالحة للعصر الحديث.

إن إرسال الرسل وإيفاد البعثات الدعوية مما تفرضه عالمية الدعوة على أتباعها من المسلمين، فما دمنا نعتقد أن الإسلام رسالة عالمية، وما دام على وجه الأرض غير مسلم فإن أمانة تبليغ دعوة الإسلام إلى غير المسلمين تقع علينا نحن المسلمين بوجه عام، وعلى الدعاة بوجه خاص"[1].

وذلك ليس ببدع من الدعوة، فقد كان من أبرز وسائل الدعوة التي استخدمها النبي ﷺ في نشر دعوته إرسال الرسل وبعث الكتب، فقد أرسل رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل أمير بصرى - وهي مدينة بين الشام والحجاز- يدعوه إلى الإسلام، كما أرسل إلى سائر الملوك ومختلف الأمصار، فأرسل كتبًا إلى كسرى

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الله، آدم عبدالله الآلوري ص ٢٦٣.

وقيصر وإلى النجاشي وغيرهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى"[1]. وأظهرت هذه المكاتبات والرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء والرؤساء مدى انتشار الدعوة، وإيمان الناس واستجابتهم[2] والتعريف بدعوة الإسلام.

ثانيًا- من فقه الداعي: مراعاة الفروق بين المدعوين:

إن مراعاة الفروق بين المدعوين جاءت في الحديث إلى اعتباره والأخذ به، وذلك من خلال بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل نوعية المدعوين الذين سيدعوهم مما يجعله يختار الأسلوب الأمثل الذي ينجح معهم فقال: (إنك تأتي قومًا أهل كتاب) لذا ينبغي التأكيد على مراعاة الفروق لما يتطلب ذلك من جهد وفكر وقدرة على الإبداع وانتقاء الأساليب والوسائل الدعوية التي تناسب المدعوين[3].

ثالثًا- من أصناف المدعوين: غير المسلمين (أهل الكتاب):

في الحديث وجه النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى فئة من غير المسلمين وهم أهل الكتاب، فقال: (إنك تأتي قومًا أهل الكتاب) يعني اليهود والنصارى لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب وأغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لإفحامهم لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان[4]، فقوله: إنك تأتي قومًا أهل كتاب) كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم بالجملة[5].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٧٤.

(٢) انظر: خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، ١١٧٨/٢.

(٣) انظر: المنهج والفروق الفردية، د. فتحي الديب ص ٧٥.

(٤) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٨٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٩/٣.

وليتخير الأسلوب الأحسن في مناقشتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[١]، ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أنهم مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذرًا من تنفيرهم[٢].

رابعًا- من مهام الداعي: تبصير المدعوين بحقائق وأصول الدين:

لا ينبغي التعرض للفرعيات والتفصيلات إلا بعد بيان أصول الدين وكلياته الكبرى، ويتضح ذلك من توجيه النبي ﷺ لمعاذ لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام من خلال أركانه العظام فبدأ بالتوحيد وثنى بالصلاة ثم ذكر الزكاة: (فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم)، بل إنه ليلاحظ أنه لم يذكر الزكاة والحج، قال الكرماني مجيبًا على ذلك: "بأن اهتمام الإسلام بالصلاة والزكاة أكثر ولأن الصلاة والزكاة إذا وجبتا على المكلف لا يسقطان عنه أصلاً بخلاف الصوم، فإنه قد يسقط بالفدية، والحج فإن الغير يقوم مقامه، والصوم بدني محض، والحج بدني مالي، فكلمة الإسلام وهي شاقة على الكفار والصلوات شاقة لتكررها والزكاة شاقة لما في جبلة الإنسان من حب المال فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها"[٣].

خامسًا- من فقه الداعي: مراعاة الأولويات في الدعوة:

في الحديث نجد أن الرسول بدأ بالشهادتين لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٨/٢١/٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٤٢٢.

غيرهما إلا بهما[١]، ثم ذكر الصلاة ورتب عليها الزكاة لأن الذي يقر بالتوحيد ويجحد الصلاة يكفر بذلك فيصير ماله فيئًا فلا تنفعه الزكاة، وتمام القول أن الرسول ﷺ بدأ بالأهم فالأهم وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة[٢].

(فينبغي على الداعية أن يعنى بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع فيقنع الناس به ويحملهم على قبوله، فإذا استقر في القلوب واستجابت له النفوس انتقل إلى ما هو دون ذلك، متأسيًا برسول الله ﷺ حينما أنفق ثلاث عشرة سنة من عمره في معالجة قضايا العقيدة وبعض العبادات، لينتقل بعد ذلك إلى معالجة ما هو أصل من السلوك العملي)[٣]، وهذا الأمر يتجلى في الحديث في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..."، فنجد في الحديث أن رسول الله ﷺ يعلم معاذ بن جبل رضي الله عنه كيفية مراعاة الأولويات وتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، واتباع أسلوب التدرج في التبليغ، فما ورد من تدرج في التبليغ ومراعاة الأولويات في الحديث ليس إلا إرشادًا نبويًا، بل تدبيرًا إلهيًا يتجاوز الحالة الخاصة في تحويل أهل الجاهلية من واقع جاهليتهم الباطلة إلى الحياة الإسلامية، وكل واقع بعيد عن الإسلام"[٤].

إن المتمعن في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه يرى أنه قد تدرج في وصيته له بدعوة أهل اليمن، من الأهم إلى المهم، فاول ما أوصاه بالدعوة به هو الدعوة إلى التوحيد، ومرتكزها، وأساسها: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم أوصاه بالعبادة، والدعوة إلى بقية أركان وشرائع الإسلام؛ كالصلاة، والزكاة.

---

(١) المرجع السابق ٣/٤٢٠.

(٢) المرجع السابق ٣/٤٢٠.

(٣) صفات الداعية، أ. د. حمد بن العمار ص ١٠٩.

(٤) انظر: التدرج بين التشريع والدعوة، د. يوسف يوسف محي الدين أبو هلالة ص ٢٨.

ثم أوصاه بمعاملة الناس بالحسنى، وعدم أخذ أموالهم بالإكراه، ودون طي نفس، ورضا منهم.

ثم أوصاه بالأخلاق الحميدة، والمسالك والتصرّفات العالية الرفيعة أثناء الدعوة ومخالطة الناس، وذلك باحترامهم، وعدم ظلمهم، وتحقيق العدل والإخاء والمساواة بينهم.

ولا شك أن نهج النبي ﷺ في وصيّته لمعاذ بهذه الكيفية البديعة، وتنبيهه إلى التدرج في الدعوة، والبدء بالأهم فالمهم، وإعطاء كل مسألة وأمر ما يستحق من العناية والأهمية، ليدل دلالة واضحة على الحكمة النبوية العالية في الدعوة، والنظرة الحصيفة في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

ومن هنا ينبغي أن يعلم كل داعية أهمية التدرج في الدعوة، والبدء بأهم الأمور إلى المهم، وأن يفقه الداعية هذا الأمر الهام، وذلك لأن أعظم ما يكون في البيت أساسه، وأهم ما تستند عليه الشجرة جذرها وأصلها، فإذا كان الأساس صحيحًا قويًا صلبًا كان ما فوقه صحيحًا قويًا كذلك، وإن كان الأساس هشًا ضعيفًا فلا يستبعد أن يسقط المنزل، أو تعصف بالشجرة الرياح، وهذا ما يوضحه قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

ولا شك أن المتتبع لدعوة المصطفى ﷺ يجد هذا الأمر جليًا واضحًا فيها، فقد أمضى ﷺ ثلاثة عشر سنة في مكة وهو يدعو الناس إلى التوحيد، وقوله: "لا إله إلا الله" قبل دعوتهم إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبقية شرائع الإسلام الأخرى، وما

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٣-٢٧.

ذاك إلا لأهمية هذا الأصل العظيم، وهذا الركن الركين، الذي ما إن يتثبت في القلوب، وتأتلف عليه الصدور حتى يثمر الثمرات اليانعة الطيبة بإذن الله[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: توقي دعوة المظلوم:

جاء ذلك في وصية الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل في الحديث: (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) وذلك التذييل للحديث لاشتماله على هذا الظلم الخاص من أخذ كرائم الأموال وعلى غيره مما يتعلق بالمزكى وعلى هذا المظلوم وغيره قوله: (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) تعليل للاتقاء وتمثل لمن يقصد إلى السلطان متظلمًا فلا يحجب عنه [٢]، قال أبو العباس القرطبي: (ويستفاد من الحديث: تحريم الظلم، وتخويف الظالم وإباحة الدعاء للمظلوم عليه، والوعد الصدق بأن الله تعالى يستجيب للمظلوم فيه، غير أنه قد تعجّل الإجابة فيه وقد يؤخرها إملاءً للظالم، كما قال ﷺ "إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[٣]))[٤])[٥].

وقد حذرنا النبي ﷺ من الظلم عامة وبين عاقبته في الدنيا والآخرة فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))[٦]. قال القاضي عياض: (قوله: "الظلم ظلمات يوم القيامة" قيل: ظاهره أنه

---

(١) انظر: منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبي ﷺ لمبعوثه معاذ بن جبل >، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٤.

(٣) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٣.

(٥) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٨٤/١.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

ظلمات على صاحبه حتى لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم، وقد تكون الظلمات هنا الشدائد، وبه فسروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] أي: شدائدهما، وقد تكون الظلمات ها هنا عبارة عن الاتكال بالعقوبات عليه)[2].

إن الظلم من أسوأ الأخلاق التي تنخر في كيان المجتمعات وسبب من أسباب انهيارها وانفراط عقدها، قال ابن تيمية: (إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، وأن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[3].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٨/٨.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٦٢/٨ - ٧٣.

الحديث رقم (٢٠٩)

٢٠٩- وعن أَبِي حُمَيْد عبْدِ الرَّحْمن بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال: اسْتعْملَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلاً مِن الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قال: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهدِيَ إِلَيَّ[1] فَقَامَ رسولُ اللَّه ﷺ على الْمِنبرِ، فَحمِدَ اللَّه وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: «**أَمَّا بعْدُ فَإِنِّي أَسْتعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على الْعمَلِ مِمَّا ولاَّنِي اللَّه، فيَأْتِي فيَقُولُ: هَذا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَت إِلَيَّ، أَفَلا جلس في بيتِ أَبيهِ أَوْ أُمِّهِ حتَّى تأْتِيَهُ إِنْ كَانَ صادقًا، واللَّه لا يأْخُذُ أَحدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللَّه تَعالَى، يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَلا أَعْرفَنَّ أَحدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّه يَحْمِلُ بعِيرًا لَهُ رغَاءٌ، أَوْ بَقرة لَهَا خُوارٌ، أَوْ شاةً تيْعَرُ.**

ثُمَّ رفَعَ يَديْهِ حتَّى رُؤِيَ بَياضُ إِبْطيْهِ فقال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثًا، متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو حميد الساعدي: هو عبدالرحمن بن سعد بن المنذر.

اختلف في اسمه، وغلبت عليه كنيته، يعدّ في أهل المدينة، له صُحبة ورواية وقد شهد أُحدًا وما بعدها.

وقد روى عنه من الصحابة، جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، ومن التابعين عروة بن الزبير، وعباس بن سهل، ومحمد بن عمرو بن عطاءَ، وخارجة بن زيد بن ثابت، وغيرهم.

وتوفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أو أول خلافة يزيد[3].

---

(١) البخاري رقم (٢٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢/٢٧) واللفظ له. والسياق للحميدي في جمعه (٤٦٩/١، رقم ٧٥٦). أورده المنذري في ترغيبه (١١٥٦).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٧٥/٦-٧٦)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٤٩)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٥٦)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٩٤/٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥١٤/٤).

غريب الألفاظ:

الرغاءُ: صوت الإبل[(١)].

الخُوار: صوت البقر[(٢)].

تَيْعرُ: أي تصيح[(٣)].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف -كما يقول د. محمد أبو موسى، من أصول الإسلام في الحكم، ورعاية المصلحة العامة، واحترام الحق والعدل في إدارة شؤون الناس، وسياسة مصالحهم، ويؤكد ضرورة ابتعاد من يتولى أمرًا من الأمور العامة عن كل شبهة، ووجوب أمانته، وترفعه عن كل المغريات التي يتساقط فيها من ليسوا أهلاً لولاية الأمر.

ومكونات الحديث الشريف هنا تشمل مقدمة تضيء سياقات الحديث، وتكشف كثيرًا من الأمور التي أومأ إليها رسول الله ﷺ، ولم يصرح بها في كلامه الشريف، فالراوي أبو حميد الساعدي رضي الله عنه يقول: "استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة"، والتعبير بالفعل "استعمل" يوضح أن هذا الوالي أو العامل على جمع الزكاة: كلف بالعمل من قبل النبي ﷺ، والرجل من الأزد وهم من أشرف القبائل وقيل هم: أُسْد الله في الأرض: يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم".

وهذا العامل لما قدم قال: "هذا لكم، وهذا أهدي إلي"، وهذه الجملة فيها إيجاز شديد، وتخليص الكلام وتجريده للغرض المقصود منه، والعبارة تطوى خلف ألفاظها، وفي مكامن مقاصدها أحداثًا وأحوالاً، ورؤى واجتهادات وآراء أجملها صاحبها في هاتين الجملتين، وقد نص في الجملة الثانية على أن الشيء الخاص به: هدية: حسب اجتهاده، ولم يقل لي فقط، لأنه لم يقم بشرائها من ماله الخاص، ولم يكن يحسب

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر غ و).

(٢) المرجع السابق في (خ و ر).

(٣)المرجع السابق في (ي ع ر).

أنها رشوة، لأنه من الصحابة رضي الله عنهم الذين شرفوا بتكليف رسول الله لهم بالعمل على الصدقة.

وقيل إن رسول الله ﷺ حينما علم بذلك، قام عشية بعد الصلاة على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال... الحديث.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ كان صارمًا في هذه المواجهة، وجاءت لغته ممزوجة بالتعريض والحدة والغضب وهو يُعلِّم كل من يتولى أمر المسلمين الدرس الحقيقي، والمسلك الشرعي: في تدبير أمر الرعية، وفي الحفاظ على الحقوق وعدم أكل أموال الناس بالباطل، وعدم التربح من الجاه والسلطان.

وهذه اللغة الجادة ذات الإيقاع الشديد تناسب المقام، وتتوجه بالوعيد إلى كل من يفرط في الأمانة، ويسعى جاهدًا لمصلحته الذاتية وإهمال شؤون الأمة، وكلام رسول الله ﷺ تجد له نغمة خاصة ويجرى فيه تيار خاص، وتشوبه روح مشبوبة حين يرى شرخًا ولو قليلاً في بناء حياة الناس، ويرى ريبة ولو كانت شائبة فيمن يقومون على مصالحهم، وتحقيق الحق والعدل، وشرع الله فيهم[1].

ورسول الله ﷺ لم يحدد اسم الرجل، وإنما حدد وظيفته وهى العمل على الصدقة أو ولاية أمور الناس، لأن المراد هو التحذير من مثل ذلك سواء فيه القائل أو غيره، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه، وكذلك لتحذير كل من يتولى المسؤولية من أن يقوم بمثل هذا التصرف حرصًا على مصلحة الأمة، والأمر ليس مواجهة بين رسول الله وابن اللتبية، ولكنه مواجهة بين المنهج الصحيح، والمنهج المعوج، بين منهج الأمانة ومنهج الخيانة، ولذلك في هذه الرواية: يأتي الحديث عن ابن اللتبية بضمير الغائب، من باب التعريض، ولذلك لم يثبت أن هذا العامل: تمسك بما قال: بل أذعن للحق، واستجاب لكلام المصطفى ﷺ، وتشتد المواجهة بين الموقفين حين يستفهم رسول الله في إنكار ودهشة، ويقول:"أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان

---

(١) انظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د. محمد أبو موسى: ص ٢٦٢-٢٧٥، مكتبة وهبة، القاهرة.

صادقًا"، ثم يختم الحديث بهذه الصورة التي تفضح أمر كل مسؤول أو حاكم ينهب أموال رعيته ويدعى أنها من مخصصاته، حيث يقسم رسول الله ﷺ أن من يفعل ذلك سيلقى ربه وهو يحمل على رقبته كل ما سرقه من حقوق الأمة، وتحديد نوع المحمول: الإبل، والبعير، والغنم، وللرمز بها إلى غيرها مما ينهبه الكبار من أموال الرعايا والضعفاء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم هدايا العمال، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن هدايا العمال حرام وغلول، وأن من استُعمل على شيء كالقضاء أو جمع الزكاة أو غير ذلك من أعمال الدولة لا يحل له أن يأخذ شيئًا من أحد متى كان المقصود منه الرشوة، وأخذ أي شيء من الناس لييسر لهم عملاً دون وجه حق يكون رشوة محرمة وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي، قال النووي: وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول لأنه المطلوب في ولايته وأمانته[2]، أما الهدية لأجل المودة بعيدًا عن العمل فلا بأس بها، وفي ذلك تفصيل كثير ذكره الفقهاء في أبواب الفقه المختلفة كالزكاة والقضاء والشهادة.

---

(١) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٦/٦٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧/١٦، وأحكام القرآن، الجصاص ٢/٦٠٨ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٥/١١٨، وتبصرة الحكام لابن فرحون ١/١٥، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/٣٠٠، والفروع، ابن مفلح ٦/٤٤٧، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٠/١١٨، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٢١٩، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٢٣، ٢٣/٣٠٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٢١٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من واجبات الداعي: التعميم في النصيحة وعدم التشهير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الرشوة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: القسم والتحذير.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الدعاء ورفع اليدين.

سابعًا: من وسائل الداعية: البلاغ.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

تعد الخطبة من الوسائل الدعوية التي لا يستغني عنها الداعية، حيث يستطيع من خلال الخطبة أن يتواصل مع المدعوين وأن يوجههم ويبيّن لهم المنهج الصحيح الذي ينبغي السير عليه، وأن يحذرهم من مغبة الوقوع في الحرام، ويذكرهم بأهمية تقوى الله، وغير ذلك من الموضوعات التي تحفل بها الخطب حسب مناسبتها ومراعاة مقتضى الحال وقد جاء في هذا الحديث: (فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال...)، ومن ثمّ فإن النبي ﷺ رأى أهمية ومناسبة معالجة هذا الموضوع الخطير الذي يتوهمه بعض الناس، ويظنون أنه من حقوقهم وهدية لهم، لا تخص الأموال العامة، فاستعمل النبي ﷺ الخطبة كوسيلة دعوية لبيان حقيقة هذا الأمر والتحذير من هذا المنزلق الخطير الذي قد يقع فيه بعض الناس.

إن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معانٍ معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية، كما ينبغي على الداعي أن يكون كلامه بسيطًا واضحًا، لأن الذين يسمعونه ليسوا في مستوى واحد من العلم والقدرة على فهم الخطاب فإذا اختار الأسلوب البسيط الواضح والعبارات

القصيرة انتفع بها الجميع وفهمها الجميع[1].

ثانيًا- من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين:

من المهام الأساسية للداعية بيان الحقائق للمدعوين، وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده يبين النبي ﷺ الحقائق واضحة للمدعوين، ويؤكد على حرية حرمة الرشوة تحت أي مسمى مما قد يتوهمه البعض بأنه هدية، ويبين أن ما يُدعى هدية ما كانت لتأتي لو قعد في بيت أبيه وأمه، وإنما أعطيت له بسبب المنصب أو الوظيفة التي يشغلها، وهذا مما يجب الحذر منه، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ حرمة الرشوة والهدايا إلى العمال فقال: (فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا)، وذلك قيامًا بمهمة البيان التي كلفه الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ثالثًا- من واجبات الداعي: التعميم في النصيحة وعدم التشهير:

إن مراعاة شعور الآخرين وعدم تجريحهم أو التشهير بهم في النصح يعد من عوامل قبول النصيحة والاستجابة، وهذا ما يجب أن يهتم به الداعية في نصحه للناس، وقد راعى النبي ﷺ ذلك فلم يفضح الرجل وإنما قال: (فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي)، فلم يصرح باسم القائل لأن مراده التحذير من ذلك العمل السيء المحرم، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه ﷺ[3]، لذا ينبغي على الداعي في نصيحته الإسرار إذا كان المنصوح شخصًا بعينه، وحين يجهر بالنصح لا يسمى شخصًا بعينه ولا يذكر اسمًا، بل يفعل كما

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤، ٤٧٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ٣٨٩.

كان يفعل رسول الله ﷺ[(١)]، من التعميم وعدم التشهير (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الرشوة:

لقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث حرمة الرشوة وتقديم الهدايا للعمال، فقال: (أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة)، وذلك تمييزًا للرشوة وآخذها يوم القيامة لمزيد قبحها[(٢)].

وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ((لَعَنَ رَسُولُ اللَّه ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِيَ))[(٣)]، وهي تندرج تحت أكل أموال الناس بالباطل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٤)].

قال الطاهر بن عاشور: (فالآية دلت على تحريم أكل الأموال بالباطل، وعلى تحريم إرشاء الحكام لأكل الأموال بالباطل، والرشوة من أهم ما تصدى الإسلام لتأسيسه تغييرًا لما كانوا عليه في الجاهلية، فالرشوة حرمها الله تعالى بنص هذه الآية)[(٥)]. وهي من الكبائر، قال الذهبي: (وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ...﴾[(٦)] أي: لا تصانعوهم بها

---

(١) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة ودورها في الدعوة إلى الله، الباز محمد عبدالفتاح الدميري ص ٨١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٣٨٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٨٠، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٥٥).

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٥) التحرير والتنوير مج١/٢/١٩١.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقًا لغيركم وأنتم تعلمون أن ذلك لا يحل لكم)[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: القسم، والتحذير:

أكد النبي ﷺ كلامه في الحديث بالقسم فقال: (والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة)، والقسم من أساليب الدعوة، تأكيد لخبر أو تعظيمًا لشيء أو جمعًا للانتباه حول غاية، ومن هنا كانت أهمية القسم[٢] لما فيه من فائدة عظيمة في تبليغ الدعوة كما استعمل النبي ﷺ أسلوب التحذير في الحديث من الرشوة ببيان أنه يأتي بإثمه يوم القيامة وبما أخذه، تعبيرًا له وتحقيرًا لشأنه وفضيحة له[٣].

سادسًا- من وسائل الدعوة: الدعاء ورفع اليدين:

في الحديث توجه الرسول ﷺ رافعًا يديه مشهدًا الله على تبليغه للناس، وتقريرًا للناس على ذلك، وكما جاء في الحديث: (ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه) فقال: (اللهم هل بلغت) وقد أمر الله عباده بالتوجه إليه بالدعاء ووعدهم بالإجابة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٥]، والمعنى: وإذا سألوك عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعي ويعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك[٦]. والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب يعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

---

(١) الكبائر، الذهبي ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٣) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٨٩.

(٤) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٠٨/٢/١.

فمن دعا الله بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع ما نع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشد، الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم البغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة[1].

سابعًا- من أساليب الدعوة: البلاغ:

لقد قام النبي ﷺ بالبلاغ خير قيام كما هو ظاهر في الحديث وأشهد الله على ذلك وأقر الحاضرون بتبليغ الرسول ﷺ عن ربه ويبدو ذلك واضحًا في الحديث، ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه فقال: (اللهم هل بلغت) والبلاغ إنما هو تنفيذ لأمر الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسالته﴾[2].

فالوظيفة الأساسية للرسل عليهم السلام هي تبليغ الناس الرسالة التي حمّلهم الله تعالى إياها، وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله تعالى وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان، وعلى مستوى العمل سلبًا وإيجابًا، وقد عبّر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل عليهم السلام حين قال: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[3]، إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس حتى يستقيموا على الشريعة ويعمروا الأرض ويتراحموا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) سورة غافر، آية: ١٥.

بينهم، والأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من الدعاة إذ يقومون بالبلاغ يكونون قد قاموا بالعمل الأساس الذي تبرأ به الذمة أمام الله.

وهناك آيات كثيرة تدلّ على هذا من نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[٢]"[٣].

---

(١) سورة النحل، آية: ٣٥.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٨.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار ص ١٤٨ - ١٥٠.

الحديث رقم (٢١٠)

٢١٠- وعن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأَخِيه[١]، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْه اليَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدْرِ مظْلمتِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

عِرضه: جانبه الذي يصونُه من نفسه وحسَبه ويُحامي عنه أن يُنتَقَص ويُعاب[٣].

فليتحلّله: يسأله أن يجعله في حِلّ من قِبله[٤].

الشرح الأدبي

ما أصدق هذه الدعوة المحمدية، وما أحوج الذين وجهت هذه الدعوة إليهم إلى الاستجابة القلبية والفعلية، قبل أن يقفوا في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، ويجدون أنفسهم أمام أصحاب الحقوق، لا مالاً يملكون، ولا جاهًا به عن أنفسهم يدافعون، ومن هذا الواقع تأتي دعوة الرسول ﷺ إلى أداء الحقوق في الدنيا قبل أن يعجز الظالم عن أدائها من نوعها في الآخرة.

ولنتأمل كيف أفصح التشكيل اللغوي عن هذه المعاني الجليلة، والمقاصد النبيلة، والبيان النبوي في هذا الحديث الشريف يتكون من ثلاث جمل، وكلها تنتمي لدائرة أسلوبية واحدة، وهي: دائرة الشرط والجزاء، وهذه الصيغة الأسلوبية تتوافق تمامًا مع

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (من كانت له مظلمة لأخيه) والمثبت لفظ البخاري برقم (٦٥٣٤).

(٢) برقم (٢٤٤٩)، والسياق للحميدي في جمعه (٣/٢٤٧، رقم ٢٥٤٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٨٨).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ل ل).

جو الحديث، ومناخ المعاني، وفضاء الدلالة، فالحديث دعوة إلى رد المظالم إلى أهلها، وإلا فالجزاء من جنس العمل كما تُقرر ذلك القاعدة القرآنية: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1].

والجملة الأولى أو الإشراقة الأولى في أفق هذا الجو الداعي إلى التحلل من المظالم، والتوبة إلى الله تمثل حرص الرسول ﷺ على أمته، فهو بالمؤمنين رءوف رحيم: ولذلك أطلق هذه الصيحة التي تدوي في سمع كل مسلم، وقلب كل مؤمن: في كل الأجيال، وعلى مر الزمان، "من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم"، وكم استجاب لهذه الدعوة الصادقة من ملايين المسلمين، وكم أُنصف بسببها من المظلومين الضعفاء المنكسرين، فهي دعوة لنصرة المظلومين، ولإنقاذ الظالمين من أنفسهم، واللغة هنا تدعو للتأمل: فقوله: "من كانت له مظلمة"، يثير التساؤل: هل المظلمة للظالم أم للمظلوم؟ قال العلماء: إن "له" هنا بمعنى "على"، أي من كانت عليه مظلمة، أو بمعنى "عند"، بدليل الرواية هنا، من كانت عنده مظلمة لأخيه.

ويبقى التعبير النبوي هو الأدق، لأن المظلمة تضرُّ الظالم أكثر من ضرر المظلوم، فمصير الظالم غضب العزيز الحكيم، ومصير المظلوم هو إنصاف الحكم العدل، واللطيف الخبير له، ولذلك يقتص المظلوم من الظالم يوم القيامة، فالتعبير النبوي: "له"، يتوهج بكل هذه الإيحاءات والإشراقات، فهي على حقيقتها أو بمعنى عليه أو عنده، والعِرْض: موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو في سلفه أو في من يلزمه أمره، وقوله "أو مِنْ شيء" يفتح الطريق أمامنا لاستقصاء المظالم التي تتعدد وتتلون ولفظ "مِنْ" يدل على هذا الاستقصاء.

فكل ما ينال الإنسان من إساءات فعلية أو قولية، وكل ما يلحق به من أذى في نفسه أو عرضه أو ماله أو سيرته يُعد ظلمًا.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

وجواب الشرط دقيق في عبارته: عميق في دلالته، "فليتحلله منه" أي أن يجعل نفسه في حل مما فرط، وقيل معناه يستوعبه ويقطع دعواه عنه، والجملتان الثانية والثالثة: شرطيتان كذلك، ولكنهما تفيضان بالجزاء العادل، والإنصاف الكريم لكل مظلوم، وهما كذلك تحددان مصير الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة المصطفى ﷺ، حيث يكون القصاص العادل يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، وأداة الشرط "إن"، تدين هؤلاء الظالمين لأنها تفيد التشكيك في رصيدهم من العمل الصالح، وكذلك في الجملة الثالثة توحي بالتشكيك في رصيدهم من الحسنات ولو جاء التعبير بـ"إذا"، فلن يكون مناسبًا للسياق، وما هكذا تكون بلاغة النبوة الفائقة، والفائز والمنتصر في نهاية الحديث ويوم القيامة هو "المظلوم"، لأنه يأخذ من العمل الصالح للظالم، وتوضع عنده إلى عمله: فتزيد أعمال الصالحة، وتنقص أعماله الظالم، ويزداد إكرام الله لهذا المظلوم، حيث يضع الله عنه سيئاته في الدنيا ويطهره منها ثم يضيفها إلى سيئات الظالم فتزداد سيئاته ويكون مصيره جهنم وبئس القرار.

فقه الحديث

(الاستحلال بمعنى طلب جعل الشخص في حلٍّ، قد يكون واجبًا، كالاستحلال من الغيبة، إن علم بها المغتاب، وقد يكون مباحًا، كاستحلال الغاصب من المغصوب بدلاً من ردّ المغصوب)[(١)]، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: ((كفارة من اغتبته أن تستغفر له))[(٢)].

قال الصنعاني: (والحديث دليل على أن الاستغفار من المغتاب لمن اغتابه يكفي ولا يحتاج إلى الاعتذار منه، وفصلت الهادوية والشافعية، فقالوا: إذا علم المغتاب وجب

(١) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣٧/٣ ومراجعها: رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٦٣/٥، ٢٦٤، وشرح الروض ٣٥٧/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٢١٠/٦، ومدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٩٠/١، ٢٩١.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة ١٠٨٧ زوائد مسند الحارث.

الاستحلال منه، وأما إذا لم يعلم فلا يستحب أيضًا، لأنه يجلب الوحشة وإيغار الصدر. إلا أنه أخرج البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعًا: "من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم ..." الحديث، وهو دال على أنه يجب الاستحلال وإن لم يكن قد علم إلا أنه يحمل على من قد بلغه ويكون حديث أنس رضي الله عنه فيمن لم يعلم ويقيد به إطلاق حديث البخاري)(١).

وقال البسام: (وطلب الحل ممن اغتب قد يزيد الأمر شرًا وقد يثير فتنًا وعدوانًا، فصار الواجب بحث المغتاب أن يستغفر لمن اغتابه، ويدعو له ويذكر محاسنه في المجالس التي اغتابه فيها، وعند الأشخاص الذين عابه عندهم فهذا العمل مع الندم والعزم على عدم العودة يكون سببًا للتوبة النصوح وبراءة الذمة مع عِرض المسلم، والله أعلم)(٢).

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعي: حث المدعوين على التحلل من المظالم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى التحلل من المظالم وإبراء الذمة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس والعرض والمال.

أولاً- من مهام الداعي: حث المدعوين على التحلل من المظالم:

يتضح ذلك من حث الرسول ﷺ على التحلل من المظالم فقال: "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم" (لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، بل يستوفي الحقوق ويردها لأصحابها وقد حث النبي ﷺ الناس على المسارعة إلى التحلل من المظالم، قبل أن يؤخذ من حسناتهم ويعطى

---

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٨١.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٦٣.

لمن ظلموهم، فإن فنيت الحسنات أُخذ من سيئات المظلومين وطُرح على الظالمين ثم يُطرح بهم في النار، ومن هذا المنطلق حث النبي ﷺ على التحلل من المظالم لأنه كما وصفه ربه[1] ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

فلشدة حرص رسول الله ﷺ على الأمة ورحمته بهم وجه إليهم هذا الإرشاد في صيغة الأمر، وكما هو واضح في الحديث بالأمر من التحلل من المظالم في قوله: "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم" لما في صيغة الأمر من حث وإسراع حثيث في التزام المدعوين بتنفيذ ما وجه إليهم من أوامر وإرشادات. وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الأمر في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[4] واستخدام أسلوب الأمر في الحث والحض على الفعل فيه تنبيه بوجوب العمل بمقتضى الأمر وعدم الإخلال به، وفي ذلك تحقيق لعبودية الله وطاعته، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى التحلل من المظالم وإبراء الذمة:

أمر الإسلام بكف الأذى عن الآخرين وبين رسول الله ﷺ أن من كمال الإسلام أن يكف المسلم أذاه عن الآخرين، فعن عبدالله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ

---

(١) انظر: النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري ص ٦١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٥) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر ص ٥٠، ٥١.

قال: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجرَ ما نَهى اللّهُ عنه))[١] لكن من وقعت منه زلة ووقعت منه مظلمة على غيره وجب عليه التحلل منها كما في الحديث الذي معنا "فليتحلله منه اليوم" قبل أن يأتي يوم لا يتقاضى فيه بالدينار والدرهم وإنما بالحسنات والسيئات "إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وذلك هو الإفلاس بعينه كما وضح ذلك رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[٢]. قال النووي: (معناه: أن هذه حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه: مفلسًا، وليس هو حقيقة المفلس؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث. فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق:

إن الله سبحانه منزّه عن الظلم، وعن ترك ظالم يفلت بظلمه دون عقوبة وعدل الله يتضح في الحديث في المقاضاة بين خلق الله "إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" قال ابن حجر: (ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٤] لأنه إنما يعاقب

---

(١) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٤) سورة فاطر، آية: ١٨.

بسبب فعله وظلمه ولم يعاقب بغير جناية منه بل بجنايته فقوبلت الحسنات بالسيئات على ما اقتضاه عدل الله تعالى في عباده)[١] وقال الطيبي: قال المازري: زعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارضٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو باطل وجهالة بينة، لأنه إنما عوقب بفعله ووزره، فتوجهت عليه حقوق لغرمائه فدفعت إليهم من حسناته فلما فرغت حسناته أخذت من سيئات خصومه فوضعت عليه، فحقيقة العقوبة مسببة عن ظلمه ولم يعاقب بغير جناية منه[٢].

خامسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس والعرض والمال:

إن من أهم الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية: الحفاظ على سلامة النفس وصيانة العرض والمحافظة على المال، لأن هذه الأمور بمثابة الكليات التي من خلالها تتحقق الحياة الكريمة. هذا بالإضافة إلى العقل والدين الذي يعد الأساس في تلك الكليات وكما هو واضح في الحديث الذي معنا ("من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه" في محل الحال بيان لمظلمة أومن شيء" من عطف العام على الخاص فتدخل فيه اللطمة ونحوها")[٣]. إن الحفاظ على الضرورات الخمس "الدين والنفس والعقل والنسب والمال" هو هدف الدعوة الإسلامية، فكل ما جاء في الشريعة من مبادئ وأحكام وأوامر ونواه وزواجر وعقوبات كلها تهدف إلى حفظ هذه المقاصد[٤]، يقول الشاطبي في الموافقات: هذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين[٥] وإن دعوة الإسلام للحفاظ على حياة الإنسان وكرامته لمن أكبر الأسباب لانتشار الدعوة إلى الله عز وجل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٢/٥.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٦٣/٩.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ص ٣٩٠.

(٤) انظر مستلزمات الدعوة في العصر الحديث، علي بن صالح المرشد ص ٦٠.

(٥) الموافقات ١٨/٢.

الحديث رقم (٢١١)

٢١١- وعن عبد الله بن عَمْرو بن الْعاص رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ، والْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللَّه عَنْهُ**» متفق عليه(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

للبيان النبوي أثره العميق في الكشف عن خبيئات النفوس، واستجلاء العبر والعظات والدروس، وهذا الحديث الذي اشتمل على جوامع معاني الكلم والحكم فبين ﷺ أن المسلم هو: الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده فيحفظ للعباد حقوقهم، وبين ﷺ أن المهاجر هو: من هجر ما نهى الله عنه، وأنه لا خير في هجرة الأجسام، ما لم تصحبها الهجرة عن الحرام.

وفي ظل هذه المعاني الفائقة، والدلالات الشائقة نتلمس جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي: وهى من سمات فصاحة المصطفى ﷺ.

والحديث تكونه جملتان اسميتان: تتماثلان في البناء، وتتوازيان في نمط التركيب اللغوي، فالمبتدأ الأولى هو "المسلم"، وهو اسم فاعل من أسلم، والخبر اسم الموصول "مَنْ"، وما بعده جملة الصلة، وكذلك المبتدأ في الجملة الثانية هو "المهاجر"، وهو اسم فاعل، والخبر اسم الموصول "من" وما بعده جملة الصلة وهذا التوازي الأسلوبي، يعد صورة لسلوكيات المسلم الثابتة المتوازنة لأن: هاتين الصفتين من خصائص الشخصية المسلمة في كل زمان وكل مكان.

وتكرار مادة "سلم" في الجملة الأولى ثلاث مرات يعد تأكيدًا لوجود ظلال ومقاييس صفة المسلم وهى في أرقى تصور لها تتمثل في السلام والأمن والأمان، وكذلك تجسد اللغة حب التقارب والألفة من خلال هذا الجناس الاشتقاقي بين المسلم، وسلم،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠/٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠١).

وخص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس، وعبر به دون القول: ليشمل من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وكذلك لأن اللسان يخرج منه ومما حوله من أجزاء الفم، ثمانية عشر حرفًا، وحروف الحلق الستة لا تخرج من اللسان، وكذلك حروف اللين، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك لسانك"، وقال: وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال يحصل بسببها، إذ بها البطش والقطع والوصل والأخذ والمنع، واليد المعنوية لها حضورها في جو الحديث، ولابد أن تكف عن إيذاء الناس ومن سمات وجودها، سلطة الحاكم، والاستيلاء على حق الغير بغير حق، وقدم اللسان على اليد لأن الإيذاء به أنكى وأعم لأنه يتناول الحاضرين والغائبين والأحياء والأموات.

وما أجل المعاني، وما أكثر المنهيات التي تشع بها هذه الجملة الموجزة، فالمهاجر: من الهجر وهو الترك ولكن: هجر المعاصي أبلغ من تركها: فالهجر ترك مع النفور، وهو توبة نصوح، وقيل: الهجرة حزبان: هجرة ظاهرة، وهي الفرار من مواطن الفتن، وباطنة: وهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء، والمسلم الصادق في هجرة دائمة صادقة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنبيه بالأدنى على الأعلى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان علامة المسلم، وعلامة المهاجر.

ثالثًا: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على كمال الالتزام بالإسلام.

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار - التنبيه بالأدنى على الأعلى:

١- **الإخبار:** حيث أخبر الرسول ﷺ عن ماهية المسلم، والمهاجر، فقال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" ولا شك في أن الإخبار أسلوب من أساليب الدعوة التي من خلالها يتعرف المدعوون على أمور دينهم، وحقائق إسلامهم، ولقد كان أعظم ما تميز به الإسلام مصداقية أخباره حيث

لا يعتورها كذب، وهذا من أهم ما يجب أن يحرص عليه الداعية أن تكون أخباره كلها صادقة حتى يُؤَثّر في المدعوين ويصل بهم إلى مرحلة الإقناع.

٢- **التنبيه بالأدنى على الأعلى:** وهو أسلوب من أساليب الدعوة حيث يعبر الداعية عن ضرورة الاهتمام بأمر أصغر ليشمل في داخله الإشارة إلى الأعلى من باب أولى، وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ وصف المسلم يطلق على من يكف أذاه عن إخوانه، رغم أنه يدخل في وصف المسلم من تكون علاقته بربه طيبة، قال الإمام ابن حجر: (ويحتمل أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان علامة المسلم وعلامة المهاجر:

يشير الحديث الشريف إلى علامة المسلم، وأنه هو من سلم المسلمون من لسانه ويده، وهذا يبين أن الإسلام عبادة ومعاملة مع الخلق، قال الإمام ابن حجر: (قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين)[2]، فعلامة المسلم التي يعرف بها كف الأذى عن المسلمين، قال الطيبي: (والإسلام أن يكون مع الاعتراف باللسان اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، فمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ورضي بما قضى الله وقدر، لم يتعرض لأحد، وكف أذاه عنهم بالكلية لا سيما عن إخوانه المسلمين فذلك المسلم الكامل[4]، وجاء في رواية مسلم "أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده"، قال النووي: (قال العلماء قوله: أي الإسلام خير؟

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٩/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٩/١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٣١.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١١٨/١.

معناه أي خصاله وأموره وأحواله؛ وقوله ﷺ "من سلم المسلمون من لسانه ويده" معناه: من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها)[١].

هذا وقد جاء التحذير من إيذاء المؤمنين بالقول أو الفعل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٣]، وقال ﷺ في الحديث: ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا))[٤].

وأما علامة المهاجر فلا يقتصر معناه على مَنْ ترك داره في مكة وهاجر إلى المدينة بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه من المحرمات والكبائر والموبقات حتى وإن كانت الهجرة بمعناها الظاهر قد انقطعت وهي الهجرة إلى المدينة.

قال ابن حجر: (وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة : ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن، وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه، ويحتمل أن يكون ذلك بعد انقطاع الهجرة لما فتحت مكة تطييبا لقلوب من لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه)[٥].

ومن خلال ما سبق تتضح علامة المسلم، وعلامة المهاجر فعلى الدعاة إلى الله حث المدعوين على بلوغ هذه الدرجات، والربط بين القول والعمل ليصبح الإسلام مطبقًا في جميع معاملات الناس فيما بينهم.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٧٠.

ثالثًا- من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم:

حيث جمع ﷺ معنى المسلم، والمهاجر في جملتين، وهذا من جوامع الكلم، وهذا من خصوصيات النبي ﷺ، ومما فضله الله به على غيره من الأنبياء، قال ابن منظور: (أعطاه مَفاتِيحَ الكَلِم، وهو ما يَسَّر الله له من البَلاغة والفصاحة والوُصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحِكَم، ومَحاسِنِ العِبارات والألفاظ التي أُغْلِقَت على غيره وتَعذَّرت عليه)[(١)].

وقال القاضي عياض: (وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة...)[(٢)].

وقال القاضي عياض في شرحه لهذا الحديث: (وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، أي: الكامل الإسلام، والجامع لخصاله من لم يؤذ مسلمًا بقولٍ ولا فعلٍ. إذ أكثر الأفعال بالأيدي فأضيفت عامتها إليها. وهذا من جامع كلامه، وفصيحه، ومحاسنه، ولا يفهم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم. وهو كما يقال: المال الإبل، والناس العرب، على التفضيل لا على الحصر)[(٣)]. وعلى هذا كان من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم ومفاتحه.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على كمال الالتزام بالإسلام:

يجتهد الداعية دائمًا للارتقاء بالمدعوين في العبادة والطاعة، والالتزام بآداب الإسلام، وفي هذا الحديث إشارة إلى الحث على كمال الالتزام بالإسلام باجتناب إيذاء المسلمين، وحسن معاملتهم، وهجر السوء من الأقوال والأفعال والأعمال، قال الإمام النووي: (ومعنى الحديث: من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٢/٥٣٧.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/١٦١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/٢٧٦ - ٢٧٧.

معظم الأفعال بها، وقوله ﷺ: "من سلم المسلمون من لسانه ويده" قالوا معناه: المسلم الكامل، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة، وكمال الإسلام والمسلم متعلق بخصال أخر كثيرة، وإنما خص ما ذكر لما ذكرناه من الحاجة الخاصة)[١].

وقال القرطبي: (وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، أي: من كانت هذه حاله كان أحقَّ بهذا الاسم وأَمْكَنَهم فيه، ويُبيّن ذلك: أنه لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكّن خوفُ عقاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه، فيُكسبه ذلك ورعًا يحمله على ضبط لسانه ويده، فلا يتكلم إلا بما يعنيه، ولا يفعل إلا ما يسلمُ فيه، ومن كان كذلك فهو المسلم الكامل، والمتّقي الفاضل. ويقرب من هذا المعنى بل يزيدُ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: ((لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[٢]، إذ معناه: أنه لا يتمُّ إيمانُ أحدٍ الإيمان التام الكامل حتى يضمَّ إلى سلامة الناس منه إرادته الخير لهم، والنصح لجميعهم، فيما يحاوله معهم. ويُستفاد من الحديث الأول: أن الأصل في الحقوق النفسية والمالية المنع، فلا يحلّ شيء منها إلا بوجهٍ شرعي، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم)[٣].

والداعية الحصيف هو الذي يرتقي بالمدعوين وإيمانهم ليصلوا أعلى درجات الكمال من خلال تعريفهم بالخصال التي بها يكمل إسلام المرء.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ٢٢٤/١.

الحديث رقم (٢١٢)

٢١٢- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ، فَمَاتَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فوَجَدُوا عَبَاءَة قَدْ غَلَّهَا. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

الثَّقل: متاع المسافر[2].

غلَّها: الغُلول: السرقة من الغنيمة قبل القسمة[3]، وفي النهاية: كلُّ من خان في شيءٍ خفيةً فقد غلَّ[4].

الشرح الأدبي

إن الأمانة من سمات الشخصية الإسلامية، وهي ترجمان صدق المؤمن، وعنوان شخصيته، وخيانة الأمانة من الكبائر التي تلقى بالإنسان إلى التهلكة، وتقذف به في قرار سحيق، وتنتهي به إلى جهنم، وبئس المصير. والحديث مشهد من مشاهد الواقع، يقص حكاية هذا الشخص الذي خان الأمانة، وأخفى "عباءةً" من المغنم، ولم يكشف عن ذلك، وظن أنه قد فاز، ولكن خاب ظنه، وساء سعيه، وكانت عاقبته أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو البشير النذير، قال عقب موته: إنه في النار، وهنا تكمن عقدة القصة ويموج التساؤل في عقول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لماذا حكم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك. وما قصة

(١) برقم (٣٠٧٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠١٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ق ل).

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٠٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ل ل).

هذا الرجل؟ وما الذي فعله وأخفاه، وهو الذي يقوم بعمل يتشرف فيه بحراسة دابة رسول الله ﷺ في القتال؟ وكيف أقدم على هذه الكبيرة؟ ولماذا لم يتب عنها؟

إن هذا الحديث يشترك فيه الراوي مع نص كلام رسول الله ﷺ، وفيه كذلك تحديد لاسم الشخصية، وفيه إخبار عن الصحابة بضمير الغائب، "واو الجماعة"، ولم يُحدد أسماءهم.

والقصة هنا: مشهد واقعي وليس تاريخيًا، ولا غيبيًا ولا مستقبليًا: وعناصر السرد تتجلي في لغة الحديث، وطريقة النظم، والعلاقات بين الكلمات والجمل، واختيار المفردات وأدوات الربط.

فالحديث يبدأ بالفعل "كان"، حيث يقدم الراوي لحديث رسول الله ﷺ فيقول: "كان على ثَقَل النبي رجل، يقال له كركرة، فمات"، وهذه البداية تدل على أن هذا المشهد رواه الراوي بعد عهد طويل، وساقه للتذكرة والموعظة والعبرة، وقوله، "على ثَقَل النبي"، خبر كان، واسمها، "رجل"، وهو مؤخر، وقد قدم شبه الجملة وهى الخبر المقدم به حتى يستثير الانتباه، ويلفت الأنظار إلى وظيفة هذا الرجل التي لم يستفد منها، ولم يعمل بمقتضيات هذه المكانة التي جعلته قريبًا من رسول الله ﷺ، والثقل: هو ما يثقل حمله من الأمتعة، كما يقول الشاعر في مدح علي زين العابدين بن الحسين.

حمَّال أثقال أقوام إذا فُدِحُوا   حُلو الشمائل تحلْو عنده نَعمُ

والثقل: المراد به هنا أنه كان يمسك دابة رسول الله ﷺ في القتال، وقيل إن كركرة هذا، كان نوبيًا، أهداه إلى رسول الله هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة فأعتقه.

وقول رسول الله ﷺ هو في النار، فيه إضمار لاسم الرجل لأنه لم يقل إن كركرة في النار، بل قال: هو، حتى يظل الأمر مبهمًا، لأنه ليس خاصًا بكركرة وحده، ولكن كل من على شاكلته يلقى المصير نفسه، هو في النار، ويمكن أن نفسر عدم تحديد الاسم، بأن في ذلك تركًا لمشيئة الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، كما قال العلماء، والمراد بقوله: فذهبوا ينظرون إليه هو تساؤل الصحابة رضي الله عنهم

عن السبب الذي من أجله قيل هو في النار!!، والنظر هنا ليس لشخص كركرة، ولكن إلى عمله والتدبر فيه .

والعطف بالفاء في جمل الحديث تفصح عن سرعة توالي مشاهد هذا الحدث على هذا النحو، (فمات - فقال - فذهبوا - فوجدوا)، وهذا يدل على عدم التمهل في الوصول إلى الحقيقة، والفعل الماضي له سيطرته في الحديث إيحاءً بأن هذا المشهد قد حدث، ولا يستحب تكراره، وقوله: "قد غلها": أي أخفاها، والغلول هو: الخيانة في المغنم، وفي ذلك تأكيد على ضرورة الأمانة ورد المظالم وعدم ظلم النفس والغير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغلول في الغنائم وأنه منهي عنه شرعًا.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الغلول من الغنيمة أو الأخذ منها لأي سبب حرام، واستثوا من ذلك الطعام والشراب له والعلف لدابته، فإن أخذ المقاتل شيئًا قبل القسمة وتاب وجب عليه رده، أما إذا لم يرده حتى اكتشف عنده فإنه يكون غالاً، وقد اختلف الفقهاء في حكمه على قولين:

القول الأول: ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية[2] وهو أن الغال يؤدب، ويعزر دون أن تقطع يده أو يحرق متاعه، ولكن ذهب المالكية إلى أن هذا الحكم قبل الحوز أما بعد فمن سرق النصاب يقطع.

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٧/١، وشرح السير الكبير ٤٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٩٨/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٤/١، والأم ٢٦٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٩٩/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٥٨/٧، والفروع، ابن مفلح ٢٣٧/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٨٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٤٥/٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٢٧/١، وشرح السير الكبير ٤٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٦٣/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٩٨/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٤/١، والأم ٢٦٥/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٩٩/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٥٨/٧.

القول الثاني: وهو للحنابلة والأوزاعي والحسن ومكحول[1] ويرون أن الغال يحرق متاعه كله إلا المصحف والسيف وما فيه روح.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لأن السنن والآثار الثابتة في هذا الشأن تدل على أن الغال يعاقب في الدنيا بالتعزير وفي الآخرة بالعذاب الشديد دون أن يثبت حرق متاعه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الإخبار عن الحقائق.

ثالثًا: من دلائل النبوة: إخباره ﷺ بمر خفي على أصحابه رضي الله عنهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الغلول قليله وكثيره.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

مما لا شك فيه أن القصة وسيلة هامة من وسائل الدعوة، وكانت في القرآن الكريم -ولا زالت- مصدر العبرة والعظة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾[2]، فالقصة تقدم نماذج حية عملية للاتعاظ والعبرة والادكار، "إن القصة تصور نواحي الحياة المختلفة فتعرض الأشخاص والحركات والأخلاق والأفكار والاتجاهات، فهي بهذا تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر، وهي كذلك تميل النفس إليها فتجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار"[3]، وقد جاء في الحديث قصة هذا الرجل وهو كركرة فيجب على الداعية أن يجعل من

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٢٣٧/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٨٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٤٥/٩، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٨/١٢.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤.

القصة وسيلة للتحذير من مثل هذه الأفعال التي وقع فيها هذا الرجل، ولعلاج بعض المشكلات المتعلقة بعدم الاحتراز من الغلول.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الإخبار عن الحقائق:

حيث أخبر النبي ﷺ عن هذا الرجل، وهو كركرة أنه في النار، ومن هنا كان من أهم واجبات الداعية الإخبار عن الحقائق التي جاءت في القرآن والسنة ليجد الناس فيها العظة والعبرة فكما أمر الله رسوله بالتبليغ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، فإن الدعاة إلى الله كذلك مطالبون بالبلاغ والبيان للناس فقد قال رسول الله ﷺ: ((بلّغوا عني ولو آيةً))[2].

قال ابن حجر: (وقوله في الحديث: "ولو آية"، أي: واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ)[3]. وقال: ﷺ في الحديث أيضًا: ((نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ))[4]، ولذا كانت وظيفة الداعية ترتكز على الإخبار عن الحقائق وعرضها للناس.

ثالثًا- من دلائل النبوة: إخباره ﷺ بأمر خفي على أصحابه رضي الله عنهم:

لقد أخبر النبي ﷺ عن كركرة لما مات بأنه في النار فلما ذهبوا ينظرون إليه وجدوه قد غلّ عباءة، ولا شك أن هذا من دلائل النبوة حيث أخبر الله نبيه بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[5]، وأخرج الإمام البيهقي في دلائل النبوة قصة شبيهة بقصة كركرة، فعن زيد بن خالد الجهني أنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ النبيِّ تُوفّي يَوْمَ خَيبر، فذكروهُ لرسولِ اللّهِ فقالَ: ((صَلُّوا على صَاحِبِكُمْ))، فتغيَّرتْ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٥/٦.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٤٠).

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

وجوهُ القَوْمِ مِنْ ذلِكَ، فقالَ: ((إنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، ففتحنا متاعَهُ، فوجدنا خَرَزًا مِنْ خَرَزِ اليهودِ لا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ[1].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث ذَكَر النبي ﷺ أن هذا الرجل في النار لأنه غلّ، ولا شك أن هذا أسلوب من أساليب الدعوة، والترهيب يمنع النفس من الوقوع في الأخطاء الشرعية حيث "إن الترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"[2]، ومما يجدر بالداعية أن يوازن بين الترغيب والترهيب فيستخدم كلاً في موضعه.

ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[3]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[4].

وتأتي أهمية استخدام أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة، أن الإنسان مفطور على حب ما ينفعه ويرغب في الحصول عليه، وينفر عما يضره ويحرص على الابتعاد عنه، ويُغتنم ذلك في الدعوة، فيُرغب العبد في الخير ببيان نفعه له ويُحذر عن الشر بذكر وباله عليه.

وقد كان النبي ﷺ يكثر من الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[5] ففي هذه

---

(١) دلائل النبوة، البيهقي ٤/٢٥٥.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٦.

الآية الكريمة جاء الأمر الإلهي للنبي الكريم ﷺ للقيام بالدعوة بثلاثة أساليب أحدها الموعظة الحسنة المقترنة بالترغيب والترهيب [(١)].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الغلول قليله وكثيره:

هذا ما دلت عليه النصوص الشرعية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [(٢)].

قال القرطبي: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة حاملاً له على ظهره ورقبته، مُعذّبًا بحمله وثِقَله، ومَرعُوبًا بصوته، ومُوَبَّخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد، وهذه الفضيحة التي يوقعها الله بالغال نظير الفضيحة التي توقع بالغادر في أن ينصب لواء له يوم القيامة، والغلول كبيرة من الكبائر) [(٣)]. كما تدل عليه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فهو من أعظم الذنوب وشر العيوب [(٤)].

ودلت الأحاديث الصحيحة على تحريم الغلول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ. فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ . ثُمَّ قَالَ: ((لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ...)) [(٥)].

والغلول كثيره وقليله حرام فقد أهدى لرسول الله ﷺ عبدٌ أسود يقال له مدعم فبينما مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم فقتله، فقال الناس هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: ((كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ

---

(١) انظر: ركائز الدعوة، د. فضل إلهي ص ١٨٠، ١٨١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٦/٤/٢.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٣١.

خَيْبَرٍ مِنَ المَغَانِمِ لم تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا))، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ))، أَوْ قال: ((شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ))[1].

والغلول له صور متعددة ومظاهر متنوعة، المشهور منها: الغلول في الفيء أو الغنائم. ومن الغلول أيضًا الغلول في الزكاة وهدايا العمال، والاختلاس من الأموال العامة وكذا اغتصاب الأرض أو العقار أو ما أشبه ذلك، وهذه الصور وأشباهها من الغلول المحرم إذ يترتب عليه تعطيل المصالح العامة ويفقد الفقراء والمساكين جزءًا من حقوقهم التي كفلها الشارع فضلاً عن أن الغلول يورث الكراهية ويضيع الحقوق ويفقد الثقة بأصحابه ويبعد صاحبه عن الجنة ويجلب عليه العار والشنار[2].

هذا وإن موضوع الغلول وتحريمه من الموضوعات المهمة التي يجب أن يطرقها الدعاة، حتى يكون الناس على بينة من أمورهم، فقد يستهين البعض بأخذ ما ليس له طمعًا وتهاونًا وجشعًا وغير ذلك، ويغفل عن عاقبة ذلك الذي يكون سببًا في دخول النار، ولقد استشرى هذا الداء العضال في فئة من المسلمين تستحل ما حرم الله من أكل أموال الناس بالباطل، وغلّ حقوقهم ومتاعهم مع عدم المبالاة بذلك الأمر الخطير مما يستلزم بيان خطره من قِبل الدعاة إلى الله وتحذير الناس منه.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧١١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣٥٨).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٥١٣١/١١، ٥١٤١.

الحديث رقم (٢١٣)

٢١٣- وعن أَبي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بنِ الحارثِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّه السَّمواتِ والأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَر شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُم: ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَة وَذو الْحِجَّةِ، والْمُحرَّمُ، وَرجب الذي بَيْنَ جُمادَي وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**» قلْنَا: اللَّه ورسُولُهُ أَعْلَم، فَسكَتَ حَتَّى ظننَّا أَنَّهُ سَيُسميِّهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قال: أَلَيْس ذَا الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بلَى: قال: «**فأَيُّ بلَدٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللَّه وَرسُولُهُ أَعلمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سيُسميِّهِ بغَيْر اسْمِهِ. قال: «**أَلَيْسَ الْبلْدَةَ الحرمَ؟**» قُلْنا: بلَى. قال: «**فَأَيُّ يَومٍ هذَا؟**» قُلْنَا: اللَّه ورسُولُهُ أَعْلمُ، فَسكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّه سيُسميِّهِ بِغيْر اسمِهِ. قال: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟**» قُلْنَا: بَلَى. قال: «**فإِنَّ دِماءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ علَيْكُمْ حرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذا فِي شَهْرِكم هَذَا، وَستَلْقَوْن ربَّكُم فَيسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يضْربُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ لِيُبلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فلَعلَّ بعْض من يبْلغُه أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَه مِن بَعْضِ مَنْ سَمِعه**» ثُمَّ قال: «**أَلا هَلْ بلَّغْتُ، أَلا هَلْ بلَّغْتُ؟**» قُلْنا: نَعَمْ، قال: «**اللَّهُمْ اشْهدْ**»[1] متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

مُضر: هي قبيلة عربية وأضيف رجب إليها؛ لأنها كانت تحافظ على تحريمه أشد من سائر العرب[3].

أعراضكم: جمع عِرض: جانبُ المرء الذي يصونُه من نفسه وحسبه ويُحامي عنه أن يُنْتَقَص أو يُعابَ[4].

---

(١) قوله: (اللهم فاشهد) عند مسلم (١٦٧٩/٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٠)، ومسلم (١٦٧٩/٢٩) والسياق بتمامه للحميدي في جمعه (٣٦٢/١، رقم ٥٧٧).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (م ض ر)، ودليل الفالحين، ابن علان ٣٩٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يستمد أشعته الهادية، ومعانيه السامية من آفاق خطبة حجة الوداع وهى خطبة من جوامع كلمه ﷺ، وتفيض بالقيم الإسلامية، والتعاليم الشرعية، وهذه القيم وتلك التعاليم يصوغها الرسول ﷺ في أسلوب سهل واضح مبين، لا عوج فيه ولا التواء، إنه كما قال الجاحظ، كلام قد حُفَّ بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وقد فاضت هذه الخطبة بالأسرار التعبيرية، والقيم الجمالية والأساليب الموحية، ولنتأمل هذه الأسرار التعبيرية في هذا الحديث الشريف وهو قبسات من خطبة الوداع، فالحديث يبدأ بهذه الجملة التي غلفها التأكيد "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض"، والتأكيد هنا ليس مجرد حلية لفظية ولكنه يقرر حقيقة شرعية وهى وجوب التزام المسلمين بالمحافظة على أيام الله، وعلى المواقيت التي حددها الله عز وجل في كتابه الكريم اتباعًا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1]، ثم يوضح الأمر في الآية التالية حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[2].

فالتأكيد يرشد المسلمين إلى أن الزمان استقر واستدار وثبت وتحدد، وعاد في انقسامه إلى الأعوام، والعام في انقسامه إلى الأشهر المعدودة المعهودة إلى الموضع الذي اختار الله وضعه عليه، وجاء هذا التوضيح في مناسبة الحج، حتى لا يظل الناس متبعين نهج الكافرين في النسيء، والتغيير في نظام الأشهر الحرم، وإحداث البلبلة والاضطراب، "يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليوطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٧.

الله"، وهذا التأكيد من مقاصده: ثبات أشهر الحج، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[(١)].

وكان العرب في الجاهلية إذا احتاجوا إلى الحرب في رجب استحلوه وأخروا حرمته للشهر بعده، ونادوا بذلك في قبائل العرب، وجعلوا حساب الحج تابعًا لذلك، ولذلك أبطل القرآن النسيء وجعله زيادة في الكفر.

وأفصح الرسول عن مراده، وحدد للمسلمين المواقيت تحديدًا واضحًا معتمدًا على الأرقام، وتحديد أسماء الأشهر فقال: السنة اثنا عشر شهرًا، ثم حدد الأشهر الحرم تحديدًا قاطعًا: ثلاث متواليات: (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم).

ثم زاد الأمر تحديدًا في قوله: "ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان" ونسب شهر رجب إلى مضر، لأن هذه القبيلة كانت تحافظ على تحريم "رجب" أشد من سائر العرب، وزيادة في الدقة والتحديد قال: "الذي بين جمادى وشعبان"، وهذه الزيادة بيان لعظم شأن هذا الشهر، وكذلك لإبطال وتجريم النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية، حيث كانوا: إذا احتاجوا للحرب في رجب جعلوه حلالاً، وجعلوا شعبان رجبًا، وبنوا عليه حساب حجهم.

وتمتزج عدة أساليب في الجزء الباقي من الحديث لتوصيل المعنى عن طريق التشويق والإقناع، وتأكيد القيم والمقاصد الإسلامية في نفوس المسلمين، فالحوار بين رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يتوهج عبر وسائل وأساليب تعبيرية ومنها الاستفهام والتأكيد، والتكرار، فالرسول يسأل: أي شهر هذا، وأي بلد هذا، وأي يوم هذا؟ وتتكرر الإجابة التي تترجم آداب الصحابة والتزامهم بما يأمرهم به قرآنهم، ونبيهم، (الكتاب والسنة)، فيقول عقب كل سؤال: الله ورسوله أعلم، وفي ذلك إشارة لكل مسلم أنه لا رأي له خارج آفاق النص القرآني، والبيان النبوي، فالله ورسوله أعلم،وتكررت ثلاث مرات في الحديث، وتكررت عبارة: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه للإفصاح عن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

عنصر التشويق إلى معرفة الحقيقة، ويمتزج التكرار بالتوكيد في قوله: "إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا"، وتكرار اسم الإشارة يوضح حرص الرسول ﷺ على حرمة الأماكن المقدسة، وضرورة حمايتها، والدفاع عنها، ويؤكد الرسول ﷺ وصاياه للأمة، حتى يشعر المسلمون بالمسؤولية وحتى يحافظوا عل دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: الأشهر الحرم، فقد أجمع الفقهاء[1] على أن الأشهر الحرم هي هذه الأشهر المذكورة في الحديث، ولكن اختلفوا في الأدب المستحسن في كيفية عدها على قولين هل يبدأ في العد بالمحرم أم يبدأ بذي القعدة، وجماهير الفقهاء يبدأون بذي القعدة وهم يذكرون الأشهر الحرم وأما السنة الهجرية فتبدأ بالمحرم.

الثاني: حرمة نفس الغير، فقد اتفق الفقهاء[2] على أنه لا يجوز قتل النفس بغير حق وإذا كانت النفس مسلمة فالحرمة أشد.

الثالث: حرمة مال الغير فقد اتفق الفقهاء[3] على حرمة مال المسلم فلا يجوز

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨٣/١، ١٦٨/١١.

(٢) المبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٧/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٣١/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٣٧٥/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٥٣/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٢/٥ وما بعدها.

(٣) المبسوط، السرخسي ٥٠/١١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٢٢/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٧٣/٥، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٥/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٣٦/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٩٦/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٤/٦.

غصبه ولا سرقته ولا أخذه بغير حق.

الرابع: حرمة عرض المسلم، فقد اتفق الفقهاء[١] على أن قذف المسلم كبيرة تستحق الحد فيجلد المرء لأجلها ثمانين جلدة إن كان حرًا، وأربعين إن كان عبدًا.

الخامس: تبليغ العلم، قال النووي: قوله ﷺ ليبلغ الشاهد الغائب فيه وجوب تبليغ العلم، وهو فرض كفاية فيجب تبليغه بحيث ينتشر[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب،والتشبيه، وضرب المثل.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الأشهر الحرم.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله.

خامسًا: من واجبات المدعو: تبليغ العلم ونقله عن العالم.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: تحريم الظلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، السؤال والجواب، التشبيه وضرب المثل:

١- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث "إن الزمان" ولاشك أن التوكيد أسلوب من أساليب الدعوة، يدلل على أهمية ما يقوله الداعية، وينبه المدعوين إلى ضرورة الاهتمام به كما أنه يضيف بعدًا آخر، وهو ثقة وقناعة الداعية بما يقول مما يؤثر تأثيرًا إيجابيًا على المدعوين.

٢- **السؤال والجواب:** وقد تكرر في الحديث سؤال النبي ﷺ أي شهر هذا؟ أي

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٠٦/٩، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٩/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩٨/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٠٩/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣٥/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٢٠/٩، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٦/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٩/١١.

بلد هذا؟ أي يوم هذا؟ وهذا كله لإيجاد نوع من الحوار بينه وبين المدعوين لجذب انتباههم وتفاعلهم مع ما يطرح من أسئلة ثم كان السؤال التقريري لهم: أليس ذا الحجة؟ أليس البلدة؟ أليس يوم النحر؟ وذلك لإقامة الحجة على المدعو بتقريره على الإجابة، وما من شك في أهمية السؤال والجواب كأسلوب من أساليب الدعوة إذ يعين الداعية على تبليغ ما يقول، ويعمل على شدّ انتباه المدعو لمعرفة الجواب أو طرح السؤال.

٣- **التشبيه، وضرب المثل:** جاء في الحديث "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا". وهذا التشبيه وضرب المثل من قبيل الحرص على زيادة الإفهام للمدعو، وتقريب المعنى إليه ذلك لأن المدعوين ليسوا على نسق واحد في الفهم، وهذا مما يدل على أهمية التشبيه كأسلوب من أساليب الدعوة يجب أن يستخدمه الدعاة نظرًا لتعدد أصناف المدعوين وتباين أفهامهم.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قد يشيع في المجتمع بعض الأخطاء والتصرفات الغير شرعية، وهنا يأتي دور الداعية في تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة، والأعراف السائدة، ومن ذلك ما كان يحدث في الجاهلية من تغيير الأشهر الحرم بتقديمها أو تأخيرها، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن هذه الأشهر ثابتة لا تتغير - ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، رجب - ومن هنا يبرز دور الداعية في القيام بتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى فئات من الناس، ومعالجة ذلك بالطريقة المناسبة، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمر الأشهر الحرم، وما يحدث فيها من تغيير وتبديل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾[1].

قال السعدي: (النسيء ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم رأوا

(١) سورة التوبة، آية: ٣٧.

بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حَرُم القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه، أحلو فيه القتال، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا فهذا كما أخبر الله عنهم أنه زيادة في كفرهم وضلالهم لما فيه من المحاذير منها:

أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه، ومنها: أنهم قلبوا الدين فجعلوا الحلال حرامًا، والحرام حلالاً ومنها: أنهم موَّهوا على الله بزعمهم، وعلى عباده، فلبسُّوا عليهم دينهم واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستقرار عليها يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة فحصل من الغلط والضلال ما حصل)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الأشهر الحرم:

لقد جاء النص على فضل الأشهر الحرم في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[٢]. قال الإمام الشوكاني: (ذلك الدين القيم أي كون هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى فلا تظلموا في هذه الأشهر الحرم أنفسكم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها)[٣]. ولفضل الأشهر الحرم شرع الله في أول الإسلام تحريم القتال فيها بقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[٤]، قال ابن رجب الحنبلي: (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: اختص الله أربعة أشهر جعلهن حرمًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٩٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/٣٥٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢.

وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، وجعل العمل الصالح والأجر فيهن أعظم)[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة الحفاظ على نفس المسلم وعرضه وماله، وقد أوصى الرسول ﷺ بذلك في الحديث حيث قال: "فإن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا" وقد دلت نصوص القرآن الكريم على حرمة نفس المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٢]. ودلت على حرمة ماله قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] وعلى حرمة عرضه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤].

قال السيد سابق: (إن الله كرّم الإنسان: خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وجعله خليفة عنه، وزوَّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض، وليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادي، وارتقاء روحي، ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه، ويبلغ غايته، إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو، وأخذ حقوقه كاملة، وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها الإسلام حق الحياة، وحق التملك، وحق صيانة العرض، وهذه الحقوق واجبة للإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن لونه أو دينه أو جنسه أو وطنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس ص ٢٢٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٤) سورة النور، آية: ٤.

بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[١] ولما خطب الرسول ﷺ في حجة الوداع جعل حرمة دم المسلم وماله كحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام)[٢].

خامسًا- من واجبات المدعو: تبليغ العلم ونقله عن العالم:

حيث قال النبي ﷺ في الحديث "ألا ليبلغ الشاهد الغائب" قال النووي: (فيه وجوب تبليغ العلم وهو فرض كفاية فيجب تبليغه بحيث ينتشر)[٣]. وقال الرسول ﷺ في الحديث ((بلّغوا عني ولو آيةً))[٤] وهكذا يجب أن يكون المدعو مبلغًا للعلم الذي تعلمه.

فلعل الله عز وجل أن يهدي به أحدًا فيكون الأجر والثواب لمن بلغ العلم فعن سهل ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: ((لأَنْ يُهدَى الله بكَ رجُلٌ واحدٌ خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَم))[٥].

قال ابن عبدالبر: (قال علي رضي الله عنه: لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال، لأن العلم كان قبل الجهل. وعن ابن القاسم قال: كنا إذا ودّعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلّموه ولا تكتموه. وعن عبدالرحمن بن مهدي قال: كان مالك بن أنس يقول: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة كما يسأل الأنبياء يعني عن تبليغه. وعن سليم بن عامر قال: كان أبو أمامة يحدثنا فيكثر ثم يقول: عقلتم؟ فنقول: نعم، فيقول: بلغوا عنا فقد بلغناكم، يرى أن حقًا عليه أن يحدث بكل ما سمع، وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز: أما بعد، مُرْ أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله عز وجل في

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٢) إسلامنا، السيد سابق ص ٢٦٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٥.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٤٢ واللفظ له، ومسلم ٢٤٠٦.

مجالسهم ومساجدهم والسلام. ويقال: ما صِينَ العلم بمثل العمل به وبذله لأهله وقالوا: النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن ينقصها ألا تجد حطبًا وكذلك العلم لا ينقصه الاقتباس منه، ولكن فقد الحاملين سبب عدمه)[١].

وإذا كان تبليغ العلم من باب النصيحة للمسلمين فقد قال رسول الله ﷺ ((ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنُّصْحُ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ))[٢]. وتبليغ العلم مما يؤجر عليه المرء بعد موته فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ. وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لاِبْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ. يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))[٣].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: تحريم الظلم:

يتضح ذلك من خلال توجيه النبي ﷺ إلى حرمة الدماء والأموال والأعراض وقد دلّ القرآن على تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤] وفي الحديث القدسي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا...))[٥]. وبيّن الله سوء عاقبة الظالمين يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦].

وحذر رسول الله ﷺ من الظلم فقال في الحديث: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ٤٩٢/١-٤٩٧ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨).

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٣١.

ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...))[١] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. قال ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢]))[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان اللهُ في حاجتهِ...))[٤].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (قال عمر بن عبدالعزيز: إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك[٥]. قال أبو العتاهية:

أمـا والله إن الظلـم لـؤم ... ومـا زال المسيء هـو الظلـوم

إلى ديَّان يـوم الـدين نمـضي ... وعنـد الله تجتمـع الخـصوم

ستعلم في الحساب إذا التقينـا ... غـدًا عنـد الإلـه مـن الملـوم[٦]

وفي بعض المأثورات: إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم ومن ألاق لهم دواة، وبرى لهم قلمًا فيجعلون في تابوت ويلقون في جهنم)[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢ واللفظ له، ومسلم ٢٥٨٠.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٤/١٠.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٥/١٠ ونسب الشعر إلى الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٨١/١ وهو في الكامل في التاريخ ٣٥٨/٥، والحماسة البصرية ٤٢٢/٢.

(٧) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٩٢٦/١٠ ونسبه إلى بصائر ذوي التمييز ٥٤٣/٣.

لقد نهى الله عن الظلم كافة في جميع الأوقات والأماكن وعلى جميع الأحيان خاصة في الأوقات التي عظم فيها شأن الظلم كالأشهر الحرم التي جاء فيها الحديث ونهى الله فيها عن الظلم، وقد أشار الله في آية النسيء أن ظلم الإنسان في الحقيقة إنما هو ظلم لنفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[1] فقد قسم العلماء الظلم إلى ثلاثة أقسام وهي في النهاية تصب في ظلم الإنسان لنفسه، قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[4] وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾[5].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾[6].

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فالإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه[7].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٣) سورة هود، آية: ١٨.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٦) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٨.

الحديث رقم (٢١٤)

٢١٤- وعن أَبي أُمَامةَ إِيَاسِ بنِ ثعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ رضي الله عنه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّه له النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» فقال[1] رجُلٌ: وإِنْ كَانَ شَيْئًا يسِيرًا يا رسولَ اللَّهِ؟ فقال: «**وإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو أمامة بن ثعلبة الحارثي الأنصاري: واسمه: إياس بن ثعلبة، من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج، حليف الثعلبي، الحارثي، التلوِيّ الأنصاري، حليف بني حارثة.

له صحبة، روى عن النبي ﷺ وعن عبدالله بن أنيس الجهني، إلا أنه لم يكن من المكثرين، وروى له الجماعة سوى البخاريُّ، لم يشهد بدرًا بسبب رعايته لأمه في مرض وفاتها، فعنه ((أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر، وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيار، أقم على أمك يا ابن أخت، قال: بل أنت أقم على أختك، فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فأمر أبا أمامة بالمُقام على أمه، وخرج بأبي بُرْدة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها[3] ولم يؤرخ لأبي أمامة حياته ومماته[4].

غريب الألفاظ:

الأراك: نوع من الشجر يُستاك بأغصانه[5].

---

(١) عند مسلم زيادة: (له).

(٢) برقم (١٣٧/٢١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٤٦). وسيكرره المؤلف برقم (١٧١٥).

(٣) الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٢/١، ٢٧٣)، حديث رقم (٧٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات، وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب: سنده جيد.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٧٧١، ٧٧٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٥/٦، ١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٢٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٣٥/٨، ٢٣٦)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤٨٢/٤، ٤٨٣).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٢.

الشرح الأدبي

إن من مقاصد الإسلام الشرعية والحضارية السعى في تحصيل الأموال بالطرق والوسائل المشروعة والاعتدال في صرفها، "ونهى الإسلام كذلك عن احتباس الأموال واكتنازها، ونهى عن تحصيلها بالطرق التي لا خير فيها صيانة لها عن الشر والفساد، وحفظًا لمال الغير من السرقة والانتهاب، وقد جعل الإسلام أخذ المال دون رضا صاحبه وطيب نفسه أكلاً له بالباطل يجب التحرز منه، فقال رسول الله ﷺ "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"[١]، وقال : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"[٢][٣]، والحديث السابق أكد على هذا المنهج في سياق وصايا المصطفى ﷺ للمسلمين في خطبة حجة الوداع.

ويؤكد هذا الحديث على وجوب اتباع هذا المنهج، وهو المحافظة على حقوق الغير، ولكن الأسلوب في هذا الحديث جاء تحذيريًا مشددًا العقوبة على كل من يعتدي على حق المسلم وغير المسلم الذي يعيش في كنف المسلمين وحمايتهم، ولأن الجزاء من جنس العمل، ولأن المصطفى ﷺ في بيانه البليغ يأتي المَبْني مجسدًا للمعنى، وكاشفًا طبيعته، ومحددًا سمته، فإن هذا الحديث جاء في صيغة الشرط والجواب، فالنتائج ثمرة المقدمات والجواب انبثاق حتمي عن فعل الشرط، وكذلك العقوبات تكون بقدر حجم المخالفة في السلوكيات.

ولنتأمل بداية هذا الحديث في قول رسول الله ﷺ "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة"، "ومَنْ" هنا أداة شرط للعاقل: وفعل الشرط الذي يجلب العقوبة هو اقتطاع حق المسلم أو غير المسلم الذي يحتمي بالمسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٥٦٤.

(٢) أخرجه مسلم، ١٢١٨.

(٣) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٢٣٥.

ومادة الاقتطاع توحي بالأخذ الشديد، وبتر جزء من حقوق الغير، وكأن هذا الحق المعنوي والمادي صور في هيئة، وصور في كيان متكامل، وسلبه أو نهبه أو إنكاره، يعد اقتطاعًا له من كيانه وجسده: وكأنه عضو اقتطع من جسد، ومهما تمتع به آخذه، فإنه سيظل في حنين إلى حمى صاحبه، وإلى العودة إلى جسده الأصلي، وكلمة حق تتضمن دلالات كثيرة: فكل ما يملكه الإنسان هو حق له: المال، والمتاع، والأبناء، والزوجة، والأنعام والتجارة، وكل ما يكتسبه في حياته هو حق له، ولا يحل لأحد أن يقتطع هذا الحق من بنيانه المتكامل.

والإيجاز في هذه الكلمة يجعلها تشع بكثير من التفسيرات والدلالات، وتقييد المرء بأنه مسلم، لتمييز المسلم عن غيره، وللإشعار بالمحافظة على حقوقه، ومع ذلك فغير المسلم يحب كذلك المحافظة على حقوقه إذا كان يتمتع بالأمن وحسن الجوار في بلاد الإسلام؛ وقوله "بيمينه"، للإشعار بتعمد هذا الأخذ، ويسبق إصراره على ارتكاب هذا الجرم الخطير، وهذه الحيثيات التي تؤكد إصرار ذلك الذي سلب حق غيره تمثلت في فعل "الاقتطاع"، وليس القطع، فالصيغة تدل على قسوة الأخذ، ومقاومة المأخوذ منه، وهذا المأخوذ هو حق، وحق أخيه المسلم، وقد أُخِذ باليمين، لكل هذا وبسببه: أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، إذا لم يتب توبة نصوحًا، والجملة الثانية سؤال من الراوي وقد صيغت في أسلوب الشرط، ولكن حذف الجواب إيجازًا لأن العقاب معروف ولا جدال فيه "وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله"، والجواب المحذوف: فهل العقاب كذلك؟ وتأتي الإجابة من رسول الله في صيغة الشرط والجواب، ولَكِنْ جواب الشرط محذوف، إيجازًا، وإيحاءً بأن العقاب ثابت؛ وأن النجاة تكمن في رد الحقوق إلى ذويها.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم اليمين كدليل للإثبات، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن اليمين أحد أدلة الإثبات في الدعاوى، ويجب على القاضي أن يأخذ بها وأنها تتوجه للمنكر عند عدم البينة من المدعي تطبيقاً للحديث الشريف الوارد في هذا الشأن فإن حلف المنكر قُضي له بيمينه.

الثاني: حرمة اليمين، فقد ذكر الفقهاء أنه يحرم الحلف كذبًا لاقتطاع حق الغير، ومن فعل ذلك مستحلاً له فهو كافر ومخلد في النار، ومن فعله غير مستحل فقد ارتكب ذنبًا كبيرًا يحرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين[2].

الثالث: هل يبيح حكم الحاكم للإنسان ما ليس له؟ اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين، فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة وأبي ثور ومحمد بن الحسن إلى أن حكم الحاكم لا يبيح للإنسان ما ليس له، وإنما يظل الحال على ما كان عليه قبل القضاء به من حل أو حرمة، وذهب أبو حنيفة إلى أن حكم الحاكم يبيح له ما لم يكن له، وينفذ حكمه ظاهرًا وباطنًا[3]، والراجح رأي الجمهور، لأن

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٤/٢٩٤، والمبسوط، السرخسي ١٦/١١٨، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/٣٠٥، ٦/٢٤٢، والمدونة ٣/٣٧٩، وأحكام القرآن، ابن العربي ١/٣٢٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/٣٨٦، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٤/٣٤٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤/٢٩٢، والطرق الحكمية لابن القيم ص ٦٧، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ١/٧١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢/١٦١.

(٣) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٤/١٥٥، وأحكام القرآن، الجصاص ١/٣٤٤ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٥/١٨٦، وأحكام القرآن، ابن العربي ١/٣٦٤، الأم ٨/٤١٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٧/١٣٠، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٠/١٠٥، والفتاوى الكبرى ٥/٥٦٣، والفروع، ابن مفلح ٦/٤٩٠، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢/١٦٢.

الحاكم يحكم بالظاهر فلا يبيح ما كان حرامًا.

الرابع: حرمة حقوق المسلمين من مال وغيره، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٢١٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، الترهيب، السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة غصب حقوق الآخرين.

ثالثًا: من حقوق المدعو: السؤال عما يجهل.

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب، والسؤال والجواب

١- **الشرط:** حيث جاء في الحديث "من اقتطع..." وما من شك في أن الشرط أسلوب من الأساليب الدعوية المهمة، حيث يلفت انتباه المدعو إلى معرفة جواب الشرط، ويبين كذلك ارتباط الجزاء بالعمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

٢- **الترهيب:** حيث قال النبي ﷺ في الحديث: "... فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة" والترهيب أسلوب دعوي يعمل على الزجر وحمل النفس على الطاعة، ويخوفها من الظلم والمعصية، وقد كثر في القرآن الكريم استخدام هذا النوع من الأساليب ومنه قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] ويحسن بالداعية أن يفيد من الترهيب في علاجه للموضوعات الدعوية التي تتطلب ذلك.

٣- **السؤال والجواب:** ويتضح هذا من سؤال الرجل للنبي ﷺ (وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟) ويعتبر السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي تسهم في بيان الحقائق، وإقرارها في أذهان المدعوين، لأنه يحقق التفاعل والحوار بين الداعية والمدعو، وتتوجه فيه المعلومة مباشرة إلى السامع، وعلى الدعاة إلى الله استخدام هذا الأسلوب لشد انتباه المدعوين، وإيجاد قنوات حوار فيما بينهم.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٥٠.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة غصب حقوق الآخرين:

لقد حذر النبي ﷺ من الاعتداء على حقوق الآخرين وغصبها في الحديث فقال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة". قال القاضي عياض: (إنما كبرت هذه المعصية بحسب اليمين الغموس، التي هي من الكبائر الموبقات، وتغييرها في الظاهر حكمة الشرع واستحلاله بها الحرام، وتصييرها المحق في صُورة المبطل والمبطل في صورة المحق، ولهذا عظم أمرها وأمر شهادة الزور، وإيجاب النار فيها على حكم الكبائر، إلا أن يشاء الله أن يعفو عن ذلك لمن يشاء، وتحريم الجنة عند دخول السابقين لها والمتقين، وأصحاب اليمين، ثم لابد لكل موحد من دخولها، إما بعد وقوف وحساب أو بعد نكال وعذاب.

وتخصيصه هنا المسلم، إذ هم المخاطبون، وعامة المتعاملين في الشريعة لا أن غير المسلم بخلافه، بل حكمه حكمه في ذلك)[١]، وقال الإمام النووي: "وتقييده بالمسلم ليس يدل على تحريم حق الذمي، بل معناه أن هذا الوعيد الشديد وهو أنه يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان لمن اقتطع حق المسلم، وأما الذمي فاقتطاع حقه حرام، لكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة، وفي هذا الحديث بيان غلظ تحريم حقوق المسلمين، وأنه لا فرق بين قليل الحق وكثيره لقوله ﷺ ((وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ))[٢] وقد دلت نصوص الشرع على حرمة غصب حقوق الآخرين قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾[٣]. وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[٤] قال ابن عاشور: (والبغي المحرم هو الاعتداء على حق الغير بسلب أموالهم

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٣٤/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

أو بأذاهم، والكبر على الناس من البغي، وقد كان البغي شائعًا في الجاهلية فكان القوي يأكل الضعيف)[١]. ويعتبر هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي تستلزم توعية الناس بها.

جاء في الموسوعة الفقهية: (والغصب لغة: هو أخذ الشيء ظلمًا وقهرًا، واصطلاحًا: الاستيلاء على حق الغير عدوانًا أي بغير حق، والغصب حرام إذا فعله الغاصب عن علم لأنه معصية، وقد ثبت تحريمه بالقرآن والسنة والإجماع. ويتحقق الغصب بمجرد الاستيلاء أي إثبات يد العدوان على الشيء المغصوب بمعنى إثبات اليد على مال الغير بغير إذنه، ولا يشترط إزالة يد المالك، وليس المقصود من الاستيلاء، الاستيلاء الحسي بالفعل، وإنما يكفي الحيلولة بين المال وبين صاحبه، ولو أبقاه بموضعه الذي وضعه فيه)[٢].

والغصب ظلم للغير، وقد حذر النبي ﷺ من عاقبة الظلم كما جاء في الحديث الذي معنا، وهذا واجب الداعية أن يبين للناس مساوئ الظلم حتى يجتنبوه، وقد بين الله في القرآن أن الظالمين لا نصير لهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٣] وأن النار هي نهاية الظالمين ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤] وأنهم لا فلاح لهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥] وأن الله أعدَّ لهم نارًا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾[٦]. وبناء على هذه النصوص واجب على الداعية أن يحذر المدعوين من غصب حقوق الغير لأن ذلك من أبشع الظلم.

---

(١) التحرير والتنوير مج٤/٨/١٠٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٢٩-٢٣٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٣٥.

(٦) سورة الكهف، آية: ٢٩.

ثالثًا- من حقوق المدعو: السؤال عما يجهل:

حيث جاء في الحديث فقال رجل: "وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟" وهذا حق المدعو أن يسأل عما يجهل حتى لا يقع في محرم، وليتحرز عن المعاصي ولا يمنع الإنسان الكبر أو الحياء عن السؤال والعلم فقد قال رسول الله ﷺ: ((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين))[1]. وقد أمر الله بالسؤال لأهل الذكر فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

أي أهل العلم، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم، في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يُخْرِج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، وأفضل أهل الذكر: أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة وأولى من غيرهم بهذا الاسم ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾[3] أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة[4].

قال د. عبدالكريم البكار: (إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى تدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة بدل ما يحصل الآن من الحرص على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم، ولخصوصية خطبة الجمعة فمن الممكن أن يجلس الخطيب دقائق بعد صلاة الجمعة لمناقشة بعض المسائل التي وردت في الخطبة والاطمئنان إلى أنها فهمت على الوجه الصحيح ولسماع وجهات النظر الأخرى)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٩٤.

(٥) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ١٥٥.

الحديث رقم (٢١٥)

٢١٥- وعن عَدِي بن عُمَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه يَقُول: «**مَن اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَل، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**» فقَام إلَيْهِ رجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ، كأَنِّي أَنْظرُ إلَيْهِ، فقال: يا رسول اللَّه اقْبل عني عملَكَ قال: «ومالكَ؟» قال: سَمِعْتُك تقُول كَذَا وَكَذَا، قال: «**وَأَنَا أَقُولُهُ الآن: من اسْتَعْمَلْنَاهُ**[1] **عَلَى عملٍ فلْيجِيء بقَلِيلهِ وَكثِيرِه، فمَا أُوتِي مِنْهُ أَخَذَ ومَا نُهِي عَنْهُ انْتَهَى**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عَدي بن عُمَيْرة: هو عَدي بن عُميرة بن فروة بن زرارة بن الأرقم الكندي كنيته: أبو زرارة.

له ولأخيه العُرْس [بضم العين وسكون الراء] صحبة، فقد وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلما وأقطعهما مسكنهما.

وكان سبب إسلام عَدي أنه كان بأرضهم حبرٌ من اليهود فقال لهم: إني أجد في كتاب الله أن أصحاب الفردوس قومٌ يعبدون ربهم على وجوههم، فمكثوا فترة حتى بلغهم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فتذكر حديث الحبر فخرج إليه صلى الله عليه وسلم فوجده هو ومن معه يسجدون على وجوههم فأسلم.

نزل العراق وسكن الكوفة، وكان مُجلاً لكبار الصحابة لا يقع فيهم ولا يقيم ببلدٍ تنال منهم، لما قتل عثمان بن عفان وجد بعض أهل الكوفة يقعون فيه وينالون منه ويشتمونه، فقال قومه بنو الأرقم: لا نقيم ببلدٍ يشتم فيها عثمان. فانتقلوا إلى الشام حيث أنزلهم معاوية بن أبي سفيان الجزيرة.

لم يرو عَدي إلا اليسير من الحديث. وقد اختلف في وفاته مكانًا وزمانًا: فقيل: مات بالجزيرة. وقيل غير ذلك. وهو والد عدي بن عدي من ثقات التابعين وقد ولي قضاء

---

(١) عند مسلم زيادة: (منكم).

(٢) برقم (١٨٣٣/٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (١١٥٥).

الجزيرة أيام عمر بن عبدالعزيز[١].

غريب الألفاظ:

المخْيَط: أي الإبرة[٢].

الغُلول: أخذ الشيء خُفْيَةً وخيانةً[٣].

الشرح الأدبي

نقتبس من هذا الحديث ومضات من التوجيهات النبوية، وإشعاعات من التعاليم المحمدية.

وهذه الومضات تشرق في آفاق المسؤولية التي يتحملها الولاة والقواد، وأولوا الأمر بصفة عامة ومنهم في عصرنا الحاضر، الولاة والأمراء والمحافظون، ورؤساء المصالح والدواوين الحكومية، والقيام بأعباء هذه المسؤولية تحدد إطار هذه القاعدة المنهجية في سياسة الرعية، والتي قدمها خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين، في قوله: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

ويتوهج هذا الحديث بكثير من الدلالات والأساليب التي تؤطر مسؤولية كل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين في كل زمان وكل مكان، ولذلك يبدأ الحديث بتأصيل هذه القاعدة التي أرساها رسول الله ﷺ محددًا مصير كل من يفرط في الأمانة، وكل من يقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، وكل مسؤول يستغل موقعه ووظيفته استغلالاً مريبًا ويخص نفسه بمخصصات ومزايا لا تعطى لغيره ولا يجد محاسبًا ولا رقيبًا،

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦/٥٥)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٧٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤/١٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٩٩، ٩٠٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥/١٤٧)، والتهذيب (٣/٨٧).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ي ط).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ل ل).

وتشديدًا في العقوبة يصوغ المصطفى ﷺ هذه القاعدة في صيغة الشرط والجواب فيقول: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخْيَطًا فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة"، والتعبير بهذه الصيغة "استعملناه"، يوحي بوجوب القيام بالعمل المنوط بالمكلف به، وحتمية القيام بواجبات هذه المسؤولية، وأداء الحقوق لمستحقيها، ولم يقل الرسول ﷺ: استعملته، لأن الولاية تكون تكليفًا من الأمة وفق تعاليم الكتاب والسنة، فالرسول لم يكلف هذا العامل بمطلب شخصي، ولكنه كلفه بمسؤولية رعاية الأمة، والمحافظة على حقوقها، وقوله "منكم"، يدل على أن العامل والوالي والمسؤول لا بد أن يكون مسلمًا، وأن لا يكون مترفعًا ولا متكبرًا، فالناس في الإسلام كلهم سواسية كأسنان المشط.

وتنكير لفظ "عمل"، يفيد الشمول والعموم: فأى عمل قليل أو كثير يجب أن يقوم به العامل عليه خير قيام، وقوله "فكتمنا مخيطًا فما فوقه"، يدل على أن المخالفة في الشيء الصغير، تعدل في العقوبة ارتكاب الكبائر في هذا المجال الذي يحتم على كل والٍ أن يرعى مصالح الأمة، ولا يستأثر بشيء لنفسه، ولا يقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي، ولا يكتم شيئًا مما جمعه من الزكاة أو الغنائم أو الموارد، ولذلك رمز المصطفى ﷺ إلى قلة الشيء المختلس أو المغتصب أو المسروق أو المنهوب بقوله "مخيطا" وهو الإبرة، وجواب الشرط يأتي محددًا العقوبة في صرامة وحسم مصدرًا بفعل الكينونه، الذي يجسد العقوبة، ويشكل المصير، "كان غلولاً يأتي يوم القيامة"، والغلول: هو إخفاء الشيء وكتمانه، ولكن هذا الذي أخفاه يكون يوم القيامة عنوان فضيحة هذا المختلس، وذلك الغال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1].

والحوار في قلب الحديث بين الرسول ﷺ والأنصاري يعد ثمرة صادقة لهذا التوجيه النبوي، لأن الرجل شعر أنه غير أهل لهذه المسؤولية، وأنه أراد أن يستقيل من عمله لأنه لم يقم بواجبه خير قيام، ويسأله الرسول عن السبب، فيقول: سمعتك تقول:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

كذا وكذا، وهذا تعبير فيه كناية عن أمور كثيرة، يمكن أن تتكرر في كل زمان وكل مكان، ثم يختم الرسول ﷺ حديثه بثلاث جمل شرطية يتوازن فيها العمل مع الجزاء، والجواب مع الشرط، ويحدد ما يجب على كل مسؤول فعله تحديدًا موجزًا واضحًا ويكرر ما بدأ به الحديث تأكيدًا للمعنى، وحرصًا على مصلحة الأمة، من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتى منه أخذ، وما نهى عنه انتهى.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم هدايا العمال وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٢٠٩)، وبَوَّبَ النووي هذا الحديث ونحوه تحت عنوان تحريم هدايا العمال، وقال: وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول، لأنه المطلوب في ولايته وأمانته[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الانقياد للأحكام الشرعية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى الأمانة والحذر من الخيانة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإمام عن أموال الأمة.

سادسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب، والسؤال والجواب:

١- **الترهيب:** حيث جاء في الحديث أن من يكتم شيئًا من أموال المسلمين يأتي به يوم القيامة، ولا شك أن الترهيب من أساليب الدعوة التي لها دور في كف النفس عن الحرام، وأخذها بالحزم، ويبين عواقب الأمور للمدعو.

"إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٢١٩.

الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[١]، والدعاة إلى الله مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه، ومن أدوات الترغيب: بيان فضل ذكر الله وتسبيحه وتحميده وفضل المحافظة على الصلاة، وفضل الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم. ومن أدوات الترهيب التخويف بالله ومن الله وحسابه وعقابه وناره وملائكته وعذاب القبر وسؤاله"[٢].

٢- **السؤال والجواب:** ويظهر من الحديث في قوله: (ومالك؟) والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة يعطي للمدعو فرصة للاستفسار عما يجهل، ومعرفة مدى توافق تصرفاته وأعماله مع الشرع الحنيف.

قال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: "إن مجالس السؤال والجواب لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهُّوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، ذلك أن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا، فإذا كان لديه علم بالأجوبة عليها أجاب، وإلا طلب تأجيل الإجابة حتى يستوثق من الجواب الصحيح"[٣].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) فقه الدعوة إلى الله تعالى ٢/٥٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ (كان غلولاً يأتي به يوم القيامة) وقد نص الشرع الحنيف على حرمة الغلول، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1]، قال السعدي: (والغلول هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان وهو محرم إجماعًا؛ بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية فالغلول من أعظم الذنوب وشر العيوب، ومن غلّ يأت به حامله على ظهره حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة)[2].

وحذر النبي ﷺ من الغلول فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ. فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ. ثُمَّ قَالَ: ((لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ))[3]، قال النووي: (أصل الغلول الخيانة مطلقًا، ثم غلب على الخيانة في الغنيمة، وأجمع المسلمون على تغليظ تحريم الغلول وأنه من الكبائر)[4].

ثالثًا- من واجبات المدعو: الانقياد للأحكام الشرعية:

يتضح هذا من قول الرجل الأنصاري: (يا رسول الله أقبل عني عملك) وذلك بعد ما سمع تحذير النبي ﷺ من الغلول، وهذا شأن المسلم دائمًا سرعة الاستجابة والانقياد لحكم الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5]، وأمر الله بهذه الاستجابة فقال

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٣١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٧.

(٥) سورة النور، آية: ٥١.

سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾(١).

قال ابن كثير: (قال البخاري: استجيبوا، أي: أجيبوا (لما يحييكم) أي: لما يصلحكم. وقال مجاهد: (لما يحييكم)، أي: الحق. وقال قتادة: (لما يحييكم) أي: هو هذا القرآن فيه النجاة والتقاة والحياة. وقال السدي: (لما يحييكم) ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر)(٢).

وقال السعدي في تفسير: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: "إذا دعاكم لما يحييكم" وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللّه. وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللّهَ))(٤).

قال ابن القيم: (وبحسب متابعة الرسول ﷺ تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أنّ بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة)(٥).

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٤/٤ - ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٨٠.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٥٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٥) زاد المعاد ٣٧/١.

وقد بيّن ﷺ أن إيمان المسلم مرتبط بانقياده ومتابعته للرسول ﷺ: ((لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))[١].

قال النووي: (قال الخطابي: لم يرد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع، ولا سبيل إلى قلبه فمعناه: لا تصدق في محبتي حتى تفنى في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. قال ابن بطال: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن به ﷺ استُنقذنا من النار، وهُدينا من الضلال)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى الأمانة والحذر من الخيانة:

حيث قال النبي ﷺ: (من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره) وهذا تنبيه من النبي ﷺ إلى الأمانة وأهميتها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٣]، قال القاسمي: (هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، قال أبو السعود: في تصدير الكلام بكلمة التحقيق، وإظهار الاسم الجليل، وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة، وتأكيد وجوب الامتثال به، والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب يعم المكلفين قاطبة، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد)[٤].

وحذر الله من الخيانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٥]، وجعل الرسول الكريم ﷺ من علامة المنافق خيانة

---

(١) أخرجه البخاري ١٥، ومسلم ٤٤ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢٤٣/٥/٣.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

الأمانة، ففي الحديث: ((آيةُ المُنافِق ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمِنَ خان))[١].

وفي الحث على أداء الأمانة جاء عن يوسف بن ماهك المكي قال: كُنْتُ أكْتُبُ لِفُلاَنٍ نَفقَةَ أيْتَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ فَغَالَطُوهُ بِألْفِ دِرْهَمٍ فأدَّاهَا إلَيْهِمْ فَأدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا. قالَ قُلْتُ: أقْبِضْ الألْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ. قالَ: لاَ. حَدَّثَني أبي أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: ((أدِّ الأمَانَةَ إلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أمنهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأمْوَالِهِمْ))[٣].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: "والأمانة من كمال الإيمان وحسن الإسلام، يقوم عليها أمر السماوات والأرض، وهي محور الدين وامتحان رب العالمين، وبالأمانة يحفظ الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة، والأمين يحبه الله ويحبه الناس، ومن أعظم الصفات الخلقية التي وصف الله بها عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[٤]، والمجتمع الذي تفشو فيه الأمانة مجتمع خير وبركة"[٥].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإمام عن أموال الأمة:

الإمام بحكم موقعه ومنصبه مسؤول ومحاسب عن أموال الأمة ففي الحديث الشريف: ((ألاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ. وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ،

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٥٣٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠١٨).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦٢٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٨).

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤٢٥/٣.

وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))[١]، وفي تفريطه في أموال الناس يكون غاشًا لهم مضيعًا لحقوقهم، وقد جاء في الحديث: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةُ))[٢].

قال النووي: (وفي هذا الحديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم)[٣].

ولا شك أن المناصب أمانة، واستغلالها خيانة، وقد قال الرسول الكريم ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: ((يَا أَبَا ذَرَ إنَّكَ ضَعِيفٌ. وَإنَّهَا أَمَانَةٌ. وَإنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ. إلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))[٤]، وقد حذر النبي ﷺ من استغلال المنصب في جمع مال أو ثروة أو قبول هدية أو رشوة فلما استعمل ابن اللتيبة - رجلاً من الأزد - على الصدقة فجاء بالمال فدفعه إلى النبي ﷺ فقال: هَذَا مَالُكُمْ. وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَفَلاَ قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فَتَنْظُرَ أَيُهْدَىٰ إلَيْكَ أَمْ لاَ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ عُنُقِهِ))[٥]، وهذا يدل على الترهيب الشديد من استغلال المناصب.

سادسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال:

إن الحفاظ على الأموال هدف رئيس من أهداف الدعوة باعتبار أن حفظ المال من الكليات أو الضرورات الخمس التي يؤمر بحفظها والدفاع عنها، قال الشاطبي: (ومجموع الضرورات خمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج، وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين)[٦]، ومن هنا نص

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٥٤، ومسلم ١٨٢٩.
(٢) أخرجه مسلم ١٨٢٩.
(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨٦.
(٤) أخرجه مسلم ١٨٢٥.
(٥) أخرجه مسلم ١٨٣٢.
(٦) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ٨ - ٩.

القرآن على حرمة أكل المال بالباطل، قال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1]، ونص على عقوبة القطع لمن يتطاول على مال الآخرين: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وقال الرسول الكريم ﷺ: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذا))[3]، وواجب الداعية إبراز هذه الأهداف وتعريف الناس بها.

(إن الإسلام الحنيف كما احترم حق الحياة فإنه كذلك احترم حق الملكية واعتبره حقًا مقدسًا، لا يحل لأحد أن يعتدي عليه بأي وجه من الوجوه، ولهذا حرّم السرقة والغصب والربا والغش وتطفيف الكيل والوزن والرشوة، واعتبر كل مال أخذ بغير سبب مشروع أكلاً للمال بالباطل، وقد قضى الإسلام بقطع يد السارق التي من شأنها أن تباشر السرقة، وفي ذلك حكمة بينة، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم. والتضحية بالبعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول، كما أن في قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها، وبهذا تحفظ الأموال وتصان. ومما يؤكد حرص الإسلام على المحافظة على أموال الناس، وتقديسه لهذا الحق أنه هدد الذين يتلاعبون بالمكاييل والموازين بالويل والهلاك، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[4])[5].

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٥، ومسلم ١٦٧٩.

(٤) سورة المطففين، الآيات: ١ - ٣.

(٥) إسلامنا، السيد سابق ص ٢٧٣ - ٢٧٥ بتصرف.

الحديث رقم (٢١٦)

٢١٦- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوْمُ خيْبرَ أقْبل نَفرٌ مِنْ أصْحابِ[١] النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شهِيدٌ، حتَّى مَرُّوا علَى رَجُلٍ، فقالوا: فلانٌ شهِيد. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**كلاَّ إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّها أَوْ عبَاءَةٍ**» رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

خيبر: مجموعة من الحصون تقع شمال المدينة المنورة بـ ١٧٠ كم على الطريق منها إلى الشام فتحت بعد صلح الحديبية مباشرة في أول المحرم ٧هـ مع فَدْك ووادي القُرى وتيماء[٣].

في بُرْدَة: بسبب بُردةٍ، وهي كساءٌ تلبسه الأعراب[٤].

عباءة: كساء عريض يُلبس فوق الثياب[٥].

الشرح الأدبي

إن الغزوات في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم هي تاج الفخار لكل مسلم، وهي التي بسببها وفِّق جندُ المسلمين إلى نشر العقيدة الإسلامية في أرجاء المعمورة، وقد سميت الغزوات بعد ذلك بالفتوحات؛ وفتح مكة هو الفتح الأعظم، وهو الفتح المبين، وهو الذي بشر به الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم. وسورة الفتح لم تزل فيوضاتها تتجلى وتشرق في كل قلب ينطوي على عقيدة خالصة، يتخذ من التوحيد منهجًا وسلوكًا ملتزمًا بخصائص

---

(١) لفظ مسلم: (من صحابة النبي).

(٢) برقم (١١٤/١٨٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠١٣).

(٣) انظر: أطلس الحديث النبوي ١٦٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر د).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ب أ).

التصور الإسلامي.

وغزوة خيبر، من الغزوات التي ظهرت فيها البطولات الإسلامية، والتي لقن فيها المسلمون اليهود دروسًا، وأذاقوهم الويل، وذلك لما قام به بنو قريظة من خيانة للعهد، ونكث للوعود.

وقد خرج النبي ﷺ إلى خيبر في بقية المحرم سنة سبع أو سنة ست من الهجرة، وظل يحاصرها سبع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر من نفس السنة،ولما انصرف من الحديبية، نزلت عليه سورة الفتح فيها بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[1]. يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم.

ولنتأمل هذا الحديث الشريف وما يتضمنه من مشاهد هذه الغزوة التي ارتفع فيها لواء الإسلام، وثبتت راية العقيدة، وارتفع صوت سلمة بن الأكوع بهذه المناجاة، وذلك الدعاء الصاعد من القلب: إذ ينادي:

اللَّهُمَّ! لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ، فِدَاءً لَكَ، مَا اقْتَفَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... إنَّا إذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا

وَبِالصِيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا[2]

والحديث يرصد مشهدًا حواريًا بين رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم حول الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ورأى الصحابة رضي الله عنهم مصارع الشهداء، فشهدوا لهم وقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، ويقرهم الرسول على ذلك، ولفظ "فلان"، كناية عن اسم يُسمَّى به المحدث عنه، والشهداء

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٦٥، ط دار العقيدة للتراث، الاسكندرية.

كانوا كثيرين، وأسماؤهم معروفة في كتب التاريخ والسير، وبطولاتهم مضيئة، ومواقفهم جريئة، ولكن الرسول لم يقر الصحابة رضي الله عنهم على شهادتهم لأحد القتلى، الذين سقطوا صرعى في يوم خيبر، وقال حينما مروا على رجل: فقالوا فلان شهيد: فقال النبي: كلا، أي: انته وانزجر عن هذا القول، والحكم له بالشهادة.

ويوضح المصطفى ﷺ السبب في عدم فوز هذا الرجل بالشهادة: ولم يسم الرجل: حرصاً على عدم فضح أمره بعد موته، والسبب أنه: كتم شيئًا مما جاءه من الغنائم حيث أخفى: بردة أو أخفى عباءة، وجزاؤه أن الرسول شاهد مصيره وهو النار وبئس المصير وتأكيدًا لهذا المصير: بدأ الرسول عبارته بالتأكيد وياء المتكلم: ولم يقل: هو في النار، وإنما قال: رأيته في النار، نعوذ بالله من ذلك ونسأله الفوز والنجاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة خيبر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثًا: من مهام الداعية: تصحيح ما التبس على الناس من أخطاء.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم التسرع في إصدار الأحكام.

خامسًا: من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن مصير أحد الناس.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول وخطر الخيانة.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الزجر والترهيب.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة خيبر:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان يوم خيبر "وقد كانت غزوة خيبر في أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مئة ميل شمال المدينة جهة الشام، وكان مع النبي ﷺ في هذه الغزوة ألف وأربع مئة مقاتل ما بين فارس وراجل)[1].

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ٣٥٨.

قال ابن اسحاق: (فلما أشرف النبي ﷺ على خيبر قال لأصحابه قفوا، ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا باسم الله)[(١)].

"وقد أتى رسول الله ﷺ خيبر ليلاً وكان إذا أتى قومًا بليل لم يُغر بهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود "بمساحيهم، ومكاتِلِهم"[(٢)]، فلما رأوه قالوا: محمد والله، "محمد والخميس"[(٣)]، فقال النبي ﷺ خربت خيبر، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين"[(٤)].

قال ابن سعد: (فوعظ رسول الله ﷺ الناس، وفرق بينهم الرايات، وابتدأت المعارك بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر – وقد تحصنوا بحصونهم- وأخذ المسلمون يفتحونها حصنًا حصنًا: إلا الحصنين الأخيرين: الوطيح، والسُّلالم، فقد حاصرهما رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة)[(٥)].

وأخرج البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: ((لأُعطينَّ هذهِ الرايةَ غدًا رجلاً يَفتحُ اللهُ على يديه، يُحبُّ اللّهَ ورسولَهُ ويحبُّه اللّهُ ورسولُه. قال: فبات الناسُ يدوكون لَيلتهم: أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غَدوا على رسولِ اللّه ﷺ كلُّهم يَرجو أن يُعطاها، فقال: أينَ عليُّ بن أبي طالبٍ؟ فقيل: هوَ يا رسولَ اللّه يَشتكي عينَيه. قال: فأرسَلوا إليه فأتيَ به فبصقَ رسولُ اللّه ﷺ في عينيه ودعا له فبرأَ حتى كأنْ لم يكنْ به وَجَع، فأعطاهُ الرايةَ. فقال عليّ: يا رسولَ اللّه،

---

(١) أخرجه ابن اسحاق في السيرة النبوية، ٢٧٦/٣ وإسناده ضعيف.

(٢) قوله: بمساحيهم: بمهملتين جمع مسحاه وهي من آلات الحرث، ومكاتلهم: جمع مكتل وهو القفة الكبيرة التي يحول فيها التراب وغيره. فتح الباري، ابن حجر، ٥٣٥/٧.

(٣) قوله محمد والخميس: أي محمد والجيش. فتح الباري، ابن حجر، ٥٣٥/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٤١٩٧. ومسلم ١٣٦٥.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٠٦/٢، وفقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد البوطي، ٣٥٩.

أُقاتِلُهم حتى يكونوا مِثلنا. فقال ﷺ: انفُذْ على رِسلك حتى تنزلَ بساحَتهم، ثمَّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يَجبُ عليهم من حقِّ اللّهِ فيه، فوالله لأنْ يَهديَ الله بك رجُلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[1].

قال سلمة رضي الله عنه: ((... فأعطاه ففتح عليه))[2].

وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من الأموال.

(أما ذانك الحصنان، فقد ظل المسلمون يحاصرونهما، حتى إذا أيقن من فيهما بالهلاك، سألوه ﷺ أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال، فوافقهم رسول الله ﷺ على ذلك.

ثم إنهم سألوا رسول الله ﷺ أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعونها لأنهم أعرف بأرضهم وأعمر لها. ولهم شطر ما يخرج منها، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال لهم: عَلَى أنَّا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم)[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد أسلوب الإخبار في الحديث من قول الراوي رضي الله عنه: "أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ" والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على تبليغ دعوته، لاسيما إن صادف ذلك إخلاصًا وصدقًا مما يساعد على نفاذ ما يدعو إليه ويخبر عنه إلى قلوب المدعوين وفي ذلك عظيم الأجر والفائدة.

ثالثًا- من مهام الداعية: تصحيح ما التبس على الناس من أخطاء:

يتضح ذلك فيما ورد في الحديث من قول النبي ﷺ: "كلا إني رأيته في النار في بردة غلها"، وبيّن ابن عثيمين: (أن قول النبي ﷺ: "كلا" يعني أنه ليس شهيدًا لأنه غلَّ هذا الشيء البسيط فأحبط جهاده وصار في النار، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

(١) أخرجه البخاري ٤٢١٠، ومسلم ٢٤٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٠٩، ومسلم ٢٤٠٧.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٨٦/٣.

يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[١]. وفي ذلك تصحيح لما التبس على الناس من إطلاق لفظ الشهيد على كل من قتل في معركة بين المسلمين والكفار)[٢]، فعلى الداعية أن يصحح ما التبس على الناس من أخطاء مقتديًا في ذلك بالنبي ﷺ وممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[٣].

رابعًا- من آداب المدعو: عدم التسرع في إصدار الأحكام:

هذا ما يظهر من سياق الحديث، وقد بين ابن عثيمين ذلك فقال: إن في هذا الحديث دليل على أنه لا ينبغي لنا أن نحكم على شخص بأنه شهيد، لاحتمال أن يكون غل شيئًا من الغنائم أو الفيء ولو غل قرشًا واحدًا، ولو مسمارًا زال عنه اسم الشهادة، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صواب، بأن ينوي بذلك الحمية أو أن يُرى مكانه"[٤]، فعلى المدعو ألا يتسرع في إصدار الأحكام علينا أن نفرق بين الحكم عليه والشهادة منا له.

خامسًا- من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن مصير أحد الناس:

يتضح ذلك في قوله ﷺ "كلا إني رأيته في النار" وهذا من دلائل نبوته ﷺ ومما يؤكد ذلك قول سهل بن سعد رضي الله عنه: ((إن رسولَ الله ﷺ الْتقى هو والمشركونَ فاقتَتَلوا، فلمّا مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عسكرِهِ ومالَ الآخرون إلى عسكرِهم، وفي أصحابِ رسولِ الله ﷺ رجُلٌ لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّة إلا اتَّبَعَها يَضرِبُها بسيفِهِ، فقالوا: ما أجْزَأَ منّا اليومَ أَحَدٌ كما أجزَأَ فلان، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنه من أَهلِ النارِ»، فقال رجلٌ منَ القَومِ: أَنا صاحِبهُ، قال فخرَج معهُ كلَّما وَقَفَ وقَفَ معهُ، وإذا أسرعَ أسرَع معهُ، قال: فجُرِحَ الرجُلُ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوَضَعَ نصلَ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٠.

سيفهِ في الأرضِ وذُبابَهُ بينَ ثدْيَيهِ، ثمَّ تحامَلَ على سيفِهِ فقتلَ نَفسَه، فخرجَ الرجُلُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: أشهد أنكَ رسولُ اللهِ، قال: «وما ذاكَ؟» قال: الرجلُ الذي ذكرتَ آنفا أنهُ مِن أهلِ النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم بهِ، فخرجتُ في طلبِهِ، ثمَّ جُرح جُرحًا شديدًا، فاستعجَلَ الموتَ فوَضعَ نَصلَ سيفهِ في الأرض وذُبابهُ بينَ ثَديَيْهِ ثمَّ تَحامَلَ عليهِ فقتَل نَفسَهُ. فقال رسول اللهِ ﷺ عند ذلك: «إنَّ الرجُل ليَعملُ عملَ أَهلِ الجنَّةِ فيما يبْدو للناسِ وهو من أهلِ النار، وإنَّ الرجُلَ ليَعملُ عملَ أَهلِ النارِ فيما يَبدو للناسِ وهو من أهلِ الجنة))[1] وفي ذلك بيان على نبوته ﷺ.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الغلول وخطر الخيانة:

هذا ما ظهر في الحديث من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة". قال النووي: (إن الغلول هو الخيانة في الغنيمة خاصة، وقال غيره هى الخيانة في كل شيء)[2]، وقد رهب الحق تبارك وتعالى من ذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

قال ابن كثير: (إن هذا تهديد شديد ووعيد أكيد)[4]، فالآية بينت عظم جرم الغلول من الغنيمة فهو محرم تحريمًا قاطعًا، لأنه سرقة في مال الله، وبينت أن النبي ﷺ لا يمكن أن يغل هو، أو يقر غلول أحد، أو يسكت عنه، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية، وإذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة لأن مال الغنائم ليس في حرز مثله، ولأن المحارب له شبة حق فيه، والحدود تدرأ بالشبهات، إلا أن الله شدد في عقوبته في الآخرة وقد بين النبي ﷺ في الحديث شدة العقوبة بقوله: "كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة" فهذا غلول مهما تكون قيمته[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٩٨، ومسلم ١١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥١/٢.

(٥) انظر خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، ١٠٨٢/٢.

قال السعدي رحمه الله: الغلول هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول- كما علمت من أعظم الذنوب وشر العيوب[(١)]، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في قوله: "إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة"[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قام فينا النبيُّ ﷺ فذكرَ الغُلولَ فعظَّمهُ وعظَّم أمرَه، قال: لا أُلفينَّ أحدَكم يومَ القيامةِ على رقَبتهِ فرَس لهُ حَمْحَمة، يقول: يا رسولَ اللهِ أغِثني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتُك، وعلى رقبتهِ بعير لهُ رُغاءُ يقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقول: لا أملِك لكَ شيئًا، قد أبلغتك. وعلى رقبتهِ صامِت فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتك. أو على رقبتهِ رقاع تخفقُ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقول: لا أملكُ لكَ شيئًا قد أبلغتك"[(٣)]، وفي ذلك بيان عظيم على حرمة الغلول والخيانة في الأموال العامة.

سابعًا- من أساليب الدعوة: الزجر والترهيب:

الزجر من الأساليب الدعوية المهمة في لفت انتباه المدعوين إلى ما صدر عنهم من أخطاء، فضلاً عن استحضار أذهانهم لمعرفة ما يصح فعله، وقد ورد الزجر كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ: "كلا"، أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار"، "ومما لا شك فيه أن الترهيب من أنجح الأساليب الدعوية للنفس البشرية في كونها قد جبلت على النفور من الضيق والعذاب، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[(٤)]، وهذا ما ورد في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٢.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٣٣٠ رقم ٢٢٧٩٥، وقال محققو المسند: حديث حسن ٣٧/٤٥٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٧٣، ومسلم ٩٨٧، ١٨٣١.

(٤) انظر: أصول الدعوة، د.عبدالكريم زيدان، ٤٢١.

الحديث من ترهيبه ﷺ من الغلول وبيان أن عاقبة صاحبه في النار، وذلك من قوله ﷺ: "إني رأيته في النار".

الحديث رقم (٢١٧)

٢١٧- وعن أَبي قَتَادَةَ الْحارثِ بنِ ربعي ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَام فِيهمْ، فذَكَرَ لَهُمْ: أَنَّ الْجِهادَ فِي سبيلِ اللَّه، وَالإِيمانَ باللَّه أَفْضلُ الأَعْمالِ، فَقَامَ رَجلٌ فقال: يا رسول اللَّه أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبيلِ اللَّه، تُكَفَّرُ عنِي خَطَايَايَ؟ فقال لَهُ رسولُ اللَّه ﷺ: «**نعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبيلِ اللَّه وأَنْتَ صَابرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيرَ مُدْبِرٍ**» ثُمَّ قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيْف قُلْتَ؟**» قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبيل اللَّه، أَتُكَفَّرُ عني خَطَاياي؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**نعَمْ، وأَنْت صابرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلاَّ الدَّيْن فَإِنَّ جِبْرِيلَ قال لِي ذلِكَ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: هو أبو قتادة بن رِبْعي الأنصاري الخزرجي، مختلفٌ في اسمه، والمشهور أنه الحارث فارس رسول الله ﷺ[٢] شهد أحدًا وشهد ما بعدها، وكان له بلاء كبير في المغازي والمعارك، فقد كان رجل المهام الخاصة الصعبة، وكان يختار أشد الأعداء قوة يبادرهم فيقتلهم، لذا استحق أن يقول عنه النبي ﷺ في غزوة ذي قَرَدٍ [اسم مكان]: ((كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة))[٣]. ولما رأى يوم حنين رجلاً من المشركين قد علا المسلمين قصده، قال: فاستدرت له حتى أتيته من ورائه فضربته بالسيف على حبل عاتقه[٤] فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني... الحديث[٥].

وكان يحرس النبي ﷺ ويرعاه ويكلؤه في السفر، فقد خرج معه ﷺ فقال:

---

(١) برقم (١٨٨٥/١١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠٢٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم ١٨٠٧، ١٣٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٠٧، ١٣٢.

(٤) حبل عاتقه: هو ما بين العنق والكتف قاله النووي شرح صحيح مسلم، الإمام النووي (٥١/٦).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (١٨٩٦) والبخاري (٣١٤٢) ومسلم (٤١-١٧٥١).

بينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابْهَارَّ الليل [أي انتصف] وأنا إلى جنبه فنعس رسول الله ﷺ فمال عن راحلته فأتيتهُ فدعمته[١] من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى تهوّر الليل [أي ذهب أكثره] مال عن راحلته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأولين حتى كاد ينجفل [أي يسقط] فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: حفظك الله بما حفظت به نبيّه[٢] وفي رواية: حفظك الله كما حفظتنا منذ الليلة لا أُرانا إلا قد شققنا عليك[٣].

وفي عهد الخلفاء ظلّ رجلَ المهامِ الجسيمة، فقد بعثه عمر بن الخطاب في جيش لقتال الفرس، فقتل ملكهم بيده.

وكان بعض الصحابة يرونه أفضل منهم وأخير، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أخبرني من هو خير مني -أبوقتادة- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: ((تقتلك الفئة الباغية))[٤]، ولما وقعت الفتنة قاتل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وولاه على مكة.

وقد اختلف في وفاته: فقيل: توفي بالكوفة ٣٨هـ وصلّى عليه عليٌّ. وقيل: ٤٠. وقيل: توفي بالمدينة ٥٤. ورجح الحافظ ابن حجر أنه متأخر عن وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٥].

---

(١) أي أقمت ميله من النوم وصرت تحته كالدعامة للبناء فوقها. شرح صحيح مسلم، للنووي (١٥٧/٣).

(٢) أخرجه مسلم (٣١١-٦٨١).

(٣) أخرجه أحمد ٣٠٢/٥ رقم ٢٢٥٧٥، وقال محققو المسند: رجاله ثقات ٢٦٧/٣٧.

(٤) أخرجه مسلم (٧٠-٢٩١٥).

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٥/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٤٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٤٤/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٥٣٦، والسير (٤٤٩/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٠٢/٨)، والتهذيب (٥٧٣/٤)، و الأعلام (١٥٤/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢٠٨٠/٣).

غريب الألفاظ:

تكفِّر: تستر وتغفر[(١)].

محتسب: مبادر إلى تحصيل الأجر بالتسليم والصبر[(٢)].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يجمع بين دقة المعنى وسهولة اللفظ، وقوة الإقناع، وحسن الإمتاع، وكل حديث يتزيَّ بزيٍّ بياني مشوق، ومع تعدد الأحاديث في المعنى الواحد فإن القارئ لا يشعر بالملل، ولا يتسرب إليه أي خاطر من شبهة التكرار المعيبة، ولكنه التكرار المفيد، ففي كل حديث يشرق معنى جديد، ويتوهج مقصد فريد، وذلك ينشأ من تجديد في الصياغة، ومن تنويع في الأساليب، ومن إضافة بعض الكلمات والجمل والصور التي تكسب الحديث إلقاءً صادقًا، وتأثيرًا شائقًا ، وإقناعًا فائقًا.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي يقدم درسًا في قيمة الجهاد في الإسلام، ومكانة الشهداء عند الله وعند الناس، وأثر هذه القيمة في غرس الإحساس بالإباء والعزة في نفس كل مسلم، والدفع به إلى الدفاع عن عقيدته ونفسه وماله وعرضه ووطنه، وكل ما يقوى هذا الدين، ويحفظ له مكانته بين العالمين، وأول ظاهرة أسلوبية تدعو للتأمل والتفكر: هي ظاهرة الحوار، فالحديث حوار واقع بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة رضي الله عنهم، وهذا الحوار يفصح عن تأصيل المنهج التربوي في الإسلام، وعن اتساع صدر رسول الله ﷺ لكل التساؤلات والاستفسارات: لأن إجابته تشريع، ورأيه حكم، وإتباع آرائه غنم، ومخالفتها غرم، والحوار كان في سياق خطبة من خطب الرسول ﷺ، وكأن الحوار أصبح جزءًا من الخطبة، ولم يعترض الرسول ﷺ: لأن المقام مقام تعليم وتشريع، وليس مقام إنشاء وتقريع.

وللراوي دور في توصيل كلمات رسول الله ﷺ وقوله: "قام فيهم" ترشد إلى أن

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

(٢) المرجع السابق في (ح س ب).

المقام كان للخطابة، والراوي تتسق روايته عن قيمة الجهاد مع سماته الشخصية فهو فارس رسول الله ﷺ، كما يقول العلماء، والجملة التي رواها الحارث بن ربعى في بداية الحديث جاءت في إطار التوكيد وهى جملة اسمية: ثابتة الدلالة في أن الجهاد والإيمان بالله أفضل الأعمال وقيل على تقديره من أفضل الأعمال.

وتبدأ المحاورة بين أحد الصحابة رضي الله عنهم وبين رسول الله ﷺ حول علاقة الجهاد بتكفير الخطايا، لأن الرجل ظن أن المذنب لا يجاهد، أو لا يقبل منه جهاده إذا ارتكب خطأ، ولكن الحق سبحانه يفتح باب التوبة لكل مسلم، يعود إلى حديقة الإيمان، والتوبة هنا ليست قولاً فارغًا من المضمون العملي، والدليل الحركي، ولكنها توبة عملية يبرهن عليها الاستشهاد في سبيل الله، والدفاع عن راية الإسلام، وجاء سؤال الرجل في صيغة الجواب والشرط التي صدرت بالاستفهام وصدر جوابها بالاستفهام الحقيقي الذي يتوج بما يتمناه الرجل وهو أن تكفر عنه خطاياه إن قتل في سبيل الله، وبني الفعل "تكفر" للمعلوم، لأن الفاعل غير مجهول لأي مؤمن: فالله غافر الذنب وقابل التوب ولا يكفر الذنوب إلا الله.

ويُطمئن رسول الله ﷺ هذا الصحابي المشوق للجهاد والاستشهاد والتوبة: ولكن مواجهة الأعداء، والإقدام على الاستشهاد له شروط وهى: الصبر والاحتساب، والإقبال، وعدم الإدبار، وهذه الصفات المطلوبة جاءت في صيغة اسم الفاعل (صابر – محتسب – مقبل – غير مدبر) حتى يتأكد صدق النية، والقيام الحقيقي بالفعل، ويتكرر الحوار مرة ثانية، وتأتي الإجابة مطمئنة ولكنها تشير إلى ضرورة رد الحقوق وقضاء الديون.

فقه الحديث

قال ابن قدامة في المغني: (ومن عليه دَيْن حالّ أو مؤجل لم يجز له الخروج إلى الغزو إلا بإذن غريمه، إلا أن يترك وفاءً أو يقيم به كفيلاً، أو يوثقهِ بَرهْنٍ، وبهذا قال الشافعي ورخص مالك في الغزو لمن لا يقدر على قضاء دينه. لأنه لا تتوجه المطالبة به ولا حبسه من أجله، فلم يمنع من الغزو كما لو لم يكن عليه دين. ولنا أن الجهاد

نقصد منه الشهادة التي تفوت بها النفس، فيفوت الحق بفواتها، وقد ورد أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا تكفر عني خطاياي؟ قال: ((نعم إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك)) رواه مسلم[1].

وأما إذا تعيّن الجهاد فلا إذن لغريمه، لأنه تعلّق بعينه، فكان مقدمًا على ما في ذمته كسائر فروض الأعيان، ولكن يستحب له أن لا يتعرض لمظان القتل من المبارزة والوقوف في أول المقاتلة، لأن فيه تقريرًا بتفويت الحق، وإن ترك وفاءً أو أقام به كفيلاً فله الغزو بغير إذن. نص عليه أحمد، في من ترك وفاءً، لأن عبدالله بن حرام أبا جابر بن عبدالله خرج إلى أُحُدٍ وعليه دين كثير فاستشهد وقضاه عنه ابنه بعلم النبي ﷺ ولم يذمّه النبي ﷺ على ذلك ولم ينكر فعله بل مدحه، وقال: ((ما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه))[2] وقال لابن جابر: ((أشعرت أن الله أحيا أباك وكلّمه كفاحًا[3]))[4].

---

(١) أخرجه مسلم ١١٧/١٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٣) كفاحًا: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ح)، والحديث أخرجه الترمذي ٣٠١٠، و ابن ماجه ١٩٠، ٢٨٠٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٤٠٨).

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٧/١٣-٢٨، وانظر: اختلاف الفقهاء في ذلك في (٤٤١) رد المحتار على الدر المختار المسمى بـ "حاشية ابن عابدين"، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٢١/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٧٥/٢، وجواهر الإكليل شرح مختصر خليل، صالح عبدالسميع الآبي الأزهري ٢٥٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٥٦/٨، ٥٧، وروضة الطالبين ٢١٤/١٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٥/٦-١٣٦).

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الجهاد في سبيل الله والإيمان به عز وجل.

ثالثًا: من صفات الداعية: دلالة المدعوين وإرشادهم لما ينفعهم.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.. والاستدراك.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: إخلاص النية لله تعالى في الجهاد.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على أداء الدين.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

إن مما يستنبط من هذا الحديث الخطبة، حيث وردت الإشارة إليها في قول الراوي: "إن رسول الله ﷺ قام فيهم، فذكر لهم"، (والخطبة من وسائل الدعوة المهمة التي يستطيع الداعية من خلالها تبليغ دعوته للمدعوين بشكل مباشر فضلاً عن أنها أداة الدعوة الإسلامية الأولى لاستنهاض الهمم، والحث على الفضائل فهي أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس، وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته، وعظيم جدواه)[1].

وعلى الداعية في خطبته مراعاة بعض الأمور المهمة منها: الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتطبيقات العملية لها من قِبل الرسول الكريم والرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم- والصحابة الكرام رضي الله عنهم، فإن ذكر التطبيق يجعل معنى الآية والحديث مشهودًا محسوسًا.

- يستعين بالقصص الواردة في الكتاب والسنة ولا بأس من تصوير المعاني بشكل

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها وسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤١٩، وانظر: الدعوة الإسلامية "الوسائل والأساليب"، محمد خير رمضان، ص ١٠٦.

قصصي وضرب الأمثال.

-أن لا يطيل في الخطبة إلا إذا اقتضت الضرورة إطالتها.

-أن يكون كلام الداعي بسيطًا واضحًا لأن الذين يسمعونه ليسوا في مستوى واحد من العلم والقدرة على فهم الخطاب، فإذا اختار الأسلوب البسيط الواضح والعبارات القصيرة انتفع بها الجميع وفهمها الجميع.

-على الداعية أيضًا في خطبته أن لا يسرع في كلامه، ولا يرفع صوته بلا حاجة[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الجهاد في سبيل الله والإيمان به عز وجل:

لقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك من قوله ﷺ: (إن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال)، وفي بيان ذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٢)].

قال السعدي: (هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجلّ مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل معتبر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: (تؤمنون بالله ورسوله).

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح التي من أجلّها الجهاد في سبيله، فلهذا قال: (وتجاهدون في

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٧٤-٤٧٦.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ - ١٢.

سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)، بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد دين الله، وإعلاء كلمته.

وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك وإن كان كريهًا للنفوس، شاقًا عليها، فإنه (خير لكم إن كنتم تعلمون)، فإنه فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر، وانشراحه.

والخير الأخروي، بالفوز بثواب الله، والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: (يغفر لكم ذنوبكم) وهو شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله، والجهاد في سبيله مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

(ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار)، أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها كل من كل الثمرات.

(ومساكن طيبة في جنات عدن)، أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة.

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءآهم أهل الجنة، كما يُتَرَاءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي، أو الغربي.

وحتى إن بناء الجنة بعضه من لَبِنِ ذهب، وبعضه من لَبِنِ فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد، والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقرّ به أعينهم.

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه، ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه.

وتبارك الجليل الجميل، التي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما

يبهر عقول الخلق، ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، الذي من جملتها، أنه لو رأى العباد الجنة، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنأهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وفرحها بترحها.

وسميت جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدًا، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، هو الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكر بقوله: (وأخرى تحبونها)، أي: يحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: (نصر من الله) لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

(وفتح قريب) تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين)[1].

ثالثًا- من صفات الداعية: دلالة المدعوين وإرشادهم لما ينفعهم:

هذا ما يستفاد من نص الحديث في دلالته ﷺ على الخير وإرشاده المدعوين لما فيه النفع والصلاح لهم في الدنيا والآخرة، وذلك في بيانه ﷺ لأفضل الأعمال، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[2].

وحثّ النبي ﷺ على ذلك فقال: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))[3]، وفي ذلك عظيم الأجر والفائدة.

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستفهام عما أشكل عليه:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قول الراوي: (فقام رجل فقال: يا رسول الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٩٧ - ٧٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطايا؟) وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالاستفهام عما أشكل وخفي عن المرء حتى يكون على بصيرة من دينه، فيعبد الله على علم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

قال السعدي: (إن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم في جميع الحوادث وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجهل من التبعة، فدلّ على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال)[2].

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والاستدراك:

إن السؤال والجواب والاستدراك من الأساليب الدعوية التي تعمل على لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة ما يكون من جواب وما يعقب الاستدراك من بيان، وقد ورد أسلوب السؤال والجواب في الحديث من قول السائل: (أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟) فقال له رسول الله ﷺ: (نعم... إلخ) وقد ورد أسلوب الاستدراك في الحديث من قوله ﷺ: (كيف قلت؟).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: إخلاص النية لله تعالى في الجهاد:

(النية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها. والنبي ﷺ قد قال كلمتين كفتا وشفتا، وتحتهما كنوز العلم وهما قوله: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى))[3]، ثم بيّن في الجملة الثانية أن العامل ليس من له عمله إلا ما نواه. وهذا يعم العبادات والمعاملات، والأيمان، والنذور، وسائر العقود والأفعال)[4].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ١، ومسلم ١٩٠٧.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ٦٠٠.

وهذا ما أكده النبي ﷺ في الحديث من قوله: "وأنت صابر محتسب"، قال القاضي عياض: (وقوله للذي سأله في تكفير خطاياه إن قتل في سبيل الله، قال: "نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر" فيه: أن الأجر في ذلك لمن صدقت نيته، واحتسب أجره ولم يقاتل حمية، ولا طلب دنيا، ولا طلب ذكر وثناء، وأن من قُتِل مُدْبرًا - أي فارًا- فإنه ليس له من هذا الأجر شيء)[١].

وقال النووي: (والمحتسب هو المخلص لله تعالى فإن قاتل لعصبية أو لغنيمة أو لصيتٍ أو نحو ذلك فليس له هذا الثواب ولا غيره)[٢].

وهذا ما أكده النبي ﷺ، فعن أبي موسى رضي الله عنه: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: الرجُلُ يُقاتلُ للمَغنم، والرجُلُ يُقاتلُ للذِّكر، والرَّجلُ يقاتلُ ليُرَى مكانهُ، فمَنْ في سبيلِ الله؟ قال: ((مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ الله))[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ، وَهُوَ يُرِيدُ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: ((لاَ أَجْرَ لَهُ))[٤].

وفي ذلك بيان على أهمية إخلاص النية لله تعالى في الجهاد حتى ينال المرء عظيم الثواب من الله.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٠٣/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥١٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٦)

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله:

لقد ورد في هذا الحديث ما يدل على فضل الشهادة في سبيل الله في قول الراوي: (فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: (نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر)، قال النووي: (وفي الحديث هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياه كلها إلا حقوق الآدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة وهو أن يقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر)[1].

وقد بيّن النبي ﷺ عِظم فضل الشهادة في سبيل الله فقال: ((إنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ أو شَجَرِ الْجَنَّةِ))[2]، وقال ﷺ: ((للشَّهِيدِ عندَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ ويرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ويُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ على رأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ منها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها، ويُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وسبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ (الْعِينِ)، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أقَارِبِهِ))[3].

فالشهادة في سبيل الله تعالى من أسمى الغايات وأجلّ الأمنيات، وحري بالمرء أن تتوق نفسه لنيلها، وأن يحدّث قلبه بطلبها، لعل الله بكرمه عليه ومنته أن يكرمه بها، فإن وجد اللهُ تعالى من عبده صدقًا وعزمًا في ذلك، بلّغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ))[4]، وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ))[5]. قال النووي: (والمعنى أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء، وإن كان على

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٦٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي ١٦٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٠٨.

(٥) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة، واستحباب نية الخير) [١].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على أداء الدين:

لقد أشار الحديث إلى عظم ذلك الأمر في قوله ﷺ: (نعم وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين)، قال القاضي عياض: (وقوله: "إلا الدين" فيه تنبيه على أن حقوق الآدميين والتبعات التي للعباد لا تكفرها الأعمال الصالحة، وإنما تكفر ما بين العبد وربه، ويكون هذا فيمن له بقضاء ما عليه من الدين وأتلفه على صاحبه عن علم أو عزة من ذمته وملائه، واستدانة في غير واجب، وتحذيرًا وتشديدًا لمن يسارع لإتلاف أموال الناس بهذا الوجه)[٢]. (وقد بين الحق تبارك وتعالى عظم هذا الأمر فكانت أطول آية في كتاب الله آية الدين وقد أمر فيها -سبحانه وتعالى- بكتابته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾[٣]، لما في ذلك من حفظ للحقوق)[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية أداء الدين، وقد أشار ابن عثيمين (إلى أن الحديث يدل على أن الشهادة إذا قاتل الإنسان في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، فإن ذلك يكفر عنه خطيئاته وسيئاته إلا الدّين، إذا كان عليه دَيْن فلا يسقط بالشهادة لأنه حق آدمي، وحق الآدمي لا بد من وفائه)[٥].

وفي تأكيد ذلك قال محمد بن جحش: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدًا حَيْثُ تُوضَعُ الْجَنَائِزُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ قِبَلَ السَّمَاءِ، ثُمَّ خَفَضَ بَصَرَهُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقَالَ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أُنْزِلَ مِنَ التَّشْدِيدِ)). قَالَ: فَعَرَفْنَا وَسَكَتْنَا حَتَّى إِذَا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٠٢/٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٢١/١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٩٨.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٥١/١.

كَانَ الْغَدُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: مَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نَزَلَ؟ قَالَ: ((فِي الدَّيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُتِلَ رَجُلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ عَاشَ، ثُمَّ قُتِلَ، ثُمَّ عَاشَ، ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى دَيْنُهُ))[1].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٤١٢ رقم ٢٢٥٩، وقال: حديث صحيح الإسناد.

الحديث رقم (٢١٨)

٢١٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «أَتَدْرُون من الْمُفْلِسُ؟» قالُوا: الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقيامةِ بِصلاةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويأْتِي وقَدْ شَتَمَ هذا، وقذَف هذَا وَأَكَلَ مالَ هَذَا، وسفَكَ دَم هذَا، وَضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذَا مِنْ حسَنَاتِهِ، وهَذا مِن حسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حسناته قَبْلَ أَنْ يقْضِيَ مَا علَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ علَيْه، ثُمَّ طُرِح في النَّارِ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

المتاع: كل ما يُنتفع به ويُرغب في اقتنائه، كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة ونحو ذلك[2].

سفك: سفك الدماء: الإراقة والإجراء لكل مائع، والمقصود: القتل وإزهاق الأنفس والاعتداء[3].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يعرض لنماذج بشرية تعيش في ازدواجية سلوكية، ومفارقة حياتية، فهم يظنون أن العبادة محصورة في زمانها ومكانها، ووقت أدائها، وهم في انفصال حقيقي بين أداء عبادتهم وإيقاع حياتهم فالصلاة لديهم أقوال وأفعال: مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، ولكن في معترك الحياة يفتقدون ثمرة الصلاة، ولا يتورعون عن ارتكاب الفحشاء والمنكر، وهم لا يدركون القاعدة الإسلامية التي

(١) برقم (٢٥٨١/٥٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢٨٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ت ع).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ف ك).

صاغها رسول الله ﷺ في قوله موضحًا حقيقة المنهج الإسلامي في ضرورة الارتباط بين العبادة والسلوك "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"، وكذلك الصيام ليس مجرد إمساك عن الطعام والشراب، ولكن اللسان يصوم، والعين تصوم، واليد تصوم، وكل جوارح الإنسان تصوم: أى تمسك عن اقتراف الآثام، وارتكاب المحرمات، والابتعاد عن الإضرار بالمسلمين وغيرهم من أهل الكتاب الذميين، وكذلك الزكاة ليست مقدارًا من المال يدفع في غياب النية الصالحة، وفي غياب السلوك الرشيد القويم.

وفي هذا الجو المشحون بهذه المفارقات، والسلوكيات المرفوضة، وحالة الازدواج التي تسيطر على حياة كثير من المسلمين وهم في غفلتهم سادرون، وفي ظنونهم لاهون، وعن الحقيقة الباهرة معرضون!! تشرق دلالات هذا الحديث الشريف، الذي يبدأ بسؤال حقيقي وإرشادي من رسول الله ﷺ، حيث يقول لأصحابه محذرًا ومنبهًا "أتدرون من المفلس"، وهذا السؤال فيه تشويق يشد السامع ويدعوه إلى الانتباه، والبحث عن الإجابة الصحيحة، وقد أجاب الصحابة رضي الله عنهم بما يعرفون من أمور الدنيا المشاهدة والمحسة، ومن خبراتهم وتجاربهم الحياتية، ولكن إجابة رسول الله ﷺ جاءت على غير ما يتوقعون، فالمفلس حسب المنظور المادي، هو الفقير الذي لا درهم له ولا متاع، ولكن هذا التوصيف للمفلس لا يعد في المنظور الإيماني، ولا في التصور الإسلامي إفلاسًا: لأن الفقير قد يكون غنيًا في نفسه، قانعًا برزقه، متمتعًا بنعم كثيرة غير المال، قد أنعم الله عليه بها مثل الصحة، وراحة البال، ونجابة الأبناء وحب الناس، والبركة في الرزق، والقناعة بالقليل، وليس كل ذي مال غنيًا في نفسه، متمتعًا بالسكينة والرضا، بل يظل بعضهم في حاجة إلى المزيد، وفقره بين عينيه لا يقنع بما حصله من مكاسب، بل يطمع في تحصيل المزيد من الرغائب، وبعض الناس يعلن إفلاسه وهو لا يدري، فهو يعيش في ازدواجية سلوكية بين عبادته وعمله، إنه دائم العبادة، ولكنه في غياب عن تطبيقها والانتفاع بثمارها فهو يصلي ولا ينهي عن الفحشاء والمنكر، وهو يزكي ويصوم، ولكن لا يتورع ولا يطهر جوارحه، وتظل حياته مرآة منكسرة،

وعلاقته بالآخرين مشوهة لأنه لا يتوانى عن الشتم والقذف وسفك الدماء، وأكل أموال الناس بالباطل.

وهذه الصورة السلبية للمسلم في حياته قُدمت في إطار أسلوبي مشحون بكثير من طاقات التأثير والإقناع ومنها السؤال والجواب، في بداية الحديث، والتأكيد في صدر إجابة رسول الله ﷺ، وتكرار اسم الإشارة ست مرات لتحديد الطوائف الذين ظلمهم بسلوكياته الفاسدة، وكذلك توالي الأفعال الماضية في سياق توصيف الحالة التي يأتي عليها ذلك المفلس يوم القيامة، حكاية وتصويرًا لماضيه الضال في دنياه التي انتهت على هذا النحو: (وقد شتم، وقذف، وأكل، وسفك، وضرب)، ويوم القيامة يقتضي منه المظلومون: بأخذ حسناته، ثم يتحمل بعض خطاياهم إذا فنيت حسناته، وقوله "فطرحت عليه"، يصور مدى ثقل هذه الخطايا، ومصيره الإفلاس حيث فقد رصيده من الحسنات، وزاد رصيده من السيئات والخطايا، ومثواه النار وبئس القرار.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد السؤال والجواب كأسلوب دعوي مهم في الحديث من قوله ﷺ : "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..." ، (والسؤال والجواب من أساليب الأداء البياني التي يكون بها استحضار أذهان المدعوين ووضعهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فيجب

على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن)[١].

ثانيًا- من واجبات الداعية: تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان الحقائق للمدعوين:

إن من واجبات الداعية المستنبطة من هذا الحديث، تصحيح المفاهيم التي تشيع بين الناس وبيان حقيقة الأمر فقد سأل النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم عن المفلس؟ فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.. ولكن النبي ﷺ صحح ذلك الفهم الخاطئ فقال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا... إلخ".

قال النووي: (إن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال، ومن قل ماله فالناس يسمونه مفلسًا وليس هو حقيقة المفلس؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المنقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقى في النار)[٢]، فعلى الداعية تصحيح ما التبس من أخطاء في أذهان المدعوين وبيان حقيقة الأمور لهم مقتديًا في ذلك بهدى النبي ﷺ وممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات:

هذا ما أشار إليه سياق الحديث، حيث بين أن الظلم للإفلاس المهلك يوم القيامة، فقال ﷺ "إن من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" (فهذا أحق باسم المفلس، إذ تؤخذ منه أعماله التي تعب في تصحيحها

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٥٨-٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

بشروطها حتى قبلت منه، فلما كان وقت فقره إليها أخذت منه ثم طرح في النار، فلا إفلاس أعظم من هذا ولا أخسر صفقة ممن هذا حاله، ففيه ما يدل على وجوب السعي في التخلص من حقوق الناس في الدنيا بكل ممكن والاجتهاد في ذلك، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً فالإكثار من الأعمال الصالحة، فلعله بعد أخذٍ ماعليه تبقى له بقية راجحة، والمرجو من كرم الكريم لمن صحت في الأداء نيته، وعجزت عن ذلك قدرته أن يرضى اللهُ عنه خصومَه، فيغفر للمطالِب والمطلوب ويوصلهم إلى أفضل محبوب[1].

وقد رهب الحق تبارك وتعالى من ذلك فقال في الحديث القدسي "يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا"[2]. وقال ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"[3]، قال النووي: (قال القاضي: قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حتى يسعى نور المؤمنين بين أيديهم، وبإيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[4]، أي: شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات)[5].

وقال ﷺ، محذرًا من الظلم والوقوع في المحرمات: (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[6]، وفي ذلك بيان على أهمية التحذير من الظلم والوقوع في المحرمات.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ٥٦٣/٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: "ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته... إلخ". وقد أوجب الشرع الحدود والقصاص حماية للأموال والنفس والأعراض، فقال تعالى في حماية الأنفس: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١). وفي الحفاظ على الأموال وحمايتها قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢). وفي الحفاظ على الأعراض قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾(٣).

وقد أكد النبي ﷺ حماية ذلك في حجة الوداع فقال: "إن دماؤكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"(٤)، وفي ذلك بيان عظيم على أهمية الحفاظ على الأموال والأنفس والأعراض كهدف من أهداف الدعوة الواجب تحقيقها.

لقد جاء الإسلام بآدابه وأحكامه الشرعية، وهي كلها ترجع إلى المحافظة على أمور خمسة: الدين والنفس والمال والعقل والنسل، وذلك لأن الدنيا التي يعيش فيها الإنسان تقوم على هذه الأمور الخمس، ولا تتوافر الحياة الإنسانية الرفيعة إلا بها، ولهذا كان تكريم الإنسان في المحافظة عليها، فالدين لا بد منه للإنسان الذي تسمو معانيه الإنسانية به، فلا بد أن يسلم له دينه من الاعتداء.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٨.

(٣) سورة النور، آية: ٤.

(٤) أخرجه مسلم ١٢١٨.

والمحافظة على النفس هي المحافظة على حق الحياة العزيزة الكريمة والمحافظة على النفس تقتضي حمايتها من كل اعتداء عليها بالقتل أو قطع الأطراف أو الجروح، كما أن من المحافظة على النفس المحافظة على الكرامة الإنسانية بمنع القذف والسب، وغير ذلك من كل أمر يتعلق بالكرامة الإنسانية.

والمحافظة على المال تكون بمنع الاعتداء عليه بالسرقة والغصب ونحوهما وتنظيم التعامل بين الناس على أساس من العدل والرضا، وبالعمل على تنميته ووضعه في الأيدي التي تصونه وتحفظه، وتقوم على رعايته، فالمال في أيدي الآحاد قوة للأمة كلها، ولذا وجبت المحافظة عليه بتوزيعه بالقسطاس المستقيم، وبالمحافظة على إنتاج المنتجين وتنمية الموارد العامة، ومنع أن يؤكل بين الناس بالباطل وبغير الحق الذي أحله الله تعالى لعباده.

ويدخل في المحافظة على المال كل ما شرع للتعامل بين الناس من بيوع وإجارات، وغيرهما من العقود التي يكون موضوعها المال[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان عدل الله تعالى بين الخلائق:

"إن الله تعالى هو الحق العدل الذي لا يحكم إلا بالحق، ولا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا الحق"[2]، وهذا ما أكده نص الحديث في عدله تعالى عند حكمه بين عباده يوم القيامة، واقتصاصه من الظالم للمظلوم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وذلك من الحديث في قوله ﷺ: "فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه"، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[3].

قال السعدي: (يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا

(١) انظر: أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ٣٦٦-٣٦٩.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي، ١٤١/١، نقلاً عن الحليمي.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن به الحسنات والسيئات "فلا تنقص نفس"، مسلمة ولا كافرة "شيئًا" بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها)(١). وفي ذلك بيان على عدل الله تعالى بين الخلائق.

سادسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "ثم طرح في النار"، وقد بين د. علي عبدالحليم (أن الترهيب هو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن)(٢).

وهذا ما ورد في الحديث من ترهيبه ﷺ من الظلم والوقوع في المحرمات.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٧٣.

(٢) فقه الدعوة ١/٢٣٢.

الحديث رقم (٢١٩)

٢١٩- وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فأَقْضِي لَهُ[1] بنحْو ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطعَةً مِنَ النَّارِ**» متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

ألحن: أعلم[3].

الحُجَّة: الدليل والبرهان وما يدل على صحة الدعوى[4].

الشرح الأدبي

يبدأ هذا الحديث ببارقة من بوارق البيان النبوي تتوهج كلماتها بكثير من الإيحاءات والدلالات، وهذه البارقة المشعة تصاغ في أسلوب القصر والتأكيد، ولكن التساؤل الذي يموج بعقل كل من يتدبر الحديث هو، ما علاقة هذه البداية بالقضية التي ينبه إليها الحديث: وهى أخذ حق الغير، بالطرق المشروعة ظاهرًا، وهذا كأنه قطعة من النار، فما بالنا إذا كان الحق مغتصبًا ومنهوبًا!!. إن هذه البداية التي تؤكد مثلية الرسول لنا في البشرية في قوله ﷺ: "إنما أنا بشر"، تشير إلى أنه لا يعلم الغيب ولا يدرك ما يخفيه المتخاصمان عنه فيقضي بما يسمع: أى حسب الشواهد والأدلة الظاهرة.

وإنما ابتداء الحديث بهذه الجملة تنبيهًا على أن السهو والنسيان غير مستبعد عن

---

(١) (له) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٤٥٨)، وكذا عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣/٥)، والسياق للحميدي في جمعه (٢٢٩/٤، رقم ٣٤٤٦).

(٣) رياض الصالحين ١٣٩.

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٥٤.

الإنسان، وأن الوضع البشري يقتضي أن لا يدرك من الأمور إلا ظواهرها، وقد بين الرسول ﷺ في الحديث أنه كباقي البشر يقضي بينهم برأيه فيما لم ينزل عليه فيه وحي.

وفي البارقة الثانية يتكرر التأكيد مع الإيحاء بضرورة الصدق في القول، وعدم إخفاء الشواهد والأدلة حتى لاتغيم الرؤية أمام القاضي، والقاضي هنا محمد رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين، وهو الذي قال: ((يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. وقال لأسامة بن زيد رضي الله عنهما أتشفع في حدٍ من حدود الله))[1]. يقول: "وإنكم تختصمون إلي"، ومادة الافتعال الكائنة في الاختصام ترشد إلى تفاعل الخصومة بين الطرفين أو بين جميع أطراف الخصومة، وكل يدعى أنه صاحب الحق فالفعل "اختصم" يفصح عن هذه المشاركة والتأكيد في بداية الجملة "إنكم" وخطاب الجمع وواو الجماعة في "تختصمون"، كل هذا يرشد إلى أن القضية ليست قضية فردية: ولكنها قضية جماعية، وهى تتكرر في كل زمان ومكان، أمام القضاة والولاة وفي المحاكم، والجملة الثالثة في ترتيبها التصاعدي الناتج عن إيحاء الجملتين السابقتين، "ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" عقدة القضية، وبؤرة المفارقة، فقوله: "ألحن" أي ألسن، وأفصح وأبين كلامًا وأقدر على الحجة، وللحن عند العلماء دلالتان: إحداهما مذمومة والأخرى محمودة، فالمذمومة تتمثل في صرف الكلام عن سننه الجاري عليه بإزالة الإعراب والتصحيف، والخطأ في نطق الكلام، والمحمودة، تتمثل في إزالة الكلام عن التصرح وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، كما قال الشاعر العربي، "وخير الحديث ما كان لحنًا"، ولكن مدلول اللحن في الحديث ظاهره محمود، وباطنه مذموم: لأن القدرة على الإبانة والإفصاح هنا في غير موضعها: تحجب الحقيقة عن القاضي، وتتمثل هذه الظاهرة في قول رسول الله ﷺ "فأَقْضِي له بنحو ما أسمع"، والفاء تدل على الإسراع في إصدار

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٨٨.

الحكم، وقوله بنحو ما أسمع يحدد مصدر الدليل الذي استند إليه رسول الله ﷺ وهو الكلام الظاهر الذي سمعه، وهو كلام لا يطابق الحقيقة، ثم يحذر رسول الله ﷺ الأمة كلها من الانزلاق إلى هذه الهاوية: وهى تزييف الحقائق، وتزوير الكلام، والكذب في الادعاء، فيقول: "فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار"، وما أدق هذا التعبير، وما أعظمه في إشاعة الإحساس بالأخوة الإيمانية في قوله: "بحق أخيه"، ولم يقل بحق غيره، وهذا الحق المسلوب الذي شبهه الرسول بقطعة من النار تضع أمام كل من يخادع ويضلل العدالة مصيره المحتوم، وفي ذلك تحذير لكل من يسعى عن طريق القضاء الذي لا يعتمد إلا على ظواهر الأمور، للحصول على حق أخيه في الإسلام، ويمكن أن يكون الحصول على هذا الحق المزور بالتدبير والترصد مع سبق الإصرار: عن طريق المحامين الذين يتحايلون ، ويجمعون الأدلة والوثائق عن طريق التزوير، وشهادات الزور، أو التهديد، أو الرشوة، وغير ذلك من صور الكذب والتضليل، وقد تفشت هذه الظاهرة في المجتمعات المعاصرة؛ وتظل كلمات المصطفى شموسًا وأقمارًا تضيء آفاق نفوسنا وحياتنا المظلمة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: قضاء القاضي بما يظهر له، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن القاضي يحكم بما يراه من ظاهر الأمور والأدلة ويجتهد في ذلك، ولا يكون مقيدًا له إلا الأدلة الواضحة، فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

الثاني: هل يبيح حكم الحاكم للإنسان ما ليس له؟ وقد سبق الكلام عنها

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٠/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٥/٧ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٢٤/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٢٠/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٠٦/٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٣٩/١٠، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١٦/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٤٤/٦.

تفصيلاً في الحديث رقم (٢١٤).

الثالث: قضاء القاضي بعلمه، ولا خلاف بين الفقهاء[1] في أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه في الحدود الخالصة لله تعالى، كالزنا وشرب الخمر، أما قضاؤه بعلمه في حقوق الآدميين فقد اختلف الفقهاء فيه، فذهب المالكية والشافعية في وجه والحنابلة في المذهب والشعبي وشريح وإسحاق وأبو عبيد إلى أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه في حقوق الآدميين، سواء في ذلك علمه قبل الولاية وبعدها، وذهب أبو يوسف ومحمد والشافعية في الأظهر والإمام أحمد في رواية إلى أنه يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه سواء في ذلك علمه قبل الولاية وبعدها، وقيد الشافعية ذلك بشروط: أن يكون مجتهدًا وجوبًا، ظاهر التقوى والورع ندبًا.

والراجح في رأيي ما ذهب إليه الشافعية من تقييدهم الجواز بالشروط المذكورة سابقًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان بشرية النبي ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم وعواقبه.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد ورد أسلوب الإخبار في الحديث من قوله ﷺ: (إنما أنا بشر، وإنكم

---

(١) رد المحتار ٤٣٨/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٦/٧ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٨٥/٥، وأنوار البروق ٤٧/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٨٦/٨، والفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر الهيتمي ٢٩١/٤، والفروع، ابن مفلح ٤٦٩/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٣٥/٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٣/١.

تختصمون إليّ... إلخ)، والإخبار من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على بيان وتوضيح دعوته للمدعوين بما يوضح لهم كل ما أشكل عليهم وخفي عنهم فيحصل كامل الفائدة، ولا سيما إن صادف ذلك إخلاصًا وصدقًا من الداعي في تبليغ دعوته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان بشرية النبي ﷺ:

لقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "إنما أنا بشر"، قال القاضي عياض: (وقوله: "إنما أنا بشر" تنبيه على حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من أمور الغيب والبواطن إلا ما يطلعهم سبحانه عليه، وأنه يجوز عليه في أمور الظاهر التأثر بقول القائل، وفيه أن حكمه ﷺ بين الخلق إنما كان على الظاهر، وإن كان باطن أمرهم بخلافه، فقضى باليمين وبالشاهدين حكمة من الله تعالى من ذلك، ليتعلم منه أمته طريق الحكم ويقتدى به في القضاء، ولو شاء الله لأطلعه على سرائر الخصمين ومخفيات ضمائر المدعين، فيتولى الحكم بمجرد يقينه، ويقضي بقطع مغيبه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة، ولكن لما أمر الله سبحانه أمته باتباعه والاقتداء به في أقوال وأفعاله، وكان هذا مما يخص الله تعالى به لم يكن للأمة سبيل الاقتداء، في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضية من قضاياه، لأنا لا نعلم بما أوحي به فيه إليه، ولا ما اطلع من أمر الخصمين عليه بحكمه هو، إذ المكنون من علم الله، فأجرى أحكامه ﷺ على الظاهر، الذي يستوي فيه هو وغيره من البشر؛ ليصح اقتداء أمته به في قضاياه، ويأت ما أتو من ذلك على علم من سنته، واعتماد على علمه، إذ البيان بالفصل إجلاء فيه من القول وأرفع لاحتمال اللفظ[1]).

وقال ابن عثيمين: (إن في هذا الحديث دليل على أن الرسول ﷺ بشر مثلنا، ليس ملاكًا من الملائكة، بل هو بشر يعتريه ما يعتري البشر بمقتضى الطبيعة البشرية، فهو ﷺ يجوع ويعطش ويبرد ويحتر، وينام ويستيقظ، ويأكل ويشرب، ويذكر وينسى كالبشر تمامًا، وقد أمره الله عز وجل أن يعلن هذا للملأ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥/٥٦١.

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١]، فلست إلهًا يعبد ولا ربًا ينفع ويضر، بل -عليه الصلاة والسلام- لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا)[٢]، وفي ذلك دليل على بشرية النبي ﷺ.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً:

يستنبط هذا من الحديث في قوله ﷺ: (فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار)، وفي ذلك قال ابن حجر: (وفي الحديث أن من أدعى مالاً ولم يكن له بينة، فحلف المدعى عليه وحكم الحاكم ببراءة الحالف، أنه لا يبرأ في الباطن، وأن المدعي ولو أقام بينة بعد ذلك تنافي دعواه سمعت وبطل الحكم، وفيه من احتال لأمر باطل بوجه من وجوه الحيل حتى يصير حقًا في الظاهر ويحكم له به أنه لا يحل تناوله في الباطن ولا يرتفع عنه الإثم بالحكم)[٣].

وقال ابن عثيمين: (بل يزداد إثمًا لأنه توصل إلى الباطل بطريق باطل فيكون أعظم ممن أخذه بغير هذا الطريق)[٤]، وفي ذلك بيان على أن حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم وعواقبه:

يستنبط هذا من عموم الحديث، والظلم من موجبات غضب الجبار وتخريب الديار، به يكون فساد الأمم وانهيار الدول، "فالله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[٥]، "وقد كان الظلم سببًا لهلاك الأولين بعد أن منعوا الحق حتى اشتُري وبسطوا الجور حتى افتُدي"[٦].

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٨٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٥٥٣.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٨/٦٢ - ٦٣.

(٦) الآداب الشرعية، ابن مفلح المقدسي ١/١٧٩.

لذا رهب الله عز وجل من الظلم فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[٢]، وقد بيّن الحق تبارك وتعالى، سوء عاقبة الظلم فقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٣]، وقد بيّن النبي ﷺ سوء عاقبة الظلم فقال: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٤].

قال ابن القيم: (والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك. بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها)[٥].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إذا خَلَصَ المُؤمنونَ مِنَ النارِ، حُبِسُوا بقَنْطَرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيتقاصُّون مظالمَ كانتْ بينَهُمْ في الدُّنيا))[٦].

وقال ابن الجوزي: (والظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم

---

(١) سورة الفرقان، آية: ١٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٢١.

(٣) سورة طه، آية: ١١١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢٧١.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٤٠.

حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا)[١].

ولله درُّ القائل:

أمــا واللّــهِ إن الظلــمَ لــؤمٌ ... ومــا زالَ المــسيءُ هُــوَ الظلــومُ

إلى ديــانِ يــومِ الــدينِ نمــضي ... وعنــدَ اللّــهِ تجتمــعُ الخــصومُ

ســتعلمُ في الحــسابِ إذا التقينــا ... غــدًا عنــد الإلــهِ مــن الملــومُ[٢]

فعلى المرء أن يتجنب الظلم جهده، وأن يسعى إلى رد المظالم.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من قوله ﷺ: "فإنما أقطع له قطعة من النار"، والترهيب: وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام[٣].

وتأتي أهمية استخدام أسلوب الترهيب لملائمتها لطبيعة كثير من الناس، وذلك لأن من الأنفس من لا ترجع إلا بالزجر، وإذا كانت النعم تسبب الغفلة فإن الترهيب يبعث اليقظة في كثير من الأحيان، وكم يفكر الناس في أشياء ثم يتذكرون النتائج السلبية المترتبة عليها فيقلعون عنها مباشرة، وقد استخدم الأنبياء أسلوب الترهيب كوسيلة لردع النفس عن الغواية وعن اتباع خطوات الشيطان، لما تضمنت الشرائع أحكامًا للترهيب، كالحدود والقصاص وبعض العقوبات المقدرة على بعض المعاصي التي تُرتكب ردعًا وزجرًا[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٢١/٥.

(٢) الآداب الشرعية، ابن مفلح ٢٠٤/١، والأبيات في الكامل في التاريخ قافية الواو ٣٥٨/٥، والحماسة البصرية ٤٢٢/٢ ونسبه لأبي العتاهية.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص ٢٥٧.

(٤) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ص ١٤٢.

الحديث رقم (٢٢٠)

٢٢٠- وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرامًا**» رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

في فسحة: في سعة[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، وكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، والإسلام في ظل هذا المنهج الداعي إلى المحافظة على الحقوق، حدد أمهات الجرائم وكبائر المعاصي، وهى التي يضطرب بها الأمن، ويفسد المجتمع، وفرض لها عقوبات معينة، تقلل من وقوعها، وهذه الجرائم ترجع إلى الجناية على النفس والمال والعرض والنسب والعقل والدين والنظام العام، وحين نتأمل فضاءات المعنى، وآفاق الدلالة في هذا الحديث الشريف ندرك حرص الرسول ﷺ على صيانة الأرواح والأجساد، والنفس بصفة عامة، وبرغم أن الكبائر متعددة، والجنايات كثيرة، فإن المصطفى ﷺ جعل من سفك الدماء، وقتل النفس مفتاحًا لكل شر، ومغلاقًا لكل خير، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

---

(١) برقم (٦٨٦٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٥٨٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٩٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

والحديث في صياغته اللغوية جملة واحدة لا يتم المعنى إلا إذا أكملنا قراءة الحديث: وهو جملتان في التركيب اللغوي: ولكن المعنى لا يتم إلا بترابط الجملتين، قراءة ونطقا، فمقدمة الحديث تعلن عن بشارة الرسول ﷺ للمؤمن بأنه في سعة من دينه، أى أنه يحظى برحمة ربه، ومغفرته، حتى لو ارتكب بعض الكبائر، فإنه لن ييأس من رحمة الله وسحائب رضوانه، وشآبيب عفوه إذا أقدم على التوبة، أما إذا أقدم على القتل العمد، وأصاب دمًا حرامًا، فإن أبواب الرحمة تطفأ في عينيه أنوارها، وتتهاوى من الآفاق أقمارها ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

والحديث يبدأ بأداة النفي "لن"، وهى حرف يفيد النفي والاستقبال، بالاتفاق، ولا يقتضي تأبيدًا خلافًا للزمخشري في أنموذجه، ولا تأكيدًا خلافًا له في كشافه، كما يقول ابن هشام في قطر الندى، فـ"لن" تفيد الاستقبال: وتفيد التأبيد والتأكيد عند الزمخشري، والفعل "يزال" بعدها مضارع يفيد الاستمرار، فالمؤمن يظل في سعة من دينه، وأمامه أبواب الرحمة والمغفرة مشرعة، وختام الحديث في قوله: "ما لم يصب دما حرامًا" فإذا قتل نفسًا بغير حق ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين من رحمة الله.

وفي الحديث بلاغة الإيجاز بالحذف... فختام الحديث يفضي إلى كلام محذوف يفسره ما قبله، والتقدير فإذا أصاب دمًا حرامًا ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

وتعد جريمة القتل العمد من أكبر المحرمات، وأخطر الجرائم، وأشدها إخلالاً بالأمن، وأكثرها تسببًا في الاضطراب والفوضى في المجتمع، ولذا كانت من السبع الموبقات التي عدها النبي طالبًا اجتنابها، بقوله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات: قيل وما هن يارسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات"[١].

ولفظ "المؤمن" في الحديث فيه إشارة إلى أن المؤمن يجب أن يكون حذرًا من إغراء النفس، ووساوس الشيطان، حتى لا ينطفئ وهج الإيمان في قلبه، وحتى لا يتمكن منه ظلام المعاصي فيطرد النور من روحه ونفسه.

وإذا كان المؤمن في غير مأمن من هذه الفتنة، فما بال الذي فقد حصانة الإيمان، ووقع فريسة الشيطان، فاللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث أن النفس الإنسانية لها حرمة كبيرة حتى أن التعدي عليها بغير حق يعد من أكبر الذنوب وأعظم الخطايا، بل يظل المسلم في فسحة من دينه يستغفر الله عما فعل ويغفر الله له ما لم يصب دمًا حرامًا فيزهق نفسًا بدون وجه حق.

وقد اتفق الفقهاء[٢] على أنه لا يجوز قتل أي حي ولو كان غير مسلم بدون حق، ومن قتل مسلمًا بغير حق كان عليه القصاص، وإن كان خطأ فعليه الدية، وفصلوا في ذلك تفصيلات واسعة في باب الجنايات.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٧/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٣١/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٣٧٥/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٥٣/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٢/٥ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس بغير حق.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حفظ النفس.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[١]، وقال ﷺ: ((سبعة يظلهم الله في ظله...)) إلخ[٢]، وقال ﷺ: ((...وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوى بها في جهنم ... إلخ))[٣]. والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كلٌ حسب ما يناسبه[٤]، (وعليه فإن الإسلام قد جعل هذا الأسلوب طريقًا إلى دعوة الناس وتذكيرهم وتبصيرهم بما يؤول إليه أمرهم: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر)[٥]. وقد ورد الترغيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه"، (أي في سعة من دينه)[٦]. أما الترهيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ما لم يصب دمًا حرامًا".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قتل النفس بغير حق:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "لن يزال المؤمن في فُسْحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا".

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

(٤) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٥) الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان، ٩٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٢/١٩٥.

قال ابن حجر: (قوله ﷺ: "في فُسْحة" بضم الفاء وسكون المهملة وبحاء مهملة أي سعة.

وقوله ﷺ: "من دينه" كذا للأكثر بكسر المهملة من الدين، وفي رواية الكشميهني: "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمدًا بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور. وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل)[١].

وفي ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: (إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرَجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه)[٢].

(وقال ابن العربي: ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك، فكيف بقتل الآدمي، فكيف بقتل المسلم، فكيف بقتل الصالح)[٣].

وقد عظم الحق تبارك وتعالى حرمة نفس المؤمن ورهب من الاعتداء عليها فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٤].

قال ابن كثير رحمه الله: (وفي ذلك تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في أكثر من آية في كتاب الله)[٥]، حيث يقول

---

(١) المرجع السابق ١٩٥/١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٦٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ١٩٦/١٢.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٦/٢.

سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[1]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا. "من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء"[3].

قال النووي: (فيه تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يقضي فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها)[4].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لَزَوَالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَى الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ))[5].

قال المباركفوري: (قوله: "لزوال الدنيا" اللام للابتداء "أهون" أي: أحقر وأسهل "على الله" أي: عنده "من قتل رجل مسلم")[6]. قال الطيبي: (الدنيا عبارة عن الدار القربى التي هي معبر للدار الأخرى، وهي مزرعة لها، وما خلقت السموات والأرض إلا لتكون مسارح أنظار المتبصرين، ومتعبدات المطيعين، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾[7]، أي بغير حكمة بل خلقتها لأن

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٦٤، ومسلم ١٦٧٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧٤.

(٥) أخرجه الترمذي ١٣٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١١٢٦).

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٣٢٥/١.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة لهم على معرفتك. فمن حاول قتل من خلقت الدنيا لأجله فقد حاول زوال الدنيا)[(١)].

وفي ذلك بيان على عظم جرم قتل النفس بغير حق.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حفظ النفس:

إن من أهداف الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: حفظ النفس البشرية، "فالإنسان إذا ما دخل في دين الله فإنه يصبح في مأمن، قال ﷺ: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله. فَإِذَا قَالُوا: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا. وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله))[(٢)]، فإذا دخل الإنسان في دين الله ونطق بالشهادتين فإنه يعصم دمه وماله حتى يتبين منه ما يناقض ذلك من أنواع الردة، فيقام عليه حد المرتد، لقوله ﷺ: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[(٣)]، فدم المسلم حرام، رتب الله عليه وعيدًا في الآخرة لمن استباحه، ووعيدًا في الدنيا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[(٤)].

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده، أن يجازي صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسار[(٥)].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥٥/٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٩٩، ومسلم ٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٧٨، ومسلم ١٦٧٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ١٥٧.

وذلك لحرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى وعظيم منزلته؛ لأنه دخل في دين الله، وأصبح من عباد الله، فمن تعدى عليه فقد توعده الله بهذا الوعيد، وقد كتب الله على اليهود في التوراة: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

وذلك لعظمة حرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى، وقد بين الحق تبارك وتعالى أن الخسران هو جزاء من خالف ذلك فقال في قصة ابني آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: ((لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل))[3]. وذلكم يدل على عظمة حرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى.

أما حكم القاتل في الدنيا فإن الله سبحانه وتعالى أمر بالقصاص منه، وذلك بأن يقتل القاتل حفظًا للدماء، وصيانة للأنفس، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[4].

"وكُتِبَ" معناه: فرض، فقتل القاتل فرض إلا إذا عفا ولي الدم عن القصاص، قال

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٢٧-٣٠ .

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٣٥، ومسلم ١٦٧٧.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٨ .

الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وهذا بيان للحكمة الإلهية في تشريع القصاص، لأنه بالقصاص تحصل حياة المجتمع، فإذا قتل القاتل فإن الناس يأمنون على دمائهم وأنفسهم، أما إذا لم يقتل القاتل، فإن هذا يصبح خطرًا على المجتمع، وقد جعل الله القصاص حياة؛ لأنه يسبب الحياة وإن كان موتًا للمقتص منه لكنه حياة للبقية، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، وكانوا في الجاهلية يقولون: "القتل أنفى للقتل"، يعني: قتل الجاني أنفى لقتل الآخرين، بمعنى: أنه يمنع قتل الآخرين، ولكن الله عز وجل جاء بعبارة يعجز عنها البشر. ففي القصاص حماية للنفوس البريئة من الاعتداء عليها، وفيه منع أيدي العابثين والمجرمين من سفك الدماء، وهذا واقع مشاهد في البلاد التي يقتص فيها من القاتل، والمشاهد فيها استتباب الأمن، وقلة القتل، أما البلاد التي لا ينفذ فيها القصاص ويكتفي فيها بالسجن أو الغرامة، فالدماء فيها مراقة، والأمن فيها مختل، والعيش فيها نكد؛ لأنهم عطلوا هذا الحد العظيم، وإن كانوا ينتسبون إلى الإسلام، لهذا أصبح مجتمعهم مضطربًا قلقًا، لأنه لا يعوض عن القصاص شيء من العقوبات مهما كانت القسوة فيها؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾"[٣]. فبين تعالى الحكمة العظيمة في مشروعية القصاص بأنه حياة، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُؤى القاتل مقتولاً انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٩ .

(٣) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ٢/١٢١-١٢٣.

الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكّر "الحياة" لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم[١].

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

هذا ما بينه النبي ﷺ في الحديث من قوله: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا" فعلى الداعية أن يبين الحقائق للمدعوين وهذا من النصيحة التي أمر بها النبي ﷺ، فقال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[٢]. وتحملاً لأمانة التبليغ للدعوة الإسلامية وبيان حقائقها للناس، فينبغي على كل داعية أن يعلم أن الدعوة إلى الله من أهم المهمات، وأن الأمة في كل زمان ومكان في أشد الحاجة إليها بل في أشد الضرورة إلى ذلك، فالواجب على أهل العلم والإيمان أن يقوموا بهذا الواجب وأن يتكاتفوا فيه، وأن يبلغوا رسالات الله إلى عباد الله، وهذا أفضل الخير الذي يدعو إليه المؤمن، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٦٧.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

الحديث رقم (٢٢١)

٢٢١- وعن خَوْلَةَ بِنْتِ عامِرٍ الأَنْصَارِيَّةِ، وَهِيَ امْرَأَةُ حمْزَةَ رضي اللَّهُ عنه وعنها، قالت: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**إنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامةِ**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

خولة بنت عامر الأنصارية: وهي خولة بنت قيس بن ثعلبة الأنصارية.

تزوجت حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه فولدت له يعلى وعمارة وابنتين، ثم خلف عليها بعد حمزة حنظلة بن النعمان بن عجلان، فولدت له محمدًا أسلمت وبايعت النبي ﷺ، ولها صُحبة ورواية.

وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، فقالت له: يا رسول الله بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضًا ما بين كذا إلى كذا، قال النبي ﷺ ((أجل وأحب الناس إلي أن يَرْوي منه قومُك)) قالت: فقدمتُ إليه بُرمةً فيها خُبْزَةُ -أو خزيرة[2] فوضع رسول الله ﷺ يدَه في البُرمة ليأكل، فاحترقت أصابعُه فقال: "حَسٍّ" ثم قال: "ابنُ آدم إن أصابهُ البرد، قال حَسٍّ وإن أصابهُ الحرُّ قال: حَسٍّ"[3].

وكان رضي الله عنها عدادها في البصريين[4].

---

(١) برقم (٣١١٨).

(٢) الخبرة: الإدام، وقيل: هي الطعام من اللحم وغيره، والخزيرة: لحم يقطع صغارًا، ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج، ذُرَّ عليه الدقيق. قاله ابن الأثير في النهاية: ص ٢٦٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤١٠/٦ رقم ٢٧٣١٦، وقال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الصحيح ٢٩٧/٤٥.

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤٤٤/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٨٩٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٩٠/٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٣٠/٨-٥٣١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٧١/٤-٦٧٢، وموسوعة عظماء حول الرسول (٧٢٤/١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٧٨).

غريب الألفاظ:

يتخوضون: يتصرفون[١].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به الإمام النووي باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم، وهذا الختام يعد إنذارًا ووعيدًا لكل ظالم لنفسه، وظالم لغيره، ولكل من لا يصون الحقوق، ويظل سادرًا في العقوق، لا يسأل نفسه: من أين اكتسب ماله، وفيم أنفقه، ولماذا سلب حق أخيه، وأهان أهله وذويه، وتخوَّض بغير حق في مال الله، ولم يتعرف على مسالك النجاة، وأصاب الدم الحرام، وتوهم أن التعدي على أعراض الناس بالسب والقذف يخيفهم ويجعله مهاب الجناب، ولكنه خاب مسعاه، وباء بسخط من الله، وجاء يوم القيامة وهو من المفلسين، ورُدَّ الحق إلى المظلومين، وهو قد غَدَاَ وقودًا للنار، وبئس القرار، وحين نطيل التأمل في الأحاديث الثلاثة التي ختم بها هذا الباب، نجدها أنها تنتهي بالوعيد، وتحدد مصير الظالمين، فالمفلس يوم القيامة يتحدد مصيره بأنه "طرح في النار"، بعد أن تحمل عن مظلوميه خطاياهم وطرحت عليه الأوزار، والمؤمن يظل في مأمن من غواية الشيطان حتى إذا أصاب دمًا حرامًا يظلم نفسه وغيره ويلقي الله مكتوبًا بين عينيه: أيس من رحمة الله.

وهذا الحديث الذي يُختم به هذا الباب ينذر الذي يتخوضون في مال الله بغير حق بأن لهم النار يوم القيامة، ولغة الحديث تفصح عن مقاصده وأهدافه، وتوحي بجو الشدة والمصير المظلم الذي يؤول إليه الظالمون المعتدون الآثمون المتخوضون في مال الله بغير حق وهم غافلون، والحديث من خلال صياغته في ثوب الجملة الاسمية، وهي جملة واحدة "إن واسمها وخبرها"، يؤكد ثبات هذا المصير: لأن الجملة الاسمية من سماتها ثبات الحدث، وعدم تحركه إلا من خلال حركية بعض الأحداث داخل دائرة الثبات، فالحكم الثابت لمن يتخوضون في مال الله بغير حق: أن لهم النار يوم القيامة، ولا مجال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٢٥٣.

للجدال في ذلك، إلا إذا تابوا وردوا المظالم، ويعضد هذا الثبات: التأكيد في أول الحديث بـ"إن"، والتأكيد هنا ليس للحكم عليهم ولكن لبيان إصرارهم على سلوكهم الضال، وتنكير اسم إن "رجالاً" فيه إيحاء بكثرتهم، واحتقارهم، وإيحاء بعدم الاغترار بمظهرهم الخادع في مسيرة الحياة، والرجال والنساء في ذلك سواء، ولكنه ذكر "الرجال" للتغليب، ولأن الرجل هو المسؤول: وله القوامة، فعقابه أشد، وحسابه أقوى وأنكى.

والتعبير بالفعل المضارع في صيغة الجمع يفصح عن استمرار هؤلاء الرجال في مسلكهم، فهذا هو طابع حياتهم، وسمة منهجهم في معاملاتهم وحركتهم الحياتية، والتعبير بـ"في" يوحي بغرقهم في هذه اللجة ومادة الفعل "تخوَّض" مع الحروف الزائد للافتعال: تعلن عن كثرة الحركة، وشدة الجهد والمعاناة في هذا المجال، وتصوِّرهم كأنهم يصارعون الموج، ومال الله: كأنه بحر فياض، تهدر موجاته بالأرزاق وهم يُجدفون في قلب هذا الموج المتلاطم: لينهبون أرزاق الناس، ويعتدون على حقوق الآخرين فالفعل: خاض: في اللغة يعطي دلالة خوض الماء ويقال: خاض الغمرات: أى اقتحمها، والفعل كذلك يوحي بالإيذاء والاعتداء، وكأنه سيف يخوض في دماء الضحايا والمظلومين: حيث يقول العرب: خاض بالسيف: أي حركة في المضروب، والمخاضة، ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً فتأمل وتبصر إيحاءات ودلالات هذا الفعل "يتخوضون"، وذلك من أسرار البيان النبوي، وبلاغة المصطفى ﷺ: فهو لا ينطق عن الهوى: إن هو إلا وحى يوحى ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم القسمة في الغنائم، وقد سبق الحديث عنها، وهذا الحديث يصح الاحتجاج به على شرطية القسمة في أموال الفيء والغنيمة بحكم العدل واتباع ما ورد في الكتاب والسنة، وأن من أخذ من الغنائم شيئًا بغير قسم الإمام كان

عاصيًا، وفيه ردع الولاة أن يأخذوا من المال شيئًا بغير حقه أو يمنعوه من أهله"[١].

كما أنّ في الحديث دليلاً على أنه يحرم على من لم يستحق شيئًا من مال الله بألا يكون من المصارف التي عينها الله تعالى أن يأخذه ويتملكه وأن ذلك من المعاصي الموجبة للنار"[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، الترهيب.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التعريض في القول.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرمة تصرف الولاة في أموال المسلمين بغير حق.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال.

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن رجالاً" ويعد التوكيد أسلوبًا دعويًا مهمًا يستعمله الداعية في المواطن التي تستلزم ذلك، إذ يبين به الداعية أهمية ما يقول، ولذا يؤكده، ويزيد في إقناع المدعوين.

٢- الترهيب: وهو أسلوب ناجع من أساليب الدعوة فأحيانًا لا تنزجر النفس عن المعاصي والشهوات إلا بالتخويف والترهيب، والداعية الحصيف هو الذي يستخدم هذا الأسلوب في موطنه المناسب، وشاهده من الحديث "فلهم النار يوم القيامة".

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التعريض في القول:

يعد هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية الناجحة التي يستعملها الداعية للحفاظ على مشاعر الآخرين ولعدم التشهير بهم، ولقد كان هذا هدي رسول الله ﷺ فدائمًا يعرض ولا يصرح ويقول "ما بال أقوام يفعلون كذا" وفي الحديث الذي معنا سلك نفس النهج فقال: "إن رجالاً يتخوضون.." هكذا بالتنكير وبدون أن يحدد من هم وما أسماؤهم ليتعلم منه الدعاة هذا الأسلوب في التعريض في القول وعدم التجريح

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٩/٦.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ١٩٢/٤.

والتشهير، لأن ذلك أدعى للاستجابة والامتثال ويقرب بين الداعية والمدعو ويؤلف ولا يفرق.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرمة تصرف الولاة في أموال المسلمين بغير حق:

في هذا الحديث يبين الرسول حرمة من يفعل هذا، وأنه ليس له في الآخرة إلا النار وقد جاء في التحذير من هذا أيضًا قول النبي ﷺ: ((إنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتخوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ النَّارُ))[1]. وفي الحديث الذي معنا "إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة" أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وهو أعم من أن يكون بالقسمة وغيرها، وقوله: "من مال الله" مُظْهرًا قام مقام المضمر إشعارًا بأنه لا ينبغي التخوض في مال الله ورسوله ﷺ والتصرف فيه بمجرد التشهي، وقوله: "ليس له يوم القيامة إلا النار" حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله، ففيه إشعار بالغلبة[2].

(وأصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ثم استعمل في التلبيس بالأمر والتصرف فيه أي رب متصرف في مال الله بما لا يرضاه الله أي يتصرفون في بيت المال، ويستبدون بمال المسلمين بغير قسمة، وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجه كيف أمكن وهذا ليس له جزاء يوم القيامة إلا دخول جهنم وهو حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله تعالى)[3]. وقال ﷺ: ((مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ))[4].

والمعنى: (من جعلناه عاملاً على عمل من أعمال الولاية والإمارة فأعطيناه رزقًا ومقدارًا معينًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول أي خيانة في الغنيمة وفي مال الفيء)[5]. هذا

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٤).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢٥٢/٦، ٢٥٣.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧١/٢.

(٤) أخرجه أبوداود ٢٩٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥٥٠).

(٥) عون المعبود على سنن أبو داود، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي ١٢٥٢.

وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في الاحتراز من أموال المسلمين فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((لمّا استُخلِفَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ قال: لقد عَلِمَ قَومي أنَّ حِرْفَتي لم تَكنْ تَعجِزُ عن مَؤُونةِ أهلي، وشُغِلتُ بأمرِ المسلِمينَ فسيأكلُ آلُ أبي بكرٍ مِن هذا المالِ وأحترِفُ للمسلِمينَ فيه))(١).

قال ابن حجر: (أشار أبوبكر بذلك إلى أنه كان كسوبًا لمؤونته ومؤونة عياله بالتجارة من غير عجز، تمهيدًا على سبيل الاعتذار عما يأخذه من مال المسلمين إذا احتاج إليه)(٢). روى ابن سعد في الطبقات عن عائشة قالت: (لما مرض أبوبكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي قالت فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقي بستانًا له فبعثنا بهما إلى عمر فقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من بعده)(٣).

ويعتبر هذا الموضوع من الموضوعات الدعوية المهمة التي يجب إبرازها، ومعالجتها بالطريقة المناسبة والتحذير من خطر أكل الحقوق لأن ذلك مما يورد الإنسان المهالك يوم القيامة.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال:

إن من الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية: الحفاظ على المال باعتبار أن ذلك من الكليات الخمس التي يجب حفظها وصيانتها، ومن هنا كانت دعوة الإسلام للحفاظ على المال العام، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

قال السعدي رحمه الله: (وأكل الأموال على نوعين: نوع بحق، ونوع بباطل ولما كان

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٥٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣/١٩٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

المحرم هو أكلها بالباطل قيده الله تعالى بذلك فيدخل فيه أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة والمعاوضات المحرمة، والغش في البيع والشراء والإجارة فكل هذا ونحوه من أكل الأموال بالباطل فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من الحاكم، يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق وحكم له الحاكم بذلك فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا، ولا يحلل حرامًا، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله)[١].

ولما استعمل النبي ﷺ ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ فقام النبي ﷺ على المنبر ثم قال: ((ما بالُ العامِلِ نبعثُهُ فيأْتي فيقول: هذا لكم وهذا لي، فهلاّ جلسَ في بيت أبيهِ وأمِّه فينظُرُ أيُهدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيءٍ إلا جاءَ به يومَ القيامةِ يحمله على رقبتِهِ، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار أو شاةً تَيْعَر - ثم رفعَ يديهِ حتى رأينا عفْرتي إبطَيه - ألا هل بَلَّغتُ؟ ثلاثًا))[٢].

وكل هذا يدل على حرص الإسلام على صيانة المال العام لأن ذلك من مقاصد الشريعة. فالمال أحد المقاصد الخمسة التي عني الإسلام بالمحافظة عليها، فمقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة[٣].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٧١٧٤.

(٣) المستصفى، للغزالي، ص ٢٨٧، نقلاً عن كتاب أصول الفقه، محمد أبو زهرة، ص ٣٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

من هدي الإسلام بيان عاقبة الفعل وإبراز الأثر المترتب عليه، والإسلام يختلف في هذا الجانب عن غيره، فالعقوبة في كل الأساليب التربوية دنيوية، أما الإسلام فيجعل العقوبة دنيوية وأخروية، ويحمل الفرد والجماعة المسؤولية تجاه المجتمع بحق المنجيات والمهلكات.

ولتربية المسلمين على ذلك كانت الأساليب التالية:

أولاً- التربية بالوعظ والخطابة:

يتضح استخدام أسلوب الخطابة في خطبته في حجة الوداع، حيث بدأ النبي ﷺ الخطبة بحمد الله والثناء عليه، ثم شرع في عناصر الخطبة الأخرى، فتناول المسيح الدجال وأطنب في ذكره، وبيان صفاته ،ثم تطرق إلى الحديث عن حرمة الدماء والأموال بين المسلمين، والتي تساوى عند الله حرمة البيت الحرام والشهر الحرام، ثم وجه السؤال إليهم: «أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، ثم حذر صحابته في خطبته النبوية البليغة أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض.

لقد احتوت هذه الخطبة علي عنصر الوعظ الذي يرق له القلب، ويبعث على العمل، وقدمت للمتلقين الترغيب والترهيب الذي يفطر أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال الخيرة في الآخرة، فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به، فتخشع له قلوبهم، ويتحرون العمل به، قبولاً لتأديب ربهم، وطلباً للانتفاع به في الدنيا، ورجاء في مثوبته ورضوانه في الآخرة[1].

ثانياً- التربية بالترهيب:

إن هذا الأسلوب التربوي يكاد يستغرق أحاديث هذا الباب، الذي يحرم فيه النبي ﷺ الظلم ويحذر منه، وليس أبلغ من أسلوب الترهيب في زجر الظالمين، وتخويف

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٢٦ بتصرف يسير.

المسلمين أن يقعوا في ظلم العباد، يقول ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»، وفي حديث آخر يقول: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»، ويقول: «إن الله يملى للظالم...»، وحيناً يخبر النبي ﷺ عن مصير الظالم يوم القيامة؛ حيث يؤخذ من حسناته ويعطى للمظلوم فإن فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلومين فطرحت عليه ثم طرح في النار.

ذلك هو المصير الأكيد لمن ظلم غيره حتى في أقل شيء، حتى الرجل الذي كان مسئولاً عن أمتعة النبي ﷺ، لما مات سئل عنه رسول الله ﷺ فقال: «هو في النار»، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلَّها..... ويقول ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ...»، وعندما سئل الرسول ﷺ عن قدر الشيء المسلوب، قال: «وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ».

وهكذا يبين رسول الله ﷺ مصير الظالمين؛ لأن الظلم ليس مجرد انتهاك لما حرَّم الله تعالى، بل إن فيه أخذاً لحق الآخرين وتسبباً في إيلامهم وحزنهم، وذلك ما نهى عنه الإسلام، ولو نظرنا إلى هذه التربية الربانية وقارناها بما كان عليه العرب قبل الإسلام لرأينا المفارقة الكبيرة؛ فقد كان الجاهليون يتفاخرون بالظلم ويعدونه مقدرة على الغلبة، بل إن شعراءهم كانوا يوردون ذلك في شعرهم، يقول عمر بن كلثوم التغلبي متفاخراً:

بُغَاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلَكِنَّا سَنَبْدأُ ظَالِمِينَا

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْواً ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَراً وَطِينَا

فأين هذه السلوكيات البهيمية الغابيّة من قيم الإسلام السامية العالية؟

ولهذا فقد كان تحريم النبي ﷺ للظلم رادعاً، مستخدماً فيه الترهيب من عواقبه؛ لأن الرسول ﷺ يريد أن يجتث جذور الظلم من النفوس اجتثاثاً، ويرغب في العدل والإنصاف.

ثانياً- التربية على أداء الحقوق:

لقد حث النبي ﷺ المسلمين على أداء الحقوق لبعضهم البعض؛ ونهى عن أخذ

حقوق الغير بغير حق، يقول ﷺ: «وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إلاَّ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ....»، بل إنه ﷺ عندما سئل في حديث آخر عن قدر الشيء المسلوب، وأنه ربما يكون شيئاً يسيراً فقال: «وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ».

إن غلول أحد الصحابة لعباءة كانت عنده لأحد الناس، جعله في النار.

لقد حمى الإسلام الملكية الخاصة فيها حماية كاملة، ومنع الغصب، وشدد في منعه[1]، يقول ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

ثالثاً- التربية بالتحذير:

ومن الأساليب التربوية التي وردت في أحاديث هذا الباب في النهي عن الظلم: أسلوب التحذير، وقد استخدمه ﷺ بطريقتين: الأولى: بقوله: «اتقوا»، يقول ﷺ: «اتقوا الظلم... واتقوا الشح»، والثانية باستخدام أداة التحذير «إياك»، يقول ﷺ: في وصيته لمعاذ عندما ولاه بعض النواحي: «وإياك وكرائم الأموال».

عندما يكون الخطر من العمل محتملا، فإن واجب المربي توجيه المتلقين إلى الابتعاد عنه، وتحذيرهم منه، وتبصيرهم بخطورة عاقبته، ويكون التحذير في كل ذلك ببيان وتوضيح هذا الشيء، ثم بيان الضرر الذي ينتج عنه ثم ذكر العقاب له في الدنيا والآخرة[2].

رابعاً- التربية بالتدرج:

إن للتدرج في الخطوات التربوية أثراً كبيراً في نفس المتلقي واستجابته، لأنه ما زال غضاً يافعاً، فلابد من التدرج معه، ونقله من مرحلة إلى أخرى، وتخطيط أي قضية أو هدف، يمر بمراحل وخطوات[3]، يرسمها المربي ويعمل على تنفيذها.

ذلك ما استخدمه النبي ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل، حين أرسله إلى اليمن، فقال

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، سيف الدين حسين شاهين، ص٦٠.

(٢) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص٢٦٥.

(٣) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص١٢٣.

له: « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه. وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّه افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ...، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّه افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً ...، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ...».

ذلك هو الأسلوب النبوي في تربية حديثي الإسلام، فالبداية تكون بالدعوة إلى الإسلام والشهادتين، ثم الدعوة إلى الصلاة، ثم الدعوة إلى الزكاة، ولا تأتي مرحلة إلا وقد تمت السابقة عليها، تدرج استخدمه رسول الله ﷺ حتى يتوثق الإسلام، ويقوى في نفوس من اعتنقوه.

خامساً- التربية بالتعريض:

لم يكن النبي ﷺ يصرح أحيانا، باسم من أخطأ؛ حرصًا منه على مشاعره ومكانته بين الناس، إنما كان يستخدم أسلوب التعريض في التنويه بخطئه، فكان يستعمل قوله: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا؟»؛ لأن التبصير بالخطأ وتصويبه أولى عنده من الخطأ الفردي الذي وقع فيه أحد صحابته الكرام، وذلك ظاهر في موقف ابن اللتبية، حين تولى الصدقة، وعاد ليستأثر لنفسه بهدية، ويقول: هذا لكم وهذا أهدي إليّ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن صعد المنبر وقال: «أما بعد فإني أستعمل الرجل ...» الحديث.

وذلك مسلك تربوي حميد، ينبغي على المربين الأخذ به في العملية التربوية؛ لأن التصريح باسم المخطئ يفضحه أمام الآخرين، وينقص مكانته لديهم، وربما كان لذلك نتيجة عكسية؛ فإن حاله قد يزداد سوءاً على سوئه، ويسترسل في خطئه، ولهذا فالنبي ﷺ كان من هديه: إذا رأى شيئاً من أصحابه أو بلغه عنهم شيء وأراد أن يدلهم على الحق فيه أنه كان لا يصرح بأسمائهم، ولكنه يلمح فيستر عليهم، ويحصل مقصوده من النصح[1]. دون هتك لأستار أراد الله أن يسدلها.

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص٢٧٩.

سادساً- التربية بالحوار والسؤال والجواب:

وقد ورد السؤال والجواب في هذا الباب على طريقتين:

الأولى: سؤال النبي ﷺ وإجابة أصحابه، وذلك في حجة الوداع، حين سأل ﷺ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، كل ذلك يسأله لصحابته وهم يسكتون ظانين أنه سيسميها بغير أسمائها، وتكون المفاجأة بأنها ما تزال تحتفظ بأسمائها، غير أنه أراد أن يؤكد لهم حرمة الشهر، وحرمة البلد وحرمة اليوم، ولهذا استخدم السؤال من أجل تأكيد الصفة التي تعارف عليها الناس من الحرمة للدماء والأموال.

الثانية: يكون السؤال فيها موجهاً من أحد الصحابة إلى النبي ﷺ بغرض المعرفة والتحصيل، فقد سأل النبي ﷺ رجل فقال: «يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ ...».

وهذه الطريقة في التربية هي طريقة الحوار، ولها كثير من الفوائد في العملية التربوية، منها[1]:

١-عرض الموضوع عرضاً حيوياً، مما لا يدع مجالاً للملل، بل يدفع السامع أو القارئ إلى الاهتمام والتتبع.

٢-إيقاظ العواطف والانفعالات مما يساعد على تربيتها وتوجيهها نحو المثل الأعلى.

سابعاً- التربية بتصحيح المفاهيم:

غزت المفاهيم الأجنبية الثقافة الإسلامية في ثقافتنا المعاصرة، واستبدل تجار المعاصي المصطلحات الإسلامية بمصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، فعبروا عن الرشوة بالإكرامية، الهدية، التحية، دخان، وهبة، بقشيش...

إن تصحيح مفهوم الرشوة وبيان منزلتها فرض عين على المسلمين، وإن كل ما يُدفع لجلب منفعة أو درء مضرة و رشوة، وإن هذا الأسلوب إن ساد غابت الفضيلة وفشت الرذيلة وضاعت الحقوق وسادت الرأسمالية وضاع الفقراء واستأسد الأغنياء.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص١٦٧.

كما أن هذا الخلق يسبب أزمة نفسية لدى أصحاب القيم الذين يعملون ولا يأخذون، فيعيشون في صراع نفسي بين فقد مدقع، وترف عند الآخرين مفزع، كما يدفع أصحاب المصالح إلى صراع نفسي وألم ذهني، أيستبقون رضى الله ثم رضى رسوله، فلا يدفعون رشوة ولا يستجيبون لداعي المعصية في وقت تؤخر فيه حقوقهم، لأنهم لا يدفعون، أم يدفعون ليدركوا حقوقهم في وقت يخالفون فيه ربهم؟

إن هذا السلوك - إن فشا في المجتمع الإسلامي أو غيره - سيفضي إلى هلكة لا محالة، وإذا أراد الإنسان أن يعرف حكم ما قُدّم له عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال: لو لم أكن في هذا الموقع هل كان هذا المال يأتيني؟



٢٧- باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[الحج: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢].

الحديث رقم (٢٢٢)

٢٢٢- وعن أَبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه. متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن الصورة الأدبية في الحديث النبوي الشريف تجلى المعنى، وتجسد الهدف، وتقرب المقصد إلى أذهان السامعين: وهي بمنأى عن التعقيد اللفظي، والغموض البياني: وهى تجسِّم المعنويات وتستمد من البيئة عناصرها حتى يكون التأثير قويًا، والاستجابة سريعة.

والتجسيم في الصورة الحديثية قائم على اللغة المجازية البلاغية، ومستعين بصور الطبيعة الجامدة والمتحركة، فنراه يجسم التشبيه والاستعارة والكناية ليحقق الحديث إقناع العقل وإمتاع الحس[2].

---

(١) البخاري (٢٤٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥/٦٥).

(٢) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي: د. أحمد باسوف، ص ٤١٦.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد أنه قائم على التشبيه التمثيلي الذي يؤكد طبيعة العلاقة بين المؤمنين، ويحدد حتمية الترابط بين طوائف الأمة الواحدة الذين وحدتهم العقيدة، وشدت من أزرهم مشاعر الإيمان، والانتماء إلى الواحد الديَّان، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وهذه الصورة الجمالية تتعانق معها الصورة التعبيرية والبنية اللغوية فالجملة: مبتدأ وهو "المؤمن للمؤمن"، وهذا المبتدأ يحتاج إلى ما يكمِّل دلالة الجملة، ويتمم المعنى، كما أن المؤمن في حالة انتمائه لأخيه المؤمن، في حاجة إلى الالتئام والاكتمال والتوحد، ويجيء الخبر المتمم للبناء اللغوي وهو "كالبنيان"، وذلك الخبر هو نفسه الذي يجسد حالة الاكتمال المعنوي والواقعي والحسي.

ولا يصمد البنيان إلا بتماسك لبناته، وتجاذب ذراته، وتعاطف مكوناته.

والجملة الثانية: "يشد بعضه بعضًا": لا تنفصل عن جو التماسك، ومناخ الترابط، ولكنها هي التي تؤكد هذا التماسك، فهى مستأنفة لبيان وجه الشبه، وصيغة المضارع هنا ترشد إلى ضرورة استمرار هذا الترابط بين أفراد الأمة وجماعاتها، وبين الدول الإسلامية: فهم أمة واحدة، والجملة الرابعة: "وشبك بين أصابعه"، تضفي على الصورة طابع الحركة، والتوضيح بالإشارة وذلك تقريب لوجه التشبيه وبيان للتداخل: كما يقول صاحب دليل الفالحين، وهل هناك أشرف وأسمى وأقوى من أن تكون الأمة متشابكة متحدة وهى في اتحادها ونقائها تحاكي أصابع المصطفى ﷺ: وهو مَنْ هو: فضلاً وشرفًا، وقوة وحكمة، وبلاغة وعصمة، وفطنة، وصدقًا وأمانة، يقول القرطبي: هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه.

فالصورة البيانية هنا: تحض على التآخي الإسلامي، وقد أضحى هذا التآخي -في ظل هذه الصورة- ظاهرًا مرئيًا، ويمكن أن نقول: صار ملموسًا، وصار المؤمن إلى جانب أخيه المؤمن لبنة متينة، والمتانة هى التمسك بأوامر الدين، والانزجار عن نواهيه، ولو لا متانة اللبنة لفقد البناء تماسكه، وهذا يعني أن الإسلام يوفق بين خيرية الذات

والخيرية تجاه المجتمع، والتوازن بينهما يدل على عافية وقوة، والإخلال بأحد الطرفين مدعاة لانحسار وزوال، ويحض هذا الحديث من خلال هذه الصورة التشبيهية، على الحب، وينفي الأنانية والأثرة كما تذوب هذه اللبنة في البناء، ولا يعطي قيمة للذات المفردة -كما صنعت الفلسفات الكافرة- فلا قيمة لها إلا داخل هذا التشكيل البنائي الذي يوطد مفهوم الإسلام وروح الجماعة[1]، وما أجمل أن يكون هذا الحديث في بداية باب تعظيم حرمات المسلمين والتعاون على البر والتقوى، والتلاؤم والتماسك بين الأفراد والجماعات في الأمة الإسلامية هو الطريق إلى وحدة الأمة وقوتها، واستعادة أمجادها وفتوحاتها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، التشبيه والتمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين المسلمين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التراحم والملاطفة والتعاضد.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان حقوق المدعوين بعضهم على بعض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، التشبيه والتمثيل:

١- **الإخبار:** حيث أخبر النبي ﷺ بكون المؤمن للمؤمن كالبنيان، والإخبار أسلوب دعوي مهم يقوم على تعريف المدعوين بأمور دينهم، وإخبارهم بحقائق الإسلام. ومن أهم ما ينبغي أن يتوافر في الخبر مصداقيته لكسب الثقة لدى المدعوين، وهذا يلزم الداعية أن يعرض حقائق الإسلام من خلال أخبار القرآن والسنة إذ يتوافر فيهما الصدق وقد قال الله عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] وأما السنة

---

(١) المرجع السابق ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

الصحيحة فهي وحي الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[(١)]. وحذر رسول الله ﷺ من الكذب عليه في أخباره وأقواله وأحواله ففي الحديث: ((من كذبَ عليَّ متعمدًا فليَتبوَّأْ مَقعدَهُ منَ النارِ))[(٢)]. فعلى الدعاة استصحاب أسلوب الخبر لنشر الدعوة الإسلامية وتعريف المدعوين بربهم.

٢- **التشبيه والتمثيل:** يستخدم أسلوب التشبيه والتمثيل لتقريب المعاني إلى المدعوين، وتوصيل المعنى المراد لهم ولذا استخدم النبي ﷺ في الحديث أسلوب التشبيه عندما قال: "كالبنيان" والتمثيل عندما "شبك بين أصابعه" زيادة في إيضاح الصورة للمدعوين. قال الميداني: (ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صور متخيلة في أذهان المخاطبين، ودلائل هذا في القرآن والسنة كثيرة منها قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[(٣)] ففي أخيلة الناس صورة بشعة مرعبة لرؤوس الشياطين فجاء تقريب صورة طلع هذه الشجرة الخبيثة بأنه يشبه أبشع وأقبح صورة تتخيلونها وهي رؤوس الشياطين)[(٤)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين المسلمين:

جاء في الحديث أن "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا" وفي هذا حث على التعاون بين آحاد المسلمين، قال القاضي عياض: (وقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" فيه الحض على تعاون المسلمين، وتناصرهم، وتآلفهم، وتوادّهم، وتراحمهم، وتمثيله ﷺ في ذلك بالبنيان وفي الحديث الآخر كالجسد تمثيل صحيح،

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٣.

(٣) سورة الصافات، آية: ٦٢-٦٥.

(٤) مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١٤٨-١٤٩.

وتقريب للأفهام في إظهار المعاني في الصورة المرتبة، فيجب على المسلمين امتثال ما حض عليه رسول الله ﷺ من ذلك والتخلق به[1]. وقال النووي: (هذا الحديث ونظراؤه أحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام)[2].

وقد أمر الله بالتعاون والتعاضد في القرآن فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3] والمعنى (من واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البر والتقوى لأن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها، وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خلقًا للأمة)[4].

ومن صور التعاون التي أبرزها القرآن ما حكاه على لسان ذي القرنين ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[5] وما حكاه عن بناء البيت من قبل نبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[6].

وجاء في صحيح البخاري قصة بناء البيت بطولها وفيها (... ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني بأمر أن أبني هاهنا بيتًا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٦/٨، ٥٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٣/٦/٨٧، ٨٨.

(٥) سورة الكهف، آية: ٩٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٧.

رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني)[١].

هذا وقد حثت السنة النبوية على التعاون فقال رسول الله ﷺ في الحديث: "المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"[٢]. والنصوص الشرعية كثيرة في بيان فصل التعاون لما له من أهمية في تحقيق الوحدة بين المسلمين. فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبرَّ بطنه وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلَى قد بَغَوْا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا)[٣].

قال ابن أبي الدنيا: "قال عطاء بن أبي رباح: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم. وقال أبو جعفر بن صهبان: كان يقال: أول المودة طلاقة الوجه، والثانية التودد، والثالثة قضاء الحوائج، وقال أبو حمزة الشيباني لمن سأله عن الإخوان في الله من هم؟ قال: العاملون بطاعة الله عز وجل المتعاونون على أمر الله عز وجل وإن تفرقت دورهم وأبدانهم وقال ابن المعتز: من اتخذ إخوانًا كانوا له أعوانًا)[٤].

ثالثًا- الحث على التراحم والملاطفة والتعاضد:

إن مما يستنبط من عموم الحديث الحث على أهمية التراحم والتعاضد والملاطفة

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١٠).

(٣) أخرجه البخاري ٤١٠٤، ومسلم ١٨٠٣.

(٤) الإخوان لابن أبي الدنيا، ص ١٢٤-١٢٧ نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٣/١٠٢٦-١٠٢٧.

والشفقة بين المسلمين، وقد أمر الله نبيه في القرآن بذلك فقال له: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[2] قال البغوي: (يعني لو كنت جافيًا سيء الخلق قليل الاحتمال غليظ القلب) قال الكلبي: (فظًا في القول غليظ القلب في الفعل لنفروا وتفرقوا عنك)[3].

لقد أمر الإسلام بالتراحم العام، وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع.

وقد وصف الله تعالى المجتمع المؤمن بأنه متماسك بهذا العطف المتبادل، فقال عن أهله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[4] وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[5] والإسلام كله رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم، وقد قال تعالى لرسول ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[6] وسور القرآن الكريم مفتتحة بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" باستثناء سورة التوبة.

إن القسوة في خُلُق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير، فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرور عن صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا

---

(١) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٢/١٢٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[(1)])[(2)].

وقد ضرب الرسول ﷺ القدوة والمثل الصالح في الحث على التراحم والملاطفة فعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أنّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ يَتقاضاهُ فأغلَظ، فهمّ بهِ أصحابهُ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ دَعوهُ فإنّ لصاحبِ الحقّ مَقالاً. ثمّ قال: أعطوهُ سِنًّا مِثلَ سنّهِ، قالوا: يارسولَ اللهِ، لا نجِدُ إلاّ أمثَلَ مِن سنّه، فقال: أعطوهُ، فإنّ من خيرِكم أحسنَكم قضاءً))[(3)]. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ. إِنِ اشتكى رَأْسُهُ، تداعى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ))[(4)]. وربط رسول الله ﷺ بين رحمة الله ورحمة الناس فقال: ((لا يَرْحَمُ اللّه مَنْ لاَ يَرْحَمُ الناسَ))[(5)]. والرحمة هنا يراد بها عموم الرحمة المشروعة، ومن الرحمة الواجبة كف الأذى عن المسلمين، وإغاثة الملهوف، وفك العاني وإحياء المضطر واستنقاذ الغريق والواقع في هلكته وتسميته. ومن ذلك: سد خلة الضعفاء والفقراء من الواجبات.

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان حقوق المدعوين بعضهم على بعض:

الحياة سلسلة من الحقوق والواجبات فما من حق لشخص إلا وهو واجب على آخر، ولذا وجب على الداعية إبراز هذه الحقوق وبيانها للمدعوين، حتى يلتزم كل طرف بما عليه، ويتحقق تماسك المجتمع فيما بينه، وإن الناظر المتأمل في نصوص القرآن والسنة يرى بيانًا للحقوق والواجبات، وتنظيمًا دقيقًا لعلاقة الفرد مع ربه، ومع نفسه ومع الآخرين وعلى الدعاة استخراج هذه النصوص والاستفادة من معطيات ومقررات القرآن

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٢) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٠٦، مسلم ١٦٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠١١، مسلم ٢٥٨٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧٣٧٦، مسلم ٢٣١٩.

الكريم وتعريف المدعوين بها لتعميق روح الاتحاد والتآلف مما يكون له أثره الفاعل في تقوية البناء الاجتماعي للأمة الإسلامية. (ولا ريب أن أقوى عوامل نهوض الأمم هو اجتماع القلوب، واتحاد الكلمة فما تمسكت به أمة إلا ظهر سلطانها وقويت شوكتها، ودامت دولتها، وبلغت في الرقي ورغد العيش أقصى الغايات، وأرفع الدرجات. وما تفرقت أمة واختلت كلمتها وتنازعت في أمرها إلا اضمحل سلطانها، وضعفت قوتها، ودالت دولتها وتبدل عزها ذلاً ورفعتها ضعة وانحطاطًا، وكان من نصيبها: الفشلُ والخسرانُ المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ونهى عن التفرق والتنازع)(١).

قال الماوردي: (واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مُسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذٍ جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة، ويهلكوا عجزًا وأما إذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لأن ذا الحاجة وصول، والمحتاج إليه موصول)(٢).

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ ٤٨٩.

(٢) أدب الدنيا والدين ١٣٥.

الحديث رقم (٢٢٣)

٢٢٣- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيب أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

النَّبل: أي السهام، والجمع نِبال وأنبال[2].

نصالها: جمع نصل: حديدة الرمح والسهم والسكين[3].

الشرح الأدبي

تنطلق من هذا الحديث أشعة الرحمة، وأنوار التآلف، ومصابيح المودة والأخوة، وهذه الأشعة الإيمانية تتماوج مع ما في الحديث السابق من حقيقة التآلف الإيماني، والتوحد العضوي فيما بين المسلمين فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكذلك تتصل أشعة هذا الحديث بما بعدها من مشاعر وأحاسيس بالتماسك والتآزر في الحديث التالي الذي يجعل من المسلمين جسدًا واحدًا، وكائنًا متوحدًا في التواد والتراحم والتعاطف، فهم في ظلال الحق فرد مُجَمَّعٌ، وهم في مقابلة الشدائد جمع مُوحَّد، وهذا الحديث يحيل هذه المشاعر وتلك الأحاسيس إلى سلوك عملي، ومنهج حياتي: فالمؤمن يخاف على أخيه المؤمن، ويحرص على سلامته، ولذلك يقدم رسول الله ﷺ هذا المنهج الوقائي في إشاعة الأمن والسلامة بين أبناء الأمة عن طريق صيغة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٦١٥/١٢٣)، والسياق للحميدي في جمعه (٣٠١/١، رقم ٤٣٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ب ل).

(٣) المرجع السابق في (ن ص ل).

لغوية تجسد المعنى، وتفصح عن مكنونه وثمراته المرجوة.

وهذه الصيغة هي: صيغة الشرط والجواب، والحديث كتلة واحدة وكأنها صورة لتوحد الأمة، ويجمع الحديث بين المساجد والأسواق في ضرورة المحافظة على أمن الناس، وسلامتهم من الأخطار، فالمساجد يتجمع فيها الناس للعبادة.. وتلقي العلم النافع، والأسواق تموج بالحركة الحياتية التي لابد منها للبيع والشراء والسعى على الرزق، ويزدحم فيها الأفراد، وتختلط فيها الأمور، ولذلك يقول المصطفى ﷺ: "إياكم وهوشات الأسواق"(١)، وعلى الرغم من ذلك فإن المصطفى ﷺ حرص على سلامة أفراد الأمة في المساجد والأسواق، وحذر من فوضى استعمال السلاح، والألعاب، وغير ذلك من الأمور التي تعود بالضرر على الناس.

وقال: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل: فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه" والتحذير يأتي لمن يمر ولو بجزء يسير من السوق أو المسجد، والذين يرتادون المساجد، ويمشون في الأسواق، ويبيعون ويشترون هم أولى بهذا التحذير، وذلك النهى، ولذلك يوحي قوله: "في شيء" بوجوب الحذر حتى لو كان المرور قليلاً زمانًا ومكانًا، "ومن" تفيد التبعيض، والجزئية، ومجيء "مساجدنا وأسواقنا"، في صيغة الجمع المتكلم، إرشاد إلى وحدة الأمة، وتماسكها، وإيحاء بعدم تفرقها وانقسامها إلى طوائف وفرق وشيع: وكل يدعى أنه صاحب الحق، وأن له أسواقًا خاصة، ومساجد خاصة، وقد توحي هذه الصيغة بأن هذا التحذير يشمل غير المسلمين الذين يمرون بحمى المساجد، وأسواق المسلمين وفي يدهم السلاح أو النبل، وجملة "ومعه نبل"، حالية: فهى تصور ذلك المار وهو متشح بما معه من نبل أو غير ذلك من أنواع السلاح، وجواب الشرط جاء في صيغة المضارع المقترن بلام الأمر، فهو أمر صريح، يوحي بوجوب استمرار الإمساك والقبض على النصال: وهى الحديدة التي في رأس السهم، أو تأمين

---

(١) أخرجه أحمد ٤٥٧/١ رقم ٤٣٧٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٣٨٠/٧. وهوشات الأسواق: اضطرابها وهياجها.

السلاح أيا كان نوعه، والتعبير بـ "على"، يفيد الاستعلاء والتمكن من السلاح حتى لا ينطلق منه ما يؤذي المسلمين، ويزهق أرواحهم، وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير مخافة أن يصيب أحدًا من المسلمين منها -أي بسببها- فمن هنا للتعليل، والحديث من خلال صيغته اللغوية، والعلاقات بين الكلمات، وطريقة النظم درس إيماني واجتماعي: من دروس النبوة في ضرورة تعظيم حرمات المسلمين، ودعوة إلى انضباط الحركة في دور العبادة، وفي الأسواق: والمحافظة على الأرواح، وإشاعة ثقافة الأمان والنظام في آفاق المجتمع الإسلامي.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بالمحافظة على السلاح المحمول لئلا يؤذي أحدًا من المسلمين في المساجد أو الأسواق.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[(١)] إلى أنه يجب على من دخل المسجد أو السوق وهو يحمل سلاحًا أن يقبض على نصله ولا يجعله مُشْرَعًا فيؤذي أحدًا من المسلمين، ويطبق الأمر نفسه على الأسلحة الحديثة حيث يجب تأمينها لئلا تؤذي أحدًا من الناس، وذكر ابن حجر[(٢)] أنه يستحب ذلك، والأولى القول بالوجوب لما فيه من توقي وقوع الضرر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، الأمر.

ثانيًا: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفوس.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حث المسلمين على مراعاة عوامل السلامة والأمان.

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٢٨٠/٤، الأم للشافعي ٢٥١/١، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠٥/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٥٤٦/١.

الأول- من أساليب الدعوة: الشرط، الأمر:

١- الشرط: حيث جاء في الحديث "من مَرَّ" ومما لا شك فيه أن الشرط أسلوب من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو إلى جواب الشرط، مما يؤدي إلى شد انتباه المدعوين.

٢- الأمر: ورد الأمر في هذا الحديث في قوله "فليمسك" ويعد أسلوب الأمر من الأساليب الدعوية التي تشعر المدعو بمدى أهمية المأمور به، ويكون أدعى لتنفيذه.

ثانيًا- من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين:

من الصفات التي تعمل على تحقيق التواصل بين الداعية والمدعو، الشفقة التي يتحلى بها الداعية، وتجعله حريصًا على إسداء الخير للمدعوين، وفي هذا الحديث تظهر شفقة النبي ﷺ في قوله: "فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" وقد وصف الله نبيه في القرآن بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] قال السعدي: (يمتن الله على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم يعرفون حاله ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، وهو حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر ويسعى جهده في تنفيركم عنه، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق وواجبٌ على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه)[2]. وخاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3] وهكذا يجب أن يكون الداعية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفوس:

يتضح هذا في توجيه النبي ﷺ للقبض على النصال حتى لا تصيب أحدًا من المسلمين، حيث قال ﷺ: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" فأمر ﷺ في الحديث بأخذ النصل وهي حدائد السهام وبين العلة في قوله "أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء" أي مخافة أن يصيب، ولئلا يصيب، وفي ذلك بيان لصورة من صور رحمته ﷺ بأمته حيث خشي عليهم، برأفته بالمؤمنين ورحمته بهم، ما يصيب بعضهم منها من خدش أو أذى عند مروره من غير قصد، وألا يتأذى بعضهم من بعض بمثل هذا القدر[1].

ويعتبر الحفاظ على النفس من مقاصد الإسلام الكبرى، ومن الضرورات الخمس التي يجب المحافظة عليها، وفي سبيل هذا قرر الإسلام حد القصاص قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] وجعل الإسلام من يقتل نفسًا واحدة فكأنما قتل الناس جميعًا قال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3]. قال ابن كثير: (ومن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعًا لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار)[4]. وقال ﷺ ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ . دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[5].

(١) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ٩٤/٨، ٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٢/٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

قال السيد سابق: (وقد شرع الله سبحانه، القصاص وإعدام القاتل، انتقامًا منه، وزجرًا لغيره وتطهيرًا للمجتمع من الجرائم التي يضطرب فيها النظام العام، ويختل معها الأمن، ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس، فالقصاص حق، سواء أكان المقتول كبيرًا أم صغيرًا، رجلاً أم امرأة فلكل حق الحياة، ولا يحل التعرض لحياته بما يفسدها بأي وجه من الوجوه، وحتى في قتل الخطأ لم يُعف الله تعالى القاتل من المسؤولية، وأوجب فيه العتق والدية وهذه العقوبة المالية إنما أوجبها الإسلام في القتل الخطأ احترامًا للنفس حتى لا يتسرب إلى ذهن أحدٌ هوانُها، وليحتاط الناس فيما يتصل بالنفوس والدماء، ولتسد ذرائع الفساد حتى لا يقتل أحد أحدًا، ويزعم أن القتل كان خطأ ومن شدة عناية الإسلام بحماية الأنفس أنه حرم إسقاط الجنين بعد أن تدب فيه الحياة، إلا إذا كان هناك سبب حقيقي يوجب إسقاطه، كالخوف على أمه من الموت ونحو ذلك)[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حث المسلمين على مراعاة عوامل السلامة والأمان:

حيث وجه الرسول ﷺ إلى أخذ وسائل الاحتياط إذا صادف دخول المسجد بسلاح بالقبض على النصال، فقال ﷺ: "من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء"وفي هذا شيء من الآداب التي شرعها الإسلام، وهو الإمساك بنصال النبل ويقاس عليها جميع الأسلحة وما شاكلها من المؤذيات والقواطع عند إرادة المرور بين الناس في مسجد أو سوق أو غيرهما[2]. وفي هذا تعليم للمسلمين لأخذ وسائل الاحتياط للحفاظ على النفوس، وهذا لا ينافي التوكل على الله، وإنما هو من قبيل الأخذ بالأسباب وقد قال الله عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾[3]، ولقد وجه الرسول ﷺ إلى مراعاة عوامل السلامة والأمان مثل ما جاء في الحديث: ((غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً، وَلاَ يَفْتَحُ بَابًا، وَلاَ يَكْشِفُ إِنَاءً.

---

(١) إسلامنا ٢٧١-٢٧٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٥٨.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٩.

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْرُضَ عَلَىٰ إِنَائِهِ عُودًا، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللّه، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ))[1].

قال النووي: (هذا الحديث فيه جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لصالح الدنيا والآخرة فأمر النبي ﷺ بهذه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان، وجعل الله عز وجل هذه الأسباب أسبابًا للسلامة من إيذاء الشيطان، فلا يقدر على كشف إناء ولا حل سقاء، ولا فتح باب ولا إيذاء صبي وغيره إذا وجدت هذه الأسباب)[2].

ويجب على الدعاة أن يوجهوا المدعوين إلى أخذ وسائل الاحتياط والسلامة والأمان في أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٧٨.

الحديث رقم (٢٢٤)

٢٢٤- وعن النُّعْمَانِ بنِ بشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائِرُ الْجسدِ بالسهَرِ والْحُمَّى**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

تداعي: أي دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم[2].

الحمى: علة يَسْتَحِرُّ بها الجسم[3].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف المؤمنين بالجسد في حركتهم الحياتية، وتطلعاتهم المستقبلية، وإعدادهم القوة لمواجهة أعدائهم، وتكاتفهم في مواجهة الأزمات والمؤامرات الداخلية والخارجية، فالمؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وحين نتأمل جماليات البناء اللغوي والجمالي في هذا الحديث الشريف نجد أنه قدم صورة جمالية في إطار التشبيه التمثيلي، والصورة التشبيهية تضع بين قارئها أو سامعها معطياتها بلا مواربة، وتسعى إلى إغناء أبعادها بتفصيلاتها الداخلية والألوان والمحسوسات الأخرى، كما يقول د. فايز الداية، ويكثر في الحديث النبوي، أن يقدم التشبيه القائم على التمثيل صورًا حركية رائعة في مكان، وإن كان مختزلاً في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٦٦/٢٥٨٦).

(٢) فتح الباري ٤٥٤/١٠.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح م ى).

مكان آخر، كما يقول صاحب كتاب الصورة الفنية في الحديث النبوي.

وكلمات الحديث تتآزر مع الصورة التشبيهية في تقديم الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها المؤمنون في حركتهم الحياتية الشاملة مودة وتعاطفًا وتراحمًا، فكلمة "مَثَلَ" تعني صفة: أي صفة المؤمنين كصفة الجسد في تماسكه الشعوري والنفسي والحسي، فلا انفصال بين المؤمنين في أي حال من الأحوال، حتى لو انفصلت أمة وتوهمت قوتها في استقلالها وانفصالها، فإن الضياع مصيرها، والهلاك عنوانها، والضعف ثمرتها، وواقع الأمة الإسلامية الآن خير دليل على التفكك والضعف والهوان، وتحديد المؤمنين في هذهِ الصورة إرشاد إلى ضرورة إخلاص المسلم في تطبيق معالم عقيدته، لأن الإيمان هو: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، فلا يكفي أن يرفع المسلم شعار إسلاميته، ولكن لابد من هذه الدائرة التكاملية: التصديق بالقلب، والنطق باللسان، ثم العمل والتنفيذ لكل ما أوجبته الشريعة: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

والتعبير بقوله: "توادهم"، بهذه الصيغة التي أضفى عليها الإدغام شدة وتماسكًا يوحي بتماسك الأمة وترابطها فصورة اللفظ التعبيرية والإيقاعية هي صورة للمعنى المراد والهدف المقصود، فالتوادد تفاعل من المودة وهي: تَقَرّبُ شخصٍ من آخر بما يحب. فالإيقاع الصوتي: يجسد تماسك الأمة وترابطها في النكبات وفي المسرات.

وقد فرق العلماء بين التواد، والتراحم، والعطف: حتى لا يتوهم البعض أن في الحديث إسهابًا، أو ترادفًا معيبًا، وكيف؟؟، والنبي المصطفى ﷺ أفصح العرب، وقد أعطى جوامع الكلم، فالتراحم: المراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، والتوادد، المراد به: التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، والتعاطف: إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف طرف الثواب عليه ليقويه[2]، وهذا التفريق الدقيق بين هذه المواد اللغوية، يجعلها تفيض بأبعاد متعددة تحكم العلاقة بين المؤمنين،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ٤٠٦.

وهي: البعد الإيماني في تراحمهم، والبعد الاجتماعي في توادهم، والبعد الإنساني التكافلي في تعاطفهم، وفي الحديث من خلال هذه الصورة إعجاز طبي في قوله: "تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، فلو أردنا أن نتخيل أن الجسد قد تداعى لهذا العضو بالسهر والحمى، لما استطاع الخيال أن يحيط إلا بحركة الأطراف، وهذا لا يفي بالمعنى، فهل تبقي الصورة ساكنة، ففي الحديث كما يقول أحد الباحثين، إشارة إلى الغدد اللمفاوية المتوزعة في الجسم، والمتكاثفة في الثنايا، وعندما يصاب الجسم بأي أذى، ولو كان جرحًا طفيفًا أو خدشًا تعمل هذه الغدد على زيادة إفراز نوع من الكريات البيضاء التي تقاوم الجراثيم والالتهابات من خلال مادة تدعى الانترلوكيد[1]، والحمى والسهر في الحديث يشير إلى ذلك، وقد شبه ﷺ الإيمان بالجسد وأهله بالأعضاء، لأن الإيمان أصل وفروعه التكاليف، والجسد أصل كالشجر وأعضاؤه كالأغصان، فالحديث صورة صادقة لواقع الأمة الإسلامية.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل والتشبيه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التراحم والمودة بين المسلمين.

ثالثًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية وفضل وحدة الصف.

أولاً- من أساليب الدعوة: التمثيل والتشبيه:

حيث شبه النبي ﷺ المؤمنين في ترابطهم بالجسد الواحد، فقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ولا شك أن أسلوب التمثيل والتشبيه يقرب المعنى إلى أذهان المدعوين، قال القاضي عياض: (فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية)[2].

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف، ص ٤١٧.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٧/٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٥٤/١٠.

قال الشيخ علي محفوظ: (لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس؛ فإن المقصود من ضرب الأمثال: أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته، ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب في الإيمان إذا كان مجردًا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة. ولاشك أن إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداءً أو مجيئه في أعقاب المعاني وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها آكد وقعًا في القلوب وأبلغ أثرًا في النفوس)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التراحم والمودة بين المسلمين:

من الموضوعات الدعوية المهمة موضوع التراحم والمودة بين المسلمين، فقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ..." وقد جاءت الوصاية بها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[2] قال ابن كثير: (كان من المؤمنين، العاملين صالحًا، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث ((الرّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرّحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السّماءِ))[3] فالمتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين)[4]. هذا وقد جاءت الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[5].

وقد حث رسول الله ﷺ على التراحم بين المؤمنين فقال في الحديث ((رحمَ الله

---

(١) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ١٧٧-١٧٨.

(٢) سورة البلد، آية: ١٧.

(٣) أخرجه أحمد ٢/١٦٠، رقم ٦٤٩٤، وقا ل محققو المسند: صحيح لغيره ١١/٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٠٩.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٧.

رجُلاً سَمحًا إذا باعَ، وإذا اشترَى، وإذا اقتَضى))[١].

وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف، فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف الثوب عليه ليقويه، وفي الحديث تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضًا)[٢]، ولا شك أنه من خلال التراحم والتعاطف والتلاطف تتحقق معاني الأخوة الإيمانية التي أمر الله بها.

لقد أمر الإسلام بالتراحم، وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، وقد وصف الله تعالى المجتمع المسلم بأنه متماسك بهذا العطف المتبادل، فقال عن أهله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٣] وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤])[٥].

(إن الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة الصماء، والحجر الصلد فإن حقيقة الإنسان ليست في هذا الغلاف الطيني من لحم ودم وعظم، وإنما هي تلك اللطيفة الربانية والجوهرة الروحية التي بها يحس ويشعر وينفعل ويتأثر ويتألم ويرحم هي القلب الحي.

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حي مرهف لين رحيم يتجاوب به الأحداث والأشخاص، فيرق للضعيف ويحنو على المسكين ويمد يده إلى الملهوف،

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٠٧٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ٢٠٥.

وهذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأفئدة القاسية[١].

ثالثًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من أهم واجبات الداعية تقديم النفع للآخرين وإرشادهم -دائمًا- إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة وقد بشر النبي ﷺ من يدل على الخير ويرشد إليه بقوله: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[٢]، قال النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما من يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[٣]. وحينما يستشعر المدعوون حرص الداعية على نفعهم وإرشادهم إلى الخير فإنهم يقبلون عليه، ويستجيبون لموعظته لأنهم لمسوا فيه الحرص على مصلحتهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل وحدة الصف:

مما لا شك فيه أن الاتحاد قوة والتفرق ضعف، وهذا الحديث يشير إلى أهمية وحدة الجماعة المؤمنة ووحدة الصف الإسلامي، وقد بين الله أن من عوامل الوحدة والاتحاد تحقيق معاني الأخوة الإسلامية واستشعارها فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤] وأمر المسلمين أن يعتصموا بكتاب ربهم لتحقيق وحدتهم فقال جل شأنه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٥] وذكرهم أن من نعم الله عليهم التأليفَ بين قلوبهم فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1] وأرشد أنه سبحانه يحب وحدة الصف فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2] ونهى الله عز وجل عن التفرق والاختلاف فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]. وذم المتفرقين فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[5].

وحث الرسول الكريم على وحدة الجماعة المؤمنة فقال ﷺ: ((يدُ الله مع الجَمَاعَةِ))[6] وقال أيضًا: ((عَلَيْكُمْ بالْجَماعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَماعَةَ))[7] وقال أيضًا: ((المؤْمِنَ للمؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا))[8]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ اللّهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ. وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الصف، آية: ٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٥) سورة الروم، آية: ٣١، ٣٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٢١٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٩).

(٧) أخرجه الترمذي ٢١٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٨).

(٨) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥.

(٩) أخرجه مسلم ١٧١٥، واللفظ له وبعضه عند البخاري برقم ٥٩٧٥.

إن تكاثر هذه النصوص القرآنية والنبوية يدل على أهمية وفضل وحدة الصف مما يستلزم أن يقوم الدعاة إلى الله باستحضار هذه النصوص، وبيان مضامينها للمدعوين ليتحقق للأمة الإسلامية الاتحاد والاجتماع.

إن من أبرز مظاهر الوعي في الأفراد شعورهم بحق الجماعة عليهم، وتصرفهم في حدود التعاون الاجتماعي، حتى يكون المجتمع كبناء متراصٍّ لا تجد فيه ثغرة ولا خللاً، وبهذا المقياس يقاس رقي الأمم وخلود الحضارات وعظيمة الديانات.

إن الإسلام يحتل مكان الصدارة بين الديانات التي تدعو إلى التعاون وتحارب العزلة والإنكماش، وتقوي صلة الفرد بالمحيط الذي يعيش فيه عن طريق العبادة والتربية والتشريع[1].

(١) انظر أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي، ص ٤١، ٤٢.

الحديث رقم (٢٢٥)

٢٢٥- وعن أَبي هُريْرَةَ رضي الله عنه قال: قبَّل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْحسنَ بن علَيٍّ رضي الله عنهما، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فقال الأَقْرَعُ: إنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْولَدِ ما قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحداً فنَظَر إِلَيْهِ رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم فقال: «مَن لا يَرْحمْ لا يُرْحَمْ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

ما أروع هذا المشهد الإنساني الجميل، وما أجمل القيم التي يغرسها المصطفى صلى الله عليه وسلم في نفوس الصالحين من أبناء أمته، وهذه القيم الإسلامية التي تمثلت في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم تتصدرها قيمة الرحمة بالأبناء والعطف عليهم، ومعاملتهم بالحسنى، وحسن تنشئتهم لأنهم ثمرة مستقبل هذه الأمة، وهم أشجارها الصاعدة، ونجومها الواعدة، وفرسانها القادمون، وعلماؤها الآتون من رحم الجدّ والمثابرة والحب والإخلاص.

والمشهد الجميل في هذا الحديث يؤكد رقة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته لحفيده الحسن بن علي، وابن بنته فاطمة رضي الله عنهم، وما أحوج الأمة الإسلامية وهى ترسى دعائم حضارتها، وتؤسس أركان قوتها إلى إعداد الأبناء إعداداً نفسيًا وشعوريًا وجسمانيًا وعاطفيًا قويًا وجميلاً، ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا اتخذنا منهج المصطفى صلى الله عليه وسلم قدوة لنا في كل مناحى حياتنا وفي مقدمة هذه الاهتمامات: أن نحسن التعامل مع أبنائنا ومع الأطفال بصفة عامة، وقد عنى الإسلام بمستقبل الطفل، وأمر الآباء برعاية الأبناء، وأرشدهم إلى ضرورة إكساب الطفل المهارات والقدرات التي تجعل منه رجلاً قويًا ثابتًا متزنًا في مستقبله، وفي عهد الشباب والفتوة، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم هو القدوة والنموذج الأعلى في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٦٥/٢٣١٨)، والسياق للحميدي في جمعه (٦٨/١، رقم ٢٢٤٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٤٢). وسيكرره المؤلف برقم (٨٩٤).

والحديث في ضوء هذا المنهج التربوي السديد -يبدأ بالفعل: "قبَّل"، وعنده "الأقرع ابن حابس"، فالمصطفى ﷺ يُقبل حفيده أمام الناس، ولا يتوارى من ذلك، وهو بهذا السلوك يرسى قاعدة من قواعد السلوك التي يجب أن تسود حتى تترسخ عاطفة الحب والتنشئة الصحيحة، والعلاقات الجميلة بين الآباء والأبناء، وبين أبناء البيت الواحد، وبين أبناء الأمة كلها.

وحينما يرى الأقرع بن حابس هذا المشهد الفطري الجميل: يبادر ويسرع فيقول: وهو يبدي اعتراضه على هذا المشهد المؤثر "إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا" وهذا الاعتراف المُنْكر يبديه صاحبه في أسلوب التوكيد، وكأنه يتفاخر بذلك، وقيل: إن هذا السلوك من ذلك الرجل، يرجع إلى أنه من أهل البادية، وهم أهل غلظة وجفاء، وقد أنكر الرسول ﷺ ذلك، وبدا هذا الإنكار في قولة الراوي، وهو ينقل حركة رسول الله ﷺ، وطريقة اعتراضه على إقرار الأقرع بن حابس، يقول الراوي: "فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال" والعطف بالفاء في "فنظر، وقال" يرشد إلى سرعة إنكار الرسول لهذا السلوك المرفوض، وهذه العاطفة المتجمدة تجاه الأبناء، وقول رسول الله ﷺ: من لا يَرْحم لا يُرْحم، يعد قاعدة عامة، وعبارة موجزة تحمل كثيراُ من الدلالات، وهي من جوامع كلمه ﷺ، وتتنوع الدلالة حسب التأويل اللغوي، فمن اسم موصول وما بعدها، صلة الموصول[1]، أو أداة شرط وما بعدها فعل الشرط وجواب الشرط: ولكن الثمرة في النهاية أن من لا يرحم الناس فلن يستحق رحمة الله سبحانه.

فقه الحديث

يتعرض الحديث لصفة من الصفات التي يتحلى بها المؤمنون حقًا وهي صفة الرحمة بالصغير فمن لا يرحم لا يرحم، ومن لا يوجد في قلبه رحمة بالناس وخاصة صغارهم لا يؤمن على شيء.

---

(١) انظر: الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبدالدايم، ص ٢٠٤-٢٢٨، مبحث: أدب الطفولة.

وقد اتفق الفقهاء[(١)] على أنه يجوز، بل يسن للرجل تقبيل ولده الصغير على الرأس والجبهة والخد، وكذا ولد قريبه وصديقه ذكرًا كان أو أنثى -غير مكلفة- على سبيل الشفقة والرحمة واللطف، فإن كانت هناك شهوة في التقبيل فهو حرام لخروجه عن معناه المشروع له.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

ثانيًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة.

رابعًا: من واجبات المدعو: الإخبار عن حاله ومعرفة مدى مطابقته للشرع.

خامسًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالمسلمين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته:

الأولاد هم مهجة القلب، وأغلى ما في الحياة، وقد جاءت الشريعة الإسلامية مراعية لهذه المحبة وهذه الشفقة. وقد طبق النبي ﷺ ذلك من خلال محبته للحسن والحسين رضي الله عنهما؛ حيث قال أبو هريرة رضي الله عنه: "قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي..." قال ابن حجر: (قال ابن بطال تعليقًا على باب رحمة الولد وقبلته ومعانقته[(٢)] يجوز تقبيل الولد الصغير في عضو منه وكذا الكبير عند أكثر العلماء ما لم يكن عورة)[(٣)]. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقبل ابنته فاطمة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما رأيت

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٧٠/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٧٧/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٤/٣، وحاشية الجمل على شرح المنهج للعجيلي ١٢٦/٤ ١٣٢/١٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم ١٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٤٢/٣.

أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلاً برسول الله ﷺ من فاطمة رضي الله عنها، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها))[١].

وكذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقبل ابنته عائشة رحمة وشفقة عليها؛ فعن البراء رضي الله عنه قال: ((دخلت مع أبي بكر أول ما قدم المدينة فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حمى، فأتاها أبوبكر فقال لها، كيف أنت يا بنية؟ وقَبّل خدها))[٢].

وقال ابن عثيمين في حديث الباب: (ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الرحمة في معاملة الصغار ونحوهم وأنه ينبغي للإنسان أن يقبل أبناءه وأبناء بناته، وأبناء أبنائه، يقبلهم رحمة بهم، واقتداءً برسول الله ﷺ ،أما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان، فتجده لا يمكن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه، ولا يمكن صبيه من أن يطلب منه شيئًا وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة)[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

للقدوة أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى، ومن الشواهد على القدوة الحسنة في هذا الحديث تقبيل النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه مما يدل على رحمته ﷺ وشفقته وحنانه على الصغار وأثر ذلك في نفوسهم، والنبي ﷺ هو القدوة الأول، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[٤].

قال القرطبي: (الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسّى به؛ أي يُتعزَّى به. فيُقْتدَى به في جميع أفعاله ويُتَعزّى به في جميع أحواله)[٥]، وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٢١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود ٥٢٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٥١).

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٥٦٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧/١٤/١٥٥.

لها من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ[١]. ومن هنا كان على الداعي أن يكون قدوة للمدعوين في جميع تصرفاته وأحواله.

وقد ذم الله بني إسرائيل لمخالفة أقوالهم وأفعالهم، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢]، وحسب الداعية قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

قال ابن القيم: (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع الطرق)[٤].

وما من شك في أن الداعية الذي يريد أن يصل بدعوته إلى أعماق قلوب المدعوين فلا بدّ وأن يقدم لهم من سيرته الحسنة وسلوكه الطيب ما يبرهن به لهم على صدقه في دعوته وفيما يرشدهم إليه.

(إن للقدوة الحسنة والمطابقة والتلازم بين القول والفعل أهمية كبيرة، ولذا فلا مناص لكل داعية أن يبذل غاية جهده ليكون قدوة حسنة في كل مجال، وأن يجعل أفعاله ترجمة لأقواله، وأن تكون أقواله مؤكدة لأفعاله فينال محبة القلوب، ويصل إلى قناعة العقول، ويحظى قوله وفعله وإرشاده ونصحه بالرضى والقبول)[٥].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٦٠٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآيتان: ٢ - ٣.

(٤) الفوائد ص ٨٠.

(٥) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ٤١.

إن القدوة الحسنة لها أثرها في الرعاية والتوجيه أكثر من القول أو الكلمة، فالرجل في أسرته والمرأة في أهل زوجها وولده، والعامل في مال غيره، كلٌّ من هؤلاء يحدث بسلوكه العملي الأثر النافذ في توجيه من يرعاه، والمجتمع كله ليس إلا رجلاً في أسرته وامرأة في أهل بيت زوجها وولده وعاملاً في مال غيره.

والاستجابة للقيادة التي تنيرها القدوة الحسنة أبقى وأسلم من تلك التي يحمل عليها الإكراه[1].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة:

يتبين هذا من تقبيل النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما مما يدل على رحمته وشفقته، فينبغي على الداعية أن يحرص على الرحمة والشفقة بالصغار سواء أكانوا أبناءه، أم أولاود أبنائه وبناته أم من الأجانب، لأن هذا يوجب الرحمة، وأن لديه قلبًا يرحم الصغار، وكلما كان الإنسان بعباد الله أرحم، كان إلى رحمة الله أقرب وقد قال النبي ﷺ "من لا يرحم لا يرحم" فدل ذلك على أنه ينبغي للإنسان أن يجعل قلبه لينًا عطوفًا رحيمًا[2]. فالرحمة والشفقة فضيلة، والقسوة رزيلة. والرحمة تكون بالأبناء وأثرها تقبيل ومعانقة، كما صنع الرسول ﷺ بالحسن. وتأديب وتربية وإجابة رغائب - ما دامت في سبيل المصلحة، وإبعاد من الشر وتكون بالآباء والأمهات وأثرها قول كريم، وصنع جميل، وطاعة في غير معصية وخدمة صادقة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[3]، وتكون بالأقرباء، وأثرها بر وصلة، وزيارة ومودة، وسعى في مصلحة، ودفع مضرة فعلى الداعية أن يتخلق بخلق الرحمة والشفقة لما لها من أثر في نشر الدعوة إلى الله"[4]. وقد قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا

---

(١) انظر: خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر، د. محمد البهي ص ١٢٤.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١١٦٨/٢.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٤.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٢٢.

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾[١].

قال السعدي: (أي برحمة الله لك ولأصحابك منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك)[٢]، وما أحوج الدعاة الآن أن يتصفوا بالرحمة والشفقة ليقبل عليهم المدعوون، ويسمعوا قولهم، وقد قال الله تعالى آمرًا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٣].

(إن كمال العلم في الحلم، ولين الكلام مفتاح القلوب، فيستطيع أن يعالج أمراض النفوس، وهو هادئ النفس مطمئن القلب لا يستفزه الغضب ولا يستثيره الحمق فتنفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس، ولو كان الداعي سيء الخلق جافيًا قاسي القلب فأغلظ لهم في القول تفرقوا عنه، وانصرفوا من حوله فحرموا الهداية بأنوار دينهم فعاشوا وماتوا جهلاء وذلك هو الشقاء، وهو سببه وعلته)[٤].

رابعًا- من واجبات المدعو: الإخبار عن حاله ومعرفة مدى مطابقته للشرع:

حيث أخبر الأقرع بن حابس أن له عشرة من الولد ما قبّل منهم أحدًا، وهذا من واجبات المدعو أن يخبر عن حاله وأفعاله للداعية، ويرى هل هي مطابقة للشرع الحنيف أم لا، وذلك لأن الإنسان قد يقع في بعض الأخطاء الشرعية عن جهل، ولو أنه سأل في الدين وأخبر عن حاله لعرف موقع الصواب من الخطأ في تصرفاته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[٥].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢١.

(٣) سورة طه، آية: ٤٤.

(٤) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، ص ٩٤.

(٥) سورة النساء، آية: ٨٣.

ولذا فإن من أوجب الواجبات على المدعو أن يعرض حاله على الشرع ليعرف مدى قربه أو بعده منه، وليدرك موقعه الحقيقي من الشرع، هل حياته وسلوكياته مطابقة للشرع أم بعيدة عنه، وليحاسب نفسه ويصحح مساره، ويستدرك ما فاته من تقصير فهذا مما لا يستغني عنه كل مؤمن.

خامسًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

ويتضح هذا من توجيه النبي ﷺ إلى الرحمة بقوله: "من لا يرحم لا يُرحم"، وبهذا يتأكد على الدعاة ضرورة الحرص على إرشاد المدعوين، ولهم على ذلك الأجر والمثوبة، ففي الحديث الشريف: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا)) [(١)]، ومن هنا كانت مهمة وواجب الداعية هي الدعوة إلى الخير والإرشاد إلى الفلاح.

سادسًا- من أساليب الدعوة: الشرط، الترهيب:

١- **الشرط:** حيث جاء في الحديث "من لا يرحم" والشرط أسلوب من أساليب الدعوة، وهو يحمل في داخله معنى التشويق، ويشدّ انتباه المدعوين إلى معرفة جواب الشرط، وأسلوب الشرط فيه أيضًا بيان ارتباط الجزاء بالعمل كارتباط الجواب بالشرط.

٢- **الترهيب:** وذلك من قوله ﷺ "من لا يرحم لا يُرحم" قال ابن حجر: (من لا يكن من أهل الرحمة فإنه لا يرحم، وقد يكون المراد أن الذي يفعل هذا الفعل من عدم تقبيل الأولاد فإنه لا يرحم)[(٢)].

ولا شك أن هذا الترهيب يدفع المدعوين إلى الإقبال على العمل، ذلك لأن أسلوب الترهيب في الدعوة يحمل النفس على الطاعة، ولكن يجب على الدعاة أن يوازنوا بينه وبين الترغيب، كما هو منهج القرآن الكريم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ابن حجر العسقلاني ٤٤٤/١٠.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالمسلمين:

يتضح هذا من مضمون الحديث، فمما لا شك فيه أن من موضوعات الدعوة المهمة الشفقة والرحمة بالمسلمين، وإن الناظر المتأمل ليجد أن بعثة النبي ﷺ في ذاتها كانت رحمة لجميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [(١)]، قال القاسمي: (وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطري، إلا حال كونك رحمة للخلق فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية فكل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبر مِنّة مَنّ الله بها على العالمين إذ أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان، ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من النار والعار، ويرفع عنهم الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى صراط الحق)[(٢)].

هذا وقد وصف الله الجماعة المؤمنة، والصحابة الكرام رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [(٣)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((جَعَلَ اللّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا. فَمِنْ ذٰلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ. حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ))[(٤)].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الضرورة بمكان أن تشيع الرحمة والشفقة بين المسلمين حتي ينالوا رحمة الله، ويحنو القوي على الضعيف، والغني على الفقير، والقادر على العاجز ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٢) محاسن التأويل ١١/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٠٠، ومسلم ٢٧٥٢.

(٥) سورة البلد، آية: ١٧.

إن الرحمة إن حلت في حياة الأفراد سادت المجتمع الفضيلة، لأن الفرد هو اللبنة الأولى في المجتمع، وهي متبادلة الحركة صعودًا ونزولاً، فالفرد الذي يرحم ذاته، سيصل إلى الكفاية والقناعة، فيُصدِّر شعوره بالرحمة إلى الآخر، وهكذا ترتفع قيمة الرحمة من الأسفل إلى الأعلى، وإذا كانت الرحمة واجبة على الفرد فالفرد بحاجة إلى مثل يدِّعم المثل الإيماني فيه، وهذا المثل يأتي من الحاكم الذي يتوجب أن يكون عدلاً رحيمًا رؤوفًا كما كان الرسول ﷺ وخلفاؤه، فصلاح الحاكم يعني صلاح الفرد وصلاح الفرد يعني صلاح المجتمع، وبالتالي فإن صلاح المجتمع يشف عن عدالة الحاكم ورحمته بمن ولي عليهم[(١)].

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بين صنيتان بن تنباك وآخرون، ٧٥/٢٦.

الحديث رقم (٢٢٦)

٢٢٦- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قدِم ناسٌ مِن الأَعْرابِ عَلَى رسول اللّه ﷺ، فقالوا: أَتُقبِّلونَ صِبيْانَكُمْ؟ فقال: «نَعَمْ» قالوا: لَكِنَّا واللّه ما نُقَبِّلُ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللّه نَزعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ[1] الرَّحمَةَ» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الأعراب: هم سكان البادية، المفرد أعرابي[3].

الشرح الأدبي

تتماوج أشعة هذا الحديث الشريف مع الحديث السابق في أفق دلالي واحد، وفي دائرة توجيهية واحدة، حيث يحرص رسول الله ﷺ على إعطاء القدوة والأسوة الحسنة في تنشئة الأطفال في ظل الحنان والعطف والمودة والرحمة، وقد قبَّل رسول الله ﷺ، الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس.

وهذا الحديث يكمل القصة نفسها، كما يقول كثير من العلماء، فهؤلاء الذين قدموا من الأعراب: كانوا من تميم، ورئيسهم الأقرع بن حابس، لأن الحوار يكمل بعضه بعضًا، وأبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ روى مشهدًا من مشاهد هذه القصة الواقعية، والسيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا روت مشهدًا آخر أو أكملت الحوار الذي بين رسول الله ﷺ، ووفد تميم من الأعراب حول هذا الشأن: وهو الحنو على الأبناء، وتقبيلهم لمزيد من الإيناس، والإشعار بالحنان والعطف والبنوة.

ولا غرابة في ذلك فالشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة كانت كما يقول

---

(١) لفظهما: (قلبك) بالإفراد.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٦٤/٢٣١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٤٣).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١١٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٥٧.

الرواة، تقبله وترقصه في مهده وهو لم يزل طفلاً رضيعًا وتقول له:

هــــذا أخ لــــي لم تلـــده أمـــي

ولـــيس مـــن نـــسل أبـــي وعمـــي

فأنْمـــــه الله فيمــــا تُنْمـــي[1]

والحسن البصري العالم الزاهد كان يداعب ابنه ويناديه وهو يلاعبه ويقبله:

يـــا حبـــذا أرواحــــه ونفَـــسُه

وحبـــــذا نَـــسمُه ملمـــسُه

والله يبقيـــــه لنـــــا ويحرسُـــــه

حتـــى يجـــر ثوبـــه ويلبـــسُه[2]

ويروي أن رسول الله ﷺ: دخل عليه عمه الزبير بن عبدالمطلب وهو صبي فأقعده في حجره وقال له:

محمـــــدٌ بـــــن عَبْـــدم عـــشت بعـــيش أنعـــم

ودولـــــة ومغـــــنم في فـــرع عـــزٍّ أسْـــنم

مكـــــرَّم ... معظـــــم[3]

والشواهد السابقة تؤكد المنهج السديد في تربية الأبناء في ظل رعاية أبوية وحنان من الأهل كلهم، حسب تعاليم الإسلام.

والحديث الشريف يموج بأسرار تعبيرية كثيرة وفي مقدمتها هذا الحوار الواقعي بين رسول الله ﷺ ووفد تميم، ونتيجة الحوار تؤكد على سلبية منهج هؤلاء الأعراب الذين نزع الله من قلوبهم الرحمة، وتؤكد كذلك سلامة المنهج النبوي السديد، منهج

(١) السيرة الحلبية ١/١٦٧.

(٢) الغناء للأطفال عند العرب، د. أحمد عيسى بك.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ج٤، والأمالي للقالي ٢/١١٧.

محمد رسول الله ﷺ والذين معه: فهم: أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولفظ "ناس" يمكن توجيهه حسب ما يدل عليه من طبيعة الإنسان فقيل هو مأخوذ من "أَنِسَ" كفرح: لأنهم يأنسون بأمثالهم، فاللفظ "يعطي" دلالة الأنس والرحمة وقيل مأخوذ من "أَنَس" بفتح النون كضرب، وهو الظهور: لأنهم ظاهرون مبصرون أي مشاهدون، وقيل أصل هذه الكلمة من ناس: يَنُوس: إذا اضطرب: وهذه الدلالة تتطابق مع طبيعة هؤلاء الأعراب الذين قست قلوبهم ونزع الله منها الرحمة، فهم مضطربون في سلوكهم لا يقدرون على مقاومة غلظتهم وجفائهم، ولذلك أنكروا على رسول الله ﷺ تقبيل أبنائهم: وقالوا: أتقبلون صبيانكم، والاستفهام هنا إنكاري، فقال الصحابة رضي الله عنهم: نعم، وتأتي إجابتهم مغلفة، بالاستدراك، "لكنا"، والنفي "ما نقبل"، والحذف: أي أطفالنا، والحذف هنا يوحي بأنهم لا يقبلون أحدًا بدافع العطف والود والشفقة، وفي ذلك مزيد من الإدانة لهم، وتأتي إجابة رسول الله ﷺ في ثوب الاستفهام الإنكاري منكرًا عليهم هذا الصنيع، وبأنه لا يملك أن يغير طبيعتهم القاسية.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالصغار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والعطف على الأولاد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد.

أولاً– من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب السؤال والجواب، ويظهر السؤال في قول الأعرابي: أتقبلون صبيانكم؟ والجواب في قوله ﷺ: (نعم).

وهو من الأساليب الدعوية المفيدة في الدعوة حتى يتمكن المدعوون من السؤال عما يريدون معرفته، ويمكن الداعية من الإجابة بالحقيقة فينبغي على الداعية أن يشجع المدعوين على السؤال عما يجهلون.

فإن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه، ويقدرونه، ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا، فإذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه.

فإن طارحي الأسئلة، إذا كان دافعهم إلى طرح أسئلتهم ما يعانونه من مشاكل فكرية أو نفسية أو اجتماعية في حياتهم، فلا بد أن يكونوا متلهفين لمعرفة الحل الأمثل لها، فيفتحون كل أبواب قدراتهم الفكرية ومشاعرهم النفسية، لتلقف الإجابات عليها، والنظر بإمعان.

وحين تكون الإجابات مقتبسة من أحكام الدين باجتهادات سليمة مشرقات واضحات الأدلة، فإنها تقع في نفوسهم في مواقع الرضا والتسليم والاقتناع[(١)].

ثانيًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالصغار:

إن من صفات الداعية الرحمة والشفقة بالصغار، وتظهر هذه الصفة التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية من الحديث فقد أجاب رسول الله ﷺ بأنه يُقَبِّلُ الصبيان وهذا من رحمته وشفقته عليهم، وَوَصَفَ من لا يُقَبِّلهم بأنه منزوع الرحمة.

والتقبيل معروف. ويبين الحديث أن تقبيل الصغار من سنة رسول الله ﷺ، وتشير وقائع الحديث لخصوصية تقبيل الصغار لاحتياج الصغير لمظاهر الميل والعطف واللين واللطف والرقة والرأفة وتبين الواقعة جانب من رحمة النبي ﷺ بالصغار وقد كانت رحمته ﷺ عامة لكل من يستحق الرحمة من الخلق.

(والطفل ضعيف في حاجة إلى الرحمة والشفقة فإذا شبع الأطفال من رحمة الكبار شبوا أسوياء صالحين)[(٢)]، فينبغي على الداعية أن يكون رحيمًا بالأطفال شفيقًا عليهم وله في ذلك المثل والقدوة الحسنة في رسول الله ﷺ فقد ورد في رحمته وشفقته بالأطفال الكثير من الأحاديث منها:

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٢/٥٨ - ٥٩.

(٢) أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ١٣٣.

عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيتُ رسولَ اللّه ﷺ مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفرُ، قال رسولُ اللّه ﷺ: سَنَه سَنَه، قال عبدُ اللّه وهي بالحبشية: حسنة. قالت: فذَهبتُ ألعبُ بخاتم النبوَّةِ، فزَبرَني[1] أبي. قال رسولُ اللّه ﷺ: دَعْها. ثم قال رسولُ اللّه ﷺ: ((أبلِي وأخْلِقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي)). قال عبد اللّه: فبقِيتْ حتى ذكر.. يعني من بقائها))[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللّهِ. قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ. وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا. فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ))[3]، قال النووي: (فيه بيان كريم خلقه ﷺ ورحمته للعيال)[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرحمة والعطف على الأولاد:

يستنبط هذا من عموم الحديث: (فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: ولكنا والله ما نقبل! فقال: أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة) فيفهم من عموم اللفظ فضل الرحمة والعطف على الأولاد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلَتِ ابنةُ النبيِّ ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ، فأتِنا. فأرسلَ يُقرِئُ السلامَ ويقول: إنَّ لله ما أخذَ وله ما أعطى، وكلٌّ عندَه بأجَلٍ مُسمًّى، فلْتَصبِرْ ولْتَحْتَسِبْ. فأرسلَتْ إليهِ تُقسِمُ عليه لَيَأْتِيَنَّها. فقامَ ومَعَهُ سَعدُ بنُ عُبادة ومُعاذُ بنُ جَبَلٍ وأُبَيُّ بنُ كعبٍ وزَيدُ بنُ ثابتٍ ورِجالٌ. فرُفِعَ إلى رسولِ الله ﷺ الصبيُّ ونفسُهُ تَتَقعْقَعُ- قال: حسِبتهُ أَنَّهُ قال: كأنَّها شَنٌّ- ففاضَتْ عيناهُ، فقال سَعدٌ: يا رسولَ اللهِ ما هذا؟ فقال: هذه رحمةٌ جَعَلَها اللهُ في قُلوبِ عِبادِهِ، وإنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عبادِه الرُّحماءَ))[5]، فرحمة المسلم للأولاد وعطفه

---

(١) زبرني: أي نهرني ومنعني.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٦، وعوالي المدينة: القرى المجاورة لها (ظئره) أي زوج مرضعته (قينًا) أي: حدادًا.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٢٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٨٤.

عليهم تجعل الأولاد يحبونه ويسمعون كلامه فعلى الداعية أن يكون رحيمًا بالأولاد عطوفًا عليهم حتى يقبلون دعوته، ويعمل على إشاعة الرحمة بين المدعوين، حتى تعم آثارها بين الصغار والكبار.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث: أسلوب الترهيب، ويظهر في قوله: "أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة" حيث رهّب ﷺ من عدم رحمة الأطفال وبيّن أن من لا يُقَبّل الصبيان ويرحمهم منزوع الرحمة من قلبه فينبغي على المسلمين أن يرحموا الصبيان طلبًا للرحمة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد:

إن مما يستنبط من عموم الحديث الحذر من الغلظة والقسوة مع الأولاد لأن ذلك ينزع الرحمة من القلب مما ينعكس على الصبيان أيضًا، (ومن المشاعر النبيلة التي أودعها الله في قلب الأبوين، شعور الرحمة بالأولاد، والرأفة بهم، والعطف عليهم، وهو شعور كريم له في تربية الأولاد، وفي إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج، وأعظم الآثار. والقلب الذي يتجرد من خلق الرحمة، يتصف صاحبه بالفظاظة العاتية، والغلظة اللئيمة القاسية. ولا يخفى ما في هذه الصفات القبيحة من ردود فعل في انحراف الأولاد، وفي تخبطهم في أوحال الشذوذ، ومستنقعات الجهل والشقاء)[1]. وقد حذر النبي ﷺ من عدم رحمة الصبيان، فقال: ((لَيْسَ مِناً مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا...))[2].

فالغلظة والقسوة مع الأولاد أمر منفر لهم ومخيف فلا بد من البعد عنه حتى يكونوا غير خائفين بل يجب التلطف والرأفة بهم.

فعلى الداعية أن يبين علاقة الآباء بالأبناء، وأنها لا تقوم على القسوة والشدة بقدر ما تقوم على الرأفة والرحمة.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. عبدالله ناصح علوان ٤٩/١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٦).

الحديث رقم (٢٢٧)

٢٢٧- وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لا يرْحَم النَّاس لا يرْحمْهُ اللَّه**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

في ظلال الحديث نتنسَّم عبير الرحمة المهداة، ونبصر وهج أخلاق السراج المنير، والبشير النذير، محمد بن عبدالله، النبي المجتبى، والحبيب المصطفى، والرحمة المهداة: ولا غرو.. فقد كان ﷺ كما يقول أبو بكر القسطلاني، مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب من سعة الصدر، ودوام البشر وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزح بالحق مع الصغير والكبير أحيانًا، وإجابة الداعي، ولين الجانب، حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه، وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجبًا أو مستحبًا أو مباحًا، فكان يباسط الخلق ويلابسهم ليستضيئوا بنور هدايته في ظلمات الجهل ويقتدوا بهديه ﷺ، وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم ويؤنسهم ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حِجره.

وفي وهج هذه الأخلاق الرفيعة، والشمائل البديعة، نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: الذي اتسم بالإيجاز في لفظه، والاتساع في معناه فهو قاعدة من قواعد الإسلام في إقامة أسس العلاقات بين البشر جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، بل بين الإنسان وجميع الكائنات التي خلقها الله لإفادة البشرية، وعمارة الكون.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩/٦٦) والسياق للحميدي في جمعه (٢٣٤/١، رقم ٤٩٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٢١).

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة، لكنها تشكل سلوكيات الإنسان في كل زمان ومكان.

ولفظ "الناس" يرشد إلى اتساع آفاق المعنى، فالرحمة ليست للمسلم فقط ولكنها لكل إنسان خلقه الله من ذكر وأنثى، ولكن شريطة أن يأمن المسلمون جانبه، وأن لا يعتدى على حرمات المسلمين.

والجِذْرُ اللغوي للفظ "الناس" يعطي دلالات كثيرة تفسر كثيرًا من طبائع البشر: كما أوضحت في شرح الحديث السابق، "وال" هنا للعهد، وقال العلماء: إن الناس خصوا بالذكر اهتمامًا بهم، وإلا فالرحمة مطلوبة لسائر المخلوقات حتى الدواب والبهائم، ففي كل كبد رطبة أجر، والشواهد كثيرة على ذلك في التاريخ والواقع.

ومن أسرار البيان النبوي في هذا الحديث، أن التوجيه الإعرابي فيه متعدد، وتتنوع الدلالة حسب التنوع الإعرابي، ونوعية الجملة، وهذا من الأسرار الخفية في بلاغة النبوة، فجملة الحديث يمكن أن تكون اسمية، ويمكن أن تكون شرطية.

فإذا كانت "مَنْ" اسم موصول: بمعنى الذي فهي مبتدأ وما بعده صلة: وجملة "لا يرحمه الله" خبر المبتدأ، وهي بهذه الصيغة تعلن عن ثبات هذه القاعدة حيث قال العلماء إنها صارت كضرب المثل: وكلام النبوة أعظم دلالة، وأعمق تأثيرًا من ضرب الأمثال، لأنه من وحي الكبير المتعال، وعلى هذا التقدير: فالفعل يرحم مرفوع في الموضعين.

وقيل إن "من" شرطية: والفعلان "يَرْحم لا يُرْحَم" مجزومان: وجواب الشرط ينفي الرحمة من الله للعبد الذي أقدم على فعل الشرط وهو عدم رحمة الناس، وقيل يمكن أن يكون الفعل الأول مجزومًا والثاني مرفوعًا وتقديره: من لا يكون من أهل الرحمة فإنه لا يرحم.

وقال العلماء في توجيه المعنى في هذا الحديث حسب التوجيه اللغوي: عدة توجيهات منها. المراد: من لا تكون فيه رحمة الإيمان في الدنيا لا يرحم في الآخرة، أو: من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه لا يرحمه الله لأنه ليس عنده عهد، فتكون الرحمة الأولى بمعنى الأعمال، والثانية بمعنى الجزاء، أي لا يثاب إلا من عمل

صالحًا، ويحتمل أن تكون الأولى الصدقة والثانية البلاء أي لا يسلم من البلاء إلا من تصدق، ومن لا يرحم الرحمة التي ليس فيها شائبة أذى لا يرحم مطلقًا ؟ ولا ينظر الله بعين الرحمة إلا إلى من جعل في قلبه الرحمة ولو كان عمله صالحًا، وفي ضوء هذه التوجيهات قال العلماء: وينبغي للمرء أن يتفقد نفسه في هذه الأوجه كلها فما قصر فيه لجأ إلى الله تعالى: في الإعانة عليه[1]. وهكذا نتلقى بلاغة النبوة بما فيها من الإيجاز وقوة التعبير، وشدة التماسك وجوامع الكلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الرحمة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من مهام الداعية: تحذير الناس مما قد يضرهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: خطورة عدم الرحمة بالناس.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الرحمة:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث أهمية الرحمة وتظهر من قوله ﷺ: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله"، (فالرحمة هي رقة في القلب، وحساسية في الضمير، وإرهاف في الشعور. تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، وكفكفة دموع أحزانهم وآلمهم. وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين)[2]. إن الرحمة لها أهمية عظيمة على المجتمع المسلم إذ بالرحمة يشعر المسلمون بالمحبة والمودة بعضهم ببعض، لذلك قال رسول الله ﷺ: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَه سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))[3]، والإنسان الرحيم بخلق

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ج٢، حديث ٢٢٥.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٣٦٥/١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

الله يرحمه الله، قال ﷺ: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ...))[(١)].

أما من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، قال ابن بطال: (الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم: المملوك منها وغير المملوك)[(٢)].

وحكم ﷺ على من افتقدوا الرحمة بأنهم هم الأشقياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شَقِيَ))[(٣)].

ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، وإنما هي ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعًا إنها رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن وحده هو الذي يرحمه، ويتقي الله فيه، ويعلم أنه سبحانه سيحاسبه ويسأله إذا قصر في حقه أو تسبب في إيذائه، وقد أعلن النبي ﷺ أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلبًا فغفر الله لها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ. قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ. فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا. فَغُفِرَ لَهَا))[(٤)(٥)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترهيب، ويظهر ذلك من ترهيبه ﷺ لمن لا يرحم الناس، بأنه لن يكون أهلاً لرحمة الله، لأن من لم ينل رحمة الله يكون قد خسر الدنيا والآخرة، فحري بالداعية أن يستعمل أسلوب الترهيب في الزجر عن افتقاد الرحمة، (ويقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله)[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي ١٩٢٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٩).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩٤٢، والترمذي ١٩٢٣، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٨).

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ٣٣٢١، ومسلم ٢٢٤٥ واللفظ له. والنزع استخراج الماء من البئر والموق خف غليظ يلبس فوق غيره، المعجم الوجيز في (م و ق).

(٥) انظر: تربية الأولاد، عبدالله ناصح علوان ص ١/٣٦٥ - ٣٦٦.

(٦) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

ثالثًا- من مهام الداعية: تحذير الناس مما قد يضرهم:

إن من مهام الداعية تحذير الناس مما قد يضرهم ويستنبط هذا من بيانه ﷺ أن ترك الرحمة يضر بهم ويجعلهم لا ينالون رحمة الله عز وجل.

فتعاليم الإسلام تفرض على المنتمين إليها ضرورة القيام بواجب تحذير الناس مما قد يضرهم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وتتبوأ هذه المهمة في حياة الداعية المكانة السامقة باعتبارها رسالته التي من أجلها وجد، وفي سبيلها يتحرك، ولولاها لم تكن دعوة، ولا داعية[2].

وله في هذا القدوة في رسول الله ﷺ إذْ كان دائمًا يحذر صحابته مما قد يضرهم ويدعوهم إلى ما يفيدهم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: خطورة عدم الرحمة بالناس:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من قوله ﷺ: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)، خطورة عدم الرحمة بالناس.

فمن آثار عدم الرحمة في المجتمع انتشار الجفاف لينابيع الرحمة، وهذا ما يتنافى مع ما أمر الله به عباده من التراحم والعطف والشفقة، ولذا نجد من الناس من هو فظ غليظ، لا يتراخى، ولا يتألف، ولا يلذُّ إلا المهاترة والإقذاع، ولا يتكلم إلا بالعبارات النابية التي تحمل في طياتها الخشونة والشدة، والغلظة والقسوة. وذلك كله مدعاة للفرقة والعداوة، ونزغ الشيطان وعدم قبول الحق.

فهذا نبي الله محمدٌ ﷺ مع أنه مرسل من الله، ومؤيد بالوحي، ومع أنه جاء بالهدى ودين الحق - قال ربه عز وجل في حقه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[3][4].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: أخلاق الدعاة إلى الله تعالى "النظرية والتطبيق"، د. طلعت محمد عفيفي سالم ص ١٣١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٤.

الحديث رقم (٢٢٨)

٢٢٨- وعن أَبي هُريرةَ ﵁، أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «**إذا صلى أَحدُكُمْ للنَّاسِ فلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالسقيمَ والْكَبيرَ. وإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيطَوِّلْ ما شَاءَ**» متفقٌ عليه[١].

وفي روايةٍ[٢]: «**وذَا الْحاجَةِ**».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

صلى أحدكم للناس: أي بالناس وكان إمامًا لهم.

السقيم: أي المريض[٣].

الشرح الأدبي

إن الصلاة لها دور كبير في تنظيم حياة المسلم، وفي ترسيخ علاقته بربه وبالناس، وفي تخليصه بين وساوس الشيطان، وهواجس القلق، وأطياف الاضطراب، لأنها صلة روحية وفعلية من العبد وربه، فالمسلم يتهيأ لاستقبال الصلاة وهو طاهر نظيف، طاهر الثوب والبدن والمكان، والوضوء من الوضاءة وهي الحسن والنظافة، وهو شطر الإيمان وبعد هذا الاستعداد النفسي والبدني والذهني يقف المسلم خاشعًا في سكينة وهدوء وتأمل في مصلاه، مستحضرًا جلال ربه، وجماله وكماله وعفوه وحلمه وكرمه وصفحه، وكل ما في النفس من قلق وفزع ووساوس يُنزع حين يعلن المسلم دخوله في أنوار الصلاة، ويقول: الله أكبر ويفتتح... صلاته بالحمد... والثناء على الله، والإقرار بالعبودية والاستعانة بالله وطلب الهداية والاهتداء إلى الصراط المستقيم، صراط الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣) واللفظ له، ومسلم (٤٦٧/١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٧/١٨٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ق م).

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

في هذا الجو الإيماني المفعم بالسكون والجلال، والخشوع والجمال... يرشدنا المصطفى ﷺ إلى ضرورة إشاعة الطمأنينة في نفوس المصلين، وإلى تعظيم حرماتهم، ومراعاة أحوالهم، حتى لا يتسرب الضعف البشري إلى النفس المؤمنة، وحتى لا يجد الضعيف في الصلاة عبئًا يضاعف من معاناته، فيزهد شيئًا فشيئًا في صلاته، ويحرم من دعواته ومناجاته، وحتى لا يفر السقيم من بين صفوف الجماعة حين يعجز عن إتمام الصلاة، فيحرم الثواب، ويحيط به الفزع خوفًا من العقاب، وربما يغلبه اليأس ، ويقهره الشيطان، فيهجر الصلاة، فيبوء بالخسران والخذلان، ويتلقفه أعوان الشيطان، فيرد موارد التهلكة، ولا يستطيع العودة إلى حدائق الصلاة، وواحات النجاة.

وكذلك الكبير ... وهو الطاعن في السن.. الذي بلغ من العمر أرذله، وكاد أن لا يعلم من بعد علم شيئًا إنه في حاجة إلى رحمة ربه وعونه، ولكن ربما يقعده التطويل في الصلاة عن ذلك، وربما يحرم من صلاة الجماعة في المسجد لأنه يعاني من أمراض الشيخوخة، وما أدراك ماهيه؟ إنها تراكمات السنين، وأعباء الشقاء المزمن والصراع المرير في ميدان الحياة، ومتاهات العمر الضنين.

والمصطفى ﷺ وهو الرحمة الهداة، وهو كما قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، يرشد أئمة المسلمين وعلماءهم إلى هذه القضية التي تعظم حرمات المسلمين وترغبهم في العبادة، والصلاة عماد الدين وهى رأس الأمر وعموده. ومع ذلك فهو يأمر كلّ من يؤم المصلين بالتخفيف، ولذلك تأتي صياغة الحديث اللغوية في جملتين تمثلان موقفين متقابلين ومتماثلين: فالتقابل بين موقفين متغايرين: وهما التطويل والتخفيف، والتماثل هو صلاة الجماعة، في الموقفين، ولذلك اتحدت أداة الشرط وهي: "إذا" في الجملتين: لأن الصلاة واجبة. وإذًا تدل على التحقق فجواب الشرط وهو التخفيف في الموقف الأول لابد أن يتحقق: لتحقق فعل الشرط ووجوده وجوبًا وهو الصلاة، والجملة

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الثانية أداة الشرط فيها "إذا" لأن فعل الشرط تحقق وجوبًا وهو الصلاة، وكذلك جواب الشرط وهو التطويل متحقق اختيارًا لذلك قال "فليطول ما شاء" لأنه يصلي وحده، وقال: "لنفسه"، فتأمل كيف دلت الصياغة اللغوية على المقاصد والأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة، وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله: "صلى ... للناس"، أي صلى إمامًا للناس، وحرف اللام أغنى بدلالته عن اللفظ المحذوف، وقوله: "أحدكم" ولم يقل الإمام، حتى لا يظن أن الإمامة تخص قومًا دون آخرين، فكل من اكتملت لديه شروط الإمامة، فهو صالح لها، وجملة، "فإن فيهم..." تعليلية: لبيان أصناف الناس الذين من أجلهم أمر بالتخفيف، فالدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. والله الموفق.

فقه الحديث

لا شك أن على الإمام في الصلاة مدارًا كبيرًا، ولذا اهتم الفقهاء بشروط ومراتب الأئمة ومن تلك الشروط: أن يكون فقيهًا حتى يستطيع التعرف على أحوال الناس فيخفف عنهم متى وجد داع متأسيًا في ذلك بالرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم حيث كانت صلاته قصدًا دون تطويل أو تقصير، ولذا ينبغي للإمام أن يتوسط في صلاته حين يؤم الناس وإن أراد التطويل في الصلاة فليطول صلاته هو حين يصلي منفردًا.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يسن لمن يصلي بالناس أن يخفف في القراءة والأذكار مع فعل الأبعاض والهيئات ويأتي بأدني الكمال، فيأتي بالواجبات والسنن ولا يقتصر

---

(١) انظر في ذلك: حاشية رد المحتار ٥٦٤/١، وطلبة الطلبة للنسفي ص ١١، مكتبة المثنى ببغداد، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٤٦/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢٤/٤ وما بعدها، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٢٨/١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢١١/١، والأم ١٨/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٣٣/١، والفتاوى الكبرى ١٢٠/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٦٧/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ١٦٣/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٣/٦.

على الأقل ولا يستوفي الأكمل، ما لم يكن المصلون خلفه مؤثرين للتطويل فلا يكره حينئذ لأن المنع لأجلهم وقد رضوا، ويكره أن يسرع الإمام في الصلاة بحيث يمنع المأموم من فعل ما يسن له كتثليث التسبيح في الركوع والسجود، وغير ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اليسر في العبادة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة بالناس.

أولاً- من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

ويتجلى ذلك في اهتمام النبي ﷺ بمراعاة أحوال المأمومين فقال: (إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير).

وقد أمر ﷺ عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه بتخفيف الصلاة مراعاة للمأمومين فقال له: ((أُمَّ قَوْمَكَ، فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ. وَإِنَّ فِيهِمْ ذَا الْحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَحْدَهُ، فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ))[1].

فينبغي على الداعية مراعاة أحوال المدعوين في شتى الأمور حتى يقبل الناس على استماعه ولا ينفرون منه.

ومن مظان قبول الدعوة وتأثيرها في قلوب الناس مراعاة الأوقات، والمقصود بها تخير الوقت الملائم للدعوة من حيث فراغ المدعوين واستعدادهم للتلقي، وكذلك المراعاة لأوقات المواعظ والدروس، ومناسبة طول وقتها لأحوال المدعوين، ويندرج تحت ذلك مراعاة استعداد المدعو وبلوغه المرحلة التي يكون فيها الوقت مناسبًا لتفاعله واستجابته.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٦٨.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كان النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَةِ في الأيامِ، كَراهةَ السَّآمةِ علينا)[1].

ومعنى: يتخولنا: بالخاء، أي: يتعهدنا، والمعنى: كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نَمَلّ، ومعنى: كراهة السآمة، أي: مخافة السآمة والمشقة الطارئة علينا.

قال ابن حجر: (يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد والعمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة، ولكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكليف، وإما يوم بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة، ليقبل على الثاني بنشاط ورغبة، وإما في يوم الجمعة.

ولا شك أن هذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط في ذلك الحاجة مع مراعاة وجود النشاط)[2].

إن أمر المراعاة مهم جدًا في مجال الدعوة، وأنه متشعب حسب أحوال الناس والزمان والمكان، والحقيقة أن المراعاة من أنواع التدرج، لأن المراعاة كثيرًا ما تقتضي ترك أمر لعدم ملاءمته، إما للطبع، أو الفهم، أو الحال، أو غير ذلك، والاستعاضة عنه بغيره حتى يكون مُمهدًا لعرض الأمر المتروك فيأتي في وقته المناسب[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اليسر في العبادة:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث يسر العبادة. قال العيني: (قال ابن بطال: وإنما غضب رسول الله ﷺ لأنه كره التطويل في الصلاة من أجل أن فيهم المريض ونحوه فأراد الرفق والتيسير بأمته، ولم يكن نهيه ﷺ من التطويل لحرمته؛ لأنه ﷺ كان يصلي في المسجد ويقرأ بالسور الطوال كالأعراف، والحاصل أن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨، ومسلم ٢٨٢١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٩٩.

(٣) الدعوة إلى المضامين الحميدة في الحج، د. محمد بن إبراهيم بن سليمان الرومي، بحث ضمن بحوث مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٥٥، رجب ١٤٢٧هـ ٢/٥٧٠ - ٥٧١.

التخفيف أو التطويل أمر نسبي يختلف باختلاف الأوقات والأحوال في الإمام والمأمومين)[١].

وقد كان ﷺ يعلم حال من صلى خلفه إما بالوحي، وإما برؤيته له، فقد ثبت أنه ﷺ كان يرى في الصلاة من خلفه كما يرى من أمامه. وقد كان ﷺ يدخل في الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها.

أما غير النبي ﷺ فإنه مأمور بالتخفيف إذا أمَّ غيره، إلا أن يحصل له علم بحال من خلفه كمن صلى بجماعة محصورين ليس فيهم من يكره الإطالة فله ذلك[٢].

فلم يكلف الله عباده إلا المستطاع، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣]، فأمره ﷺ بتخفيف الصلاة مراعاة لأحوال المأمومين دليل على يسر العبادة في الإسلام فالله عز وجل لا يريد أن يشق على عباده ويعذبهم، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[٤]، بل جعل الله عبادته ميسرة ولم يجعل فيها مشقة وعسرا، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥]، فينبغي على الداعية إلى الله أن يبين للمدعوين أن الدين كله يسر، وليس فيه كلفة فوق الطاقة والوسع، بل هو مناسب لحال كل مكلف، سواء أكان صحيحًا أم سقيمًا، قويًا أم ضعيفًا.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الترغيب وهذا في قوله ﷺ "إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف" والترغيب في تخفيف الصلاة والدعوة يجعل المصلين أو المدعوين يقبلون على العمل، علمًا منهم أن العمل لن يكون فيه مشقة

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ١٠٥/٢.

(٢) نصوص دعوية من أحاديث خير البرية، د. حيدر أحمد الصافح، ص ١٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

عليهم، فعلى الداعية إلى الله أن يراعي التيسير والتخفيف حتى يستقطب المدعوين، ويكون مراعيًا لأحوالهم وأعذارهم، ويحث المدعوين على التخفيف على أنفسهم والآخرين ترغيبًا لهم في الدعوة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفقة والرحمة للناس:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم هذا الحديث فضل الشفقة والرحمة بالناس ويظهر من طلبه ﷺ الإمام بالتخفيف عن الناس لأن فيهم الضعيف والسقيم والكبير.

والشفقة والرحمة بالناس لها فضل كبير في إيصال الدعوة واتباع الداعية فرحمة الرسول بأمته وشفقته عليهم جعل الناس يتبعونه ويلتفون حوله، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

قال السعدي في تفسير قوله تعالى "بالمؤمنين رءوف رحيم": (أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه)[3].

فينبغي على الداعية أن يحرص على الرحمة والشفقة بالمدعوين حتى يحبونه ويقبلون دعوته، فالرحمة كلمة محببة للنفس فيها من التأثير النفسي، الشيء الكثير يتوق الإنسان إليها ويحنو عليها ويرغب فيها، لأنها تشبع فطرته وتواسي أمله وتوفر له حاجاته، بدونها يتجرد الإنسان من إنسانيته ويوصف بالهمجية والوحشية؛ لأنه لا رحمة

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

لديه وقد وردت أحاديث عديدة تضمنت هذه الكلمة الحبيبة على النفوس "الرحمة" واشتملت عليها فيما صحّ عن رسول الله ﷺ نورد بعضها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يَا رَسُولَ اللّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))[١].

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادقَ المصدَّقَ أبا القاسم يقول: ((لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شَقِيَ))[٢][٣].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩٤٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٣).

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٩٢.

الحديث رقم (٢٢٩)

٢٢٩- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنْ كَانَ رسولُ اللَّه ﷺ لَيدعُ العَمَلَ، وهُوَ يحِبُّ أَنَ يَعْمل بِهِ، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

حين نتأمل هذا الحديث الشريف، ونتمعن في كلماته نجد أنه من كلام أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إخبارًا عن فعل رسول الله ﷺ وعن خصاله الجميلة، وشِيَمهِ الكريمة، فالحديث من السنة العملية التي تعطي القدوة الفعلية، وقد كان رسول الله ﷺ، كما يقول الماوردي: وهو يذكر خصائص الرسول ﷺ وفضائله وشرف أخلاقه وشمائله المؤيدة لنبوته، والمبرهنة على عموم رسالته، ويرى أن الكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه: كمال الخلْق، وكمال الخلُق، وفضائل الأقوال وفضائل الأعمال، وقد أفاض في شرح هذه الأوجه الأربعة من خلال بسط القول في الفضائل التي اختص الله بها محمدًا ﷺ، وفي سياق الإبانة عن معالم الوجه الرابع وهو فضائل أفعاله، يقول: إنه جمع بين رغبة من استمال، ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته، وقاموا بحقوق دعوته رغبة في عاجل وآجل، ورهبًا من زائل ونازل، لاختلاف الشيم والطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما ولا يستديم إلا بهما، فلذلك صار الدين بهما مستقرًا، والصلاح بهما مستمرا.

وإنه عَدَل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط، وخير الأمور أوساطها وليس لما جاوز العدل حظ من رشد ولا نصيبٌ من سداد.

وأحْكم ما شرع من نص أو تنبيه، وعمَّ بما أمر من حاضر وبعيد، حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديًا، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيًا، لئلا يكون في حقوق الله

(١) أخرجه البخاري (١١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٧١٨/٧٧).

زلل، وذلك في برهة من زمانه، لم يستوف تطاول الاستيعاب حتى أوجز، وأنجز وما ذاك إلا بديع معجز.

وفي ضوء هذه الخصال، وتلك الخلال التي اتسم بها النبي ﷺ في أفعاله وأقواله، نقرأ هذا الحديث الشريف، ونتأمل صياغته، ودلالة هذه الصياغة على مراميه ومقاصده، فالحديث يبدأ بـ"أن" التوكيدية المخففة من الثقيلة، وضمير الشأن محذوف: والتقدير: إنه: أي إن شأن رسول الله ﷺ أن يترك العمل: وهو يحب أن يعمل به، والترك هنا ليس تركًا للعمل الواجب، ولكنه ترك الزيادة في أداء السنن والطاعات وهو مشتاق إلى أدائها، وفي سيرته الكثير من هذه المواقف ومنها ترك الخروج إلى القوم لصلاة الليل جماعة، فعن عروه أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن «رسولَ الله ﷺ خَرَجَ ليلةً مِن جَوفِ الليلِ فصلّى في المسجدِ، وصلّى رجال بصلاتهِ، فأصْبحَ الناسُ فتَحدَّثوا، فاجتمع أكثرُ منهم، فصلّى فصلّوا معَهُ، فأصْبحَ الناسُ فتَحدَّثوا فكثُرَ أهلُ المسجدِ منَ الليلةِ الثالثةِ، فخرَجَ رسولُ الله ﷺ فصلِّيَ بصلاتهِ، فلمّا كانتِ الليلةُ الرابعةُ عَجَزَ المسجدُ عن أهلهِ حتى خَرَجَ لصلاةِ الصبح، فلمّا قضَى الفجر أقبلَ على الناس فتشهدَ ثمَّ قال: أما بعدُ فإنهُ لم يَخْفَ عليَّ مَكانُكم. ولكِنِّي خَشِيتُ أن تُفرَضَ عليكم فتعجزِوا عنها»[1]، واللام في قول عائشة رضي الله عنها "ليدع" هي الفارقة، كما يقول النحاة: بين إن المخففة من الثقيلة للتوكيد، وإن النافية، ولو لم تجيء اللام: لصار المعنى إلى الضد، وهو عدم ترك العمل، لأن إن في غياب اللام تكون بمعنى ما: النافية: ويكون التقدير: ما كان رسول الله ﷺ يدع العمل، وذلك منافٍ للمراد في هذا الحديث: فتأمل أثر الصياغة في تحديد المعنى، وكم الذي يحدثه حذف حرف أو إثبات حرف من توجيه للمعنى، وتحديد للمراد، وذلك من أسرار جمال العربية وعمقها ولا عجب فهي لغة القرآن الكريم فقد أنزل بلسان عربي مبين.

وتأمل الموقع الإعرابي لجملة "وهو يحب أن يعمل به" إنها في موقع الحال: أي إن حال

---

(١) أخرجه البخاري ٩٢٤.

رسول الله ﷺ هو حال المحب لهذا العمل المتعلق به الراغب فيه: ولكنه من كمال شفقته على أمته بترك ذلك خشية أن يعمل به الناس اقتداء به فيفرض عليهم.

وهذا هو المنهج المعتدل المتوازن الذي ينأى عن الغلو والتقصير، ويتجه إلى التوسط والاعتدال، وتبقى بعد ذلك للمصطفى خصائصه وشمائله، وفضائله التي اختصه الله بها من كمال خلقته، وجمال صورته، وبما أكرمه تعالى من الأخلاق الزكية، والأعمال التعبدية.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أنه متى واظب النبي ﷺ على فعل شيء وأمر به كان ذلك دليلاً على وجوبه وعدم جواز تركه، وإن فعله أحيانًا وتركه أحيانًا أخرى كان ذلك دليلاً على أنه سنة لا واجب.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه متى ورد عن النبي ﷺ ما يفيد المداومة على فعل والأمر به ولم يدل دليل على تركه له كان ذلك الفعل واجبًا ولا يجوز تركه ما لم يظهر نسخه أو غير ذلك، وإن نقل عنه ﷺ فعل شيء وداوم عليه ولم يدل دليل على وجوبه، أو نقل عنه فعل شيء مع عدم المداومة عليه كان ذلك دليلاً على جواز الترك وأن الفعل ليس بواجب، ومن ذلك صلاة الوتر، وصلاة الضحى، وصلاة التراويح، والجلوس في المصلى بعد الفراغ من الصلاة، وغيرها.

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٣/٥٥٩، والمبسوط، السرخسي ١/١٥٩، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١/٢٧٢، والمدخل لابن الحاج ٢/٢٩٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٧٠، وفتاوى السبكي ١/١٥٨، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢/٣٦٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١/٤٣٧، وشرح الكوكب المنير لأبي البقاء الفتوحي ص ٤٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات النبي ﷺ: الرحمة والشفقة بأمته.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان سبب ترك ما اعتاده من عمل.

ثالثًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين.

أولاً- من صفات النبي ﷺ: الرحمة والشفقة بأمته:

لقد كان النبي ﷺ رحيمًا شفيقًا بأمته وكان حريصًا على ذلك ويظهر من هذا الحديث رحمة وشفقة النبي ﷺ بأمته حيث إنه كان يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم.

فرسول الله ﷺ كان أكثر الأنبياء شفقة ورحمة بأمته، وسيرته العطرة مليئة بالمواقف والأحداث الدالة على ذلك، وهذا ما وصفه به ربه جلّ وعلا، فقال سبحانه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

قال ابن زيد: "يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم".

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم"[3].

وقال ﷺ: ((يا أيُّها الناسُ إنما أنَا رحمةٌ مهداةٌ))[4].

وقال ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي))[5].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) معالم التنزيل ٥/٣٥٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

فرحمة النبي ﷺ وشفقته بأمته ورد فيها الكثير والكثير ولكن يضيق المقام عن ذكره وسوف يظل ﷺ للمسلمين عمومًا وللدعاة خصوصًا المثل الأعلى والأسوة الحسنة، ما داموا يرجون الله واليوم الآخر(١).

ثانيًا- من واجبات الداعية: بيان سبب ترك ما اعتاده من عمل:

إن من واجبات الداعية التي تظهر من هذا الحديث أن يبين للمدعوين سبب تركه ما اعتاد فعله ويظهر ذلك في قوله ﷺ: (خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليكم) إذ بين سبب تركه ﷺ ما اعتاد من عمل وهذا كان شأنه ﷺ إذا ترك فعل شيء اعتاده.

فينبغي على الداعية أن يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك فإذا كان اعتاد عمل ما وعرفه الناس عنه ثم تركه لعذر ما، فيبين للناس سبب تركه.

ثالثًا- من صفات الداعية الإشفاق على المدعوين:

من صفات الداعية التي تظهر من هذا الحديث الإشفاق على المدعوين، ويظهر ذلك من تركه ﷺ العمل شفقة بأمته، والشفقة في الداعية من الصفات اللازمة لنجاح دعوته وذلك لأنه يقتدي برسول الله ﷺ حيث كان ﷺ يتحرى الرحمة والشفقة في كافة الأعمال وسائر الأوقات.

وقد وردت في حرص النبي ﷺ على هداية الناس وشفقته عليهم آيات عديدة منها: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٤).

---

(١) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٣) سورة يوسف آية: ١٠٣.

(٤) سورة الكهف، آية: ٦.

قال السعدي رحمه الله: (ولما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم ورحمة بهم أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن)[١].

(إن الداعية المسلم لا يكون إلا رحيمًا، لأنه يدعو إلى الإسلام دين الرحمة، وهو بذلك يظهر أعظم مَعْلَم من مَعَالِم هذا الدين الذي أمر بالرحمة وحثّ عليها، ورغّب فيها وجعل الثواب العظيم لمن اتصف بها وتمثلها واقعًا معاشًا في حياته، فها هو قدوته ﷺ يدعو لقومه بالرغم مما لقيه منهم من أذى وصل إلى التخطيط لقتله ﷺ إلا أن صاحب الخلق العظيم المبعوث رحمة للعالمين كان يقابل ذلك بقول: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ))[٢]، وهذا لا يكون إلا من صاحب قلب رحيم، والداعية المسلم يجب أن يكون كذلك تأسيًا برسول الهدى فلا يتعجل النتائج، ولا يغضب من سوء المعاملة والصدود من المدعوين لأنه مهما لقي من مصاعب ومتاعب ومهما واجهته من عقبات لن يبلغ معشار ما لقيه الرسول الكريم ﷺ من جحافل الكفر والعناد في مكة ومن أعداء الحق والخير في مسار الدعوة في مهاجره ﷺ خلال العشر سنوات التي عاشها في المدينة المنورة؛ لذا فإن ممارسة الداعي للدعوة وتذكره ما وقع لإمامه ﷺ يخفف عليه ما يحل به ويقع عليه من أذى، وتحلى الداعية بهذه الصفة المباركة يورثه العفو والصفح والشفقة على المدعوين)[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٩٢.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٢٩٤.

الحديث رقم (٢٣٠)

٢٣٠- وعنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالَتْ: نَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوِصال رَحْمَةً لهُمْ، فقالوا: إنَّكَ تُواصلُ؟ قال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِي» متفقٌ عليه[1].

مَعنَاهُ: يجعَلُ فِي قُوَّةَ مَنْ أَكَلَ وَشَرَبَ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن للمصطفى ﷺ مكانة خاصة عند ربه، وقد أيده ربه بالمعجزات الحسية والمعنوية، ووهبه من الصفات والملكات ما لم يهبه لأحد من خلقه، وقد صور أحد الشعراء، وهو يوسف بن محمد الصرصري بعض هذه المعجزات، وساقها مع الموازنة والمقابلة بينها وبين ما حباه الله للأنبياء السابقين فقال[2]:

محمد المبعوث للناس رحمة ... يشيد ما أوهى الضلال ويصلحُ

لئن سبحت صم الجبال مجيبة ... داود أو لان الحديد المصفح

فإن الصخور الصمَّ لانت بكفه ... وإن الحصى في كفه ليسبح

وإن كان موسى أنبع الماء من ... فمن كفه قد أصبح الماء يطفَحُ

وإن كانت الريح الرخاء مطيعة ... سليمان لا تألو تروح وتسرح

فإن الصبا كانت لنصر نبينا ... برعب على شهر به الخصم يَكلَحُ

وإن كان إبراهيم أُعطِيَ خلة ... وموسى بتكليم على الطور يمنح

فهذا حبيب بل خليل مكلّم ... وخصص بالرؤيا وبالحق أشرح

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٧)، ومسلم (٦١/١١٠٥) واللفظ له.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٩٩/٦.

وخصص بالحوض العظيم وباللوا ويشفع للعاصين والنار تلفح
وبالمقعد الأعلى المقرب ناله عطاء ببشراه أقرُّ وأفرحُ

وفي ظل هذه الهبات والمنح الإلهية لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين، نفهم ما وراء قول رسول الله ﷺ لأصحابه: "إني لست كهيئتكم: إني يطعمني وبي يسقيني".

وتلك من خصوصيات النبي ﷺ: ويبدأ الحديث بجمله من كلام السيدة عائشة رضي الله عنها وهي راوية الحديث: حيث تقول: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم، ولنتساءل، مرجع الضمير في قولها: "نهاهم"، وأين مكانه في الحديث؟ إن مرجع الضمير يفهم من السياق: فالضمير يرجع إلى الصحابة رضي الله عنهم، وهم معلومون ومعروفون، ويرجع كذلك إلى كل مسلم يشق على نفسه، ويحاول الوصال في الصوم: فلا يتناول طعام السحور، وأحيانًا يمتنع عن طعام الإفطار، وفي ذلك إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ففي الفعل "نهاهم": إيجاز بالحذف: أي نهى الصحابة رضي الله عنهم، وكأن ضمير الغائب في صيغة الجمع يعلن عن وجود الصحابة رضي الله عنهم بحيث لا ينصرف الضمير إلى سواهم، والوصال: هو أن لا يتناول الصائم مفطرًا بين الصومين، وقيل استدامة أحوال الصائم، وكلمة "رحمة" تعليل للنهى عن الوصال، وهى مفعول لأجله.

والحوار بين رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم حول هذه القضية يفسر حرص الصحابة على إتقان العبادة، والاقتداء برسول الله ﷺ في ذلك، وينشر خوف رسول الله ﷺ على صحابته من الوصال منعًا للأذى والضرر، وللعبارة "إنك تواصل" منطوق ومفهوم، منطوقها واضح، ولكنه ليس المقصود، وإنما هم يريدون أن يقولوا إنك تواصل، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ونحن أولى بذلك لأننا لسنا معصومين: وهذا الصنيع يخفف عنا أوزارنا، وكما جاء كلام الصحابة رضي الله عنهم في صيغة التوكيد في مخاطبة رسول الله ﷺ. جاء كلام الرسول ﷺ مُصدرًا بالتوكيد "إني لست كهيئتكم" أي لست على صفتكم، ثم يتكرر التوكيد وهو يوضح أن ربه يطعمه ويسقيه ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم نوع من أنواع صوم التطوع، وهو صوم الوصال، ومعناه: ألا يفطر بعد الغروب أصلاً حتى يتصل صوم الغد بالأمس فلا يفطر بين يومين، وقال الحنفية هو أن يصوم السنة ولا يفطر في الأيام المنهية.

وقد اتفق الفقهاء[١] على أنه لا يجوز الوصال في الصوم للنهي عنه، وإن اختلفوا في قوة هذا النهي فجمهورهم من الحنفية[٢] والمالكية[٣] والشافعية في وجه[٤] والحنابلة[٥] كرهه، ولا يكره الوصال إلى السحر عند الحنابلة، وقال الشافعية في المذهب[٦] الوصال في الصوم مكروه كراهة تحريم.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٥٠/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٣٢/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٦٠/٢، ومواهب الجليل، الحطاب ٤٠٠/٣، وشرح منح الجليل للشيخ عليش ٢٥٠/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ١٣٢/١، والأم للشافعي ١٥٥/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١١٦/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٥/٣.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٥٠/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٣٣٢/١.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٦٠/٢، ومواهب الجليل، الحطاب ٤٠٠/٣، وشرح منح الجليل للشيخ عليش ٢٥٠/٣.

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١١٦/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٥/٣.

(٦) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٥٠/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤١٩/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الوصال في الصيام والحكمة منه.

ثانيًا: من خصائص النبي ﷺ: الوصال في الصيام.

ثالثًا: من صفات الداعية: رفقه بالمدعوين وخوفه عليهم.

رابعًا: من حقوق المدعو: السؤال عن حكمة النهي.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التخفيف والشفقة على المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن الوصال في الصيام والحكمة منه:

إن من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث النهي عن الوصال في الصوم ويظهر ذلك من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "نهاهم النبي ﷺ عن الوصال".

لقد بعث الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ وسكب في قلبه العلم والحلم وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده السخاوة والندى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدرًا[1]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

ومن رحمته ﷺ: نهيه أمته عن الوصال لما في ذلك من المشقة، وحصول المفسدة المترتبة على الوصال، والملل من العبادة والتعرض للتقصير في بعض وظائف الدين من إتمام الصلاة بخشوعها وأذكارها وآدابها، وملازمة الأذكار وسائر الوظائف المشروعة في نهاره وليله[3].

ثانيًا- من خصائص النبي ﷺ الوصال في الصيام:

اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء[4]

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٠٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٩٠، ونضرة النعيم ١/٥٠٧.

(٤) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن، تحقيق: عبدالله بحر الدين عبدالله ص ١٥٦.

بخصائص كثيرة تشريفًا له وتكريمًا -مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته عند ربه- منها: الوصال، والوصال في الصوم أبيح له ﷺ دون غيره من الأنبياء قال ﷺ لما قيل له إنك تواصل: "إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعني ربي ويسقيني".

قال القاضي عياض: (قال الخطابي: الوصال من خصائص ما أبيح للنبي ﷺ وهو محظور على أمته، وقوله: "إني أبيت يطعمني ربي ويسقيي" دليل على اختصاص النبي ﷺ بالوصال، ومعنى قوله: "يطعمني ربي ويسقيني" فيها وجوه: منها: أنه على ظاهره كرامة له واختصاصًا.

الثاني: أنه كناية عن القوة التي جعلها الله له، وإن لم يطعم ويسق، حتى يكون كمن قام به ذلك.

الثالث: أنه يخلق الله فيه من الشبع والري ما يغنيه عن الطعام والشراب)[١].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "لا تواصلوا". قالوا إنك تواصل. قال: ((لستُ كأحدٍ منكم، إني أُطعَمُ وأُسقى))[٢].

قال ابن حجر: (واسْتُدِلَّ بمجموع هذه الأحاديث على أن الوصال من خصائصه ﷺ، وعلى أن غيره ممنوع منه إلا ما وقع فيه الترخيص من الإذن فيه إلى السحر)[٣].

ثالثًا- من صفات الداعية: رفقه بالمدعوين وخوفه عليهم:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث رفقه بالمدعوين، وخوفه عليهم ويظهر ذلك من سبب نهيه ﷺ أمته عن الوصال إنما كان رفقًا بهم وخوفًا عليهم من المشقة المترتبة من الوصال.

والداعية لابد أن يكون رفيقًا فيما يدعو إليه حريصًا على المدعوين، كأنه يحرص على نفسه، وقد أمر رسول الله ﷺ بالرفق وبين أن الله يحبه فقال: ((إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ))[٤].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤/٣٨ - ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٦١، ومسلم ١١٠٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٢٤.

وقال أيضًا ﷺ: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[1].

فينبغي على الداعية أن يتحلى بالرفق في دعوته، وأن يحرص على مصلحة المدعوين حتى يحبونه ويقبلون على دعوته.

رابعًا- من حقوق المدعو: السؤال عن حكمة النهي:

يظهر ذلك من خلال ما ورد في نهيه ﷺ لهم، فقالوا إنك تواصل؟ وهذا يتضمن سؤال النبي ﷺ عن حكمة نهيه مع إنه يواصل، والسؤال والاستيضاح من حقوق المدعو التي كفلها له الإسلام وأمره بها قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنّ لهم في شؤون الدين، بل في الكثير من شؤون الدنيا، حتى أن بعضهم يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه[3].

كما في حديث أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما يقول: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)[4].

فالمدعو له حق السؤال عما يجهل أو عما أشكل عليه فهمه وغيره إذا أراد العلم بالحقيقة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: التخفيف والشفقة على المدعوين:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث التخفيف والشفقة على

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٤٧.

المدعوين، ويظهر ذلك من نهيه ﷺ عن الوصال مع إنه يواصل تخفيفًا عليهم في العبادة وشفقة عليهم من المشقة. والتخفيف والشفقة من أسس الدين الإسلامي قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية اليسر، وسهله غاية السهولة[2]. والشفقة على المدعوين من صفات المصطفى ﷺ فقد كان أكثر الأنبياء شفقة على أمته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[3] فالتخفيف والشفقة على المدعوين من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية وإقبال الناس عليها، واستجابتهم لها. فعلى الداعية أن ينظر إلى المدعو بروح الناصح الشفيق، المتواضع السمح الرحيم به الذي يتمنى له الخير.

---

(١) سورة الحج، من آية: ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ص ٤٩٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٢٣١)

٢٣١- وعن أَبي قَتادَةَ الْحارِثِ بنِ رِبْعي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّل فِيها، فَأَسْمعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجوَّزَ فِي صلاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٧).

غريب الألفاظ:

فأتجوَّز: أخفف[2].

أشُقَّ: أُثقل وأُتعب[3].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث نستروح نسمات الرحمة، ونفيء إلى معانيه النيرات، وتجلياته المشرقات، وحرصه على الأمهات وهم يقومون بأداء الصلوات في جماعة مع أصحابه، وصغارهم موجودون، فيتشبث ذهنهم، ويضعف أجرهم بهؤلاء الأطفال، ولذلك يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم لكل من يصلي بالناس منهجًا واحدًا وهو التخفيف وعدم الإطالة في الصلاة رحمة بأمهات الأطفال، وشفقة عليهن، فأطفالنا هم قرة العين، وانشراح الصدر، ومنبع الفرح والأمل والإشراق.

ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يطيل في الصلاة وهو راغب في ذلك، ولكنه حينما يسمع بكاء الطفل يخفف من صلاته كراهية أن يشق على الأم.

وهذا الأفق من آفاق التيسير يقدمه المصطفى صلى الله عليه وسلم في إطار لُغوي، وجمال تعبيري يفصح عن الدلالات والمقاصد المرادة في الحديث الشريف.

---

(١) برقم (٧٠٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤٩٠.

والحديث يتضمن عدة جمل تنتظم فيما بينها وتكوّن عِقْدًا من النسق التعبيري، والجمال التركيبي، والبداية تأتي في ثوب الجملة الاسمية المصدرة بـ"إن" المؤكدة المقترنة بياء المتكلم وهو أشرف الخلق محمد ﷺ، ويزيد الجملة تأكيدًا اقترانُ جملة خبر "إن" باللام في أول الفعل "لأقوم"، ويومئ ذلك التأكيد إلى حرص رسول الله ﷺ على الإطالة في الصلاة، حسب رضا المأمومين، أو تكون صلاة فردية وليست جماعية، وجملة، "وأريد أن أطوِّل فيها"، حالية، وهي تصور حال رسول الله ﷺ وهو يرغب في إطالة الصلاة، وفجأة يسمع بكاء الطفل، فيرق قلبه، ويعدل عن التطويل في الصلاة إلى قراءة قصار السور، وأدوات العطف في الحديث تشارك في توصيل المعنى: فالعطف بالواو بين الفعلين، "لأقوم إلى الصلاة وأريد"، يدل على مطلق الجمع، ولا يفيد الترتيب والتعقيب ولا الترتيب والتراخي، لأن القيام إلى الصلاة وإرادة التطويل يكونان في زمن واحد فلا فصل بين القيام والإرادة، ولكن بعد ذلك نجد أن العطف بالفاء في قوله "فأسمع"، وقوله: "فَأَتَجَوَّزُ" يفصح عن الترتيب، والتعقيب أو الإسراع، فسماع بكاء الطفل كان وقت الصلاة، وفي الكلام حذف لتفصيلات تفهم من سياق الحديث ومنها البدء في الصلاة ثم القراءة ثم سماع بكاء الطفل، ولذلك عطف الفعل "فأتجوز" أي" أخفف، على ما قبله وهو فأسمع، وهذا التخفيف ليس إخلالاً بأركان الصلاة، وإنما يقرأ بالسورة القصيرة.

وقيل إن رسول الله ﷺ قرأ في الركعة الأولى سورة طويلة، فسمع بكاء صبي فقرأ في الثانية بثلاث آيات، ويأتي التعليل للإفصاح عن اهتمام الإسلام بأمر الطفل وحرصه على أن لا يلحق الأذى بالأم لأن بكاء طفلها يعذبها، وهذا التعليل النفسي والإيماني والاجتماعي تشرق أسراره في قوله ﷺ "كراهية أن أشق على أمه"، والموقع الإعرابي للفظ "كراهية"، يشارك في توصيل المراد والمقصد، فهو مفعول معه أو مفعول لأجله، وفي الحديث تتجلى شفقته ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم، ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير، وعلى كل مسلم ومسلمة، ورعاية الأبناء والبر بالآباء والأمهات، منهج إسلامي رشيد له دوره في تجميل وجه الحياة وإعمارها ونشر عاطفة الرحمة والمحبة بين

الجميع يقول الشاعر العربي حطان بن المعلي:

وإنمـــا أولادنــــا بيننــــا أكبادنـــا تمـــشي علـــى الأرض
إن هبـــت الـــريح علـــى بعـــضهم لا امتنعـــت عـــيني عـــن الغمـــض[1]

ويقول ابن الرومي[2]:

وأولادُنـــا مثـــلُ الجَـــوارحِ أيُّهـــا فقـــدناه كـــان الفـــاجعَ البَـــيِّنُ الفَقْـــدِ
لكـــلٍّ مكـــانٌ لا يـــسُدُّ اخْتِلاَلَـــهُ مكـــانُ أخيـــه في جَـــزُوعٍ ولا جَلْـــدِ
هـــلِ العـــينُ بعـــدَ الـــسَّمْعِ تكفـــي أم الـــسَّمعُ بعـــد العـــينِ يَهْـــدِي

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإقبال على طاعة الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته.

ثالثًا: من صفات الداعية: مراعاة أحوال الكبير والصغير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام.

خامسًا: من واجبات الداعية: الانتباه ومراعاة أحوال المدعوين.

سادسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإقبال على طاعة الله:

شرع الإسلام من العبادات ما يستريح به قلب المؤمن ويجد لذته وحلاوته، ومن أفضل هذه العبادات الصلاة، فإنها مناجاة بين العبد وربه، لذا أخبر النبي ﷺ أنه يريد أن يطوّل فيها لولا إشفاقه على المأمومين من خلفه ومراعاته لأحوالهم، فدلّ هذا على أنه يجب على العبد أن يقبل على ربه في عبادته ويستلذ بذلك ويسعد، ولهذا ترك النبي ﷺ المجال مفتوحًا لمن يصلي وحده أن يطول على حسب نشاطه وإقباله، فقال

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٧ قافية الضاد.

(٢) ديوان ابن الرومي قافية الياء، أبيات رقم ١٩، ٢٠، ٢١.

ﷺ: ((إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ. فَإِنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَالْمَرِيضَ، فَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ))(١).

قال عبدالله البسام: (يؤخذ منه أنه لو كان العدد محدودًا وآثروا التطويل أنه جائز، لأنهم أصحاب الحق في ذلك، وقد جاءت الرغبة منهم فلا بأس إذن بالتطويل.

أما إذا صلَّى وحده فليصل ما شاء، لأن ذلك راجع إلى رغبته ونشاطه، وينبغي تقييده بما لا ينشغل به عن الواجبات)(٢).

لكن السؤال هنا: لما أحبَّ النبي ﷺ التطويل في الصلاة؟

الجواب -والله أعلم-: لأن في الصلاة إقبالاً من العبد بكليته على ربّه، وبيانًا لمدى تعلقه بحبه تعالى وإثباتًا لمدى تلذذه بمناجاته وسعادته بالوقوف بين يديه سبحانه. وذلك فضلاً عن عجز الإنسان عن القيام بحق شكر الله، على نعمه وآلائه التي لا تحصى، والتطويل بيانًا منه على شكره لخالقه؛ لذا أحب النبي ﷺ التطويل في الصلاة.

يقول عبدالله البسام في بيان رائق يأخذ بالقلوب عن الصلوات الخمس: (الصلوات الخمس أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأفضل الأعمال بعدهما لكونها وضعت على أكمل وجوه العبادة وأحسنها، ولجَمعها ما تفرق من العبودية، وتضمنها أقسامها وأنواعها، فهي تكبير الله وتحميده تعالى، والثناء عليه وتهليله وحمده، وتنزيهه وتقديسه، وتلاوة كتابه والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ وعلى آله، ودعاء للحاضرين وجميع عباد الله الصالحين، وهي قيام وركوع وسجود وجلوس، وخفض ورفع، فكل عضو في البدن، وكل مفصل فيه له من هذه العبادة حظه، ورأس ذلك كله القلب الحاضر.

فرضها الله تعالى على عباده ليذكرهم بحقه، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من مشاق هذه الحياة الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٥٧/٢.

والمجتمع الإنساني بحاجة إلى قوة إيمان تدفع نفسية افراده على وجه الاستمرار إلى المثل العلى، لئلا ترتبط الأفراد بالحاجات المادية والمصالح الشخصية، مما يؤدي إلى الفساد في الأرض.

إن الإنسان إذا لم تتصل روحه بمبدعها، ظهرت فيه مظاهر الاكتئاب، فالصلاة طمأنينة في القلب عند المصائب وراحة للضمير عند النوائب. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1].

وهي زاجرة عن المنكرات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]، ومكفرة للسيئات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[3]، فالصلاة رأس القُربات، وغرة الطاعات، لما فيها من تحقيق المناجاة ورفعة الدرجات)[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ على أمته:

لقد كان النبي ﷺ مشفقًا على أمته أتم الشفقة وأبلغها، فهو القائل ﷺ: ((إنما أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ))[5]، وهذه الشفقة واضحة وذلك في قوله ﷺ في تعليله لتخفيفه الصلاة: (فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)، وقد ورد ذلك التعليل في أحاديث أخرى:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((ما صلَّيتُ وراءَ إمامٍ قط أخفَّ صلاةً ولا أتمَّ منَ النبيِّ ﷺ، وإنْ كانَ لَيَسْمَعُ بكاءَ الصبيِّ، فيُخفِّفُ مَخافةَ أن تُفْتَنَ أُمُّه))[6].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٧٢/١.

(٥) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

(٦) أخرجه البخاري ٧٠٨، ومسلم ١٩٠ - ٤٦٩.

قال ابن حجر: (أي تلتهي عن صلاتها لاشتغال قلبها ببكائه، زاد عبدالرزاق[١] من مرسل عطاء: أو تتركه فيضيع)[٢].

وفي رواية: ((إني لأدخُلُ في الصلاةِ فأُريدُ إطالتَها، فأَسمعُ بُكاءَ الصبيِّ فأَتجوَّزُ ممّا أَعلمُ مِن شدَّةِ وَجدِ أُمِّهِ من بُكائه))[٣].

قال ابن حجر: (قوله "وجد أمه" أي: حزنها.. وكأن ذكر الأم هنا خرج مخرج الغالب وإلا فمن كان في معناها ملتحق بها)[٤].

ومن الأمثلة التطبيقية الأخرى لشفقة النبي ﷺ على أمته رفضه لما عرضه عليه ملك الجبال له عندما كذبه قومه واشتدوا في ذلك، قال له ملك الجبال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين"[٥]، فقال له رسول الله ﷺ: ((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))[٦]، ففي هذا الحديث - كما يقول ابن حجر- (بيان شفقة النبي ﷺ على قومه ومزيد صبره وحلمه وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[٧])[٨].

وقال القاضي عياض عن تحلّي النبي ﷺ بالشفقة والرأفة في معرض بيان حسن خلقه ﷺ: "وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى في حق

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٧٢٢/٢، وفيه: خشية أن تفتتن أمه.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٧/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٩ - ٧١٠، ومسلم ١٩٢ - ٤٦٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٧/٢.

(٥) هما جبلا مكة: أبو قبيس والجبل الذي يقابله، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ٧٣٨٩، ومسلم ١٧٩٥.

(٧) سورة آل عمران آية: ١٥٩.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٤/٦، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٨٧/١.

الرسول ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[(٢)]، قال بعضهم عن فضله ﷺ: إن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: (بالمؤمنين رءوف رحيم)"[(٣)].

ثالثًا- من صفات الداعية: مراعاة أحوال الكبير والصغير:

إن الداعية يدعو جميع المدعوين كبارًا وصغارًا نساء ورجالاً، شيوخًا وأطفالاً ومن ثم كان عليه مراعاة أصناف المدعوين، حتى لا يهتم بصنف على حساب آخر، وإنما يراعي الجميع ويتآلف الجميع، وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث، فقد جعل النبي ﷺ بكاء الصبي سببًا في تخفيف الصلاة مراعاة لحال أمه، وقد ذكر البخاري هذا الحديث تحت باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، قال ابن حجر: (قال الزين بن المنير: التراجم السابقة بالتخفيف تتعلق بحق المأمومين، وهذه الترجمة تتعلق بقدر زائد على ذلك وهو مصلحة غير المأموم لكن حيث تتعلق بشيء يرجع إليه)[(٤)]، وفي الحديث: (بيان شفقة النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم، ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير)[(٥)].

ويمكن هنا أن ذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا، وكان لي أخٌ يقال له أبو عُمَير. قال أحسِبُهُ فطيمًا ـ وكان إذا جاء قال: ((يا أبا عمير، ما فعلَ النُّغَير؟[(٦)] نُغَرٌ كان يلعَبُ به، فرُبما حضرَ الصلاة وهو في بَيتِنا،

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ١٨٧.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٢٣٦. والضمير في إليه يرجع إلى المأموم.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٢٣٧.

(٦) هو تصغير النغر وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار ويجمع على نغران، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢٨.

فيأمر بالبساطِ الذي تحتهُ فيُكنَسُ وينضح، ثم يقوم ونقوم خَلفَه فيُصلّي بنا))[١].

وقد استخرج بعض العلماء من هذا الحديث ستين فائدة، لخصها ابن حجر فذكر منها: (التلطف بالصديق صغيرًا كان أو كبيرًا، والسؤال عن حاله، وفيه أن الكبير إذا زار قومًا واسى بينهم فإنه صافح أنسًا ومازح أبا عمير ونام على فراش أم سليم وصلى بهم في بيتهم حتى نالوا كلهم من بركته)[٢].

وقال عبدالله البسام: (يجب مراعاة الضعفاء والعجزة في جميع الأمور التي يشاركهم فيها الأقوياء سواء في الأمور الدينية أو الاجتماعية، لأنه الذي يجب مراعاته والعمل به)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: يسر الإسلام:

إن شريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة، وهي رسالة عالمية، فهي للناس أجمعين تراعي أحوالهم في جميع الأزمان والأماكن والأحوال، لذا كان من أخص خصائص الإسلام اليسر ورفع الحرج والمشقة، ذلك واضح في الحديث كله: (وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه).

ومن الأمثلة التطبيقية ليسر الإسلام ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: إنَّ مُعاذَ بن جبلٍ رضي الله عنه كان يُصلّي معَ النبيِّ ﷺ ثم يأتي قومَهُ فيُصلي بهمُ الصلاةَ، فقرأ بهم البقرةَ، قال: فتجوَّز رجلٌ فصلى صلاةً خفيفةً، فبلغَ ذلك مُعاذًا فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجلَ فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يارسول الله إنا قومٌ نعملُ بأيدينا، ونَسقي بنواضِحنا[٤]، وإنَّ مُعاذًا صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوَّزتُ، فزعمَ أني منافق. فقال النبيُّ ﷺ: ((يامعاذُ أفتّانٌ أنت؟ ثلاثًا. اقرأ والشمسِ وضُحاها، وسبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى ونحوَهما))[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ٦٢٠٣، ومسلم ٦٥٩، ١٢٥٠، ٢٣١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٦٩٩ - ٦٠١

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٢٥٧.

(٤) النواضح: الإبل التي يستقى عليها واحدها، ناضح، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٦١٠٦، ومسلم ٤٦٥.

قال ابن حجر: (وفي حديث الباب من الفوائد أيضًا استحباب تخفيف الصلاة مراعاة لحال المأمومين... فيه أن الحاجة من أمور الدنيا عذر في تخفيف الصلاة)[(١)].

وقد قال النبي ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: ((أَنْتَ إِمَامُ قَوْمِكَ، فَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِمْ))[(٢)].

جاء في الموسوعة الفقهية: (اليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصد أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى وأحاديث نبوية صحيحة وأجمعت الأمة عليه)[(٣)].

ومن القواعد الفقهية الكبرى: المشقة تجلب التيسير، قال الدكتور علي الندوي: "هذه إحدى القواعد الجليلة الناطقة بمرونة التشريع الإسلامي الحكيم، ولها أثر عميق جدًا في كثير من الأحكام الشرعية، وهي مستوحاة من النصوص التشريعية الكريمة التي ترشد إلى رفع الحرج عن العباد، وترفيههم عن المشقة البالغة، ومن المعلوم أن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع.

وهناك آيات متوافرة من كتاب الله تعالى تعتبر من الأدلة الواضحة البينة على هذا الأصل، وبالاستناد إليها اكتسبت القاعدة خصائص الدليل الشرعي)[(٤)].

خامسًا- من واجبات الداعية: الانتباه ومراعاة أحوال المدعوين:

إن الداعية يعيش في مجتمع بشري يعجّ بالكثير من الأفكار والاتجاهات التي يكون لها تأثير كبير على نفوس المدعوين، وكلما كان الداعية منتبهًا لهذا كان أنجح في دعوته، وهو في هذا يكون مقتديًا بالنبي ﷺ، كما هو ظاهر في الحديث: (فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)، ومن هذا القبيل

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٣١، والنسائي ٦٧٢، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٢/٢٣٣، وأصله في صحيح مسلم ٤٦٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤/٢١٣.

(٤) جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/٢١١.

قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: ((يا عائشةُ لولا أنَّ قومَكِ حديثُ عهدٍ بجاهليةٍ لأمَرتُ بالبيتِ فهُدِمَ، فأدخَلتُ فيه ما أُخرِجَ منه، وألزقتُه بالأرض، وجعلتُ لهُ بابَينِ بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغتُ بهِ أساس إبراهيمَ))[1].

قال النووي: (وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام: منها إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدىء بالأهم، لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبًا، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيمًا فتركها ﷺ. ومنها فكر ولي الأمر في مصالح رعيته، واجتنابه ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية، كأخذ الزكاة وإقامة الحدود ونحو ذلك. ومنها تألف قلوب الرعية وحسن حياطتهم وأن لا ينفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي)[2].

سادسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والتعليل:

أما التوكيد قوله ﷺ: "إني..." ليؤكد أنه كان يود الإطالة في الصلاة، وأما التعليل فجملة "خشية أن أشق على أمه" ليبين ﷺ سبب تجوزه في الصلاة، وهذا التعليل يوضح شفقته ﷺ ورأفته بأمته، ليقتدي به الدعاة وولاة الأمر من بعده.

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٨٦، ومسلم ١٣٣٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٤/٣.

الحديث رقم (٢٣٢)

٢٣٢- وعن جُنْدبِ بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبحِ فَهُوَ فِي ذِمةِ اللَّه، فَلا يطْلُبنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدرِكْه، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّم**» رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

جُنْدُب بن عبدالله بن سفيان: وهو جندب بن عبدالله بن سفيان البَجَلِيُّ، العَلَقِيُّ - والعَلَق: بطن من بجيلة وهو علقة بن عبقر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث- أخو الأزد بن الغوث.

قال ابن السكن: أهل البصرة يقولون: جُنْدُب بن عبدالله، وأهل الكوفة ينسبونه إلى جده فيقولون: جندب بن سفيان، ويقال: جندب بن خالد بن سفيان.

يكنى أبا عبدالله، ويُقال: جندب الخير، وجندب رضي الله عنه له صُحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم ليست بالقديمة، وقد سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم غلامًا جزورًا، وكان يقول: كُنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن فِتَيانٌ حَزَاوِرَة[(٢)]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن حذيفة، وعن أبي بن كعب، وله عدَّةُ أحاديث.

وكان رضي الله عنه من الناصحين لدين الله ورسوله، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فقد أوصى نفرًا من الناسِ فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور بالليل المظلم وهُدى بالنهار، فاعملوا به ما كان من جهد وفاقة، فإن عَرَضَ بلاءٌ، فقدِّموا أموالكم دون دينكم، فإن تجاوزَ البلاء، فقدِّموا أموالكم وأنفسكم دون دينكم، فإن المخروب من خُرِب دينُه، والمسلوبَ من سُلِب دينُه، واعلموا

---

(١) برقم (٢٦٢/٦٥٧).أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٠).

(٢) حزاورة: هو جمع حَزْوَرٍ وحَزورٍ، وهو الذي قارب البلوغ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ز ر).

أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غنى بعد النار.

وقد بعث جندب إلى عَسْعَس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير، فقال له، ارجع لي نفرًا من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولاً إليهم، فلما اجتمعوا قال لهم: (إنَّ رسول الله ﷺ بعث بعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين، وأنهُمُ التقوا، فكانَ رجلٌ من المشركين إذا أراد أن يقصد إلى رَجُلٍ من المسلمين قصدَ لَهُ، فقتلَهُ، وإن رجلاً من المسلمين التمس غفلته، قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله. وجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله، وأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: لم قتلته؟ فقال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين. وقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا. وإني حملت عليه السيف، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: ((أقتلته))؟ قال: نعم، قال: ((فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة))؟ قال: فجعل لا يزيد على أن يقول ((كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاء يوم القيامة؟))[1].

ثم قال جندب عند ذلك: قد أظلتكم فتنة من قام لها أَرْدَته، قالوا: فما تأمرنا، أصلحك الله، إن دخل علينا مصرنا؟ قال: ادخلوا دوركم، فقالوا: فإن دخل علينا دورنا؟ قال ادخلو بيوتكم، قالوا فإن دخل علينا بيوتنا؟ قال: ادخلوا مخادعكم، قالوا: فإن دخل علينا مخادعنا؟ قال: كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل.

سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة مع مصعب بن عمير. أما عن وفاته فقال خليفة مات في فتنة ابن الزبير، وذكره البخاري في التاريخ فيمن توفي من الستين إلى السبعين عامًا. أ هـ وهو إلى حدود السبعين أقرب[2].

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٩٧).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣٥/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٢٠٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١١٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٦٦/١-٥٦٨)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٤٨٣/١-٤٨٤)، وتهذيب التذهيب (٢١٧/١-٢١٨)، وسير أعلام النبلاء (١٣٣٦/١)، والسندي ٩٤/٣١.

غريب الألفاظ:

ذمة الله: عهده وأمانه وضمانه وحمايته[١].

كَبُّه على وجهه: قلَبه وألقاه[٢].

الشرح الأدبي

ما أجمل أن يستقبل المسلم يومه بالصلاة ومناجاة ربه، والتضرع إليه، وهو استقبال متوج بالحماية الربانية، والرعاية الإلهية، فالرسول ﷺ يبشر كل من صلى صلاة الصبح في جماعة - وهي صلاة الفجر- بأنه طيلة يومه في حماية الرحمن الرحيم يحميه من أذى المعتدين، وينذر كل من يتعرض له بسوء بأنه لن يفلت من عقاب الله مهما أمعن في التخفي، وسوف يكبه الله على وجهه في جهنم.

فأي بشارة أعظم من هذه البشارة، وأي حماية أقوى من حماية الله لعباده المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، وفي صلاة الفجر تتجلى أنوار الرضا، وإشراقات الهداية، وأمارات الفوز والفلاح فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائكَةٌ بالليلِ ومَلائِكةٌ بالنَّهَارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْأَلُهُمْ -وهوَ أعلمُ بهم-: كيفَ تَركتُمْ عِبادي؟ فيَقُولونَ: تَركْنَاهمْ وهم يُصلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصلُّون))[٣].

وبيانًا لأفضلية صلاة الفجر: يروي أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لو يَعلمُ الناسُ ما في النِّداءِ والصفِّ الأوَّلِ ثم لم يَجدوا إلاّ أن يَسْتَهِموا عليه لاستهَموا، ولو يَعلمونَ ما في التَّهْجيرِ لاستَبَقوا إليه، ولو يَعلمون ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لأتوهما ولو حَبْواً))[٤].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ م م).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٧١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٥، ومسلم ٦٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٥، ومسلم ٤٣٧.

وفي ضوء إشراقات هذين الحديثين الكريمين وغيرهما من الأحاديث، في هذا السياق ندرك أسرار هذه البشارة الإلهية التي بشر بها رسول الله ﷺ كل من صلى صلاة الصبح... فهو في ذمة الله أى في أمانه وعهده: وقال العلماء في بيان علة هذه الأفضلية لصلاة الصبح، خصت بذلك لأنها أول النهار الذي هو وقت ابتداء انتشار الناس في حوائجهم المحتاجين وفي دوامه إلى أمْن بعضهم من بعض، وقال الطيبي: خصت بالذكر لما فيها من الكلفة والمشقة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي الذي يشارك في إيضاح المعنى في هذا الحديث الشريف: نجد أن الحديث تنظمه عدة جمل، وهى متلاحمة الأجزاء، متشابكة النسيج، تجمعها الوحدة الموضوعية والعضوية، فالحديث لابد أن يقرأ كله حتى نصل إلى مقصده الأسنى، وهدفه الأجلي، والوحدة العضوية من سمات البيان النبوي لأن لكل حديث دائرة محكمة تتضام محاورها وأقطارها، ويستدعى آخرها أولها.

والجملة الأولى في الحديث: جملة شرطية وهى مركز أشعة هذه البشارة النبوية، وهى بشارة للملايين من أبناء الأمة الإسلامية، الذين تمتلئ بهم بيوت الله في عتمة الصباح وتباشير الفجر الصادق، "من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله" وأي أمان أعظم من هذا الأمان الإلهي، والجملة الثانية تحمل التهديد والوعيد لكل من يحاول نقض هذا العهد، وتلك الحماية: حيث ينهي رسول الله ﷺ كل من يسمعه أو يبلغه ذلك الخبر عن التعرض بأي أذى لهذا المؤمن الذي فاز بحماية ربه، وقد وقع النهي عن مطالبة الله إياهم عن نقض العهد وهو توضيح لنتيجة نقض عهد الله بسبب إيذاء هؤلاء المصلين والمراد كما قال العلماء نهيهم عن التعرض لما يوجب مطالبة الله إياهم، فالأسلوب فيه : إيجاز وإشارة إلى أحداث تقع ثم تكون نتيجتها: العقاب وسوء المصير، والضمير في "ذمته" يحتمل أن يكون عائدًا إلى: "مَنْ" اسم الموصول، وهو المصلى.

ويمكن أن يكون المراد بالذمة: الصلاة المقتضية للأمان- كما يقول صاحب دليل الفالحين-: والجملة تتوعد كل من يحاول إيذاء هذه الجماعة المؤمنة: وصيغت في أسلوب التوكيد: ليرتدع هؤلاء الآثمون المعتدون: فإن عقاب الله سيدركهم، مهما

تحصنوا بالجاه والمنصب والمال والعصبية والسلاح، والجملة الأخيرة تحدد مصير كل معتد يسخر من المصلين ويؤذيهم ويعتدي على مساجدهم وحرماتهم، فالله يكبهم على وجوههم في نار جهنم.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى ثواب صلاة الصبح ومكانتها وأنه من آكد الفروض التي يطالب الله تعالى بها عبده لأنها ابتداء يومه.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن صلاة الصبح يحين وقتها عند طلوع الفجر الصادق وحتى طلوع الشمس، واختلفوا في الأفضل في صلاة الصبح الإسفار أم التغليس[2]؟ فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الأفضل تعجيل صلاة الصبح في أول وقتها أي الغلس، فقد كان النبي ﷺ يصلي الصبح فينصرف الناس وقت الغلس حتى لا يعرف النساء بمروطهن من فرط الغَلَس، وهو ما عليه كثير من الصحابة، وذهب الحنفية إلى أنه يستحب الإسفار بصلاة الصبح وتأخيرها إلى أن ينتشر الضوء.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٨٩/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٧٩/١ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٦٤/١ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٧/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٨١/١ وما بعدها، والأم للشافعي ٩٣/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٥/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٤١٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٤٢/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٤٩/١ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٣٢/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٥/٣١ وما بعدها.

(٢) الغلس هو ظلام آخر الليل إذا اختلط بضوء الصبح، أو أول الصبح حين ينتشر في الآفاق، والإسفار ظهور الضوء، انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٤/٣١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الصبح.

ثانيًا: من مهام الداعية: نصح المدعو بما ينفعه وتحذيره مما يضره.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والنهي المؤكد والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الصبح:

الصلاة هي عماد الدين، لها فضل عظيم، وصلاة الصبح لها أعظم الفضل كما يتضح في هذا الحديث فقد أخبر النبي ﷺ أن من صلى الصبح "فهو في ذمة الله" (والذمة قيل الضمان وقيل الأمان)[١].

وقال القرطبي: (أي في أمان الله، وفي جواره أي قد استجار بالله تعالى، والله تعالى قد أجاره، فلا ينبغي لأحد أن يتعرض له بضرٍ أو أذى، فمن فعل ذلك فالله يطلب بحقّه، ومن يطلبه لم يجد مفرًا ولا ملجأ)[٢].

قال الطيبي: (المعنى: من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا تعرضوا له بشيء يسير، فإنكم إن تعرضتم له يدرككم الله تعالى ولن يفوته -من طَلَب- فيحيط بكم من جوانبكم كما يحيط المحيط بالمُحاط ويكبكم في النار)[٣].

(وإنما خص صلاة الصبح بالذكر لما فيها من الكلفة والمشقة وأداؤها مظنة خلوص الرجل ومنه إيمانه، ومن كان مؤمنًا خالصًا فهو في ذمة الله تعالى وعهده)[٤].

وقد وردت أحاديث في فضل صلاة الصبح: من ذلك قول جرير بن عبدالله رضي الله عنه: ((كنا جلوسًا لَيلةً مع النبيِّ ﷺ فنظر إلى القمر ليلةَ أربعَ عشرةَ، فقال: إنكمُ ستَرون

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٦٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٢٨٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/١٨٤.

(٤) المرجع السابق ٢/١٨٤.

ربكم كما ترون هذا لاتُضامُون في رُؤْيَتِهِ[1] ، فإنِ استطعتم أنْ لاتغلَبُوا على صلاةٍ قبْلَ طلوعِ الشَّمْسِ، وقبل غروبها فافعلوا ، يعني: العصر والفجر ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[2]))[3]. وقال النبي ﷺ ((لَنْ يَلْجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّىٰ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا))[4].

وقال عائض القرني عن صلاة الفجر: (معيار صلاح الناس، وقيامُهم بالدين، صلاةُ الفجر جماعةً، لأنها في وقت راحة بعد سهر، وإذا أردت أن تعرف الناس في حيِّك فراقبهم في صلاة الفجر، ومما رأيناه وعشناه تخلّف الكثير عن صلاة الفجر مع عدم المبالاة والندم على ما حصل، وما ذاك إلا لموت القلوب، وقضية دعوى التدين والتقوى سهلة لكن العبرة بالعمل والتطبيق، فإذا رأيت الرجل مقيمًا للصلوات الخمس في جماعة ورعًا في منطقه خائفًا من ربه نادمًا على خطئه فهذا الذي يرجى له الخير ويبشر به.

أما المقصر في الصلوات، المعجب بنفسه، الغافل عن تقصيره، فدعواه مردودة عليه ومحبته داحضة وهو من المفلسين،وقد رأينا من يظهر التدين والصلاح فإذا حانت صلاة الفجر خذله شيطانه وهواه ونفسه الأمّارة بالسوء عن حضورها جماعة، فغبن في صفقته وخسر ثقة إخوانه المؤمنين، ولا تمدح لنا أحدًا ولا تزكي لنا عبدًا بل أعماله تمدحه وأخلاقه تزكيه، لأننا مللنا من الثناء على أناس تطبيق الإسلام عندهم باللسان ولكن إذا حَصْحَص الحق في حضور صلاة وصدق في قول ووفاء بوعد وقيام بواجب فإذا الخذلان والفشل والرسوب -قائم بهم- ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[5]"[6].

---

(١) لا تضامون في رؤيته: يروى بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه، ويجوز ضم التاء وفتحها على تفاعلون وتتفاعلون، ومعنى التخفيف: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض، والضيم: الظلم، النهاية: ٥٥٠.

(٢) سورة ق، آية: ٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٨١، ومسلم ٦٣٣.

(٤) أخرجه مسلم ٦٣٤.

(٥) سورة الصف، آية: ٣.

(٦) هكذا حدثنا الزمان ٨٩.

ثانيًا- من مهام الداعية: نصح المدعو بما ينفعه وتحذيره مما يضره:

إن النصيحة (هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد)[١] وهذه هي مهمة الداعية، فإنه ينصح المدعو بما ينفعه ويحذره وينهاه عما فيه ضرره، وفي هذا الحديث اجتمع الأمران. أما النصح فقول النبي ﷺ "من صلى الصبح فهو في ذمة الله" أي في أمانه وعهده. وأما التحذير "فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء... يكبه على وجهه في نار جهنم".

قال الطيبي: (وقع النهي على مطالبة الله تعالى إياهم عن نقض العهد، والمراد نهيهم عن التعرض لما يوجب مطالبة الله إياهم ... ثم أعاد الطلب وكرر الذمة ورتّب عليه الوعيد)[٢].

وقال القرطبي: (قوله: "يكبه في النار": يقلبه فيها على وجهه)[٣].

ويمكن في هذا الموضع الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[٤] أي: (يا أيها الذين آمنوا إن مقتضى الإيمان أن تمتثلوا أمر الله، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح وخاصة التناجي بالإثم والعدوان، فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ولكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى وبالخير الصالح)[٥].

وعلى هذا النحو يحمل قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها عندما أخبرته أن معاوية

---

(١) التعريفات، الجرجاني ٢٩٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/١٨٤.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٢٨٢.

(٤) سورة المجادلة، آية: ٩.

(٥) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٢٨/٨.

ابن أبي سفيان رضي الله عنهما وأبا جهم رضي الله عنه خطباها - قال ﷺ لها: ((أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ[١]، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ. انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» فَكَرِهْتُهُ. ثُمَّ قَالَ: «انْكِحِي أُسَامَةَ» فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ))[٢].

قال النووي: (فيه دليل على جواز ذكر الإنسان بما فيه عند المشاورة وطلب النصيحة ولا يكون هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة.. وأما إشارته ﷺ بنكاح أسامة فلما علمه من دينه وفضله وحسن طرائقه وكرم شمائله. فنصحها بذلك فكرهته لكونه مولىً ولكونه كان أسود جدًا، فكرر النبي ﷺ الحث على زواجه لما علم من مصلحتها وكان كذلك)[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والنهي المؤكد والتعليل:

أما الترغيب فذكره ﷺ أن من صلّى الصبح كان في أمان الله وعهده وهذا حثٌ على صلاة الصبح والمحافظة عليها، وأما النهي المؤكد فقوله ﷺ: "فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء" والترهيب في قوله ﷺ "فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم" وهذا أيضًا تصريح وتعليل بحكمة النهي، قال الطيبي: (وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالذمة الصلاة المقتضية للأمان، فيكون المعنى لا تتركوا صلاة الصبح فينتقض به العهد الذي بينكم وبين ربكم فيطلبكم به)[٤].

وقال القرطبي: (وهذا وعيد شديد لمن يتعرض للمصلّين وترغيب حضور صلاة الصبح)[٥].

---

(١) لا يضع عصاه عن عاتقه: فيه تأويلان مشهوران: أحدهما: أنه كثير الأسفار. والثاني: كثير الضرب للنساء وهذا أصحّ. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٨٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٧.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٤/٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٨٢/٢.

الحديث رقم (٢٣٣)

٢٣٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يظْلِمُه، ولا يُسْلِمهُ، منْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمِ الْقِيامَةِ، ومَنْ ستر مُسْلِمًا سَتَرهُ اللَّهُ يَوْم الْقِيَامَةِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

لا يسلمه: أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه[2].

فَرَّجَ: كشف وأزال[3].

الكربةُ: الغَمُّ الذي يأخذ بالنفس[4].

الشرح الأدبي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما يقول أبو بكر القسطلاني في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية-، أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقًا، حتى كأن كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح، ففصاحة لسانه غاية لا يُدرك معناها، ومنزلة لا يُدَاني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد جعل الله تعالى لسانه سيفًا من سيوفه يبين مراده، ويدعو به إليه عبادة، فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره، أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لايقول هجرًا، ولا ينطق هذرًا، كلامه كله يثمر علمًا، ويمتثل شرعًا وحكمًا، لا يتفوه بشر

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) واللفظ له، ومسلم (٥٨/ ٢٥٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٦٠).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ف ر ج).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته.

وفي ضوء هذه الخصائص والسمات التي يتحلى بها البيان النبوي ويتجلى، نتأمل أسرار التعبير وأوجه الجمال في هذا الحديث الشريف؛ والحديث يدعو إلى تعظيم حرمات المسلم، وإلى المحافظة عليه والتعاون معه على البر والتقوى، وتفريج كربه، وستر عوراته، وعدم التشهير بأسراره التي يؤذيه أن يعرفها أحد.

وهذه المعاني الوضيئة، والقيم النبيلة أفصحت عن جمالها الصياغة اللغوية، وجسدتها الحروف والكلمات والأساليب، فالحديث في بنائه اللغوي يتكون من ست جمل أو ست قواعد من أسس الإسلام؛ فالجملة الأولى اسمية وهى "المسلم أخو المسلم"، وهى قاعدة من قواعد الإسلام التي لا تقبل النقض أو التغيير، حيث قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، ومن خلال الصياغة يتأكد ثبات الأخوة الإسلامية وديمومتها في كل زمان وكل مكان وفي كل بيئة وكل عصر، فاسمية الجملة تؤكد هذا الثبات : لأن الأخوة ليست مرتبطة بحدث ولا زمن متغير: فهي ليست حدثًا طارئًا في الحاضر أو المستقبل، أو حدثًا ماضيًا انتهى إيقاعه، وانطفأ بريقه، وإنما هي قيمة ثابتة، وصيغة راسخة في معالم الشخصية الإسلامية.

والجملتان: الثانية والثالثة بيان وتفصيل لمعيار هذه الأخوة، وهما فعليتان ومسبوقتان بحرف النفي "لا": الذي تكرر قبل كل فعل، "لا يظلمه ولا يسلمه"، وهما للترغيب في تعميق مصداقية الأخوة الإسلامية، وعدم الإقدام على ظلم المسلم لأخيه، وعدم إسلامه لعدو متربص به، بل ينصره ويدفع عنه الظلم، ويدفعه عن الظلم.

والفعلان أَتَيَا في صيغة المضارع، وهذه الصيغة الزمنية المستقبلية ترشد إلى ضرورة استمرار هذا السلوك الإيجابي تجاه كل أخ مسلم، والجمل الثلاث الأخيرة جاءت في صيغة "الشرط والجزاء"، ومضمونها كذلك، وهى تتماثل في أفعال الشرط، وأفعال الجزاء من خلال اتحاد فعل الشرط وجوابه من حيث اللفظ في الجمل الثلاث، وذلك

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

يؤكد ثبات الجزاء الإلهي الحسن، والثواب المضاعف، وتكرار الكلمات في جملتي الشرط والجواب في كل جملة من خلال الصيغ المتماثلة: للتذكير والتنبيه والحث على مزيد من التعاون على البر والتقوى وعلى أن المسلم أخو المسلم.

فلفظ المسلم يتكرر مرتين في الجملة الأولى، وحرف النفي "لا"، يتكرر مرتين في الجملتين، الثانية والثالثة، والفعل "كان" يتكرر مرتين في الجملة الرابعة، وكذلك كلمة "حاجة" تتكرر مرتين في الجملة نفسها، والفعل "ستر" يتكرر مرتين في الجملة الأخيرة، والتكرار يأتي لمزيد من التوكيد والتذكير، والاطمئنان إلى أن الجزاء من جنس العمل، وما عند الله خير وأبقى.

ولفظ "المسلم" جاء مُعرَّفًا في الجملة الأولى: لإرساء قاعدة ثابتة لمعيار الأخوة في الإسلام، فالمسلم أيا كان جنسه أو لونه أو أصله أو لغته أو عِرْقه هو أخو المسلم في أى مكان، وأى زمان، وعبر بلفظ "أخيه" في الجملة الرابعة للتذكير بالأخوة التي توثقت عراها في مُفتتح الحديث، ثم جاء بلفظ "مسلم" في صيغة النكرة: في بقية الحديث لإفادة العموم حتى لا ينصرف الذهن إلى مسلم بعينه، ونكر كلمة "كربة" لإفادة الشمول والعموم، حتى لا ينحصر مفهوم الكربة في حالة خاصة أو ظرف طارئ، وعبر بقوله: "فرَّج" ولم يقل "نفّس"، لأن التفريج أعظم من التنفيس: فهو إزالة الكربة بالكلية، والتنفيس فيه إرخاء وتهوين، وكرر يوم القيامة مرتين في آخر الحديث لإشاعة الاطمئنان في نفس كل مسلم أعان أخاه وستره بأن الله سيكافئه يوم القيامة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حرمة نفس المسلم وماله وعرضه وأن من أفضل الأعمال تفريج كربة مسلم أو إعانته على ما يصلحه، وأن ستر المسلم من أفضل القربات عند الله تعالى.

وقد ذكر الفقهاء[١] أنه متى وَجَد مسلمٌ آخَرَ في معصية ثم نصحه بالإقلاع عنها فينبغي له أن يستر عليه، ولذا يجوز في الحدود الشهادة والستر والستر أفضل، ما لم يشتهر العاصي بمعصيته أو يكون قد ستر عليه فلم يتب فيستحب حينئذ الشهادة عليه، فقد استثنى الفقهاء من ذلك المتهتك الذي لا يبالي بإتيان المحظورات ولا يتألم لذكره بالمعاصي فلا ينبغي ستره حينئذ، وكذا من الستر المطلوب. أن من رأى ميتًا في حال سيئة فلا يشهر به بل يستر عليه، وغير هذا في كل الأحوال والظروف التي تتطلب الستر.

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة مقتضيات الأخوة الإسلامية.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الحث على الأخوة الإسلامية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن كل ما يسبب العداوة بين المسلمين.

رابعًا: من فقه الداعية: تذكير المدعوين بعبوديتهم لله.

خامسًا: من أهداف الدعوة: حفظ الأرواح والأموال والأعراض.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تحصيل التقوى.

ثامنًا: من وسائل الدعوة: الإشارة.

تاسعًا: من أساليب الدعوة: الإخبار والنفي والترغيب والنهي والأمر والتكرار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة مقتضيات الأخوة الإسلامية:

الأخوة تقتضي حقوقًا وواجبات، وتتميز الأخوة الإسلامية أن الباعث على أداء

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٢١٤/٥، والجوهرة النيرة لأبي بكر العبادي ٢٢٥/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٦٤/٦، والتاج والإكليل، محمد بن يوسف المواق ٤٣٧/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٥١/٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٠٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٥٤/٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٣٤/١.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٢٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٢٣٤، ٢٣٥).

الواجبات والحقوق هو إرضاء الله، طاعة له وإجلالاً، وتعظيمًا له سبحانه، وقد ذكّر النبي ﷺ بمقتضيات هذه الأخوة فقال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي: "المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله" وعند مسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله".

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن كل مسلم على الإطلاق أخ لكل مسلم، ولا يجوز لغني أن يتعاظم على أخيه الفقير بأن يأنف من مجالسته أو يتكبر عن مؤاكلته، ولذلك يقبح بالمسلم أن يظلم بالإطلاق، ثم إنْ بُلِيَ بأن يُظلم، قبيحٌ أن يَظْلم أخاه، الذي هو جدير بأن يَرْفِده ويُسْعِده، فإذا لم يكن هنالك فلا أقلّ من أن لا يظلمه.

وقوله: "ولا يسلمه": يعني به أنه إذا كان معه في حرب ودهمهم القتال[1] فغير جائز للمسلم أن يفرّ ويسلم أخاه فليصبر معه ليسْلَما جميعًا أو يواسي أخاه فيما يكون منه)[2].

وقال الشيخ عبدالله البسام: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، فالأخوة الإسلامية هي أوثق رابطة وأقوى صلة بين المسلم وأخيه المسلم، وهي تقتضي حقوقًا بينهما إن قاما بها نمت وزكت، وإلا ضعفت وذوت حتى تموت، فعلى المسلمين مراعاتها وإحياؤها بالقيام بالحقوق والصلات.

وقوله: "لا يظلمه": هذا أقل ما يجب للمسلم على أخيه، والظلم يكون في النفس والعرض والمال، فعلى المسلم تجنب غيظ أخيه، فالمسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.

"ولا يخذله": الخذلان هو أن يُظلم المسلم وتقدر على نصره فلا تفعل، بل تتخلى عنه، فإن المؤمن مأمور بنصر أخيه المسلم سواء أكان ظالمًا فتنصره على نفسه وتمنعه

---

(١) في المطبوع: ودهتهم القتال ولم نهتد لصوابه. أما دهمهم القتال فمعناه: غشيهم. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٠٩.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٥/٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

من الظلم، أو مظلومًا فتمنع الظلم عنه، فقد أخرج أبو داود من حديث جابر بن عبدالله وأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرءًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ))[١].

قوله: "ولا يحقره": احتقار المسلم لأخيه ناشئ عن الكبر، فقد أخرج مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))[٢]. فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحدهم الحق إذا ردّوه عليه.

قوله: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم": يعني أن احتقار المسلم أخاه المسلم هو كفايته من الشر، فإنه إنما يحقره لتكبره عليه، والكبر أعظم خصال الشر، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))[٣])[٤].

وقال ابن هبيرة: (فأما قوله: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" ففيه تحذير وأي تحذير من ذلك، لأن الله تعالى لم يحقره إذ خلقه ورزقه، ثم أحسن تقويم خلقه، وسخر ما في السماوات وما في الأرض جميعًا كله لأجله، وأسجد له الملائكة جميعهم، ثم إنه سبحانه سماه مسلمًا ومؤمنًا وعبدًا... فمن حقّر مسلمًا من المسلمين فقد حقّر ما عظمه الله وكافيه ذلك حزنًا، وإن من احتقار المسلم المسلم ألا يُسَلّم عليه إذا مرّ به ولا يرد السلام عليه إذا بدأه هو به، وأن يراه دون أن يدخله الله الجنّة أو يبعده من النار أي ليس أهلاً للجنة أو هو من أهل النار.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٤، وضعفه الألباني، (ضعيف الترغيب والترهيب ١٧٠٠).

(٢) أخرجه مسلم ٩١.

(٣) أخرجه مسلم ٩١.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٣٣ - ٣٣٤.

فأما ما ينقمه العالم على الجاهل والعدل على الفاسق فليس ذلك احتقارًا لعين المسلم ولا لذاته، وإنما كراهية للجهل والفسق اللذين اتصف بهما، فمتى فارق الجاهل جهله، وباين الفاسق فسقه، كان ذلك معيار صدق الذي أبدى الشنآن لأجل الله تعالى، بعوده ومراجعته إلى الاحتفال به والرفع لقدره)[١].

والخلاصة أنَّ المسلم يعرف ما يجب عليه تجاه أخيه المسلم فيفعله ولا يتقاعس ولا يتهاون في ذلك، بل يحرص على ذلك أشد الحرص امتثالاً لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الحث على الأخوة الإسلامية:

الأخوةُ بين المسلمين تعادل -إن لم تزد- الأخوة بين الأشقاء، فكل صلة ستقلب إلى عداوة طالما افتقدت الإيمان والتقوى، لأن تقوى الله هي المحك الأساس، والإيمان هو الأصل الذي يجب أن تقوم عليه العلاقة بين المسلمين؛ لذا أمرهم الشرع بأن يتخلقوا بالأخلاق التي تعمق هذه الأخوة في القلوب، كما يتضح من هذه الأحاديث.

قال ابن عبدالبر: (تضمن الحديث تحريم بغض المسلم والإعراض عنه وقطيعته بعد صحبته بغير ذنب شرعي، والحسد له على ما أنعم به عليه، وأن يعامله معاملة الأخ النسيب، وأن لا ينقب عن معايبه، ولا فرق في ذلك بين الحاضر والغائب، وقد يشترك الميت مع الحي في كثير من ذلك)[٢].

وقال ابن العربي: (أصل الفساد البغض فنهى النبي ﷺ عنه، وينشأ عن البغض الإعراض، وهو أول درجات التدابر، ويترتب على الإعراض اختلاف الأهواء، ومروج الأمور[٣]، ففسره مالك بالإعراض، وهوالأصل حتى إذا اجتنب وكان الإقبال يترتب عليه اتفاق الأهواء)[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٧٦/٧ - ٢٧٧.

(٢) التمهيد ١٠٦/٢٢ موسوعة شروح الموطأ. وقد نقلنا كلامه بتصرف ابن حجر في فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٨٣/١٠.

(٣) مروج الأمور: اختلاطها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٢٠٥.

(٤) القبس شرح الموطأ ٩٧/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

وقال القرطبي رحمه الله: (قوله: "وكونوا عباد الله إخوانًا" أي كونوا: كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمودة والمواساة والمعاونة والنصيحة)[١].

وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة تحث على تعميق معنى الأخوة الإسلامية وترسيخها في قلوب المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٣]، (أي أحوال بينكم، يعني ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق)[٤].

وقال النبي ﷺ: ((إن المؤْمِنَ للمؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا وشَبَّكَ ﷺ أصابعَهُ))[٥].

وقال ﷺ: ((لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[٦].

قال النووي: (هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه)[٧].

وقال ابن تيمية: (فمن كان قائمًا بواجب الإيمان كان أخًا لكل مؤمن ووجب على كل مؤمن أن يقوم بحقوقه، وإن لم يجر بينهما عقد خاص، فإنّ الله ورسوله قد عقد الأخوة بينهما، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٨]، وقال النبي ﷺ: ((وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٥٣٢.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥.

(٦) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٦/١٤١.

(٨) سورة الحجرات، آية: ١٠.

رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا))[1])[2].

وقال كذلك: (فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة)[3].

وقال النبي ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قال: صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))[4]. وقال ﷺ: ((دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ: أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[5].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((أنَّ رَجُلاً سأل النبيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسلامِ خَيْرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَن عَرَفْتَ وَمَن لم تَعْرِف))[6]. وعن عبدالله بن عمرو كذلك قال: ((إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))[7].

قال النووي: (وفي هذه الأحاديث جمل من العلم، ففيها الحث على إطعام الطعام والجود والاعتناء بنفع المسلمين والكف عما يؤذيهم بقول أو فعل بمباشرة أو سبب والإمساك عن احتقارهم، وفيها الحث على تألف قلوب المسلمين واجتماع كلمتهم وتوادهم واستجلاب ما يُحَصّل ذلك، قال القاضي[8]: والألفة إحدى فرائض الدين

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥٩/١٩.

(٣) المرجع السابق ٩٦/٦.

(٤) أخرجه أبوداود ٤٩١٩، والترمذي ٢٥٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٩١٩)..

(٥) أخرجه الترمذي ٢٥١٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٨).

(٦) أخرجه البخاري ١٢، ومسلم ٤٠.

(٧) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١.

وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام، قال: وفيه بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف إخلاص العمل فيه لله تعالى، لا مصانعة ولا مَلَقًا لمن تعرف دون من لا تعرف، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، وإفشاء شعار هذه الأمة والله تعالى أعلم)[(١)].

قال ابن تيمية: (وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضَهم أولياء بعض، وجعلهم إخوة وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين، وأمَرَهم سبحانه بالائتلاف ونهاهم عن الافتراق والاختلاف ... فمتى ترك الناس بعض ماأمرهم الله به وقعت بينهم العداوةُ والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا ومَلَكُوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[(٢)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن كل ما يسبب العداوة بين المسلمين:

المسلمون أخوةٌ يسودُ بينهم الحبُّ والتوادُّ وتنتشر بين قلوبهم الأُلفة، لذا نهى الإسلام عن كل ما يعرض روابط هذه الأخوة للتفكك والتصدع، فنهى عن الأسباب التي تؤدي إلى نشر العداوة والبغض بينهم، فقد نهى ﷺ عن بيع النبذ والنجش والتصرية ونهى عن بيع الطير في الهواء والسمك في الماء، ونهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، وأن يبيع الحاضر للبادي، وأن يقسم الرجل على سلعته ليغلِي ثمنها كما حرم النميمة والهمز واللمز والغيبة كل ذلك لاستيفاء الأخوّة ونمائها. وهذا واضح من قوله ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا)[(٣)].

قال الشيخ عبدالله البسام: (هذا حديث عظيم فيه جملة من آداب الإسلام الكريمة، التي من شأنها أن يتحبب المسلم لأخيه المسلم، حتى توحد كلمة المسلمين وتجمع صفوفهم وتلم شملهم، وتجعلهم أمة واحدة وأخوة مسلمين.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/٢٧٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢/٢٥٧-٢٥٩.

(٣) تم تخريجه برقم ٢٣٥.

أولها: (لا تحاسدوا): يعني لا يحسد بعضكم بعضًا، والحسد مركز في طباع البشر فالإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، والمنهي عنه هنا منه هو أن يتمنى زوال نعمة العبد عنه، سواء تمناها أن تنتقل إليه أو تمنى مجرد زوالها عن المحسود. وهذا خلق ذميم نهى عنه الشارع الحكيم، بما يسببه من الشرور في الدنيا، ولأنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1].

ثانيًا: "لا تناجشوا": والنجش معناه أن يزيد الإنسان في السلعة لا لقصد شرائها، وإنما لقصد الإضرار بالمشتري يرفع ثمنها عليه، أو لنفع البائع بزيادة الثمن له، وهو حرام، وإذا تحقق خُيِّر المشتري بين الإمساك ورد المبيع، لما ناله من الخديعة والمكر وزيادة الثمن.

ثالثًا: "لا تباغضوا": نهى عن التباغض بين المسلمين، فإن المسلمين جعلهم الله إخوة، قال ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[2].

ولهذا المعنى حرم الله تعالى المشي بالنميمة، لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورخص في الكذب في الإصلاح بين الناس.

أما البغض في الله تعالى فهو من أوثق عرى الإيمان وليس داخلاً في النهي، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا).

رابعًا: "لا تدابروا": مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دُبُره ويعرض عنه بوجهه، فقد

---

(١) ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب" أخرجه أبو داود ٤٩٠٣ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١٩٠٢، كما رواه ابن ماجه ٤٢١٠ عن أنس بن مالك > مرفوعًا، وضعفه أيضًا الألباني في السلسلة الضعيفة ١٩٠١.

(٢) أخرجه مسلم ٥٤.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((لا يَحلُّ لمسلم أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث، يَلتقيانِ فيصدُّ هذا ويَصدُّ هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسلام))[١].

فالهجر فوق ثلاث محرم لا يجوز، ويحصل إنهاء الهجر بالسلام، وأما الهجر لأجل دين فتجوز الزيادة من غير تحديد، حتى يزول المانع من الهجر، واستُدل على ذلك بقصة الثلاثة الذين خلّفوا[٢]، ويباح على أهل البدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء والمبادئ الهدامة وأصحاب المذاهب المضللة.

خامسًا: "ولا يبع بعضكم على بيع بعض": قال الفقهاء: معناه أن يكون قد باع عليه شيئًا فينزل للمشتري سلعته بأرخص ليشتريها، ويفسخ بيع الأول، وهذا إذا كان في خيار المجلس أو خيار الشرط، وكذلك على الصحيح يشمل فيما إذا تم بينهما ولم يبق خيار، وذلك لئلا يحتال المشتري أو البائع على فسخ العقد، ويكون في نفسه عداوة وبغض للعاقد معه.

قوله: "ولا يبع بعضكم على بيع بعض" قد تكاثر النهي عن ذلك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لا يبع المؤمن على بيع أخيه المؤمن))[٣]، وفي رواية لمسلم: ((وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ))[٤].

ولهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَبِعِ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ))[٥]، هذا دليل على اختصاص ذلك بالمسلم دون الكافر، وهو مذهب أحمد والأوزاعي، وذهب كثير من الفقهاء إلى أن النهي عام في حق المسلم والكافر، وأصح القولين أن النهي للتحريم.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٣٧، ومسلم ٢٥٦٠.

(٢) هو حديث كعب بن مالك > أخرجه البخاري ٤٤١٨ ومسلم ٢٧٦٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢١٤٠، ومسلم ١٤١٣ بلفظ: (لا يبيع الرجل على بيع أخيه).

(٤) أخرجه البخاري ٢٧٢٧، ومسلم واللفظ له ١٥١٥، والسَوْم: عرض الثمن بهدف البيع أو الشراء، المعجم الوجيز، مادة (س و م).

(٥) أخرجه البخاري ٢١٣٩، ومسلم ١٤١٢.

"وكونوا عباد الله إخوانا": ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم، فإن في هذه الجملة اللطيفة إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر ولم يبع بعضهم على بيع بعض صاروا إخوة متحابين متآلفين.

ففيه الأمر باكتساب الأشياء التي تجلب المحبة، والمودة والألفة من رد السلام وتشميت العاطس وإجابة الدعوة وعيادة المريض ونحو ذلك من الحقوق التي سنها الإسلام بين المسلمين، لتمكن المودة والألفة بينهم وتوحد كلمتهم)[1].

رابعًا- من فقه الداعية: تذكير المدعوين بعبوديتهم لله:

معنى العبودية: التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن العبد لا يعصى سيده وإلا أصبح عاصيًا وهذا من سوء أدبه، لذا كان من فقه الداعية وفطنته أن يذكّر المدعوين بكونهم عبيدًا لله تعالى، وإن من مقتضيات العبودية ولوازمها وعلاماتها طاعة الله فيما أمر وفيما نهى. وهو في هذا يقتدي بالرسول ﷺ عندما أتبع خطابه للمدعوين بقوله: "وكونوا عباد الله إخوانًا".

قال الصنعاني: (وبعد هذه المناهي الخمسة حثهم بقوله: "وكونوا عباد الله إخوانًا" فأشار بقوله: "عباد الله" إلى أن من حق العبودية لله الامتثال كما أمر)[2].

وفي رواية عند مسلم: (كما أمركم الله)[3].

قال ابن حجر: (قوله: "عباد الله" أي: يا عباد الله بحذف حرف النداء. وفيه إشارة إلى أنكم عبيد الله فحقكم أن تتواخوا بذلك... ولعل قوله في الرواية الزائدة: "كما أمركم الله" أي: بهذه الأوامر المقدم ذكرها فإنها جامعة لمعاني الأخوة، ونسبتها إلى الله، لأن الرسول مبلغ عن الله... ويحتمل أن يكون المراد بقوله: "كما أمركم الله" الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[4]، فإنه خبر عن الحالة التي شرعت للمؤمنين، فهو بمعنى الأمر)[5].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٢٣١ - ٢٣٣.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٩٧٢.

(٣) بعد الرواية ٢٤ - ٢٥٥٩.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٣٨٤.

قال ابن القيم: (لله سبحانه على عبده أمرٌ أمر به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمةٌ ينعم بها عليه، فلا ينفك من هذه الثلاثة. والقضاء نوعان: إما مصائب وإما معايب وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها، فأحبهم إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه، وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب، فعطلها علمًا وعملاً. فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ وفي النهي اجتنابه خوفًا منه وإجلالاً ومحبّة)(١).

خامسًا- من أهداف الدعوة: حِفظ الأرواح والأموال والأعراض:

وذلك واضحٌ من قوله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعِرضه"، قال عبدالله البسّام: (النصوص في تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم كثيرة صحيحة صريحة، فهو مما علم من الدين بالضرورة، والمتعين على المسلم أن يحترز عن حقوق المسلمين فلا يعتدي عليها، وإذا حصل بيده منها شيء فليردها إن قدر على ذلك، وإلا استحلّ أهلها منها قبل أن يأتي يوم لا يستطيع أداءها إلا من أعماله الصالحة، فإذا نفدت أعماله وضع عليه من سيئات أصحاب الحقوق)(٢).

وقال الدكتور عبدالكريم بن علي النملة: (تنقسم المصالح باعتبار أهميتها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الضروريات، وهي المصالح التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، وصيانة مقاصد الشريعة، بحيث إذا فقدت أو فقد بعضها، فإن الحياة تختل أو تفسد، وللمحافظة على المصالح الضرورية شرع الله حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال.

فشرع لحفظ الدين: قتل الكافر المضل عن هذا الدين، وقتل المرتد الداعي إلى ردته، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، وشرع الجهاد.

---

(١) الفوائد، ابن القيم ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٣٤/٦.

وشرع لحفظ النفس: عقوبة القصاص، وعقوبة الدية، ووجوب الأكل والشرب عند الضرورة ولو كان صائمًا، كذلك: شرع اللبس والمسكن، مما يتوقف عليه بقاء الحياة وصون الأبدان من التلف، أو أي ضرر.

وشرع لحفظ العقل: عقوبة شرب الخمر، ووجوب الأكل والشرب اللذين يتوقف عليهما بقاء العقل وسلامة فهمه.

وشرع لحفظ النسل والأنساب عقوبة الزنا، وأحكام الحصانة والنفقات.

وشرع لحفظ المال: عقوبة السرقة، والقواعد المنظمة للمعاملات المختلفة بين الناس لصيانة الحقوق.

ولا يمكن - بأي حال- تفويت هذه الأصول الخمسة، فلابد إذن من مراعاتها؛ لكون كل واحد منها يعتبر ركنًا من الأركان التي لا تقوم الحياة البشرية إلا بها...)[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

إن من قواعد العدل أن يكون الجزاء من جنس العمل، والإسلام دين العدل، فمن قدّم خيرًا وجد خيرًا، ومن فعل شرًا لم يجد إلا شرًا، كما يتضح في هذا الحديث، وذلك في قول النبي ﷺ: ((مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). وقال ابن كثير: (وذلك أن الجزاء من جنس العمل)[(٢)]، قال ابن حجر: (وفيه أن المجازاة من جنس الطاعات)[(٣)].

وقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝﴾[(٤)]. قال ابن كثير: (أي ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ

---

(١) المهذب في أصول الفقه المقارن ١٠٠٤/٣ - ١٠٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٤) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[(١)])[(٢)]. ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: "لا تُوكِي فيُوكَى عليك لا تُحصِي فيُحْصِي الله عليك" و((أنفِقي، ولا تُحصِي فيُحْصِيَ اللهُ عليكِ، ولا تُوعِي فيُوعِي اللهُ عليكِ))[(٣)].

قال ابن حجر: (يقال: أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء حفظته... والإيكاء شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذي يربط به، والإحصاء معرفة قدر الشيء وزنًا وعددًا، وهو من باب المقابلة، والمعنى: النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يُحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يُعطي ولا يحسب)[(٤)]، وقال أيضًا: (قوله "ولا توعي فيوعى عليك" المعنى: لا تجمعي في الوعاء وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك)[(٥)].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تحصيل التقوى:

إن التقوى هي خير الزاد في الدنيا والآخرة، لذا يحرص المسلم على تحصيلها والتخلق بها، لأنها طريق الفلاح والفوز. ولهذا حضّ القرآن الكريم والسنة المشرفة المدعوين على تحصيل التقوى، كما هو واضح في هذا الحديث. وذلك في قول النبي ﷺ "التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات" قال النووي: (إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته)[(٦)].

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠٥/٧.

(٣) كل هذه الروايات أخرجها البخاري ١٤٣٣، ١٤٣٤، ٢٥٩٠، ٢٥٩١، وهي بنحوها في صحيح مسلم ١٠٢٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٢/٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٨/٥. وانظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٥/٢ - ٣٦.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٣٨.

وقال عبدالله البسام: (فيه إشارة إلى أن أكرم الخلق عند الله من اتصف بالتقوى لا بالجاه والرئاسة والمال، فرب من يحقره الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا هو أعظم قدرًا ممن له قدرة في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، والتقوى أصلها في القلب فلا يطلع على حقيقتها إلا الله تعالى. وحينئذ فقد يكون ممن له صورة حسنة أو جاهٍ أو رئاسة في الدنيا، قلبه خال من التقوى. ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبه مملوء من تقوى الله فيكون أكرم عند الله تعالى)[2].

وقد جاءت الأحاديث تنبه على هذا المعنى: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ. وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))[3].

وقال ﷺ كذلك: ((ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، ألَا وهِيَ القَلْبُ))[4].

قال ابن تيمية: (وصلاح القلب في أن يصلح له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه. وفساده في ضد ذلك، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط)[5] وقال كذلك: (إذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد، فلذلك هو ثمرة ما في القلب)[6].

وقال ابن الجوزي عن كون التقوى أصل السلامة: (اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[7] فتارة فقر وتارة غنى وتارة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٣٣/٦ - ٢٣٤.

(٣) أخرجه مسلم ٣٤-٢٥٦٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٨٣/٩.

(٦) المرجع السابق ٢٥/٧.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعادي، فالسعيد من لازم أصلاً واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عز وجل، فإنه إن استغنى زانته وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن اُبتلي حملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود... ولازم التقوى في كل حال فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم)[١].

ثامنًا- من وسائل الدعوة: الإشارة:

وذلك في قول النبي ﷺ: "التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات" وفي هذه الإشارة توضيح للأمر وجلاء له وتمييز له عن غيره وبيان لأهميته. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((الفتنةُ من ها هنا. وأشار إلى المشرق))[٢].

تاسعًا- من أساليب الدعوة: الإخبار والنفي والترغيب والنهي والأمر والتكرار:

أما الإخبار فقوله ﷺ "المسلم أخو المسلم"؛ ليقرر حقيقة ثابتة لا تقبل الجدال أو النقض وأكد هذا بأن أعقبه بالنفي "لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله" قال ابن حجر: (هو خبر بمعنى الأمر)[٣].

وكذلك الإخبار في قوله ﷺ "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" ليؤكد على شناعة هذا الأمر.

أما الترغيب فقوله ﷺ "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.." وهذا يدفع المخاطب أن يفعل ما يسمع طمعًا في عون الله له وستره يوم القيامة. فضلاً عن قضاء حوائجه.

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد، تحقيق د. عبدالرحمن البرص ١٩٠-١٩١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٩٦، ومسلم ٢٩٠٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

أما النهي فقوله ﷺ "لا تحاسدوا ولا تناجشوا..." ليحذر من فعل هذه الأشياء وأكد ذلك بأن أتبعه بالأمر "وكونوا عباد الله إخوانا" ليُعلم المخاطبين أن هذه المنهيات والمحذورات فعلها يناقض حقوق الأخوة. وأما التكرار فواضح من قول الراوي: "ويشير إلى صدره ثلاث مرات" وفي هذا تنبيه على هذا الأمر وأهميته، وقد استخدم النبي ﷺ التكرار كثيرًا من ذلك حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي "أي أبا بكر"، مرتين: فما أوذي بعدها))[1].

ولا شك أن هذه الأساليب قد وضحت الرسالة الدعوية للمدعوين خير توضيح وخير بيانٍ. وهذا ما يجب أن يحرص عليه الداعية أشد الحرص.

(١) أخرجه البخاري ٣٦٦١.

الحديث رقم (٢٣٤)

٢٣٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يخُونُه ولا يكْذِبُهُ ولا يخْذُلُهُ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حرامٌ عِرْضُهُ ومالُه ودمُهُ التَّقْوَى هَاهُنا، بِحسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المسلم**» رواه الترمذيُّ[1]، وقال: حديث حسن.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يخذله: يترك عونه ونُصْرَتَه[2].

العرض: جانب الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه ويُحامي عنه أن يُنتقص ويُعاب[3].

يحقِر أخاه: يستهين به[4].

الشرح الأدبي

تتلاقى فكرة هذا الحديث مع ما في الحديث السابق من ترغيب في المحافظة على الأخوة الإسلامية، ولذلك جاءت جملة البداية في الحديثين واحدة، وهى الجملة المفتاحية كما يقول دارسوا الأسلوب في ضوء علم لغة الحديث، وهذه الجملة "المفتاح" هي التي تعطي بدء الإشارة بالدخول إلى عالم هذا الحديث، وتجيء الجمل الثلاث بعد هذه الجملة متماثلة في صياغتها اللغوية فهي كلها أفعال مضارعة مسبوقة بحرف النفي "لا" ومقترنة بضمير الغائب الذي يعود على "المسلم"، وهذه الجمل جاءت لبيان وتعليل

---

(١) برقم (١٩٢٧). سيأتي بعده من رواية مسلم.

(٢) الصحاح في (خ ذ ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ق ر)

الحكم بأن المسلم أخو المسلم، وهى قاعدة إسلامية ثابتة لا تتغير مهما تغيرت الأحوال، وشوهت الأعمال، فالأخوة -كما يقول العلماء- مقتضية للشفقة داعية للمعروف والمنفعة، ومعايير الأخوة ومقاييسها تقتضي أن لا يخون المسلم أخاه المسلم، وأن لا يكذبه، وأن لا يخذله، والنفي هنا يتضمن النهى عن الخيانة، ولكن النفي أبلغ لأن النهى يوحي بأن الخيانة وقعت، ثم جاء النهى عنها.. أما النفي فهو يقتضي انتفاء هذه الصفة وعدم تلوث المسلم بها.

والخيانة إما أن تكون حسيّة مادية، وهى ما يقوم به بعض ضعاف النفوس من إنكار للأمانات، وتضييع للحقوق وإما أن تكون خيانة معنوية وهى عدم الإخلاص في النصيحة، وأن ينقص أخاه حقه الذي عليه من التعاون والتعاضد.

وقوله: "ولا يكذبه"، يعطي دلالات متعددة حسب ضبط الفعل "يكذبه"، وله ثلاث أوجه في الضبط، فإذا كان بفتح الياء، "يَكْذبُه"، فالمراد أن يخبر المسلم أخاه المسلم خبراً كاذباً، وهذا ذنب كبير، وجرم خطير نهى عنه رسول الله ﷺ، ووصف الله سبحانه المشركين بأنهم كذَبُوا الله ورسوله.

وإذا كان الفعل مضموم الياء والكاف ساكنة والذال مخففة وينطق هكذا، "يُكْذبُه"، فمعناه أنه: لا يُلقيه للمخبَر بفتح الباء كاذباً: أى لا يوصل إليه الخبر كاذباً، فلا بد من الصدق لأن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار.

وإذا كان الفعل مضموم الياء وساكن الكاف، والذال مُضعَّفة: فتقول: "يُكذِّبه"، فالمعنى: لا ينسبه إلى الكذب[1]، وكل هذه الدلالات تتلاقى في حقل دلاليٍّ واحد وهو نفى الكذب: والأمر بالصدق والإخلاص في القول.

وقوله: لا يخذله، يحمل دلالتين: فالمراد: أن المسلم لا يترك نصرة أخيه المسلم المشروعة سيما مع الاحتياج والإضرار، فالخذلان محرَّم شديد التحريم، والخذلان قد يكون دنيوياً، كأن يقدر على نصر مظلوم ودفع ظالمه عنه فلا يدفعه، أو يكون دينياً:

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ٤٥.

كأن يقدر المسلم على نصح أخيه المسلم بترك غيبة أو نحوها من المخالفات الشرعية فيترك هذه النصيحة حياءً أو ضناً بالنصيحة أو كرهاً أو خوفاً أو نفاقاً.

والجملة الخامسة توضح وتفصل الشأن في سبل المحافظة على الأخوة الإسلامية، فكل المسلم على المسلم حرام.

والإيجاز هنا سر جمال هذا التعبير وبلاغته، فهو قول فصل، وحكم تشريعي لا مراء في صدقه وصحته.

ويزداد الأمر وضوحاً حين يقول: "وعرضه وماله ودمه"، وهى كل ما يتضمنه كيان المسلم، وهي بدل من كل، وبدأ بالعرض، لأنه الحسب والمفاخرة بالآباء وبكل ما يحافظ عليه الإنسان من حرماته، وحرصه على أن لا تنتهك بالسب والغيبة والبهت، وهى أمور ظاهرة في المجتمع والمال يجب أن لا يُغَصب أو يخان فيه، وهو عصب الحياة، ولا قيمة له إذا تلوث عرض الإنسان، ودمه: أى نفسه ولا يتعرض لها المسلم بقتل أو بأى إيذاء يشوه جسد الإنسان، وربما لكثرة الخوض في الأعراض، وانتهاك المال بالسرقة أو غيره يكون أقل، ثم القتل أو استباحة الدماء تكون أقل لخطورتها، جاء هذا الترتيب في الحديث الشريف، وختام الحديث يرشد إلى ضرورة سلامة القلب وإخلاص النية، وهما الطريق إلى الابتعاد عن احتقار المسلم، وتعظيم حرمته وصون كرامته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حرمة نفس المسلم وماله وعرضه، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٢١٣).

الثاني: أداء الأمانة ورد الوديعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٩٩).

الثالث: حكم الكذب، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تقدم ذكرها مدمجة مع مضامين الحديث رقم (٢٣٣).

الحديث رقم (٢٣٥)

٢٣٥- وعنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لا تَحاسدُوا ولا تناجشُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدابرُوا ولا يبِعْ بعْضُكُمْ عَلَى بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللّه إخْواناً. المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم لا يَظلِمُه ولا يَحْقِرُهُ ولا يَخْذُلُهُ. التَّقْوَى هَاهُنا ويُشِيرُ إلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مرَّاتٍ بِحسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المسلم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النَّجش: أن يزيد في ثمن سلعة يُنادى عليها في السوق ونحوه ولا رغبة له في شرائها بل يقصد أن يُغْرِي غيرهُ، وهذا حرام[2].

التدابر: أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشيء الذي وراء الظهر والدبر[3].

عرضُه: جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويُحامي عنه أن يُنتَقَص ويُعاب[4].

الشرح الأدبي

إن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ويشد بعضه بعضاً، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهذه الصلة القوية بين أبناء الأمة الإسلامية لابد لها من التحصين والتمكين، ويجب أن يتسلح المؤمنون بكل الوصايا والسلوكيات التي تشحن هذه العاطفة الإيمانية

---

(١) برقم (٢٥٦٤/٣٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٠٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٥٧٢).

(٢) رياض الصالحين ١٤٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ج ش).

(٣) رياض الصالحين ١٤٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

بالطاقات الشعورية التي تكسب الكيان الإسلامي مناعة قوية ضد أمراض السلوك، وآفات النفس الإنسانية، ولابد لهذه الصلة الإيمانية من وسائل المقاومة التي تصد عواصف الوسوسات الشيطانية، والنزغات الشهوانية، والرغبات النفسانية التي لا تأبه بالقيم الإسلامية، ولا تعظم حرمات المسلمين.

وفي ظل هذه الرؤية الإيمانية للسلوك الإسلامي يستقبل المسلم هذه الوصايا النبوية التي أشرقت في بداية الحديث الشريف وهي ست وصايا: قدمها لنا رسول الله ﷺ، وكلها وردت في صيغة الجمع، وخمس منها ورد في أسلوب النهي وهي لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، والوصية السادسة جاءت في أسلوب الأمر في قوله: "وكونوا عباد الله إخوانا".

وأول ما نهى عنه رسول الله ﷺ هو التحاسد أي تبادل الحسد: لأن قوله: لا تحاسدوا يدل على المفاعلة والمشاركة: أي لا تتحاسدوا، وهذا التعبير أبلغ من لا تحسدوا، لأن هذه الصيغة تنهي عن تبادل هذه الصفة الذميمة.. وهي كذلك تتضمن النهي عن الحسد من جهة واحدة، وصيغة المفاعلة تشير إلى أن الحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، ومتع الدنيا.

والحسد أقسام، حسب طبيعة الحاسد وحسب ما يكنه صدره وقلبه من غل وضغينة، فمن الناس من يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل، ومنهم من يسعى في نقل النعمة إلى نفسه، ومنهم من يسعى في إزالة النعمة عن المحسود من غير نقل إلى نفسه: قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(١)]، [(٢)].

والوصية الثانية هي: النهي عن التناجش، والتناجش في اللغة: إثارة الشيء بالمكر والحيلة والمخادعة، ومنه سمى الناجش في البيع ناجشاً، ويسمى الصائد في اللغة ناجشاً لأنه يصيد الصيد بحيلته عليه وخداعه له، فالوصية هنا في دلالتها اللغوية والشرعية

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٦٠.

تقول: لا تخادعوا ولا يختل بعضكم بعض بالمكر والاحتيال، ومن ذلك النجش في البيع: وهو أن يزيد في السلعة مَنْ لا يريد شراءها، إما لنفع البائع لزيادة الثمن له، أو بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه، وفي ذلك إفساد لحركة البيع والشراء، وإضرار بالاقتصاد، وإخلال بموازين الثقة بين أبناء الأمة الإسلامية، لأن هذا السلوك هو تجسيد للمكر والمخادعة حيث يتعمد هذا الناجش: إيصال الأذى إلى أخيه المسلم إما بطريق الاحتيال، وإما اجتلاب نفعه بذلك، ويلزم منه وصول الضرر إليه، كما يقول صاحب جامع العلوم والحكم[(١)].

والوصية الثالثة: تقول: "ولا تباغضوا": وعدم التباغض يكون ثمرة لعدم التحاسد، وعدم التناجش فإن هذين "السلوكين" يؤديان إلى التباغض والحديث ينهي عن أسباب التباغض، وهو النفرة عن الشيء لمعنى فيه مستقبح وما أقبح الحسد، وما أقبح التناجش!! والوصية الرابعة تتضمن النهى عن التدابر وهو المصارمة والهجران ودلالته مأخوذة من أن يولي الرجل صاحبه دبره، ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع، ومن سماته أن يحجب الإنسان عن أخيه النصيحة، ويعرض عما يجب له من حقوق الإسلام كالإعانة والنصر، والتأييد في المواقف التي تحتاج للمؤازرة والتعاون، والوصية الخامسة تنهي عن التدخل في صفقات البيع، وإفساد العقود شراءً وبيعاً، وذلك داء اجتماعي خطير، وشر مستطير.

والوصية السادسة تجيء في صيغة الأمر في قوله : وكونوا عباد الله إخواناً"، وهذه الوصية ثمرة لأن الراوي واحد، والحديثان تجمعهما دائرة السلوك الرشيد والعمل المفيد.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى عدة أحكام فقهية:

الأول: النهي عن النجش، وهو الزيادة في السلعة بغير قصد البيع وإنما بقصد خداع المشتري واستثارته ليرفع الثمن بدون وجه حق.

---

(١) انظر: المرجع السابق ٢/٢٦٤.

وقد اتفق الفقهاء على أن النجش في البيع ممنوع للنهي عنه وإن اختلفوا في قوة هذا المنع بين الكراهة والتحريم، فجمهور الفقهاء من المالكية[١] والشافعية[٢] والحنابلة[٣] يرون أن النجش حرام، والحنفية[٤] يرون أنه مكروه.

وإذا تم هذا البيع فقد ذهب الحنفية[٥] والشافعية في الصحيح[٦] والحنابلة في المذهب[٧] إلى أن البيع يكون صحيحاً ولا يفسخ، وذهب المالكية[٨] والشافعية في وجه[٩] والحنابلة في وجه[١٠] إلى أن المشتري يكون له الخيار بين الإمضاء والرد، واشترط المالكية في هذه الحالة عدم فوات المبيع.

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٧/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٣/١، وشرح الخرشي ٨٣/٥.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١١٣/٢، ومعالم القربة في طلب الحسبة ص ١٣٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٦٢/٦.

(٣) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١١/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤١/٢.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٦) مغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٢/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٤٧٠/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٩/٢.

(٧) الفروع، ابن مفلح ٩٦/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٥/٤.

(٨) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٧/٥، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٣/١، وشرح الخرشي ٨٣/٥.

(٩) مغني المحتاج (٨٧٠) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٢/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٤٧٠/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٩/٢.

(١٠) الفروع، ابن مفلح ٩٦/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٥/٤.

الثاني: حكم البيع على البيع، وقد اتفق الفقهاء على أن البيع على البيع ممنوع للنهي عنه، وإن اختلفوا في قوة المنع فهو حرام عند جمهور الفقهاء من المالكية[١] والشافعية[٢] والحنابلة[٣]، ومكروه عند الحنفية[٤].

واختلفوا في حكم هذا البيع إذا وقع هل يكون صحيحاً أم لا على قولين.

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[٥] والمالكية[٦] والشافعية[٧] والإمام أحمد في رواية[٨] إلى أن البيع صحيح ولا يفسخ، وإن كان البائع على بيع أخيه آثماً لارتكابه الأمر المنهي عنه.

القول الثاني: ذهب الحنابلة[٩] في المذهب إلى أن البيع باطل ويفسخ للنهي عنه، والنهي يقتضي الفساد.

الثالث: حرمة دم المسلم وماله وعرضه، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥٤).

المضامين الدعوية[١٠]

---

(١) تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢٠٠/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٠/٥.

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٦١، ومعالم القربة في طلب الحسبة ص ١٣٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٦٩/٦.

(٣) الفتاوى الكبرى ١٤٠/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٦/٤، والعناية شرح الهداية ٤٧٧/٦.

(٦) تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢٠٠/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٠/٥.

(٧) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٩/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٤٣٨/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٢٨/٢.

(٨) الفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤، ومجموع فتاوى الشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٩/٦.

(٩) الفروع، ابن مفلح ٤٥/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٩/٤.

(١٠) تقدم ذكرها مدمجة مع مضامين الحديث رقم (٢٣٣، ٢٣٤).

الحديث رقم (٢٣٦)

٢٣٦- وعن أَنسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وما أبلغ هذا التشبيه الذي جاء به البيان النبوي: وهو يصور تماسك الأمة الإسلامية... وكأنها البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ويتموج هذا الحديث الشريف بفيوضات المحبة والمودة والرحمة، وتكمن مقاصده في قلب حروفه وكلماته، وتسع معالمه وأسراره من ثنايا العلاقات اللغوية والإيحائية بين مكوناته؛ وتأمل بنيانه اللغوي: إنه جملة واحدة، لكنها كالشمس تنتشر أشعتها في السموات والأرضين، وتضيء زوايا الكون كله.

وما أشبه هذه الجملة الحديثية بالشمس في وهجها وإشعاعاتها. ولا غرو فهي نموذج من بلاغة النبوة، بخاصة أنه قد تفوه بها أفصح العرب لساناً، من أوتى جوامع الكلم إنه محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[٢].

ويرسى الحديث قاعدة من قواعد الإسلام التي لا تستقيم الحياة في غيابها، ولا تصلح أعمال الإنسان إلا في وجودها... وهى المحبة الخالصة في الله بين أبناء الأمة الإسلامية ولا تقتصر هذه المحبة على الكلمات المجنحة الرقيقة، والعبارات المنمقة الرشيقة؛ ولكن المحبة قول وعمل؛ وسلوك رشيد مُوَشَّىً بجميل الأمل، واستشراف لما

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥/٧١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٤٣).

(٢) سورة النجم، الآيات: ٣-٥.

تأتي به الأيام من إنجازات مشروعة، وطموحات غير مقطوعة ولا ممنوعة؛ وفي هذه الدائرة الواقعية والمستقبلية لا يتحرك المسلم وحده، ولكن يظل مَوْجةً مضيئة بالحب لكل من حوله وهو يكابد ويصارع الأهواء والرغبات، وهو يجني ثمرة ما أطلقته طاقاته الشعورية والعملية من رجاءات وطموحات.

وفي ضوء هذه الرؤى الإيمانية فتأمل أسرار الجمال التعبيري في هذه البلاغة النبوية في هذا الحديث الشريف، وأول ما نجنيه من ثمرات هذا البيان: هو ذلك الإيجاز البليغ في هذا الحديث، فاللفظ قليل، ولكن المعاني تمتد أشعتها لتصافح شعور كل مسلم في كل زمان وكل مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتسري هذه الأشعة في كل قلب ينبض بشهادة التوحيد، وتضيء كل فم ينطق بهذه الشهادة صادقاً مخلصاً عن يقين وتسليم، والحديث يبدأ بالنفي في قوله "لا يؤمن أحدكم"؛ وينتهي بالإثبات: "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"؛ فالإيمان الكامل لا يتحقق إلا في ظل المحبة الصادقة لكل مؤمن بالله ورسوله، وقوله: "أحدكم"، يفيد العموم: والمراد: ذكراً كان أو أنثى، في أي زمان وفي أي مكان، وإضافة: "أحد"، إلى ضمير المخاطب الجمع يوحي بأن الأمة كلها كالفرد الواحد، فكل واحد منها هو أحد من هذه الأمة، وصيغة الفعل المضارع تعطي دلالة الاستمرار وعدم انحصار النفي في زمن واحد ومكان واحد، فالرسول ﷺ يخاطب الأمة كلها، وقد قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

وقوله "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" يتضمن معاني عديدة، ولكنها كامنة في موحيات هذه الكلمات، فالإنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه، من الطاعات والمباحات، وسياق الكلام يقتضي أن يبغض لأخيه ما يبغضه لنفسه من كل ما يخاف منه المسلم من الأمراض والأهواء، والوساوس، والتعثر في أمور الحياة، وقيل: وسكت عنه -أي قوله ويبغض لأخيه ما يبغض لنفسه- مع كونه من كمال الإيمان اكتفاء بذكر ضده، وفي الحديث إيحاء وإشعاع بأن المؤمنين كلهم نفس واحدة، وجسد واحد، فالعقيدة واحدة، والتصورات والتعاليم واحدة، والله واحد لا شريك له، وقد وحدت المؤمنين مأدبة القرآن، ووحدهم حب المصطفى ﷺ والاقتداء به، فصلاتهم

واحدة وصومهم واحد، وحجهم إلى بيت واحد وقبلتهم واحدة، وطرق اكتسابهم لأموالهم مصدرها واحد وهو "المكسب الحلال"، وطرق الإنفاق المشروعة تؤطرها معايير واحدة، ومسالك استثمارية المال تخضع لأحكام الشريعة المستمدة من القرآن الكريم، وفي هذا الأفق تتوهج شمس الحب بين المسلمين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٨٣).

الحديث رقم (٢٣٧)

٢٣٧- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً» فقَالَ رَجُلٌ: يَا رسول اللّه أَنْصرهُ إِذَا كَانَ مَظلُوماً أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِك نَصْرُهُ» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن هذا المشهد الحواري بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة رضي الله عنهم ، يحدد الإطار الشرعي للمناصرة والمؤازرة بين أفراد الأمة وطوائفها وقبائلها وشعوبها وهو إطار تحكمه علاقة الأخوة الإيمانية، والعاطفة الإسلامية، والصلات والوشائج الأسرية، والاجتماعية في ظل التعاليم والقواعد الشرعية: وفي هذا الحوار المقنع البليغ نجد أن الرجل الذي حاور رسول الله ﷺ لم يحدد اسمه، وذلك لأن القضية في هذا الحديث عامة تتعلق بأمر المسلمين جميعاً، وليست أمراً خاصاً، فالأخوة هنا أخوة الإيمان، التي يمكن أن تجمع في دائرتها الكبرى أخوة النسب، ولذلك بُدئ الحديث بفعل الأمر، "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، والأمر للوجوب، والمأمور هو كل مسلم سمع هذا الأمر أو بُلِّغ بوسائل التبليغ التي تعددت قنواتها، وتنوعت آلياتها.

والنصر يكون بالمؤازرة والدفاع عن المظلوم، وليس الأمر قاصراً على الأفراد، وإنما لابد من تحقق هذا السلوك بين الدول الإسلامية فيما بينها، والوقوف مع أي شعب مسلم ضد كل من يعتدي عليه أو يسلبه حقوقه، ويغتصب عرضه وماله ووطنه، أو يعتدى على حرماته، أو يشوه تاريخه وثقافته، أو يحرف القرآن الكريم، أو ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو يعطل حدود الله، ويشكك في أحكامه، وينكر السنة النبوية الشريفة.

---

(١) برقم (٦٩٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٠٥).

وقد يتساءل طلاب العلم والمعرفة والهداية، كيف يقدم نصرة الظالم على نصرة المظلوم؟ والمتوقع عكس ذلك.

والأمر ليس فيه قلب للحقائق: فالمتكلم رسول الله ﷺ وهو قد أوتي جوامع الكلم، فإن رد الظالم عن ظلمه هو قضاء على أسباب الظلم ودواعيه، ونصر الظالم ليس تأييداً له في ظلمه، وإنما هو ردعه ومنعه وحجزه عن هذا الظلم، وقال البيهقي: إن الظالم مظلوم في نفسه: فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى ؟ ، وقال ابن بطال: النصر عند العرب: الإعانة: وتفسير الرسول ﷺ لنصر الظالم بمنعه من الظلم مِنْ تسمية الشيء بما يئول إليه وهو من وجيز البلاغة.

وجاءت أداة الشرط "إذا" في سياق الحديث عن المظلوم، في قوله: "أنصره إذا كان مظلوماً" للإفادة بوقوع الظلم حقيقة وليس احتمالاً لأن "إذا" تفيد التحقق، فالنصر يكون عند تحقق الظلم إنصافاً للمظلوم.

وفي سياق الحديث عن "الظالم" جاءت أداة الشرط "إن" وهى للشك للإفادة بأن وقوع الظلم غير متيقن: فحتى لو كان محتملاً أو ما زال صاحبه في مرحلة التفكير والإعداد والتخطيط: لابد أن يُردع ويقاوم ويمنع من هذا الطريق، ويوحي مجيء هذه الأداة كذلك، بأن المسلم لا بد أن يأبى الوقوع في هذا الشَرَك، وذلك الإثم المبين، فالظلم ظلمات يوم القيامة وهو في الحياة من أمارات الغلو والتطرف والإجرام، وتكرار الاستفهام في قوله: "أرأيت إن كان ظالماً: كيف أنصره ؟؟" للإيحاء بمزيد من المبالغة في الحيرة والتعجب من هذا الأمر الذي استغربه بعض الصحابة ﵃، وظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقر الأعراف العربية القديمة لأن هذا القول: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، كان على حقيقته في الجاهلية بدافع التعصب القبلي والمنطق الجاهلي.

وهذه العبارة من كلام جندب بن العنبر بن تميم، وأراد بذلك ظاهر القول: وهو ما اعتاده من حمية الجاهلية.

ولكن الإسلام ألغى هذه العصبية، واكتسبت هذه العبارة دلالات جديدة في ظل تعاليم الإسلام الواضحة، وفي ظل الأخوة الإيمانية الصادقة، والتعبير بالفعل المضارع في

قوله: يحجزه أو يمنعه من الظلم، يجعل من مقاومة الظالمين ومنعهم من الظلم فعلاً مستمراً، وسلوكاً مستقراً، حتى لو كان الظالم أخًا شقيقاً، أو أخاً في العقيدة، وكذلك يكون هذا المنهج بين الطوائف والشعوب والأمم، وينتهي الحديث بأسلوب التوكيد البليغ، فإن ذلك نصره، والنصر يكون بالتوعية والتثقيف، والصدق في النصيحة، والصدّ والرد عن الظلم.

فقه الحديث

يعد هذا الحديث أصلاً في أحكام فقهية كثيرة منها: الدفاع عن الغير عند الاعتداء عليه بغير حق[1]، وقال الشوكاني: (إنه يجب نصر المظلوم ودفع من أراد إذلاله بوجه من الوجوه، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا، وهو مندرج تحت أدلة النهي عن المنكر)[2].

جاء في فتح الباري: (قوله [أي قول البخاري]: فإن قاتل دون المظلوم فلا قود عليه ولا قصاص، قال الداودي: أراد لا قود ولا دية عليه ولا قصاص. قال: والدية تسمى أرشًا، قلت: والأولى أن قوله "ولا قصاص" تأكيد، أو أطلق القود على الدية، وقال ابن بطال: اختلفوا فيمن قاتل عن رجل خشي عليه أن يقتل فقَتَلَ دونه هل يجب على الآخر قصاص أو دية؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه شيء للحديث المذكور، ففيه "لا يسلمه"[3] وفي الحديث "انصر أخاك" وبذلك قال عمر، وقالت طائفة: عليه القود وهو قول الكوفيين، وهو يشبه قول ابن القاسم وطائفة من المالكية، وأجابوا عن الحديث بأن فيه الندب إلى

---

(١) رد المحتار ٦٣/٤، وشرح الخرشي ١١٢/٨، وشرح الزرقاني ١١٨/٨، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٨/٤، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٢٤/٨، والفروع، ابن مفلح ١٤٨/٦.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ص ١٠٩٩، ط بيت الأفكار.

(٣) هو جزء من حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه..." أخرجه البخاري ٦٩٥١، ومسلم ٢٥٨٠.

النصر، وليس فيه الإذن بالقتل، والمتجه قول ابن بطال إن القادر على تخليص المظلوم توجه عليه دفع الظلم بكل ما يمكنه، فإذا دافع عنه لا يقصد قتل الظالم وإنما يقصد دفعه فلو أتى الدَفْع على الظالم -أي قتله- كان دمه هدرًا وحينئذٍ لا فرق بين دفعه عن نفسه أو عن غيره)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والاستفهام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم.

ثالثاً: من واجبات المدعو: الاستفسار عما خفي عليه.

رابعاً: من أهداف الدعوة: إقامة العدل ورفع الظلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب الأمر والاستفهام:

لقد ورد الأمر في الحديث في قوله ﷺ "أنصر" والأمر من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعي لحمل المدعو على فعل ما يدعى إليه، أما الاستفهام فقد ورد في الحديث في قول الرجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ وأسلوب الاستفهام من الأساليب الدعوية التي تعين المدعوين على فهم خطاب الداعية، وإزالة اللبس أو الغموض.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: نصرة المظلوم والأخذ على يد الظلم:

لقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك في قوله ﷺ: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" وقد بيّن ابن عثيمين: (أن النصر بمعنى الدفاع عن الغير أي دفع ما يضره)[٢]، وقال ابن حجر: (إن النصر عند العرب يعني الإعانة)[٣]، وقد حرم الحق تبارك وتعالى الظلم فقال في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٩٩/٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٥٨٢/١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٨/٥.

تَظَالَمُوا))[١]، وقد أمر النبي ﷺ بنصرة المظلوم فقال: ((أفشوا السَّلَامَ، وَأَعِينُوا الْمَظْلُومَ، وَاهْدُوا السَّبِيلَ))[٢]، وقال ﷺ: ((مَنْ نَصَرَ أخاهُ بظَهْرِ الغيبِ نَصَرَهُ اللهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ))[٣]، ورهّب ﷺ من عدم ذلك، فقال: ((مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرأً مُسْلِماً فِي مَوَاقِعِ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاَّ خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيهِ نُصْرَتُهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ))[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم.

ثالثاً- من واجبات المدعو: الاستفسار عما خفي عليه:

إن استفسار المدعو عما خفي عليه من كلام الداعية، يُعد مؤشراً إيجابياً يؤكد على تواصل المدعو مع الداعية واهتمامه بفهم واستيعاب ما يسمعه، ويتضح ذلك من خلال ما ورد في الحديث من قول الرجل: (يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟) وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالسؤال والاستفسار عما خفي وأشكل فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]، قال السعدي في ذلك: (أنه أمر من الله لمن لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم، وذلك في جميع الحوادث)[٦]، وبذلك يتحقق عظيم الفائدة للمدعوين.

رابعاً- من أهداف الدعوة: إقامة العدل ورفع الظلم:

إن إقامة العدل ورفع الظلم من أعظم أسباب إرضاء الرب قبل إرضاء الخلق، وذلك

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٢/٤ رقم ١٨٤٨٣، وقال محققو الإسناد حديث صحيح ورجاله ثقات ٤٣٥/٣٠.

(٣) سنن البيهقي ١٦٨/٨، وصححه الألباني في الجامع الصغير ٦٤٥٠.

(٤) سنن البيهقي ١٦٨/٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٥٥٦٦.

(٥) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

فضلاً عن تحقيق استقرار المجتمع الإسلامي وحصول طمأنينته، وذلك من أعظم أهداف الدعوة التي يكون بها صلاح الحال والبلاد؛ لذا أمر النبي ﷺ بالاجتهاد في إقامة العدل ورفع الظلم، وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قوله ﷺ: (تحجزه - أو تمنعه - من الظلم).

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالعدل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2]، قال ابن كثير: (أي: كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا "شهداء بالقسط"، أي: بالعدل لا بالجور)[3]، وقال تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾[4].

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: "لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فجاء ليشهده على صدقتي، فقال: ((أَفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟)) قَالَ: لاَ، قَالَ: ((اتَّقُوا اللّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ))، وقال: ((إني لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ))[5].

قال الماوردي: (إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٢/٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٨٦، ومسلم ١٦٢٣.

الألفة ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان.

وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل.

ونُقل عن بعض البُلغاء قوله: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع، وكثرة الورع. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان في نفسه، ثم بعدله في غيره. فأما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو على غيره أجور.

فأما عدله مع غيره، فقد تنقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عدل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان في رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء:

باتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة. فإن اتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة.

القسم الثاني: عدل الإنسان مع من فوقه. كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها، ويكون ذلك بثلاثة أشياء:

بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء؛ فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن.

وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر إلى اتقاء من كان يقيه.. وفي استمرار هذا حل نظام شامل، وفساد صلاح شامل.

القسم الثالث: عدل الإنسان مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة،

ومجانبة الإدلال، وكف الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكف الأذى أنصف، وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأفسدوا.

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة، يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدلٍ من حالتي الزيادة والنقصان، وإذاً لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضرّ مما ليس بعدل"[1].

وفي ذلك بيان على أن إقامة العدل ورفع الظلم من أسمى مقاصد الشريعة التي يجب إقامتها وبذل الأنفس في تحقيقها.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٤١-١٤٢ بتصرف.

الحديث رقم (٢٣٨)

٢٣٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «حقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خمسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ الْمرِيضَ، واتِّبَاعُ الْجنَائِزِ، وإِجابة الدَّعوةِ، وتَشميت العاطِسِ» متفق عليه[1].

وفي رواية لمسلمٍ[2]: «حق الْمُسْلِمِ ستٌّ: إِذا لقِيتَهُ فسلِّم عليْهِ، وإِذَا دَعاك فَأَجبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصحْ لَهُ، وإِذا عطَس فحمِد اللَّه فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فاتْبعهُ».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

التشميت: أي الدعاء بالخير والبركة[3].

عاده: أي زاره[4].

الشرح الأدبي

للعلاقات الاجتماعية في ظل الإسلام إيقاعها الجميل، وهو اتباع منضبط نبيل، لا تدفع به إلى الوجود بواعث نفعية، ولا محركات مادية وقتية، ولكنه يصعد من القلوب، وينبض بالحب والوئام، ويعبق بطيوب الأمن والسلام؛ وحين نتأمل هذا الحديث النبوي الشريف نبصر في كل بارقة من بوارقه الخمس ضبطًا لهذا الإيقاع الاجتماعي المتوازن، وتقعيدًا لحركة التفاعل في الحياة بين المسلم وأخيه المسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠) واللفظ له، ومسلم (٤/٢١٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨٦)، و (٣٩٨٦). وسيكرره المؤلف برقم (٨٩٦).

(٢) برقم (٥/٢١٦٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٨٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٩١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦٣٥.

فالبداية تعلن صراحة بأن "حق المسلم على المسلم خمس"، والحصر هنا ليس مقصودًا به الاقتصار على هذه الواجبات، وإنما جاء تحديدها لأهميتها في سياق هذا الحديث، وقيل لأن العدد لا مفهوم له، وقيل، لأن محل العمل بمفهومه ما لم يُعلم خلافه فإن الحقوق المتأكدة كثيرة، واقتصر على ما ذكر، إما لأنها المشروعة إذ ذاك، وما عداها شرع بعدها، وإما لأنها الأنسب بحال السامعين بتساهلهم فيها وشدة احتياجهم إليها[1].

والبناء اللغوي للحديث يفصح عن دلالاته، فالمبني وعاء للمعنى، والحديث يتسم في بنائه بالتناسق والتوازن، وهو يتكون من ست جمل، وكلها جمل اسمية، والبداية تفصح عن ثبات هذه المعالم السلوكية في ضبط إيقاع حياة المسلم: حيث يقول المصطفى ﷺ في صرامة وحسم، "حق المسلم على المسلم خمس"، والبداية بهذه الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر، تعلن عن ثبات هذه الحقوق، وعدم ارتباطها بزمن دون آخر، وبعصر دون آخر، ولا مكان دون آخر فهى معالم سلوكية لشخصية المسلم في الماضي والحاضر والمستقبل ، والقديم والحديث، والبادية والحضر، وفي كل البيئات، وبعد هذا الإجمال، يفصل المصطفى ﷺ القول في هذه الخمس في إيجاز وتلميح.

وكل الجمل التي شاركت في بنيان هذا الحديث هي جمل اسمية، وهذا البنيان يفصح عن ثبات هذه الحقوق وضرورة عدم التهاون فيها، أو التقليل من شأنها، وثبات دلالة الجملة الاسمية يوحي بهذه الدلالة الشرعية الصحيحة، ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث أن البناء اللغوي يتسم بالتوازن والتناسق، فكل جملة تتناسق مع الجمل الأخرى في بنائها، وتتوازن في هيئتها: فكل جملة تبدأ بمصدر مضاف إلى معموله، وهو يمثل صورة من صور العلاقات المتنوعة بين المسلمين في حركتهم الحياتية.

وكأن هذا التوازن والتناسق صورة لما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات بين المسلمين من توازن وتناسق تنتظم به حياة المسلمين، وبدايات الجمل تتماثل في البناء اللغوي على هذا النسق "رد - عيادة - إتباع - إجابة - تشميت"، والمصادر متنوعة،

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ٤٢١.

فمنها الثلاثي وهو "رد"، ومنها الرباعي وهو "إجابة"، ومنها الخماسي، وهو "اتباع"، ومنها الرباعي المضعف وهو "تشميت"، وتنوع هذه البنى اللغوية من حيث تعدد مصادرها يوحي بتنوع الظروف والحالات التي يحق للمسلم فيها أن يؤازر أخاه، وهو أن يعظم حرماته، وكل هذه الحقوق مع ما ذكر في الرواية الثانية من شأنها أن تشيع الألفة والبهجة بين أبناء الأمة الإسلامية، ونلاحظ أن الحقوق الست في الرواية الثانية، صيغت كلها في قالب الشرط والجزاء، وأفعال الجواب كلها في صيغة الأمر إعلانًا عن أنها واجبات لازمة وأداة الشرط "إذا" تؤكد هذا اللزوم لأنها للتحقق.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم ابتداء السلام ورده، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن رد السلام من فروض الكفايات فمتى قام به واحد من جماعة أجزأ عنها وإن تركه الجميع أثموا، وإن كان من يرد واحدًا فقد وجب عليه رد السلام، أما ابتداء السلام فقد اختلفوا فيه، فذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة في المذهب إلى أن ابتداء السلام سنة وليس واجبًا، وهو سنة على الكفاية فلو كانوا جماعة يكفي سلام أحدهم ولو سلموا كلهم كان أفضل، وذهب الحنفية والمالكية في قول والإمام أحمد في رواية إلى أن ابتداء السلام واجب.

الثاني: حكم عيادة المريض، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٦).

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢/٢٩، ٣٠/٢٧٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١/٢٦٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٧/٢٧٩، وأحكام القرآن، ابن العربي ١/٥٩١، والأم للشافعي ١/٢٣٤، وأحكام القرآن للشافعي ٢/٣٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤٥١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢/٧١، ٨٦، ٧/٢١٣، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١/٣٣٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١/٣١٤.

الثالث: حكم اتباع الجنازة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[١] إلى أن تشييع الجنازة سنة، وقال الزين بن المنير من المالكية: إن اتباع الجنازة فرض على الكفاية فمتى قام به البعض سقط عن الباقين مع ما في ذلك من عظيم الأجر عند الله تعالى.

الرابع: حكم إجابة الوليمة عند الدعوة إليها، وقد اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو لجمهورهم ويرون أن الإجابة إلى دعوة الوليمة واجبة[٢].

القول الثاني: وهو للحنفية[٣] وقالوا إن الإجابة لوليمة المسلم سنة، فمن دعي إليها فليجب أخاه تطييبًا لخاطره وتقوية للصلاة بينهما.

القول الثالث: لبعض الحنابلة[٤] وقالوا هي فرض على الكفاية.

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٣٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣١١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٠٨/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٩٣/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣١٣/١، ٣٢٦، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٣١/٣، ١٦٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٩/٢، ١٢٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٥٧/١، ٣٧٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/١٦ وما بعدها.

(٢) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٤٩/٣، والتاج والإكليل ٢٤١/٥، والأم للشافعي ١٩٥/٦، وأسنى المطالب ٢٤٤/٣، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٥/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٨/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢١٣/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٧/٢٠.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٢٨/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٣/٦، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٠٨/٢.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣١٨/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢١٣/٧.

الخامس: تشميت العاطِس، وقد اختلف الفقهاء[١] في حكمه، فذهب الحنفية والحنابلة في قول إلى أن تشميت العاطِس إذا حمد الله تعالى واجبٌ، وذهب المالكية والحنابلة في المذهب إلى أنه واجب على الكفاية فمتى شمته أحد الحاضرين كفى، وذهب الشافعية إلى أن تشميت العاطس سنة وليس واجبًا، وقال القاضي أبو محمد من المالكية: هو مندوب.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حقوق المسلم.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: توثيق عُرى الأخوة الإسلامية.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حقوق المسلم:

لقد اشتمل هذا الحديث على بيان عدد من حقوق المسلم على المسلم، وذلك في قوله ﷺ "رد السلام" وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة وتشميت العاطس وفي رواية "وإذا استنصحك فانصح له..." وقد بين النبي ﷺ عظم وأهمية هذه الحقوق فقال في إفشاء السلام ((لاتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))[٢]، وبين ﷺ عظم حق عيادة

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٦٤/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٦/٧، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٣٤٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢٣٠/٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٧٤/٤، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، والفتاوى الكبرى ٣٥٩/٥، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٣٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٨/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٧/١٢.

(٢) أخرجه مسلم ٥٤.

المريض فقال ﷺ: ((إن الله عز وجل يقول يوم القيام يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده))[١]، وقد أشار ابن عثيمين إلى: (أن من حق المسلم على أخيه أن يتبع جنازته من بيته إلى المصلى - سواء في المسجد، أو في مكان آخر- إلى المقبرة)[٢].

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ شَهِدَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَمَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ))[٣] وفي ذلك حث من النبي ﷺ على أداء هذا الحق لنيل عظيم الأجر، وفي بيان حق إجابة الدعوة قال ﷺ: ((وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))[٤] وقال أيضًا: ((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ فَإِنْ شَاءَ طَعِمَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ))[٥]، وفي بيان حق المسلم في تشميته إذا عطس، قال ﷺ ((إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويكرهُ التثاؤبَ، فإذا عَطسَ فحمِدَ الله فحقٌّ على كل مسلم سمعَه أن يشمِّته))[٦]؛ وفي بيان عظم حق النصيحة قال ﷺ ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[٧]. قال النووي: (ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة، كقوله "الحج عرفة" أي عماده ومعظمه عرفة)[٨]. وفي ذلك بيان لحقوق المسلم على المسلم وأهمية القيام بها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٥٨٦.

(٣) أخرج البخاري ١٣٢٥، ومسلم ٩٤٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٣٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٤٣٠.

(٦) أخرجه البخاري ٦٢٢٣.

(٧) أخرجه مسلم ٥٥.

(٨) شرح صحيح مسلم، ١٣٠.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: توثيق عُرى الأخوة الإسلامية:

هذا ما يستفاد من عموم الحديث في قوله ﷺ "حق المسلم على المسلم خمس...إلخ" وفي رواية "ست"، وفي بيان هذه الحقوق تتوثق عُرى الأخوة الإسلامية بين المسلمين ويتأكد قول النبي ﷺ ((تَرى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادّهم وتَعاطفِهم كمثَل الجسَدِ إذا اشتكى عُضوًا تَداعى له سائرُ جسَدِه بالسّهَرِ والحُمّى))[1]، قال ابن حجر: قال القاضي عياض: فتشبيهه المؤمن بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصورة المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضًا)[2]، وفي ذلك عظيم الأثر في تحقيق وحدة المسلمين وأهمية القيام بها.

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها:

هذا ما بينه النبي ﷺ من الحديث في قوله "رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، فعلى الداعية أن يبين ما يحقق الأخوة الإسلامية ويقويها ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[3]، قال السعدي: (أي: على كل من أعطاه الله الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك)[4].

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ:

قد "أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[5]، قال السعدي: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٧.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه)[١]. وقد بين الحق تبارك وتعالى عظيم أجر الاستجابة لأمر الله ورسوله فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[٢].

فعلى المسلم أن يستجيب لأمر النبي ﷺ في مراعاته لحقوق المسلمين والاجتهاد في أدائها، حتى ينال عظم الأجر في الدنيا والآخرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ١٨.

الحديث رقم (٢٣٩)

٢٣٩- وعن أَبي عُمارة الْبراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنهما قال: أَمرنا رسولُ اللَّه ﷺ بِسبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ: أَمرنَا بِعِيادة الْمرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجنازةِ، وتَشْمِيتِ الْعاطِس، وَإِبْرارِ الْمُقْسِمِ[١]، ونصْرِ المظْلُومِ، وَإِجابَةِ الدَّاعِي، وإِفْشاءِ السَّلامِ. وَنَهانا عَنْ خواتِيمَ أَوْ تَخَتُّمٍ بالذَّهبِ، وَعنْ شُرْبٍ بالفَضَّةِ، وعَنِ المياثِرِ (الحُمْرِ)[٢]، وَعَنِ الْقَسِّيِّ، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ، متفق عليه[٣].

وفي روايةٍ[٤]: وإِنْشَادِ الضَّالةِ -فِي السَّبْعِ الأُولِ-.

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

غريب الألفاظ:

تشميت العاطس: الدعاء له بالخير والبركة[٥]، بقولنا: يرحمك الله[٦].

إبرار المقسم: إمضاء يمينه وتنفيذها[٧].

المياثرُ: جمع مَيثرة: وهي شيء يُتَّخذُ من حرير ويحشى قطنا أو غيره، ويجعل في السرج وكُور البعير يجلس عليه الراكب[٨].

الإستبرق: الديباج الغليظ أو الثوب الغليظ الذي يكون سداه ولحمته من الحرير[٩].

---

(١) لفظ مسلم: (وإبرار القسم، أو المقسم) واختصره المؤلف.

(٢) هذا اللفظ ليس عند مسلم، وإنما عند البخاري برقم (٥٨٣٨) من حديث سفيان، عن الأشعث.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٣٠)، ومسلم (٣/٢٠٦٦) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (٨٤٧). ورقم (٨٩٥).

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش م ت).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ش م ت).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ر ر).

(٨) رياض الصالحين ١٤٤.

(٩) معجم لغة الفقهاء ، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٧.

الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير(١).

إنشاد الضالة: تعريف الشيء المفقود(٢).

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ حريص على أمته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ ويقول الحق سبحانه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾(٣).

وحين نتأمل آفاق المعنى في هذا الحديث نجدها متعددة، وهى آفاق نبصر فيها سلوكيات المسلم الإيجابية، وكذلك لا تخلو آفاق المؤمن السلوكية من مخالفات وممارسات نهى عنها رسول الله ﷺ، وهذا الحديث الشريف يعد إقراراً من النبي ﷺ بما ورد فيه من قيم وسلوكيات أمر بها رسول الله ﷺ، وكذلك ما ورد فيه من ممارسات وأفعال ذميمة لا يقرها الشرع ولا يعترف بها.

وأسلوب الحديث الشريف من قول البراء بن عازب رضي الله عنه، وقد أورده في صيغة الإخبار حيث قال: "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع" والحديث هنا يبدأ بهاتين الجملتين: أمرنا ونهانا، وصيغة الجمع هنا ترشد إلى أن جميع الأمة الإسلامية مأمورة بهذه الأوامر، ومنهية عن هذه السلوكيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ، والعدد هنا لا يراد منه حصر الأوامر والنواهي في هذه السلوكيات، وإنما هذه الأوامر وتلك النواهي المذكورة هي ما يشيع في قلب المجتمع، وما يحدث بين أبناء الأمة من عادات وعلاقات تنمو وتتكاثر في ظل القيم الإسلامية، وتكرَّر الفعل "أمرنا"، مرة أخرى في بداية تفصيل هذه الأوامر "أمرنا بعيادة المرضى"، ولم يتكرر في باقي المأمورات... لأن كل ما أمر به رسول الله ﷺ يعد أمراً واحداً في قلب دائرة السلوك الإسلامي الذي يتحصن به المجتمع، ويلوذ بمعالم هذا السلوك الحضاري الإيجابي، في ظل التصور الإيماني.

---

(١) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٨٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ش د).

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

وعيادة المرضى، كم تترك من آثار حميدة في نفوس هؤلاء المرضى، وربما تكون من أسباب الشفاء والمعافاة، واتباع الجنائز من أعظم مظاهر المواساة بين المسلمين، ومع المواساة تكون العظة، ويكون الدعاء والترحم على الأموات، واتباع الجنائز ليس توديعاً للميت فقط، ولكن أثره يمتد ويتواصل ليشمل رعاية الأيتام الذين رحل عنهم كفيلهم وراعيهم، لأن أهل الميت يطمئنون إلى أنهم لن يكونوا وحدهم في مفازة الحياة بعد موت راعيهم أو أخيهم أو أي راحل من ذويهم، وتشميت العاطس يوحي بأن المسلم لا يشمت في أخيه لأن التشميت أصله إزالة شماتة الأعداء، وقيل معناه، صان الله شوامتك: أى قوائمك التي بها قوامك: فقوام الدابة مثلاً بسلامة قوائمها، وقوائم الإنسان التي بها قوامة الرأس وما اتصل به من عنق وصدر.

وإبرار المقسم بنحو "أقسمت عليك بالله" أو نحو "والله لتفعلن كذا" فيسن له حيث لا مانع تخليصاً له عن ورطة الاستهتار بحقه في الأول، وحنثه في الثاني -كما يقول صاحب دليل الفالحين-[1]؛ وتتعدد آفاق نصر المظلوم وتتشعب أبعاده، وتتنوع معالمه، ولم يقل "إعانة المظلوم"، وقال: "نصر"، لأن المظلوم في حاجة إلى من يرد إليه حقه المسلوب، وهذا يحتاج إلى مجاهدة وقوة، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام، يشيعان في المجتمع البهجة والألفة والمحبة.

وحين نتأمل السلوكيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ نجد أنها ترتبط بالترف والإسراف والبذخ، والتفاخر، والتكاثر، واللهو والاستغراق في مظاهر الزينة الدنيوية، وهذه المظاهر من التختم بالذهب، والشرب في آنية الفضة، ولبس الحرير والاستبرق، وتقليد الأعاجم: من ظواهر الفساد والدمار.

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٢.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم عيادة المريض واتباع الجنائز: اختلف الفقهاء في حكم عيادة المريض واتباع الجنائز فذهب الشافعية والحنابلة إلى أن عيادة المريض واتباع الجنائز سنة(١). وذهب بعض الحنابلة إلى أن عيادة المريض واتباع الجنائز فرض كفاية(٢). وذهب ابن دقيق العيد إلى أن عيادة المريض قد تكون واجبة إذا كان المريض مضطراً إلى من يتعاهده. وأما اتباع الجنائز إن أريد به الصلاة على الميت فهو من فروض الكفاية(٣). وقال الظاهرية: إن عيادة المريض فرض(٤).

الثاني: حكم ابتداء السلام وتشميت العاطس، ورد السلام: ذهب الإمام ابن تيمية إلى أن ابتداء السلام وتشميت العاطس واجب على الكفاية(٥). وذهب الحنفية إلى أن تشميت العاطس يجب لكل مرة، وقيل لا يشمت العاطس أكثر من ثلاث مرات إذا تابع، وقيل يجب التشميت مرة واحدة وما زاد فمندوب(٦). وإذا عطس والخطيب يخطب فإنه يكره تشميته لأنه ليس بفرض فلا يجوز ترك الفرض لأجله(٧).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣١/١٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب لزكريا الأنصاري ١٨٧/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٣٩/١، ٣٥٧، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٥٤/٢.

(٢) الإقناع لطالب الانتفاع، الحجاوي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢١٠/١، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٥٩/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٥٤/٢.

(٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٥/١، ٢٩٦.

(٤) المحلى، ابن حزم ٤٠٢/٣، ٤٠٣.

(٥) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٥٩/٥. والابتداء بالسلام سنة مستحبة عند المالكية والشافعية والحنابلة، وهو واجب عند الحنفية ورواية عند أحمد وقول مقابل للمشهور عند المالكية. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦١/٢٥ ومراجعها ومصادرها.

(٦) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٦٩/٢.

(٧) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٥٩٢/١.

وذهب الشافعية إلى أن تشميت العاطس سنة على الكفاية.

أما رد السلام فهو فرض بالإجماع. فإن كان السلام على واحد كان الرد فرض عين عليه، وإن كان على جماعة كان فرض كفاية في حقهم.

الثالث: حكم إبرار القسم، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه من حلف على غيره أن يفعل واجباً أو يترك معصية وجب عليه إبرار قسمه، لأن الإبرار هنا قيام بحق الله تعالى، ومن حلف على غيره أن يفعل معصية أو يترك واجباً لم يجز إبراره بل يجب تحنيثه لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن حلف على غيره أن يفعل مكروهاً أو يترك مندوباً ندب تحنيثه ولا يبر قسمه، ومن حلف على غيره أن يفعل مندوباً أو مباحاً أو يترك مكروهاً يندب إبرار القسم على سبيل الاستحباب.

الرابع: حكم نصر المظلوم، وقد ذكر الفقهاء[2] أن نصر المظلوم من فروض الكفايات لمن قدر عليه لما فيه من إزالة المنكر ودفع الضرر عن المسلم، قال الشوكاني: يجب نصر المظلوم ودفع من أراد إذلاله بوجه من الوجوه وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً.

الخامس: حكم إجابة الدعوة إلى الوليمة، وقد سبق الكلام عنه في الحديث السابق.

السادس: حكم لبس الحرير والذهب بالنسبة للرجال، وقد سبق الكلام عنه في

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٧٥/٣، وشرح منح الجليل ٤٣٤/٤، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢٤١/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٤٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٣٠/٦، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي الرحباني ٣٦٧/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٢٦٨/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤٩٢/٣، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٦/٢، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٢١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩٣/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٩٤/٥.

الحديث رقم (١٩١).

السابع: حكم استعمال آنية الذهب والفضة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أنه يحرم استعمال أواني الذهب والفضة في الطعام والشراب للرجال والنساء، وذهب الشافعية في قول ضعيف[2] إلى أن استعمال أواني الذهب والفضة مكروه فقط، والراجح ما ذهب إليه الجمهور لأنه الذي تؤيده الأدلة القوية من السنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والنهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ.

رابعاً: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة أسلوب الأمر، والنهي:

الأمر والنهي من الأساليب الدعوية الرئيسة في توجيه المدعوين وحملهم على الامتثال لأوامر الشرع ونواهيه، وقد ورد الأمر والنهي كأسلوب دعوي هام في الحديث من قول الراوي: "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع".

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية الامتثال لأمر النبي ﷺ، وقد ورد ذلك في قول الراوي "أمرنا رسول الله ﷺ بسبع -ثم ذكر- أمرنا بعيادة المريض، واتباع

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٢٤٦/٤، ٢٤٩، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٣٢/٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٠/٦، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٠٨/٢، وأحكام القرآن، ابن العربي ٩٦/٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٠٦/١، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٧/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٥٩/١، والفتاوى الكبرى ٢٩٩/٥، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٧/١.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٩٧/٢.

الجنائز، وتشيمت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام. وفي بيان أهمية الامتثال لأمره ﷺ قال الحق تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[١] قال ابن كثير: (أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم)[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٣]. قال السعدي أي: إن: (من امتثل لأمر الله ورسوله فأدى الأوامر واجتنب النواهي، فلابد له من دخول الجنة، والنجاة من النار)[٤]، وهذا ما رغب فيه النبي ﷺ ورهب من مخالفته، فقال: ((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله))[٥].

قال ابن حجر: (قوله: "من أطاعني فقد أطاع الله" هذه الجملة منتزعة من قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٦]. أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره، ويحتمل أن يكون المعنى لأن الله أمر بطاعتي

(١) سورة النساء، الآيتان: ٦٩-٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٥٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٣٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٣٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٨٠.

فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي، وفي المعصية كذلك، والطاعة هي الإتيان بالمأمور به والانتهاء عن المنهي عنه، والعصيان بخلافه)[١].

وفي ذلك بيان على أهمية الامتثال لأوامر النبي ﷺ وطاعته.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ:

إن مما يستنبط من الحديث أهمية الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ، وقد ورد ذلك في قول الراوي "ونهانا عن سبع"-ثم ذكر- ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب، وعن شرب بالفضة، وعن المياثر الحمر، وعن القسي، وعن لبس الحرير والاستبرق والديباج". وفي بيان أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢] أي: (فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً "أن تصيبهم فتنة" أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك)[٣]، وقد رهب النبي ﷺ من مخالفة ذلك فقال: ((كُلُّ أُمَّتِى يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَبَى. قَالُوا وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ الله . قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِى دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ أَبَى))[٤]، وفي ذلك بيان على أهمية تجنب ما نهى عنه النبي ﷺ.

رابعاً- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن مما يستنبط من هذا الحديث حرص الداعية واتصافه بإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، وقد اتضح ذلك من أوامر ونواهي النبي ﷺ للمسلمين في هذا الحديث. قال ابن عثيمين: (إن الأوامر التي أمر بها النبي ﷺ كلها خير، والنواهي التي نهى عنها كلها شر، لأن قاعدة الشريعة تأمر بالمصالح وتنهي عن المفاسد)[٥]، وفي قيام الداعية

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/١٢٠.

(٢) سورة النور، آية: ٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٩٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

(٥) شرح رياض الصالحين ١/٥٩٦.

ببيان ذلك وتوضيحه يكون عظيم الأجر، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً))[1]. فعلى الداعية أن يسارع في ذلك لتحصيل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2].

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

المجتمع المسلم يختلف عن غيره من المجتمعات في قوة الرابطة والتعاطف وحسن التعامل واحترام الكبير ورحمة الصغير، كل هذا مردوده إيجابي في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فبقوة الرابطة بين أفراده، والتي سبهها الرسول ﷺ بالبنيان حيث إن لنباته يقوى بعضها بعضاً، ويتحامل بعضها على بعض، ويحمي بعضها بعضاً، وأي فراغ فيها على غير هدي يؤذي سائر اللبنات الأخرى، ومن أجل البيان شبك رسول الله ﷺ بين أصابعه كوسيلة إيضاح بلغة العصر، وفي الآخرة يجلب الرباطُ القوي إسلامياً رحمة الله، ولذلك كان من أساليب التربية:

أولاً- التربية بالتشبيه والتمثيل:

لقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التشبيه والتمثيل لتقريب الفكرة إلى صحابته، وتبسيطها إلى أذهانهم، يقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان...» ثم يمثّل لصحابته هذا الترابط بين المؤمنين فيشبك بين أصابعه، ليوصل إليهم مدى الترابط والتراحم الذي يجب أن يكون بينهم.

ويقول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ ...»، ووجه الشبه بين المسلمين وبين الجسد أنه: «إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ».

وثمة فائدة كبيرة لهذه الطريقة التربوية؛ لأنها تجمع بين الإقناع والإمتاع لدى السامع؛ لأن ضرب المثل والتشبيه يأتي بصورة حسية تشبه الصورة المراد انتزاعها إن كانت سلبية، وتعديلها إن كانت معوجة، وتعزيزها إن كانت إيجابية ومرغوباً فيها، فيضعها في دائرة الإدراك العقلي؛ وذلك بإشراك الحواس في تحليل تلك الصورة تحليلاً نفسياً؛ من أجل الوصول إلى غرس كراهية الصور السلبية، ومن ثم الإقلاع عنها، أو الوصول إلى حب السلوك الحميد وتمثله علمياً كلما لزم الأمر[1].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص١٦٣، ١٦٤.

كذلك فإن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر وإيقاظ النفوس وتجديد نشاطها[(١)].

ثانياً- التربية بالتوجيه المباشر:

قد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في قوله: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا ..... وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ...»، وقوله: «إذا صلى أحدكم فليخفف....».

وتلك طريقة تربوية تهدف إلى إيصال القيمة إلى المتلقي من أقصر السبل، ويكون ذلك في الأمور البدهية، أو التي هي من ضرورات الدين، فالأول يتعلق بعدم ترويع المؤمنين، والنهي عن إشهار الأسلحة بين الناس، بل على حامل السيف أن يغمده؛ لأن في ذلك سداً للذرائع وإغلاقاً لأبواب الشر، والثاني: في التخفيف عن المصلين وتقصير الصلاة؛ مراعاة لذوي الحاجات والضعفاء والمرضى.

ومن خلال التوجيه المباشر يكون تصحيح الأخطاء، والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له[(٢)].

ثالثاً- التربية بالمواقف من الأحداث:

ومن خلال هذه المواقف أراد النبي ﷺ إرساء مبدئين: الأول: الرحمة بالأولاد خاصة: وذلك في عدة أحاديث؛ فأولها موقف الأقرع بن حابس عندما تعجب من تقبيل النبي ﷺ الحسن، فقال له النبي ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»، والثاني: أن النبي يقول: «إِنِي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ ... فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِي فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي ...»، فتلك رحمة بالصغار، حرص النبي ﷺ عليها؛ حتى ينشأ الأطفال تنشئة صحيحة، فيكبرون سالمين من العقد النفسية التي تصيب بعض الأطفال الذين قسا عليهم آباؤهم، فكبروا قساة، يكرهون الناس، وما أكثر الحكام الجائرين في كثير من الدول الغربية، والذين تميزوا بالوحشية والدموية ،وكان سبب ذلك أنهم تربوا على

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية، د. عبدالغني محمد، ص٢٩٩.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢١٨.

القسوة منذ الصغر، فكبروا عليها، وعاملوا الناس بها.

الثاني: الرحمة بالمسلمين عامة؛ تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ، ...، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ، فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»؛ وذلك رحمة بهم، من خلال ترك بعض العبادات التطوعية؛ خشية أن يعمل بها الناس فتفرض عليهم.

وحسن المعاملة والترفق بالناس من أهم الأساليب التربوية الناجحة والمؤثرة، التي سلكها الرسول ﷺ في التعامل مع من يريد تربيتهم وهدايتهم، وقد ترك ذلك لنا مثالاً طيباً يبين لنا فيه كيف أن الرفق ولين الجانب يفتحان العقول، ويستميلان القلوب، حتى يستطيع المربي أن يقذف بكل ما يريد بذره فيها من القيم والمعاني السامية التي يسعى المصلحون لغرسها في القلوب[١].

رابعاً- من سمات التربية الإسلامية: الواقعية:

وذلك يظهر في نهيه ﷺ عن الوصال -وهو مواصلة الصوم دون إفطار- رحمة بالمسلمين، وعندما سأله الصحابة: إِنَّكَ تُوَاصِلُ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ ...»، والواقعية سمة رئيسية في الإسلام؛ لأنه دين خاتم، فليس فيه ما يصعب فعله على البشر، وليس فيه تكليف للناس فوق طاقاتهم، بل إن الجميع يستطيع أن يؤدي الفرائض والنوافل على قدر استطاعته، ولهذا نهى النبي ﷺ عن مواصلة الصيام؛ لأن في ذلك تكليفاً للنفس فوق استطاعتها، وغلواً أبغضه الإسلام، ونهى عنه.

لقد وجدت التربية الإسلامية من أجل العمل بها وتفعيلها في الواقع العملي في الحياة، ... مع كونها قيماً سلوكية تتفق مع قدرات الإنسان العقلية والوجدانية والجسدية، ولا تخرج عن طاقته الكامنة، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢]، وهذا كله بخلاف التربية عند الآخرين؛ حيث تكلف الإنسان فوق طاقته، أو تطلب منه ما لا يتفق مع فطرته مما لا يمكن تطبيقه[٣].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص٤٤.

خامساً- من المبادئ التربوية الإسلامية: دعم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين:

ذلك بارز في أكثر أحاديث الباب، يقول ﷺ: «المسلم أخو المسلم...»، ويقول: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً...»، ويقول: «حق المسلم على المسلم خمس...»، ويقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع...».

وكل هذه الأحاديث تحض على التراحم والتعاطف بين المسلمين، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصرة المظلوم... وما إلى ذلك من الأخلاقيات التي تقوي العلاقات الاجتماعية وتعضدها بين المسلمين.

إن الفرد مرتبط ارتباطاً شديداً بمجتمعه، ومن الصعوبة التعايش بدون المجتمع، أو بمعزل عنه؛ فالمجتمع مصدر أنسه وأمنه وسعادته، وعلى الفرد واجبات ومسئوليات نحو مجتمعه، كما أن له حقوقاً ينبغي على المجتمع أن يعني بتقديمها له[١].

سادساً- التربية على رحمة الصغير:

إن من سمات الأخلاق الإسلامية الأساسية احترام الكبير ورحمة الصغير والعطف عليه، وقد بدا في هذا الباب حرصه ﷺ على الرأفة بالصغير، يقول ﷺ: «إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ، ...، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»؛ لأن بكاء الطفل الصغير سيثير شفقة الأم، وبالتالي ستهتم به وتنشغل بإسكاته عن الصلاة، ولهذا فإن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة إذا سمع بكاء الطفل الصغير شفقة ورحمة منه به وبوالدته.

لقد ركز النبي ﷺ على الطفولة ووجوب رعايتها وتنشئتها النشأة الصالحة؛ وذلك إكراماً لجوهر الإنسان؛ حتى يجعل من تنشئة الجيل بجنسيه تنشئة لمجتمع يعرف حق الطفولة، ومن يعرف حق الطفولة فقد رفرفت الرحمة بنورها فوق ربوعه[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) دور الأسرة في تربية أولادها في مرحلة البلوغ، عبدالرحمن الغامدي ص٣٦٧.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، إشراف د. مرزوق بن تنباك ٢٦/٨٠.

٢٨- باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[النور: ١٩].

الحديث رقم (٢٤٠)

٢٤٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يسْتُرُ عَبْدٌ عبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرهُ اللَّه يَوْمَ الْقيامَةِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث الشريف باب ستر عورات المسلمين، والإمام النووي يجعل في مقدمة هذا الباب: الميثاق الذي لابد أن ينتبه له المسلمون وهو ضرورة المحافظة على حرمات المسلمين، وفي مقدمة متعلقات هذا التعظيم ومعالمه ستر عورات المسلمين، ولذلك بدأ الإمام النووي: بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

والحديث في منطوقه ينزع إلى التبشير والترغيب حيث يبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من يستر مسلمًا ولا يفضح أمره، ولا يذيع عوراته وأسراره التي يحرص على كتمانها، بأن الله سيستره يوم القيامة ولا يفضحه على رءوس الأشهاد، وما أحوج كل عبد إلى الستر الإلهي في ذلك اليوم.

---

(١) برقم.(٢٥٠٩/٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٤١).

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والأسرار البلاغية في هذا الحديث الشريف: نجد أن الإيجاز هو السمة التي طبعت هذا الحديث بطابعها البليغ، ونسقها العجيب.

فبناء الحديث اللغوي ينبئ بمقاصده، ويعلن عن ثمرته المرجوة، حيث صيغ الحديث كله في جملة واحدة، ولكنها تشع بفيوضات من النعم الإلهية، وتظل أنموذجًا ومنارة لكل عبد مسلم أو معاهَدٍ يعيش آمنًا بين المسلمين: حيث ينعم الناس بنعمة الستر، ويمكنون في بيوتهم وهم آمنون من عيون المتلصصين وألسنة الواشين، وتعريض اللامزين الهمازين، ونقولات المشائين بالنميمة؛ وتأكيدًا لصرامة هذا النهج وحتمية وجوده، يجيء هذا الحديث في صيغة القصر عن طريق النفي والاستثناء، وفي ذلك القصر تأكيد لوعد الله بالستر يوم القيامة.

واختيار الألفاظ الدالة المشعة المائجة بالدلالات والإيحاءات من أسرار بلاغة البيان النبوي، فالفعل "يستر" بمجيئه في صيغة المضارع يعلن عن ديمومة الستر حاضرًا ومستقبلاً، وعدم التفلت منه.

والستر في اللغة من معانيه: الخوف والحياء والعمل، وكأن العبد حين يستر أخاه في الله والإنسانية والوطن، يخاف عليه من إفشاء أسراره الخاصة من عيب أو مرض أو فقر أو أى خصوصيات ذاتية، وهو في ظل هذا الخوف لديه حياء إيماني يمنعه من الخوض في سيرة غيره من عباد الله، واختيار النبي ﷺ للفظ "عبد"، فاعلاً ومفعولاً لفعل الستر، في الدنيا له موحياته وأسراره: فقد جاء في لسان العرب أن أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وقال سيبويه، العبد في الأصل صفة، قالوا: رجل عبد: والجمع أعبد وعبيد وعباد وعُبد، ، وابن فارس يرى أن مادة عبد تجمع بين الذل والشدة، حيث يظل العبد في خضوع وتذلل وطاعة لمن يملكه: وما أعظم هذه الصفة في مقام العبودية ففي الإسلام لا معبود إلا الله.

وقال ابن الأنباري: فلان عابد وهو الخاضع لربه، المستسلم المنقاد لأمره، وقال الزجاج: ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع، وقال الأزهري: اجتمع العامة على

تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقال: هذا عبد من عباد الله، وهؤلاء عبيد مماليك، وفي ضوء هذه الأسرار اللغوية ندرك دقة البيان النبوي، وعمق أسراره، وبعد أغواره، وكيف لا، وهو يبزغ من مشكاة الوحى، وينبع من حوارات البيان القرآني، ففي القرآن الكريم مائتان وخمس وسبعون آية ترد فيها كلمة "عبد"، وهي لا تخرج عن الأصل اللغوي المعروف، والدلالة المصاحبة لها في ظل التصور الإسلامي، والقرآن الكريم أضفى عليها صفة التخصيص بعبادة الله عز وجل وحده، ويختم الحديث ببشارة الستر ووعد النجاة يوم القيامة: والستر من الله، وما أعظم هذا الستر، وما أحوج كل عبد إلى ستر المنعم الوهاب، يوم يُحدَّد العقاب ويضاعف الثواب.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بالستر على أهل المعصية ممن يظن توبتهم بالستر، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه متى وجد مُسلم آخَر في معصية ثم نصحه بالإقلاع عنها فينبغي له أن يستر عليه، ولذا يجوز في الحدود الشهادة والستر، والستر أفضل، ما لم يشتهر العاصي بمعصيته أو يكون قد ستر عليه فلم يتب فيستحب حينئذ الشهادة عليه، فقد استثنى الفقهاء من ذلك المتهتك الذي لا يبالي بإتيان المحظورات ولا يتألم لذكره بالمعاصي فلا ينبغي ستره حينئذ، وكذا من الستر المطلوب أن من رأى ميتًا في حال سيئة فلا يشهر به بل يستر عليه، وغير هذا في كل الأحوال والظروف التي تتطلب الستر.

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٥/٢١٤، والجوهرة النيرة لأبي بكر العبادي ٢/٢٢٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦/١٦٤، والتاج والإكليل ٨/٤٣٧، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤/١٥١، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/٢٠٨، والفروع، ابن مفلح ٦/٥٤، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١/٢٣٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الستر.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر، والترغيب:

لقد ورد أسلوب القصر في الحديث من قوله ﷺ "لا يستر... إلا ستره..." وأسلوب القصر من الأساليب الدعوية الهامة التي تحفز المدعوين على فعل الأمر المدعو إليه، أما أسلوب الترغيب فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "إلا ستره الله يوم القيامة". (والترغيب من الأساليب الدعوية التي تشوق المدعو إلى فعل الأمر الذي يُدعى إليه، والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة)[1]. وهذا ما ظهر جليًا في الحديث من سَتْر اللهِ تعالى يوم القيامة لمن سَتَر مسلمًا في الدنيا.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية فضل الستر:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث أهمية وفضل الستر، حيث ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة".

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسلمٍ كُربَةً فرَّجَ الله عنهُ كُربةً من كُرباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة))[2].

قال ابن حجر: (معنى قوله "ستر مسلمًا" أي رآه على قبيح فلم يظهره للناس، وليس في هذا ما يقتضي ترك الإنكار عليه فيما بينه وبينه، ومن الستر أيضًا: أن يستتر الإنسان إذا وقع منه شيء.

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د.عبدالكريم زيدان، ٤٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

وقال: والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب عليه الإنكار وإلا رفعه إلى الحاكم)[١].

وقال النووي: (المراد بالستر الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفًا بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة، لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله، هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت، أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك ولا يحل تأخيرها، فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة، وأما جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم وليس هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة)[٢]. (فإذا ستر مسلم مسلمًا معاصيه وعيوبه عن إذاعتها في أهل الموقف -وكان كما بين النووي- فهو من أجزل الله له الثواب، ورفع له الدرجات)[٣].

وقد بين الحق تبارك وتعالى فضل الستر بأن جعله صفة له سبحانه وفي ذلك قال النبي ﷺ ((إنَّ الله حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحيَاء وَالسَّتْرَ))[٤] فمن ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته وفي ذلك قال ﷺ: ((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ قَلْبَهُ لاَ تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإنَّهُ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتْبَعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ))[٥] وفي ذلك بيان على أهمية الستر وضرورة التخلق به.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣).

ثالثًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع:

إن من أهم وأبرز ما تهدف الدعوة الإسلامية إلى تحقيقه: المحافظة على سلامة وطهارة المجتمع من خلال إشاعة الستر والترغيب فيه، وهذا ما يستنبط من عموم الحديث، ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما في أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حد في ظهرك". فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول "البينة وإلا حد في ظهرك" فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه "والذين يرمون أزواجهم" -فقرأ حتى بلغ- "إن كان من الصادقين" فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟". ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي ﷺ: ((أَبْصروهَا. فإِنْ جَاءَتْ بِهِ اكْحَلَ العَيْنَيِن، سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بنِ سَحْمَاءَ فَجَاءَتْ به كَذَلِكَ، فَقَالَ النبيُّ: لَوْلاَ مَا مَضَى مِنْ كِتابِ الله عز وجلّ لَكَانَ لَي وَلَهَا شَأْنٌ))[1]، وفي ذلك بيان على عظم هذا الدين في أخذه بكل الأسباب من أجل عدم إقامة حد الزنا إلا ببينة وعلى الستر على المسلمين، وعدم إظهار عوراتهم وفضحهم، لما في ذلك من المحافظة على سلامة المجتمع. "وقد أوجب الحق تبارك وتعالى حفظ الأعراض من التلطيخ والاتهام؛ ولأجل ذلك شرع الله سبحانه وتعالى حد القذف لما في ذلك من المحافظة على سلامة المجتمع، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

(١) أخرجه البخاري ٤٧٤٧.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٤-٥ .

هذا في الدنيا، وهو الجلد ثمانين جلدة، وذلك إذا رمى امرأة أو رجلاً بالزنا، ولم يثبت عليه بأربعة شهداء، يشهدون الشهادة التي بينها الشرع، فإذا شهد الشهداء حكم بالحد على المقذوف، وإلا فإن القاذف يجلد ثمانين جلدة، ويحكم عليه بالفسق، ولا تقبل شهادته، وذلك من أجل تطهير الأعراض من الكلام البذيء والتلطيخ. وفي ذلك حماية وحفاظًا على سلامة المجتمع"[1].

---

(١) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان ١٢٨/٢-١٢٩.

الحديث رقم (٢٤١)

٢٤١- وعنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**كُلُّ أَمَّتِي مُعَافًى إلاَّ المُجاهِرينَ، وإنَّ مِن المُجاهرةِ أَن يعمَلَ الرَّجُلُ بالليلِ عملاً، ثُمَّ يُصبحَ وَقَدْ سَتَرهُ اللّه عَلَيْهِ، فيقُولُ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كذَا وَكذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْترهُ ربُّهُ، ويُصْبحُ يَكْشفُ سِتْرَ اللّهِ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن من أعظم نعم الله على عباده هو الستر عليهم في الدنيا ترغيبًا لهم في التوبة والأوبة إلى طريق الطاعة، ووعده لكل عبد يستر عيبًا وقع منه بالستر يوم القيامة هو الدرس الذي علمه لنا رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث تنطلق منه شهب الوعيد لمن حفظه الله من ألسنة الخلق وستر عليه في الدنيا، ولكنه يأبى إلا أن يكشف ستره، ويفضح أمره، ويضاعف وزره، فيبادر بإيذاء نفسه، والكشف عن أفعاله المنكرة، ونواياه المضمرة، فيصبح مضغة في أفواه الغادين والرائحين والنمامين والمغتابين، ولذلك يبدأ الحديث الشريف بصيغة الاستثناء، وتبدأ هذه الصيغة بقوله: "كل أمتي معافى"، وهي جملة تامة مثبتة: تَعِدُ الأمة كلها وهي أمة الإسلام: لأنه قال "أمتي". وفي إضافة الأمة لياء المتكلم وهو خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين: تعظيم وتشريف لهذه الأمة بالانتساب إلى رسول الله ﷺ، وتتضمن كذلك حرص النبي محمد على أمته فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

والمبتدأ هو "كل"، وهو مضاف إلى أمة، وأمة مضافة إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ، والخبر هو الذي تتم به الفائدة، والفائدة هنا هي المعافاة، وهي تعني أنهم كلهم سالمون عن ألسن الناس وأيديهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢/ ٢٩٩٠) واللفظ له، ومسلم (٥٢/ ٢٩٩٠).

وهذه القاعدة الكلية تشذ عنها طائفة لا تلتزم بما شرعه الله، من وجوبية الستر وصون الأعراض في الأنفس، وهؤلاء هم المجاهرون الذين يظهرون المعاصي، ويكشفون ما سترهم الله عليه، وهم المستثنى الذي به تتم صيغة الاستثناء لكنهم لا ينقضون القاعدة، ولا يحجبون رحمة الله وعدالته وفضله.

والدلالة اللغوية تتآزر مع الدلالة الاصطلاحية في الكشف عن طبيعة جرم هذه الطائفة التي انحرفت عن الطريق السوي، فالمجاهرة في هذا الحديث يحتمل أن يكون من جاهر بمعنى جهر أي أعلن، والنكتة أى السر والجمال الأسلوبي، يكمن في التعبير بفاعل المبالغة، فالجهر لا يظل أمام فرد واحد ولكنه يتعدى إلى المجاهرة أمام الجميع، وقيل يحتمل أن يكون على ظاهر المفاعلة، أي المجاهرة المتبادلة بين أرباب المعاصي وهم الذين يجاهر بعضهم بعضًا، وبعض الروايات تأتي بألفاظ تجسد فعل المجاهرين وتكشف عن جرمهم حيث يُروي: وإن من "المجانة" أي من المجون والتهتك، وفي رواية لمسلم، "من الإجهار" وهي بمعنى الظهور والإظهار، وتعمّد افتضاح الأمر، وفي رواية من الهجار، أو الإهجار، وهما بمعنى الفحش والخنا وكثرة الكلام، فهذا التعدد اللفظي في رواية "وإن من المجاهرة"، يعلن عن انحراف هذه الفئة عن الطريق المستقيم، واستحقاقها للعذاب الأليم.

وبدء هذه الجملة بالتأكيد في قوله: "وإن"، يؤكد سوء مصير هؤلاء الذين سترهم الله، وأقدموا على فضح أنفسهم.

والحوار في قلب الحديث جاء في سياق السرد المتضمن تقديم صورة هؤلاء المجاهرين، حيث يصر كل واحد على أن ينادي على الناس، ويتباهى بالمعصية، ويعدد معاصيه، وقوله "يا فلان" كناية عن الذي يتحدث إليه عن معصيته "وكذا وكذا"، من ألفاظ الكنايات، ويمكن أن يكون هذا التصريح بالمعصية ليس قولاً ولكن يسجله صاحبه في مذكراته وقصصه ورواياته كما يفعل كثير من الكتاب والأدباء في بوحهم وأدبهم المكشوف المفضوح، ويسمونه أدب الاعتراف ويدعون أن هذا هو الصدق في "كتابة السيرة الذاتية، وبئس ما زعموا، فالإنسان لا يذيع إلا ما يفتخر به: لا ما

يفضحه!!!، ولا يقدم للناس إلا الصورة المضيئة المشرقة، وليس الصورة المشوهة الملفقة، ولذلك ما أشنع هذا المسلك الخطير حيث بات العبد: يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه، "نسأل الله الستر والعافية والأمن والإيمان".

فقه الحديث

لا شك أن معصية الله عز وجل وارتكاب المحرمات أمر منفر ولكن الأسوأ منه أن يجاهر المرء بفعله بل ويفخر به أحيانًا، وكأنه لا يكفيه الذنب ويريد مضاعفته.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يستحب للمرء متى ألم بشيء من حدود الله أو معاصيه أن يتوب ويقلع عن ذنبه ويستر على نفسه فلا يخبر أحدًا بما فعل حتى لا يتجرأ الغير على معصية الله، فإن جاهر بفعله حل تأديبه وتعزيره، وجاز للناس مقاطعته وهجره وعدم السلام عليه عند كثير من الفقهاء حتى يرجع عن فعله ويقلع عن ذنبه، وكذا لا تقبل شهادة المجاهر بالمعاصي لأنه لا مروءة له وشرط الشاهد المروءة، ومن يتجرأ على الله فهو على عباده أجرأ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة الاستثناء.

ثانيًا: من مهام الداعي: بيان خطر المجاهرة بالمعاصي.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الستر.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: ذم المجاهرة بالسوء.

---

(١) انظر في ذلك: أحكام القرآن، الجصاص ٤٨/٢، وأنوار البروق ٢٣٠/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣١٦/٧، ومعالم القرب في طلب الحسبة للقرشي ص ٣٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٦٧/٤، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٣١/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١١٩/٤، والطرق الحكمية ص ١٤٨، والفروع، ابن مفلح ١٨٣/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٣٦/١.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستثناء:

جاء أسلوب الاستثناء واضحًا في الحديث فالرسول ﷺ ذكر حكمًا عامًا يشمل جميع مذنبي الأمة بالعفو بقوله: "كل أمتي معافى" ثم استثنى منهم المجاهرين للفت الانتباه وأخذ الحذر والحيطة من خطر المجاهرة بالذنوب، أو بكشف ستر الله على الإنسان الذي اقترف ذنبًا وستره الله ثم يهتك ستر الله عليه.

ثانيًا- من مهام الداعي: بيان خطر المجاهرة بالمعاصي:

لقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث خطر المجاهرة بالسوء والمعاصي لأن ذلك يحرم الإنسان من عفو الله ورحمته فقال ﷺ: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، وقوله معافى: من العافية، وهو إما بمعنى عفا الله عنه وإما سلمه الله وسلم منه[1]، وقد يظن ظان أن المجاهرة فعل المعصية عيانًا للناس، فبين رسول الله ﷺ أن ذلك ليس شرطًا، فمن ألوان المجاهرة الإتيان بالمعصية سرًا ثم الإخبار بها، بعد أن ستره الله تعالى، فيقوم بهتك ستر الله عليه، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن معصية الله يزيدها غلظًا أن يجاهر بها فاعلها؛ لأنه يشير بذلك إلى جرأة منه على ربه بمشهد آخرين يجرئهم على مثل ذلك من فعله، فكأنه جعلهم شهودًا عليه بفسقه؛ فإن الحلم على مثل هذا مع مجاهرته يدعو من لم يعص إلى أن يعصي.

وقد سبق من الله تعالى الإنذار الذي شاع وذاع، فلم يقنع هذا العاصي بأن عصى الله سرًا حتى يعرض بفتنة آخرين، ولو كان قد استتر بما ستره الله به لكان أمره أسهل؛ ولكنه لما أبى إلا هتكة ستره استوجب توجه العقوبة إليه؛ لأنه لو قد أخرت عقوبة المجاهر لعرضت قلوب الضعفاء للفتنة في الدين، وقربهم من الشك في أمر الله، فكان استهدافه لسهام الانتقام من حيث مجاهرته بعصيان الله سبحانه وتعالى، فلذلك قال رسول الله ﷺ "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، فإنه يعني أن الطائع قد شملته العافية، وأن من قدرت عليه المعصية فستر ذلك، فإنه في عافية من الله إذ لم يفضح نفسه، وقد رجي له أن يتوب إلى الله

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/١٠.

في السر كما عصاه في السر، فتكون العافية شاملة له.

فأما المجاهر فإنه يجري مجراه مجرى شارب الخمر، لو قد تاب فيما بينه وبين الله عز وجل لسقط عنه الحد، فأما لو قامت البينة عليه عند الحاكم بذلك ثم تاب، لم تكن التوبة مزيلة للحد الذي وجب عليه)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترغيب في الستر:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "كل أمتي معافى" مبينًا فضل الله وستره على عباده، وكراهية هتك ستر الله على الناس، ويشتد غضبه على من يهتك ستر الله عليه بنفسه فاستثناه من ذلك العفو فيقول ﷺ: "إلا المجاهرين" فإنه من الطبيعي أن يخطئ الإنسان وتلك طبيعته نظرًا لدواعي المعصية والمحرض عليها من النفس وغيرها، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))[٢].

لكن ليس من المقبول المجاهرة بالمعاصي لما في ذلك من حث على انتشارها وذيوعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث حيث رهّب النبي ﷺ من المجاهرة بالمعصية ببيان استثناء صاحبها من عفو الله تعالى ومعافاته فقال: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) والترهيب هنا لزجر هؤلاء الذين يجترؤون ويغترون بستره عليهم، فيتباهون بمعصيتهم لله تعالى فيخبرون بها إخوانهم، والدعاة إذا كانوا مطالبين باتباع أسلوب الترغيب والترهيب فإنه ينبغي عليهم أن يلاحظوا اختلاف الطبائع البشرية فمنها ما يجلبها الترغيب ومنها ما يخيفه الترهيب[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٢٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٩٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٣) سورة النور، آية: ١٩.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦ - ٨٧.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: ذم المجاهرة بالسوء:

جاء في الحديث ذم واستنكار من يجاهر بمعصيته لما في ذلك من استخفاف واستهانة، قال ابن بطال: (في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله ﷺ وصالحي المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف، لأن المعاصي تذل أهلها، ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد ومن التعزير إن لم يوجب حدا، وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين ورحمته سبقت غضبه، فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك)[1].

ومن أجل ردع العصاة من المجاهرة بالسوء والمعاصي كانت هناك بعض العقوبات الأدبية كالهجر، قال القاضي أبو حسين في التمام: (لا تختلف الرواية في وجوب هجر أهل البدع وفسَّاق الملة، وظاهر إطلاقه لا فرق بين المجاهر وغيره كالمبتدع والفاسق، فينبغي لك إن كنت متبعًا سَنَن من سلف أن كل من جاهر بمعاصي الله لا تعاضده ولا تساعده ولا تقاعده ولا تسلّم عليه بل اهجره ولاقه بوجه مُكْفَهِرٍّ)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٠٣.

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١/٢٥٧.

الحديث رقم (٢٤٢)

٢٤٢- وعنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا زَنَتِ الأَمةُ فَتبينَ زِناهَا فَليجلدْها الحدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانية فَلْيجلدْها الحدَّ ولا يُثرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنتِ الثَّالثةَ فَلْيبعَها ولوْ بِحبْلٍ مِنْ شعرٍ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الحد: هي العقوبة المَقدَّرة شرعًا[2].

الشرح الأدبي

إن إقامة الحدود في الإسلام من معالم المنهج الذي حدده رسول الله ﷺ تبليغًا عن ربه عز وجل، وهذه الحدود شُرعت صيانة للحرمات، وحفاظًا على الأعراض، وإصلاحًا لعلاقات بين المسلمين، وتثبيتًا للطمأنينة والأمن في نفوس الناس، ففي ظل هذه العقوبات الصارمة يرتدع الضالون المعتدون، ويأمن الطائعون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأبنائهم. فعن ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رخصة لكم ليس بنسيان فلا تبحثوا عنها[3].

وهذا الحديث الشريف من الأحاديث التي وردت في باب ستر عورات المسلمين، وهي أربعة أحاديث، وكلها من رواية الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه ويحدد الحديث الحكمَ الشرعي الذي يطبق على الأمة الزانية في أسلوب واضح محدد، لأن أحاديث

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٥٢، و٦٨٣٩)، ومسلم (١٧٠٣/٣٢)، والسياق للحميدي في جمعه (١١٥/٣ رقم ٢٣٢٢).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٥٤.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ١٢/١٠ رقم ١٩٥٠٩.

الأحكام تتسم بالدلالة المحددة التي تنأى عن المبالغة أو التشبيهات والصور المرغبة أو المنفرة حسب السياق؛ وأسلوب الحديث في ظل هذا الطابع الدلالي الدقيق لا يخلو من الإيحاءات والإشارات التي تشع من خلال نظم الحديث والعلاقات بين كلماته، ومن خلال استعمال الأدوات النحوية، فالحديث يتكون من ثلاث جمل شرطية.

وهذا التكوين له صلة بالرسالة التي يوصلها الحديث إلى ولي الأمر، وإلى مالك الجارية، وهى العقوبة المستحقة كما حددها رسول الله ﷺ، لأن العقوبة من جنس العمل، وكذلك صياغة هذه العقوبة تتلاءم مع واقع الجرم والعقوبة المستحقة، فجواب الشرط وهو يعادل العقوبة أو الثواب يترتب على وقوع الشرط وهو يعادل هنا الكبيرة أو جريمة الزنا، ونلاحظ أن الجملة الأولى استخدمت فيها أداة الشرط "إذا" وهى تفيد التحقق إشارة إلى أن هذه المرة الأولى، وأن الزنا قد وقع، لأنه قال "إذا زنت الأمة: وتبين زناها"، وفي الجملتين الثانية والثالثة: وردت أداة الشرط "إن"، ولم يقل، وتبين زناها في الجملتين، وفي ذلك إشارة إلى أن الزنا في المرتين التاليتين يمكن أن لا يقع أو أن من شأنه أن لا يقع لأن الحدود زواجر، والعودة إلى ارتكاب الكبيرة بعد إقامة الحد أمر غريب حيث تتمكن المعصية من نفس صاحبها، وهذا واقع يخالف فطرة المؤمن وطبيعته.

وتكرار جواب الشرط "فليجلدها"، في كل جملة تأكيد على إقامة الحد، وكذلك تحديد لنوع العقوبة وهي: الجلد، وليس الرجم، وتكرار "فليثرب عليها"، مرتين في الجملتين الأولى والثانية، تأكيد لعدم التوبيخ والتحقير لأن إقامة الحد فيها زجر وتغني عن هذا التقريع، وربما نهى الرسول ﷺ عن ذلك حتى يفتح أبواب التوبة أمامها، وحتى لا يتسرب لنفسها كره الحياة والمجتمع.

وإن زنت الثالثة: فليبعها وليها بأبخس ثمن، لأن علاجها مُستعصٍ، وقيل: الأمر بالبيع، مسارعة لمفارقة أرباب المعاصي، وترك مخالطتهم، وقيل في تعليل البيع: لعلها تتعفف عند المشترى بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته، أو بالإحسان إليها، والتوسعة عليها، أو يزوجها أو غير ذلك.

والحدُّ للأمة خمسون سوطًا، وأما الحرة البكر والثيب،فالجلد أو الرجم، ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ»[1] ، وقد أخذ بظاهر هذا الحديث جماعة من العلماء: كما فعل عليٌّ بشراحة الهمدانية ، وقال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2].

فقه الحديث

إن الزنا جريمة يعاقب عليها التشريع الإسلامي سواء وقع من حرة أو من أمة، لكن الأمة عليها نصف ما على الحرة من العقاب ولا تغرب بعد الجلد، فإن زنت بعد الثانية، فالأولى للمالك بيعها، لأن ذلك يدل على مدى تهاونها بحدود الله تعالى، والبعد عن تعاليم الإسلام ولا خير فيمن يكون هذا حالها.

وقد اختلف الفقهاء في حكم حد الزنا بالنسبة للإماء على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء[3] إلى أن الأمة إذا زنت فعليها نصف ما على الحرة من العذاب فتجلد خمسين جلدة، سواء أكانت محصنة أم لا.

القول الثاني: ذهب ابن عباس وطاووس وأبو عبيد[4] إلى أنه لا حد على الأمة إلا إذا كانت محصنة فإن لم تكن محصنة فلا حد عليها.

---

(١) أخرجه مسلم ١٦٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٧٨، ومسلم ١٦٧٦.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٦٩/٣، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٣٩/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٤٤/٧ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥١٨/١، والأم للشافعي ١٨٦/٦، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٣٩/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٩/٩، والفروع، ابن مفلح ٦٩/٦.

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٩/٩.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لأنه الذي تؤيده نصوص القرآن والسنة، ومنها هذا الحديث.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعي: تبيين الأحكام.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحري قبل إقامة الحدود وإصدار الأحكام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: العدل وعدم الإفراط في العقوبة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الزهد في أهل المعاصي.

خامسًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

أولاً- من واجبات الداعي: تبيين الأحكام:

جاء ذلك واضحًا في هذا الحديث حيث بيّن رسول الله ﷺ حكم الأَمَةِ إذا وقع منها الزنا، وتكرر ذلك منها، بإقامة الحد عليها والزهد فيها، إذ لا خير فيمن استمرأ المعاصي ولم يقلع عنها، وبيان الأحكام أمرٌ إلهي قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) فإبلاغ الداعي الدعوة للناس وتبيينها لهم قيام بأمر الله وخلاص لنفسه وإبراء للذمة ووفاء بالميثاق في البلاغ والبيان وعدم الكتمان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحري قبل إقامة الحدود وإصدار الأحكام:

إن القارئ يلمس ذلك واضحًا في الحديث في قوله ﷺ "فتبين زناها" فلا يجوز إقامة حد أو إصدار حكم إلا بعد استفراغ الجهد في التحري والبحث وثبوت البينة بالإدانة، وذلك منهج الإسلام من كل أمر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[١] وفي الآية أمر بالتثبت لأخذ الحيطة[٢] والحذر وقوله "فتبينوا" من التبيين وهو تطلب البيان وهو ظهور الأمر وفي قراءة "فتثبتوا" من التثبت وهو التحري وتطلب الثبات وهو الصدق[٣]، وإن إقامة الحدود تستوجب التثبت بما لا يدع مجالاً للشك، فإن لم يثبت التيقن بما يوجب إقامة الحد سقط ذلك الحد، وذلك مما أجمع عليه الفقهاء، فإن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة[٤]، وكما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها في الشبهات)[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: العدل، وعدم الإفراط في العقوبة:

يستنبط ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها أي لا يوبخها ويقرعها بالذنب نحو يا زانية، يا فاجرة لما فيه من الفحش[٦] فإقامة الحدود ليست تشفيًا من المذنب وإنما هي مجرد إقامة لحدود الله وتنفيذًا لأوامره فلا يجوز بأي حال من الأحوال الزيادة عليها حتى ولو بمجرد التقريع والتوبيخ كما نرى ذلك في الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم "فليجلدها الحد ولا يُثرِّب عليها". والعدل أمر إلهي قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[٨].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٢) راجع تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٠/٧.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مج١٠/٢٦/٢٣١.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٤/١٧.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤٩٣

(٦) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٦.

(٧) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٨) سورة النساء، آية: ٥٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الزهد في أهل المعاصي:

يتضح ذلك من خلال ما ورد في الحديث من أمر الرسول ﷺ ببيع الأمة إذا تكرر زناها، ولو بثمن بخس "ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر" فقوله "فليبعها" ندبًا عند الجمهور، وقال داود: وجوبًا، "ولو بحبل من شعر" مسارعة لمفارقة أرباب المعاصي وترك مخالطتهم(١). قال ابن بطال: فائدة الأمر ببيع الأمة الزانية المبالغة في تقبيح فعلها والإعلام بأن الأمة الزانية لا جزاء لها إلا البيع أبدًا، وأنها لا تبقى عند سيدها زجرًا لها عن معاودة الزنا، ولعل ذلك يكون سببًا لإعفافها، إما أن يزوجها المشتري أو يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته(٢).

خامسًا- من أهداف الدعوة: إقامة الحدود:

من مقاصد الشريعة والدعوة الإسلامية إقامة الحدود ردعًا للعصاة وتقليلاً من المعاصي وحفاظًا على المجتمع، وأصل الحد ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما، وحد الدار ما يميزها، وحد الشيء وصفه المحيط به المميز له عن غيره، وسميت عقوبة الزاني ونحوه حدًا لكونها تمنعه المعاودة، أو لكونها مقدرة من الشارع(٣) فكما أن الإسلام يهدف إلى الدعوة إلى التوحيد والحفاظ عليها وإقامة شعائر الدين، فكذلك يهدف إلى المحافظة على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، ومن هنا شرع الحدود حتى لا يجترئ أحد على المساس بأحد، فإذا لم يوجد نظام بتلك المقومات لم تجر مصالح الناس على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين(٤). لذا ينبغي على الدعاة حمل الناس على الوقوف عند حدود الله والطاعة لأوامره وترغيبهم في ذلك، والدعوة إلى تنفيذ أحكام الله بمعاقبة المخالفين بالعقوبات الشرعية، وإزالة المفاسد والمنكرات من المجتمع كما يقضي به الإسلام(٥).

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤/٤٣٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٢/٥٩.

(٤) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ص ٦٠.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٥.

الحديث رقم (٢٤٣)

٢٤٣- وعنه قال: أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ برجلٍ قَدْ شرِب (خَمْرًا)[١]، قال: «**اضْرِبُوهُ**» قال أَبُو هُرَيْرةَ: فمِنَّا الضَّارِبُ بيدِهِ والضَارِبُ بِنَعْله، والضَّارِبُ بِثوبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَال بعْضُ الْقَومِ: أَخْزاكَ اللَّه، قال: «**لا تقولُوا هكَذا لا تُعِينُوا عليه الشَّيْطان**» رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شرب: شرب الخمر. حذف المفعول.

أخزاك الله: أهانك وأذلك[٣].

الشرح الأدبي

بهذا الحديث الشريف يختم النووي باب "ستر عورات المسلمين"، وقد ورد في هذا الباب أربعة أحاديث، وكلها من رواية أبي هريرة رضي الله عنه وفي الحديث السابق أمر رسول الله ﷺ بعدم توبيخ الأمة الزانية بعد إقامة الحد عليها، وفي ذلك علاج نفسي، وترغيب لها ولمثيلاتها... ولكل من أقدمت على ارتكاب جريمة الزنا بأن باب التوبة مفتوح، وقلوب الناس كذلك لا ترفض مثل هؤلاء العصاة، إن تابو توبة نصوحا، وكذلك ألسنتهم لن تلاحقهم بالتهم والسب حتى يستطيعوا أن يخالطوا الناس، وأن يعيشوا في ظل التوبة، والندم على ما فات، والإقلاع عن المعصية: حياة كريمة تجمل ملامحها الطاعة وعدم التفريط في أوامر الشرع ونواهيه، والحديث الذي نحن بصدده يقودنا إلى درس إنساني واجتماعي وإصلاحي وهو عدم تحقير شارب الخمر إذا أقيم عليه الحد، وتاب وأناب إلى الله، وما أجمل هذا الموقف في علاج المدمنين، وإرشاد

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) برقم (٦٧٧٧).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ز ي).

السكارى العابثين الذين خدعوا ببريق المتعة، ولذة الرغبة، وضعفوا أمام وساوس الشيطان، من الإنس والجان، فهم في مفازات العصيان، وأودية الخطيئة يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

والحديث في بنائه اللغوي، وصياغته الأدبية، يتضمن ثلاثة مشاهد واقعية حركية تصور الجزاء الصارم الذي لقيه مَنْ أقدم على شرب الخمر، والمشهد الأول يحكيه أبو هريرة ﷺ الراوي الأعلى للحديث، حيث يقول: أُتِيَ النبي ﷺ برجل قد شرب... قال: اضربوه، فما اسم هذا الرجل؟ ولماذا لم يحدد أبو هريرة اسمه؟، ولماذا لم يواجهه النبي ﷺ بالتقريع والإدانة، إن المصطفى ﷺ لم ينطق باسمه، ولم يحدده أبو هريرة: سترًا عليه: فإقامة الحد يكفي للزجر، أما التشهير به والخوض في سيرته، فهذا ليس من منهج المسلمين، ترغيبًا للرجل في الإقبال على حدائق الطاعة، والإقبال على العبادة، والقضية هنا ليست شخصية ولكنها قضية عامة تعالج أي موقف يماثل هذا الموقف، ولذلك بُنِي الفعلُ للمجهول في قوله: "أُتِيَ النبي برجل"، ولم يُعرف من هذا الرجل، للتعميم، فكل من في موقف مثل هذا سيلقى المصير نفسه، والفعل شرب: اقترن بقد، وهي للتحقيق والتأكيد، إشارة إلى التيقن من ارتكاب الرجل لهذا الجرم، فالحد لا يقام بالظن ولكن لا بد من اليقين، ولم يقل شرب الخمر، لأن الرجل كان في حالة من السكر وعدم الوعي، وقال رسول الله ﷺ "كل مسكر حرام" والخمر أم الخبائث، فمن شربها: قَتَل النفْسَ، وَزنَى، وربما كفر، ونلاحظ أن الأفعال توالت ولم يفصل بينها بحروف العطف "أتى برجل قد شرب، قال: اضربوه، قال أبو هريرة ﷺ"، هذا التوالي بدون فواصل من الأفعال يوحي بالإسراع في توقيع العقوبة بعد التيقن من وقوعها، وهذا ما يجب تطبيقه عند كل مخالفة حتى لا يستهين الناس بتعاليم الدين، وأما المشهد الثاني فيصوره أبو هريرة ﷺ، حيث استجاب بعض الصحابة ﷺ لأمر رسول الله ﷺ: استجابة سرية، ولنتأمل الرجل وهو يتلقى عقوبته ضربًا باليد، وضربًا بالنعل، وضربًا بالثوب، من جموع الحاضرين، إنه مشهد علني يشهده طائفة من المؤمنين: حتى يتم الردع، ويتعظ الآخرون، وَحَدثُ الضرب صِيغَ في قالب اسم الفاعل، ولم يأت في قالب الفعل الماضي أو المضارع، للتدليل على واقعية

الحدث، وحضوره أمام الرسول ﷺ، لأن أبا هريرة رضي الله عنه لا يحكي المشهد وإنما يصوره، وينقله لأنه حدث أمام الرسول ﷺ وكرر قوله "فمنا الضارب" ثلاث مرات مع حذف في الضرب بالنعل والضرب بالثياب، من قبيل الإيجاز وسرعة الإنفاذ، والتكرار لتأكيد الحدث، وسرعة الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ، والمشهد الثالث: يصور أثر المشهدين السابقين في الناس بعد أن تلقى الرجل عقابه، حيث قال بعض القوم: "أخزاك الله"، ولكن رسول الله ﷺ نهاهم عن الدعاء عليه في جملتين صادقتين، لأن رفضهم له يجعله بائسًا ويفتح عليه أبواب الشيطان، والإسلام منهجه الترغيب، وفتح أبواب الرجاء أمام التائبين.

فقه الحديث

يجسد هذا الحديث الشريف معنى ساميًا وراقيًا للتشريع الإسلامي وهو احتواء المذنب بعد معاقبته، ومحاولة إعادته إلى جادة الطريق بدلاً من طرده من المجتمع واعتباره رجسًا يجب البعد عنه والفرار منه، فمع أن هذا الرجل شرب الخمر وأقام عليه رسول الله ﷺ حدها المعروف شرعًا، إلا أنه نهى عن سبه ولعنه، وأن يكون أحد عونًا للشيطان عليه، بل يجب مساعدته للعودة إلى الطريق الصحيح.

وفي هذا الحديث: بيان لبداية تشريع حد الشرب، فمن شرب من المسلمين خمرًا وهو عالم بالحرمة متعمدًا للشرب مختارًا عاقلاً بالغًا وجب إقامة حد الشرب عليه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن شرب الخمر حرام وأنه موجب للحد سواء أكان المشروب منها قليلاً أم كثيرًا ولو لم يحصل السكر منه، واختلفوا في المقدار الواجب في حد

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٩/٧، والمبسوط، السرخسي ٢/٢٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٥/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢١٢/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٦٦/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٥٨/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١١٧/٦.

الخمر على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية[٢] والحنابلة[٣] إلى أن مقدار حد الشرب ثمانون جلدة كالقذف.

القول الثاني: ذهب الشافعية[٤] إلى أن مقدار حد الشرب أربعون جلدة.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور لأنه الذي تؤيده النصوص والآثار وما عمل به الصحابة رضوان الله عليهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: توجيه العصاة وعدم تعييرهم.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

رابعًا: من واجبات المدعو: إعانة الناس على الخير وعدم إعانة الشيطان عليهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: الأمر، حيث أمر النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم بإقامة الحد على شارب الخمر بقوله: "اضربوه"، وتوجيه الخطاب بصيغة الأمر دلالة على أهميته وحث للمخاطب على الإسراع بالإتيان به.

"وقد استخدم القرآن الكريم الأمر في كثير من الآيات التي جاءت آمرة بخير أو ناهية عن شر، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[٥]،

---

(١) المبسوط، السرخسي ٣٠/٢٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٩٥/٣.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢١٢/٢.

(٣) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٧١/٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٦٠/٤.

(٤) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١١٧/٦.

(٥) سورة المائدة، آية: ١.

وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه"(١).

ثانيًا- من أهداف الدعوة: توجيه العصاة وعدم تعييرهم وسبهم:

إن من الأهداف التي ترمي الدعوة إلى تحقيقها: توجيه العصاة ونصحهم ومعاملتهم برفق واحترام وعدم انتقاصهم أمام الناس، لأن ذلك يؤدي إلى إحباطهم وشعورهم باليأس والقنوط، وقد نهى النبي ﷺ عن تعيير هذا الرجل الذي أقيم عليه الحد حيث قال له بعض القوم بعد إقامة الحد (أخزاك الله) فنهاهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تقولوا هكذا) إذ أن إقامة الحد: في الأصل إنما هي تقويم لسلوك المخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وللحفاظ على سلامة المجتمع المسلم، والحدود حددها الله تبارك وتعالى فلا يجوز الزيادة عليها ولو بمجرد تأنيب أو تقريع، ومن ثم نهى النبي ﷺ بعض الصحابة عندما قالوا للرجل: (أخزاك الله) نهاهم عن ذلك وقال: (لا تقولوا هكذا). وكما جاء في الحديث الذي روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا وَلاَ يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا وَلاَ يُثَرِّبْ، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ))، فنجد في الحديث أن الرسول ﷺ في أمره عند إقامة الحد نهي عن مجرد الزيادة عليه بالتثريب وهو التوبيخ واللوم على الذنب(٢).

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود

إن من أهداف الدعوة الإسلامية إقامة الحدود، يستنبط ذلك مما ورد في الحديث من أمر الرسول ﷺ بإقامة حد شرب الخمر على ذلك الرجل الذي أتى به وقد شرب خمرًا فقال اضربوه.

فالشريعة بوضعها عقوبة الجلد لشارب الخمر، قد وضعتها على أساس متين من علم النفس، وحاربت الدوافع النفسية التي تدعو للجريمة بالدوافع النفسية المضادة التي تصرف بطبيعتها عن الجريمة، ودعوة الإسلام لإقامة الحدود في أصلها صيانة للمجتمع

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ص ٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩٣.

من مضار المعصية، والتي لا تحصى، فمثلاً الخمر والتي وردت عقوبتها في الحديث أضرارها لا تحصى فهي تفسد العقل والصحة كما تؤدي إلى ضياع المال وضياع الكرامة[١]، إلى غير ذلك من المضارّ.

ورد ذلك المعنى واضحًا في الحديث في نهي رسول الله ﷺ لمن دعا على شارب الخمر بعد إقامة الحد عليه (أخزاك الله) فقال لهم: (لا تقولوا هكذا) أي: لا تقولوا وتدعو بمثل هذا الدعاء، وقوله (لا تعينوا الشيطان عليه) جملة استئنافية لبيان حكمة النهي عن ذلك القول، أي: ادعوا له بالتوفيق والنجاة من الخذلان ولا تكونوا بدعائكم عليه أعوانًا عليه للشيطان[٢].

قال ابن حجر: (وَوجْهُ عونهم الشيطان بذلك، أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان)[٣]، ويستفاد من ذلك منع الدعاء على العاصي بالإبعاد عن رحمة الله كاللعن[٤]، وقال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعوقب عليه في الدنيا فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار بل نسأل الله له الهداية ونسأل الله له المغفرة)[٥].

---

(١) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة ص ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨/١٢.

(٤) المرجع السابق ٦٩/١٢.

(٥) شرح رياض الصالحين ٦٠٥/١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الخطأ من سمات بني آدم، والإسلام كدين للفطرة صرح بهذا، ولهذا حرص على تربية أبنائه على ستر العورات وعدم تتبعها، والأحرار هم الذين يؤلمهم الإخبار بالأمر مع الإعلام بالستر أكثر مما يؤلمهم العقاب.

وإشاعة روح الستر وعدم تتبع العورات فيه مظهر عام مشرق بحق الأمة، وسمعة الدول لا تقل عن سمعة الأفراد.

وفرق بين الستر والشهادة، فإذا دعي الإنسان للشهادة فقد وجبت، وما كان للإنسان أن يعرض عنها بدعوى الستر، لأن في هذا إضاعة للحقوق وإشاعة الباطل. ولهذا كان من الأساليب التربوية ما يلي:

أولاً- التربية الاجتماعية:

لقد اعتنى النبي ﷺ بجانب التربية الاجتماعية في أحاديث هذا الباب، والتي تحث على انضباط المجتمع ونقائه، وخلوه من الأوبئة الأخلاقية المختلفة، التي ينشأ بعضها عن المجاهرة بالمعاصي، يقول ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىً إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ"، وأيضًا من جوانب تنقية المجتمع من الأمراض الخلقية: معاقبة الزانية والزاني على فعله؛ حتى لا يكون أسوة لغيره، وأيضًا ليذوق وبال فعلته القبيحة وليرتدع عن فعلها مرة أخرى، يقول ﷺ: "إِذَا زَنَتْ الأَمَةُ ... فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ...".

إن أهم أهداف التربية الاجتماعية هو جعل الناس أسوياء اجتماعيًا، أسوياء في المواقف الاجتماعية المختلفة، أي: أن يقف فيه كل فرد بحسب المعايير الاجتماعية العامة السائدة في مجتمعه... والخروج على هذه المعايير الاجتماعية وعدم مراعاة هذه الأمور في حياته، يعتبر انحرافًا عن السلوك الاجتماعي وشذوذًا فيه[1].

ثانيًا- التربية بالترغيب:

رغب النبي ﷺ في ستر العبد أخاه المسلم إذا رآه يفعل ذنبًا، فقال: "لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ

---

(١) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص٢٢٢.

عَبْدًا إلاَّ سَتَرَهُ اللَّه يَوْمَ القِيَامَةِ"، فالمسلك الصحيح أن يستر الأخ على أخيه ؛ لا أن يفضحه؛ لأن في فضحه إضرارًا به وبعشيرته، ويكون الأمر أكثر إلحاحًا، والستر واجبًا إذا كان المذنب من المعروفين بالتقوى والفضل، وممن يقتدى به؛ لأن هذه ربما تكون زلة وغفلة سرعان ما يفيق منها، وقد قالت العرب: "المشرفي ينبو واللاحقي يكبو"[(١)]، فما على من عاين هذا الفاضل يسقط في الذنب إلا أن ينصحه.

ولهذا رغب النبي ﷺ في ستره، بأن من ستره ستره الله يوم القيامة، وتلك رغبة يتمناها الجميع، أن يستروا يوم القيامة أمام الخلائق، ولهذا فقد اتبع النبي ﷺ أسلوب الترغيب.

ثالثًا- التربية الوقائية:

وفي طيات هذا الباب، يهتم النبي ﷺ بالتربية الوقائية، ويستخدمها أسلوبًا تربويًا ناجحًا ونافعًا، لاستئصال جذور الفساد قبل نموها، يقول ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىً إلاَّ الْمُجَاهِرِينَ"، وفي النهي عن المجاهرة بالذنب أو إفشاء المذنب أسراره، وقوله: "فعلت ذلك البارحة"، في ذلك وقاية للمجتمع، وحمايته ضد الشرور والآفات قبل أن يبدأ انتشارها، لأن العاصي إذا أفشى معصيته وجاهر بها، فإنه سيكون قدوة سيئة لغيره من الشباب والأطفال فيفعلون مثل ما يفعل.

وكذلك من التربية الوقائية أمره ﷺ بإقامة حد الزنى وحد شرب الخمر، يقول ﷺ: "إذَا زَنَتْ الأمَةُ وَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ..."، ويقول عن شارب الخمر: "اضربوه"، وإقامة الحدود وقاية للفرد والمجتمع من انتشار الرذائل؛ فهي وقاية للفرد لأنها تجلب له الخوف من اقتراف الجرائم الخلقية والوقوع في حبائلها؛ لما ينتظره من ألم العقاب، وهي وقاية للمجتمع لأنها تقلل نسبة الفساد الخلقي، إن لم تقض عليه تمامًا[(٢)].

---

(١) المشرفي: سيف يجلب من المشارف، وينسب إليها، وهو من أجود السيوف، ينبو: يخطئ الهدف، اللاحقي: الجواد الكريم الذي لا يلحق لسرعته، يكبو: يعثر وينكب على وجهه.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٦٤.

رابعًا- التربية بالعقوبة:

تعد العقوبة من الطرق التربوية الناجحة المفيدة في جبّ الفساد من المجتمع، وقد أمر النبي ﷺ بإقامة حد الزنا بقوله: "إِذَا زَنَتْ الأَمَةُ ... فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ...". وكذلك في أمره بجلد شارب الخمر، ولا يخفى على ذي بصيرة أن المذنب إذا عوقب على ذنبه كان ذلك رادعًا له عن أن يعود إليه، وترهيبًا لغيره من أن يقعوا فيما وقع فيه فيعاقبوا بمثل ما عوقب.

وقد شرع الله سبحانه وتعالى العقوبات رغم أنها مكروهة للطبائع؛ لتكون زاجرة لطبع النفس عن اقتراف الآثام والذنوب، وفيها التطهير عن الآثام الناجمة من ارتكاب المعاصي[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص٢٦٢.

٢٩- باب في قضاء حوائج المسلمين

قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧].

الحديث رقم (٢٤٤)

٢٤٤- وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما أَن رسولَ اللّه ﷺ قال: «**المسلمُ أَخو المسلم لا يَظلِمُه ولا يُسْلِمُهُ. ومَنْ كَانَ فِي حاجةِ أَخِيهِ كانَ اللّهُ فِي حاجتِهِ، ومنْ فَرَّجَ عنْ مُسلمٍ كُرْبةً فَرَّجَ اللّهُ عنه بها كُرْبةً من كُرَبِ يومَ القيامةِ، ومن ستَرَ مُسْلماً سَتَرَهُ اللّهُ يَومَ الْقِيامَةِ**» متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٥٨/٢٥٨٠)، تقدم برقم (٢٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٦٠)، هذا الحديث سبق شرحه كاملاً أثناء شرح الحديث رقم (٢٣٣) لتكراره.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٣).

الحديث رقم (٢٤٥)

٢٤٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «من نَفَّس عن مؤمن كُرْبة منْ كُرب الدُّنْيا، نفَّس اللَّه عنْه كُرْبة منْ كُرَب يومِ الْقِيامَةِ، ومنْ يسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْه في الدُّنْيَا والآخِرةِ، ومنْ ستَر مُسْلِماً ستَرهُ اللَّه فِي الدنْيا والآخرة، واللَّه فِي عوْنِ العبْد ما كانَ العبْدُ في عوْن أَخيهِ، ومنْ سلك طَريقاً يَلْتَمسُ فيهِ عِلْماً سهَّل اللَّه لهُ به طريقاً إلى الجنَّة. وما اجْتَمَعَ قوْمٌ فِي بيْتٍ منْ بُيُوتِ اللَّه تعالَى، يتْلُون كِتَابَ اللَّه، ويَتَدارسُونهُ بيْنَهُمْ، إلاَّ نَزَلَتْ عليهم السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمةُ، وحفَّتْهُمُ الملائكَةُ، وذكَرهُمُ اللَّه فيمَنْ عنده. ومنْ بَطَّأَ به عَملُهُ لمْ يُسرعْ به نَسَبُهُ» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نفَّس: أي فرّج وكشف[٢].

كربة: الغم الذي يأخذ بالنفس[٣].

المعسر: من العسر وهو ضد اليسر. وهو الضيق والشدة والصعوبة[٤].

السكينة: الطُّمأنينة والوقار والسكون[٥].

غشيتهم: غَطَّتْهُمْ وحوتْهُمْ[٦].

حَفَّتهم: طافت بهم ودارت حولهم[٧].

---

(١) برقم (٢٦٩٩/٣٨). أورده المنذري في ترغيبه (١٠٥). وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم (١٠٢٤).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ف س).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٧/٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع س ر).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ك ن).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ ش ي).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ف ف).

بطأ به عمله: كان عمله ناقصاً[١].

الشرح الأدبي

هذا الحديث عظيم جليل، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب والفضائل والفوائد والأحكام، وفيه إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، كما يقول صاحب دليل الفالحين[٢]، وكذلك صاحب جامع العلوم والحكم، حيث يقول معقباً على الحديث: هذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل[٣].

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث، نجد أنه يتكون من سبع جمل أو سبع منارات من الهدي النبوي، وهى كلها تشارك في إقامة مجتمع إسلامي تسوده المحبة والرحمة، وكل جملة في هذا الحديث تعد لبنة في صرح الأخلاق الإسلامية، وشعاعاً وهاجاً من الهداية والتعاطف بين أبناء الأمة رغبة في التئام الشمل ورأب الصدع، وتكاتف وتكافل طوائف المجتمع المسلم، وتجاذب أفراده، وحين نعيد النظر في البناء اللغوي، وفي الكلمات المشعة، والعلاقات فيما بينها نجد أن الجمل الخمس الأولى صيغت في قالب الشرط والجزاء، وهذه الصياغة تتفق مع كل مقاصد الحديث وهى تتجمع في بؤرة دلالية واحدة، هي: "الجزاء من جنس العمل"، ولذلك جاء جواب الشرط في هذه الجمل مماثلاً لفعل الشرط في مادته اللغوية، إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل: ولكن فضل الله أوسع، وجزاؤه أعم وأشمل، ولنتأمل هذا التماثل الموحي بالبشارة والثواب الجزيل.

"من نَفّس عن مؤمن... نَفّسَ الله عنه، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن ستر مسلماً، ستره الله".

ويبدأ الحديث بوعد كل مسلم يشارك في تهوين الشدائد والكروب عن أخيه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٨.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/ ٢١٦.

المؤمن، فالكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب، وتنفيسها أن يخفف عنه منها، وهذه الصورة التعبيرية مأخوذة من تنفس الخناق كأنه يرخى له الخناق حتى يأخذ نفساً، وكأن الكرب قيود تخنق أنفاس المؤمن، وفي رواية: من فرج، والتفريج أعظم من التنفيس، وقيل: الكربة تقارب أن تزهق النفس، كأنها لشدة غمها عطلت مجال التنفس منه.

وقد حدد في هذه الجملة الكربة بأنها من كرب يوم القيامة، ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة، كما قيل في التيسير والستر لأن الكرب هي الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحدًا لا يكاد يخلو من ذلك ولو بتعسر الحاجات المهمة[١].

ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، وأسلوب الشرط هنا يضيء المعنى، ويوضح الجزاء الأوفى لمن يتصدى لإنقاذ المعسر من ضائقة، فالله سبحانه ييسر عليه أموره في الدنيا والآخرة، فالإعسار كما يكون في الدنيا يكون في الآخرة.

وقد وصف الله يوم القيامة بأنه عسير، والجملة الثالثة تبشر هؤلاء الذين يسترون عورات الناس، ولا يفضحون أمرهم اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ قَلْبَهُ لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإنه مَنِ يتّبعَ عوراتهم يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»[٢]. وما أصدق هذا الوعد الإلهي وهو أن الله في عون العبد طالما كان العبد في عون أخيه، وهذه الجملة تضمنت معنى الشرط؛ ثم يبشر رسول الله طالب العلم النافع المفيد بأن طريق العلم هو السبيل إلى جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وكل معالم الهدي السابقة يمكن أن تنبثق وتتأصل في قلب كل مسلم بكثرة

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٤٢١ رقم ١٩٧٧٦، وقال محققو المسند حديث صحيح لغيره ٣٣/٢٠.

ارتياد المساجد، والتعلم والذكر والمناجاة والدعوات وختام الحديث يؤكد على وجوب العمل الصالح ففيه الفوز والنجاة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم إنظار المعسر والوضع عنه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجب على الدائن أن ينظر المعسر إلى ميسرة متى عجز عن الوفاء بدينه لنص الكتاب على ذلك، ويحرم عليه أن يلازمه أو يتعرض له، بل ويستحب له حينئذ أن يضع شيئاً من دينه عن المدين مساعدة له وإرفاقاً به والوضع عنه أفضل من إنظاره.

الثاني: الستر على المعاصي، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٢٣٣).

١- الاجتماع لقراءة القرآن:

صرح الشافعية والحنابلة بأن الاجتماع لقراءة القرآن مستحب، لحديث الباب. وروى أبو داود أن أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه كان يدرس القرآن مع نفر يقرأون جميعًا.

قال الرحيباني من الحنابلة: (وكره أصحابنا قراءة الإدارة، وهي أن يقرأ قارئ ثم يقطع، ثم يقرأ غيره بما بعد قراءته، وأما لو أعاد ما قرأه الأول وهكذا فلا يكره، لأن جبريل كان يدارس النبي ﷺ القرآن برمضان)[2].

وحكى ابن تيمية: عن أكثر العلماء أن قراءة الإدارة حسنة كالقراءة، مجتمعين بصوت واحد.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٤٦/١، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/٣، وشرح الخرشي على مختصر خليل ٣٠/٦، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٢٦/١، الأم ٢٠٦/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ١٦٣/٦، والفروع، ابن مفلح ٢٩٧/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٥٨/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٨٦/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦، ومسلم ٢٣٠٨.

وقال النووي عن قراءة الإدارة: هذا جائز حسن. وقد سئل مالك رحمه الله تعالى فقال: لا بأس به. وصوّبه البناني والدسوقي. لكن صرّح الحنفية والمالكية بكراهة قراءة الجماعة معًا بصوت واحد لتضمنها ترك الاستماع والإنصات ولِلزوم تخليط بعضهم على بعض.

قال صاحب غنية المتملي: يكره للقوم أن يقرأوا القرآن جملة؛ لتضمنها ترك الاستماع والإنصات. وقيل: لا بأس به[(١)].

٢-تعليم القرآن: قال القرطبي: (فيه ما يدل على جواز تعليم القرآن في المساجد، أما الكبار الذين يتحفظون بالمسجد فلا إشكال فيه، ولا يختلف فيه، وأما الصغار الذين لا يتحفظون بالمساجد فلا يجوز، لأنها تعرض المسجد للقذر والعبث، وقد قال النبي ﷺ ((جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم))[(٢)]).

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعي: توجيه أنظار الناس إلى طرق الخير.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على فضائل الأعمال.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون والتيسير والستر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل السعي لطلب العلم ومدارسته.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: أهمية العمل في بلوغ الجنة.

---

(١) غنية المتملي شرح منية المصلّي ٤٩٧، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، وهو مطبوع مع الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٣٠٨/١، والتبيان في آداب حملة القرآن ١٢٨، ١٣٤، ومطالب أولي النهي ٥٩٧/١-٥٩٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٢/٣٣) وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٨٧/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨/١٧/٩ ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٧٥٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ١٦٤).

ثامناً: من موضوعات الدعوة: فضل مدارسة القرآن وعمارة المساجد.

تاسعاً: من أهداف الدعوة الإسلامية: الترابط والوحدة ونشر العلم.

أولاً- من مهام الداعي: توجيه أنظار الناس إلى طرق الخير:

في ذكر لنا النبي ﷺ في الحديث عدة طرق للخير وروافد للثواب، فهذا حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب[1]، فبين فضل كشف الكرب والتيسير على المعسر والحث على الستر وإعانة الغير والحث على سلوك طرق العلم، والالتفاف حول كتاب الله عز وجل.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغّب النبي ﷺ في الخيرات وبين ثوابها حثاً للهمم وتحفيزاً للعزائم فقال "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة... الحديث" وقد رغبنا الله عز وجل في فعل الخيرات ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وهذا أمر من الله بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة وحسن المعاملة، كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق[3]. وأسلوب الترغيب وغرس الرجاء في النفوس فيما عند الله سبحانه من الخير الذي لا منتهى له في الدنيا والآخرة أمر مطلوب حتى يبادر العبد إلى القيام بكل ما من شأنه أن يجعله أهلاً لنفحات الله سبحانه ورحمته وكرمه[4].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على فضائل الأعمال:

وهذا ظاهر في هذا الحديث حيث حثنا رسول الله ﷺ على فضائل الأعمال طلباً للثواب والدرجات العلى وقد أرشد الحق إلى فعل الخيرات والإكثار منها فقال تعالى:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ص ١٥٩١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٧/١٧/٣٤٦.

(٤) انظر: وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٩٥.

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[١] وذلك ندب فيما عدا الواجبات[٢] "لعلكم تفلحون" أي تفوزون بالمطلوب المرغوب وتنجون من المكروه والمرهوب[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون والتيسير والستر:

ورد في الحديث الدعوة والترغيب في تنفيس الكرب والتيسير على المعسرين وغير ذلك من أبواب الخير فيقول ﷺ "من نفس عن مؤمن كربة"، أي: أزال وفرج "عن مؤمن كربة" وهي ما أَهَمَّ النفس وغم القلب لأن الكربة تقارب أن تزهق النفس كأنها لشدة غمها عطلت مجال التنفس منه، "نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة" أي: من شدائدها "ومن يسر على معسر" بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة بنفسه أو وساطته "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" "ومن ستر مسلماً" لم يشتهر بالأذى والضرر على معصية رآها منه فيما مضى "ستره الله يوم القيامة"[٤] وحث الرسول ﷺ بعد هذا التفصيل بصيغة أعم قائلاً: "والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" إجمال لكل خير يستطيع أن يقدمه المسلم ويسوقه لأخيه المسلم فإن تقديم العون والنصرة لمن يحتاج إليها سلوك إسلامي أصيل وخلق رفيع تقتضيه الأخوة الصادقة[٥].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل السعي لطلب العلم ومدارسته:

ورد ذلك في ترغيب الرسول ﷺ في السعي لطلب العلم فقال "ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة" ففيه فضل المشي والسعي في طلب العلم ويلزم من ذلك الاشتغال بطلب العلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٨/١٢/٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، ص ٤٩٦.

(٤) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٢٩.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤١٩/٢.

كان هذا شرطاً في كل عبادة لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس ويغفل عنه بعض المبتدئين[١]. فإذا تحقق في طالب العلم ذلك "سهل الله له طريقاً إلى الجنة" يرشده إلى طلب الهداية والطاعة الموصلة إلى الجنة، وليس ذلك إلا بتسهيله تعالى، وإلا فبدون لطفه لا ينفع علم ولا غيره أو بأنه يجازيه على طلبه وتحصيله بتسهيل دخول الجنة بأن لا يرى من مشاق الموقف ما يراه غيره وهذا أقرب لظاهر الحديث[٢].

سادساً- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

جاء في الحديث بيان رسول الله ﷺ جزاء كل عمل من جنسه كقوله، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. وكذا باقي فقرات الحديث، وذلك يوافق قول الله عز وجل ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[٣]. فالجزاء من جنس العمل ثواباً وعذاباً كالتنفيس بالتنفيس والستر بالستر والعون بالعون ونظير ذلك في كثير من أحكام الدنيا والآخرة[٤].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: أهمية العمل في بلوغ الجنة:

لا ينبغي لإنسان أن يتكل على حسبه أو ماله أو ما شاكل ذلك فمقياس الفضل عند الله تبارك وتعالى بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٥] فإذا كان لابد من التفاضل فليعلم أن التسابق يجب أن يكون بالأعمال الشخصية وليس هناك أفضل من تقوى الله عملاً[٦]. وبيان ذلك في الحديث الذي معنا "ومن بطأ به

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٩١.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣٠.

(٣) سورة النبأ، آية: ٢٦.

(٤) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣٠.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٦) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ٦٥/٢٦/٣.

عمله لم يسرع به نسبه" أي لم يلحقه برتب أصحاب الأعمال الكاملة لأن المسارعة إلى السعادة إنما هي بالأعمال لا بالأحساب قال الشاعر:

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما ... فخار الذي يبقى الفخار بنفسه[(١)]

ثامناً- من موضوعات الدعوة: فضل مدارسة القرآن وعمارة المساجد:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث من قوله ﷺ "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" ولفضل مدارسة القرآن كان جبريل عليه السلام يدارس رسول الله ﷺ وكما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ((وكانَ يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسه القُرآنَ))[(٢)].

قال النووي: (ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما)[(٣)]، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال ((لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[(٤)].

تاسعاً- من أهداف الدعوة الإسلامية: الترابط والوحدة ونشر العلم:

إن الدعوة الإسلامية لا تقتصر على حفظ مبادئ الشرع في الصدور وكتابتها في السطور، وإنما تبرز هذه المبادئ وتخرجها إلى حيز التنفيذ وتظهرها في ميدان التطبيق ومن أهدافها: ما ورد في الحديث من دعوة إلى الترابط عن طريق التعاون ومد اليد بالخير "والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه"، إلى غير ذلك من روافد الوحدة والترابط في هذا الحديث والحفاظ عليها بما يضمن سلامتها وبقاءها وذلك بنشر العلم

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص ٤٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ٦٠١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٠٠.

-خاصة الشرعي-، فالوحدة والترابط لهما أهمية عظمى في حياة الأمة، فتثبت دعائمها وتسود فيها روح التعاون والألفة واحترام الحقوق والتزام الواجبات وتكون مُحَصِّلَة ذلك: مجتمعاً قوياً متآلفاً لا شحناء فيه ولا بغضاء مما يجعل نسيج الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً[1].

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤/١٢٣١، ١٢٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

المسلم في مجتمعه آمن ومؤمّن عليه، وليس المراد به دفع مبلغ من المال مقابل خدمة معينة لرده حال الحوادث والنوازل.. إلخ. إن التأمين في الإسلام معنى مطلق، يشمل التأمين المادي والأدبي، والتأمين المادي قائم بكفالة الأغنياء للفقراء عن طريق ما وجب شرعاً (الزكاة، الكفارة، النذور) وما هو مسنون (الصدقة، الهبة، القرض الحسن.. إلخ).

والتأمين الأدبي كامن في إشاعة روح التعاون ومد يد المعروف، فالجهلة لا يُستغلون لجهلهم، والزمنى لا يستطيعون طلب الحق إلى من الأصحاء وأصحاب الحاجات كثيراً ما يفتقرون إلى هذا أو ذاك للوصول إلى حقهم.

وقد بين الرسول ﷺ الآثار الإيجابية المترتبة على هذا السلوك، فتفريج كربة من كرب الدنيا يكسب تفريج كربة من كرب الآخرة، ووعد الله لا يتخلف، والتعبير بأسلوب التنكير "كربة" للتنويع وقد يكون للتحقير في نظر الناس، ولكن عند الله لا يضيع القليل أو الكثير، ومن المضامين التربوية:

أولاً- غرس مبدأ الأخوة في الله:

لقد حث الإسلام دائماً على تآخي المسلمين، وحرص الرسول ﷺ على غرس هذه الروح في نفوس المسلمين؛ لأن الإسلام ليس مبادئ تعبدية تربط العبد بربه فحسب؛ بل هو أيضاً معاملات وعلاقات اجتماعية، ومن هنا كان التآخي في الله من المبادئ الأساسية في الإسلام، يقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ...»، فمبدأ الأخوة يلزم عنه حسن التعامل معه ، فلا يظلمه ولا يتخلى عنه ويفرج عنه همومه، ويستره إذا زلت قدمه.

والأخوة في الله هي رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام، مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية ووشائج الإيمان والتقوى، فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في النفس أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية

من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة، واتخاذ مواقف سلبية عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكراماتهم، ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة في الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها[١].

ثانياً- التربية على التعاون:

التعاون من المبادئ التربوية التي نشّأ الإسلام المؤمنين عليها، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢]، ولقد تضمنت أحاديث هذا الباب مبدأ التعاون، وتناولت مقتضياته، وهي: الأخوة في الله، وقضاء حوائج المسلمين، وتفريج كربهم، والتيسير على المعسرين، يقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ .... مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ»، ويقول ﷺ: «مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

تلك مقتضيات التعاون، فالمجتمع من المنظور التربوي الإسلامي لابد أن يكون يداً واحداً، متعاونين متآزرين.

والنجاح في بناء العلاقات الاجتماعية أمر لا غنى للمربي عنه، وهو مفتاح تأثيره على الأقربين الذين هم أولى بدعوته من سائر الناس، كما أنه لا غنى له عنه ليعيش حياته الاجتماعية، ومن ثم تبدو أهمية الاعتناء بتنمية هذه القدرة لدى الشباب[٣].

ثالثاً- التربية بالترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الأخوة في الله، وقضاء حوائج الناس؛ وذلك بأن أخبر أن الجزاء من جنس العمل، يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ». وفي كل معونة يقدمها المسلم لأخيه المسلم يجزيه الله بها مثلها في الدنيا والآخرة، وكذلك من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢/١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) تربية الشباب، محمد عبدالله الدويش، ص١٨٧ بتصرف يسير.

ولقد بين النبي ﷺ هذا الجزاء الدنيوي والأخروي لصحابته والمسلمين أجمعين، حتى يكون ذلك باعثاً لهم على فعل ما يأمرهم به، فإن المرء إذا علم أن لعمله جزاءً وثواباً، أقبل عليه، رغبة في نيل هذا الثواب، وذلك من الأسس التربوية التي استخدمها النبي ﷺ في تربية صحابته.

وقد استخدم المنهج الإسلامي هذا الأسلوب في تحريك الدوافع الخيرة وتنشيطها؛ بالترغيب فيما أعده الله تعالى لمن خاف مقام ربه، ونهى نفسه عن طغيانها[1].

رابعاً- من الأماكن التربوية في الإسلام: المساجد

لقد أظهر النبي ﷺ قيمة المساجد، وثواب الجلوس فيها ومدارسة الكتاب والسنة فيها؛ فهي من الأماكن التربوية الأساسية في الإسلام، يقول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى...»، وقد رغّب النبي ﷺ بمدارسة العلم في المساجد بقوله: «إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة...»، وذلك لمكانة المسجد العظيمة في الإسلام، وليس أدل على ذلك من قيام النبي ﷺببناء المسجد أول دخوله المدينة.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الغرض من بناء المسجد إنما هو أداء الصلاة والعبادة، وهذا في الحقيقة غرض واحد من بين عدة أغراض مختلفة، وليس التعليم أقلها بعد العبادة؛ حيث كان التعليم من أشد الوظائف بروزاً في الدور الذي كان يؤديه المسجد، حيث اعتبر المسجد المكان الطبيعي لتلقي العلم، ومعرفة الشريعة أولًا بأول، فقد كان الرسول ﷺ يعقد حلقات العلم في المسجد ليغشاه كل راغب في العلم[2].

❁ ❁ ❁

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٤.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص١٢١.

٣٠- باب الشفاعة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾[النساء: ٨٥].

الحديث رقم (٢٤٦)

٢٤٦- وعن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إِذَا أَتَاهُ طالِبُ حاجةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلسائِهِ فقال: «**اشْفَعُوا تُؤجَرُوا ويَقْضِي اللّه عَلَى لِسان نَبِيِّهِ ما أَحبَّ**» متفق عليه[١].

وفي رواية[٢]: «مَا شَاءَ».

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

اشفعوا: الشفاعة هنا: التوسُّط لقضاء حوائج الناس[٣].

الشرح الأدبي

ما أشد حرص النبي ﷺ على أمته، وما أرفقه بهم، وما أجمل هذه المواقف الإنسانية المأثورة عن رسول اللّه ﷺ في تفريج الكروب، وتيسير الإعسار، وإزالة الهموم، وقضاء الحوائج، ومن خصوصيات محمد ﷺ أنه يشفع لأمته عند ربه يوم القيامة، وأن الحق سبحانه وتعالى يقبل شفاعته لمن يستحق الشفاعة ويكون أهلاً لها.

وفي ضوء هذه المنحة الإلهية للحبيب المصطفى ﷺ، نقرأ هذا الحديث مسترشدين بسنة النبي الكريم ﷺ الذي أراد أن يغرس عاطفة الرحمة والمودة في قلوب أمته، وأن يمنحهم فيوضات من التسامي والتراحم في ظلال سنته، وأن يحبب المسلمين في

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧/١٤٥) والسياق للحميدي في جمعه (٣٠١/١، رقم ٤٣٧).

(٢) أخرجها البخاري (١٤٢٣، و ٦٠٢٨).

(٣) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ف ع).

الإقبال على التمسك والاهتداء بقدوته.

والحديث يقدمه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في أسلوب سردي.. ولكنه يحكي ويصور مشهدًا واقعيًا حقيقيًا... وهذا المشهد يتكرر كثيرًا في مواقف متعددة.. وهو الترغيب في قضاء حوائج الناس، والسعي عند ولاة الأمر... بالشفاعة لصاحب الحاجة حتى تُقضى حاجته، وتفرج كربته، لأن الولاة والأمراء والرؤساء لا يستطيع الوصول إليهم إلا صاحب شأن، وصاحب جاه أو علم أو مال، وصاحب الحاجة المشروعة في أمس الحاجة إلى قضاء مأربة، وتحقيق مطلبه.

ولذلك يبدأ الحديث بداية تدل على تكرار هذا المشهد حيث يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال" وطلاب الحاجات كانوا يتوافدون على النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلوب الشرط في هذه الجملة يرشد إلى تحقق هذا المشهد، لأن أداة الشرط إذًا تفيد تحقق الجواب لتحقق الشرط، فالأمر ليس افتراضًا، ولا احتمالاً، ولكنه واقع ملموس، وقوله: "طالب حاجة"، جاءت في صيغة النكرة المضافة إلى نكرة، وهذه الصيغة جاءت لإفادة العموم والشمول، فكل من قصد الرسول صلى الله عليه وسلم. وطرق باب بيته أو دخل مسجده، وطلب المؤازرة والمعونة، فهو طالب حاجة، وكلمة حاجة تتضمن كل ما يحتاجه الإنسان في جميع شؤون حياته، والتعبير بقوله: "أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا تؤجروا"، يوحي بحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عنصر الترغيب لا الترهيب فالإقبال يعني: البشر والإيناس، والمحبة والرحمة، والتعبير بقوله: جلسائه -حيث أضاف الكلمة إلى الضمير العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم- فيه إشارة إلى قوة المحبة، وشدة المودة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسائه، وجملة اشفعوا تؤجروا، جملة طلبية تضمنت معنى الشرط، والفعل تؤجروا مجزوم في جواب الأمر، والأمر هنا جاء بعد الترغيب والإقبال، وبعد أن قدَّم الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في هذا الشأن، وسعى في قضاء حوائج الناس، وشفع لهم في الدنيا والآخرة.

ولفظ "الشفاعة"، تحمل دلالته اللغوية المعنى المقصود في الحديث الشريف، فالشفاعة المرادة في الحديث هي: أن يستوهب أحد لأحد شيئًا، ويطلب له حاجة،

وأصلها من الشفع ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فردًا، فصار صاحب الشفع له شفعًا، أى صارا زوجًا، فالشفاعة تعطي للمشفوع له قوة ومناعة، وهو في ظل هذه الشفاعة لا يشعر بأنه وحده في ميدان الحياة، ولكن معه من يؤازره ويعضده استجابة لأمر رسول الله ﷺ اشفعوا تؤجروا.

والله يفعل ما يشاء، ولا ينتظر طالب الشفاعة تحقيق طلبه، ولكن يترك الأمر لمشيئة الله سبحانه فهو العليم الخبير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم السؤال للأشياء من أجل الغير، وقد ذكر الفقهاء أنه يجوز للرجل أن يسأل لغيره حاجة عن طريق الشفاعة ويقضي الله بعد ذلك ما يريد، وقال البعض يعرض بالسؤال كما قال النبي ﷺ حين جاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار فقال "تصدقوا"[(١)] ولم يقل أعطوهم، قال أبو عمر: قال النبي ﷺ اشفعوا تؤجروا، وفيه إطلاق السؤال لغيره[(٢)].

وقد بنى الفقهاء على هذا الحديث أحكامًا كثيرة، ومن ذلك أنهم أجازوا الشفاعة إلى ولاة الأمور، ومن ذلك الشفاعة في التعزير وكل ما ليس بحد، بل تستحب لهذا الحديث[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٤٤/٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٣٢/١، والتمهيد لابن عبدالبر ١٢٢/٤، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٠/١٠.

(٣) إعانة الطالبين، عثمان البكري الدمياطي ١٦٨/٤، والإقناع، الشربيني ٥٢٦/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٩٤/٤، والمنثور في القواعد للزركشي ٢٤٨/٢، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣١/٢٦-١٣٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: حسن استقبال المدعوين والحرص على نفعهم.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الاستجابة لحاجات المدعوين والسعي في قضائها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة الحسنة للمسلمين وثوابها.

أولاً- من آداب الداعية: حسن استقبال المدعوين والحرص على نفعهم:

إن من الآداب التي تحبب الداعية إلى المدعوين حسن استقبالهم، وقد كان النبي ﷺ يحسن استقبال المدعوين، ويشعرهم باهتمامه وحفاوته بهم، ومن الشواهد على ذلك في هذا الحديث ما جاء في قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه)، وهذا يبين أن من آداب الداعية حسن استقبال المدعوين، قال ابن علان: (وهذا من مزيد عنايته بصحابته رضي الله عنهم ودلالته على الخير لأمته)[1]، وفي حسن استقبال المدعوين دلالة على تواضعه، وبسط جناحه للمدعوين، (والدعاة إلى الله أحوج الناس إلى خلق التواضع، لأنهم يخالطون الناس ويدعونهم إلى الحق، ومن طبيعة الناس ألا يتقبلوا دعوة أو قول من يتطاول عليهم بعلم أو معرفة أو غنى أو جاه أو حسب أو نسب، وإن كان ما يقوله حقًا وصدقًا)[2].

وما من شك أن التواضع واللين للمدعوين طريق نجاح لكل داع صادق في دعوته، (وإذا كان من المستحيل على الداعي أن يسع من يدعوه بماله، فلا أقل أن يسعه بأخلاقه وتواضعه، فليس من خصلة أحب إلى النفس من التواضع، وعلى الداعي الناجح أن يجعل من رسول الله ﷺ أسوة حسنة في جميع خصاله الكريمة)[3].

وأما الحرص على نفع المدعوين فقد كان النبي ﷺ يحرص على نفع المدعوين

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان ص٤٣٢.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٣٤٩.

(٣) الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان، محمد سعيد البارودي ص ٢٤٤.

بما يقدم أو يبذل لهم من معروف، أو من خلال كونه ﷺ سببًا في جلب وتحصيل الثواب من خلال ما قدموه من معروف، يتضح ذلك من قوله ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم إذا جاءه طالب حاجة: (اشفعوا تؤجروا) فكان يحرص على نفع المدعوين، وأن يشركهم في فعل الخير، (والداعية يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده والتزام أوامره، والابتعاد عن نواهيه ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويحبب الناس بالخير ويأخذ بأيديهم إليه، أو يحول بينهم وبين اغتيال الشياطين لهم، ولا شك أن الداعية أمره عظيم، لأنه يدعو إلى ما يسعدهم في دنياهم ويجعلهم فائزين في أخراهم، يسوقهم إلى الجنة، ويحول بينهم وبين النار)[1].

ثانيًا- من واجبات الداعية: الاستجابة لحاجات المدعوين والسعي في قضائها:

يستنبط هذا من سياق الحديث، فالداعية هو ذلك الإنسان الذي يتوسم الناس فيه الخير لقضاء مصالحهم وأمورهم، وعلى الداعية أن يستحضر في داخله النصوص القرآنية التي تحفزه على السعي في قضاء مصالح المدعوين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2]، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

وأما السنة النبوية فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: ((وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ))[4]، وقوله ﷺ: ((وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[5]، ومن مواقف الرسول ﷺ التي تدل على سعيه في قضاء حوائج المدعوين ما جاء عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ الله إنِّي أُبْدِعَ[6] بي فَاحْمِلْنِي.

---

(١) مرشد الدعاة، محمد نمر الخطيب ص ١١١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٦) أُبْدِعَ: أي هلكت دابتي وهي مركوبي. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣/٣٩ المطبعة المصرية ومكتبتها.

قالَ: ((لا أجِدُ مَا أحْمِلُكَ عَلَيْهِ وَلكِن ائْتِ فُلانًا فَلَعَلَّهُ أنْ يَحْمِلَكَ))، فأتَاهُ فَحَمَلَهُ، فأتَى رسولَ الله ﷺ فأخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ))[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الأمر، والترغيب:

١- الأمر: ورد الأمر في قوله ﷺ: (اشفعوا)، ولا شك أن أسلوب الأمر من أساليب الدعوة، وهو يدل على أهمية المأمور به، ويكون بمثابة الحافز والدافع للمدعوين على تنفيذه والالتزام به.

٢- الترغيب: ويتضح من قوله ﷺ في الحديث: (تؤجروا) قال ابن حجر: ("تؤجروا": تعرضوا بذلك للأجر والمعنى: إنكم إن شفعتم حصل لكم الاجر سواء قبلت شفاعتكم أم لا، ويجري الله على لسان نبيه ما شاء، أي من موجبات قضاء الحاجة أو عدمها، أي: إن قضيتها أو لم أقضها فهو بتقدير الله تعالى وقضائه)[2].

ولا شك أن الترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الثواب والأجر، (ولما كان الإنسان مجبولاً على حب ما ينفعه، وتقر به عينه، وتطمئن به نفسه، كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله، وأصبح الطريق ممهدًا بعض الشيء أمام الداعية لاستثمار هذه الفرصة لدى المدعو وتخوله بها)[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة الحسنة للمسلمين وثوابها:

يستنبط هذا من قوله ﷺ: (اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب)، قال النووي: (وفي الحديث استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووالٍ ونحوهما، أم إلى واحد من الناس وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير، أو في تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك، وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل أو إبطال حق

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٥/١٠.

(٣) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٩٣.

ونحو ذلك فهي حرام)[١].

ومما هو معلوم أن أفضل الأعمال أن يكون المسلم سببًا في كشف كربة أو إعانة محتاج، قال ابن حجر: (وفي الحديث الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا التمكن منه ليلج عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، وإلا فقد كان ﷺ لا يحتجب)[٢]، وتعتبر الشفاعة الحسنة للمسلم من زكاة الجاه على المسلم كزكاة المال.

قال ابن مفلح: "جاء رجل إلى الحسن بن سهل يستشفع به في حاجة فقضاها، فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام تشكرنا، ونحن نرى أنّ للجاه زكاة كما أن للمال زكاة، ثم أنشأ الحسن يقول:

فرضت عليّ زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

فإذا ملكت فجُد وإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كلّه أن تنفعا

وقيل أيضًا:

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعةً ... من جاهه فكأنما من ماله[٣]

قال أبو الحسن الماوردي: (والإسعاف بالجاه فقد يكون من الأعلى قدرًا، والأنفذ أمرًا وهو أرخص المكارم يمنًا، وألطف الصنائع موقعًا، وربما كان أعظم من المال نفعًا، وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحمى الذي يأوي إليه الخائفون. فهو بالبذل ينمي ويزيد، وبالكف ينقص ويبيد، فلا عذر لمن مُنح جاهًا أن يبخل به، فيكون أسوأ حالاً من البخيل بماله الذي قد يُعِدُّه لنوائبه، ويستبقه للذته، ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه، لأنه قد أضاعه بالشح، وبدده بالبخل، قال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٦١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦٥/١٠، ٤٦٦.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٦٧/٢.

يُحسن لك والدولة عليك، واجعل زمان رخائك عُدة لزمان بلائك، وبذل الجاه من كرم النفس وشكر النعمة)[١].

---

(١) أدب الدنيا والدين ٣٢١ - ٣٢٢.

الحديث رقم (٢٤٧)

٢٤٧- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قِصَّة بريرَةَ وزَوْجِها. قال: قال لَهَا النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ راجَعْتِهِ؟**» قَالتَ: يا رَسُولَ اللَّه تأْمُرُني؟ قال: «**إنَّما أَشْفَعُ**» قَالَتْ: لا حاجة لِي فِيهِ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن العلاقة بين الرجل وزوجته علاقة تكاملية، تُقوِّى من دعائمها أسس عديدة منها السكن والمودة والرحمة، ولا تستقيم الحياة الزوجية في غياب الاستقرار النفسي، والتوافق الوجداني، والتكافؤ الاجتماعي، ولا تثمر العلاقة الزوجية ثمارها المرجوة إلا في وجود التعاطف الإنساني النابع من مصدرى المودة والرحمة، فهما جناحا طائر الحياة السعيدة، وهما عنوان المسيرة الزوجية الرشيدة.

وهذا الحديث مشهد واقعي من مشاهد الحياة الزوجية التي فقدت طعم السكن والألفة، وسُلب من آفاقها بريق التكافؤ والتوازن، ولنتأمل تفاصيل هذا المشهد الواقعي... ولننظر الموقف التشريعي الذي قدمه رسول الله ﷺ في هذا المشهد وفي أمثاله، وهى مشاهد تتكرر في كل زمان وفي كل مكان.

والراوي يقول: في قصة بريرة وزوجها: فما أصل هذه القصة؟ وماذا حدث بين بريرة وزوجها، قال العلماء: إن بريرة: كانت مولاة عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقد أعتقت وهى زوجة: لمغيث، وكان مولى لبعض بني مطيع أو بني المغيرة.

وما أجمل هذا الموقف من رسول الله ﷺ، حيث عرض على هذه المرأة التي صارت حرة أن تظل زوجة لمغيث حيث ترجع إليه، ولم يأت هذا الطلب من رسول

---

(١) برقم (٥٢٨٣).

الله ﷺ في أسلوب الأمر وإنما جاء في صيغة اختيارية، ولكنها تحمل رغبة رسول الله ﷺ في الإصلاح، والإبقاء على الرباط الزوجي، ولذلك يحمل قوله ﷺ: "لو راجعتيه"، دلالة التمني أو الشرط، وكلاهما ينأى عن الأمر والجزم، وفي هذا الأسلوب بلاغة تعبيرية وهي بلاغة الحذف، فتقدير الكلام لو راجعتيه لكان أحسن أو لك فيه ثواب.

ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث: اشتماله على الحوار والاستفهام والنداء، والتأكيد فالحديث: محاورة بين النبي ﷺ وبريرة زوجة مغيث، والحوار من أساليب النبي ﷺ في الإقناع والدعوة بصفة عامة، وتكررت في الحديث هذه الصيغ "قال لها النبي: ... قالت: ... قال: إنما أشفع، قالت...".

والنداء والاستفهام في قول بريرة: يارسول الله تأمرني... يرشدان إلى التأدب في الحوار مع رسول الله ﷺ والتقدير: أتأمرني، وإذا كان هذا الموقف أمرًا فهي لا تملك المخالفة، ولابد من الطاعة.

وما أشد حرص رسول الله ﷺ وحبه لأصحابه رضي الله عنهم، وما أعظم حرصه كذلك على أن تكون الحياة الزوجية محصنة بالمحبة والمودة والرحمة والسكن، ولا تكون إرغامًا أو إجبارًا، ولذلك يجيء رد رسول الله ﷺ واضحًا في تواضع وحكمة، ضاربًا المثل، ومؤسسًا للقدوة الحكيمة، والأسوة الحسنة في كل موقف مشابه حيث قال: "إنما أشفع" أي: آمرك استحبابًا ؛ وحينما تطمئن هذه الزوجة إلى أنها في مقام الاختيار، وليس في دائرة الإجبار تتخذ في ضوء ذلك هذا القرار، (لا حاجة لي فيه)، وهذا صدق مع النفس، لأنها لم تشأ أن تستمر الحياة الزوجية في ظل القلق والجفوة، وخفوت المشاعر والروابط النفسية والاجتماعية السليمة.

وقيل في هذا الرد إشارة إلى عذرها في عدم قبول شفاعته ﷺ؛ ورسول الله ﷺ كان حسن العشرة مع أزواجه، وكانت أحواله مع أزواجه تدعو للتأمل والاقتداء، حيث الملاطفة والتوادد والتراحم، وكان لا يأخذ عليهن، ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس عدل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن، وعلى

غيرهن: عزيز عليه ما يعنتهن، كما يقول الإمام أحمد بن أبي بكر القسطلاني.

فقه الحديث

بين الحديث حكمًا خاصًا بالرقيق، وهو ما إذا أعتقت الأمة وهي متزوجة من عبد فهل تظل زوجة له أم تطلق منه، أم يكون لها الخيار بين البقاء زوجة له أو الطلاق؟ فبريرة هنا كانت متزوجة وأعتقت، فاختارت نفسها، وشفع عندها رسول الله ﷺ لتظل مع زوجها، ولكنها اختارت نفسها وأبت الرجوع إليه، لما علمت أن ذلك شفاعة من الرسول عليه الصلاة والسلام لا أمرًا منه لها، فلو كان أمرًا لأطاعت.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه متى كانت الأمة متزوجة من عبد ثم أعتقت كان لها الخيار بين البقاء معه أو فراقه، فإن مكنته من وطئها وهي عالمة بذلك لم يكن لها الخيار، وكذا إن اختارته هو ثم أرادت فراقه لم يكن لها ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين.

رابعًا: من مهام الداعية: الإصلاح بين الناس.

خامسًا: من أصناف المدعوين: النساء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أدب بريرة مع النبي ﷺ.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة.

ثامنًا: من حقوق المدعو: التعبير عن رأيه.

---

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ٩٨/٥، وشرح معاني الآثار، الطحاوي ٨٢/٣، والمدونة ٥٣/٢، ٨٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٥٦/٤، والفروق للقرافي ١٤٥/١، والأم للشافعي ١٣١/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤٦/٧، ٨٨/٨، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٦٥/٥.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

تعد القصة من وسائل الدعوة التي يفيد منها الداعية في دعوته، وقد ورد ذكر القصة في هذا الحديث في قول ابن عباس رضي الله عنهما (... في قصة بريرة وزوجها) وإن لتوظيف القصة في الدعوة إلى الله تأثيرًا على نفوس المدعوين، حيث تؤدي إلى تعميق المضامين في النفوس، ومما يساعد على ذلك "الميل الموجود في فطرة الإنسان إلى القصة ولها تأثير ساحر على القلوب سواء أكانت تاريخية أم معاصرة، فالداعية يجب أن يعي هذا الميل فيستخدم القصة في البيان والتربية[1] وإذا كان ما جاء في الحديث هو من قصص الحديث النبوي، فإن قصص القرآن أيضًا له أهمية كبرى في الدعوة، وبيّن الله تعالى الفائدة منه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2].

ولا شك (أن القرآن العظيم مليئ بالقصص الذي يجد فيه الداعية طريقًا ووسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى تناسب حالة أي مدعو، سواء أكان من علية القوم أو من الضعفاء أو من الأغنياء أو من الفقراء، ولذا فالقصة في القرآن الكريم ركيزة مهمة من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على اليقين النقلي، والإقناع العقلي، والاطمئنان القلبي)[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "لو راجعته؟" قالت: "يا رسول الله تأمرني؟" والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة التي تساعد على بيان الأحكام وعرض المسائل ويكون بمثابة حوار بين الداعية والمدعو.

قال الميداني: (إن مجالس السؤال والجواب مجالس مفيدة ونافعة جدًا في نشر المعرفة وتثبيتها وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات

---

(١) دراسات في طرق الدعوة الإسلامية، د. أحمد محمد العدناني، بدون الطبعة ودار النشر: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ١٧٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي، ١٢٩.

مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح)[١].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٣].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة بالمدعوين:

يتضح هذا من سياق الحديث في رحمة النبي ﷺ بزوج بريرة عندما قال لها: "لو راجعته" وقد وصف الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] ووصف الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[٥] وإذا كان الأمر كذلك فواجب الدعاة أن يتمثلوا هذه الرحمة والشفقة مع المدعوين حتى تنجح دعوتهم (فالرحمة صفة كريمة وعاطفة نبيلة تبعث على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف وإعانة المحروم، فإن الإسلام يريد أن يطبع النفوس بطابع الرحمة، وأن ينشئهم على هذه الفضيلة، حتى ينعم الناس في ظلها الوارف، ويعيشوا في كنفها آمنين)[٦].

قال د. عبدالكريم البكار: (إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسيهم لا من يعنفهم، وعلينا أن لا ننسى أن البشر مخلوقات عاطفية تجذبهم

---

(١) فقه الدعوة إلى الله ٦٢/٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٦) دعوة الإسلام، السيد سابق، دار الكتاب العربي ص ١٧١.

الكلمة الطيبة، وينفرهم التوبيخ والتقريع، وعند كل واحد منهم من الاعتداد بنفسه ومواهبه وإمكاناته مايجعله يرى في الكلمة القاسية عدوانًا على كرامته ومجاله الخاص، وقد جاء في الأثر عن بعض السلف: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه، والداعية إلى جانب إيثاره الكلمة الرقيقة والأسلوب العذب يؤثر أيضًا التشبيهات الجميلة، ويبتعد عن الأمثال والتشبيهات القبيحة أو المنفرة، وإن من واجبنا أن نشعر المخاطب أننا لا نعتدي على خصوصياته وحريته الشخصية)[1].

رابعًا- من مهام الداعية: الإصلاح بين الناس:

ويستنبط هذا من تدخل النبي ﷺ للإصلاح بين بريرة وزوجها، ويعتبر هذا من أولى مهام الداعية، وإلى الإصلاح جاءت دعوة القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[3] وأمر المؤمنين به فقال جلّ شأنه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[5].

قال الطبري: (هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما ليرجعا إلى ما فيه من الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به)[6]. وقال السعدي:

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ١٥٣-١٥٤.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٨.

(٤) سورة الأنفال، آية: ١.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٤/٢٧٦.

(ومتى امتثل المسلمون أمر الله فسعوا في حصول الاتفاق، وإزالة العداوات وأسبابها، وكانوا يدًا واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم متى عملوا على ذلك كله حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء، ويستجلبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك على دينهم وجماعاتهم وأفرادهم، ولم يزالوا في رقي مطرد في دينهم ودنياهم، ومتى أخلوا بما أمرهم به دينهم، عاد الضرر العظيم عليهم، فلا يلومون إلا أنفسهم، وقد وعد الله العز والنصر لمن قاموا بالتقوى، واعتصموا بحبله وتمسكوا بدينه)(١).

خامسًا- من أصناف المدعوين: النساء:

حيث جاء في الحديث الحوار بين النبي ﷺ وبين بريرة، والخطاب الدعوي هنا موجه إلى امرأة، وهذا يعني أن الداعية يتوجه بدعوته إلى النساء كما يتوجه بها إلى الرجال، وعلى هذا جاء القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

وجاءت التسوية بين الرجل والمرأة في الجزاء على العمل في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾(٣).

إن الداعية الحصيف هو الذي يخصص من وقته لعظة النساء ودعوتهن، ففي

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

الحديث ((... حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ. فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ . فَقَالَ: تَصَدَّقْنَ. فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ...))[١].

قال النووي: (وفي هذه الأحاديث استحباب وعظ النساء، وتذكيرهن بالآخرة وأحكام الإسلام، وحثهن على الصدقة، وهذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة وخوف على الواعظ أو الموعوظ أو غيرهما، وفيه أن النساء إذا حضرن صلاة الرجال ومجامعهم يكن بمعزل عنهم، خوفًا من فتنة أو نظرة أو فكر ونحوه)[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أدب بريرة مع النبي ﷺ:

يظهر هذا من قول بريرة للنبي ﷺ: يا رسول الله تأمرني؟ (ولا شك أن هذا من أدبها مع الرسول الكريم ﷺ وقال الله تعالى في الأدب مع رسول الله ﷺ بعدم التقديم بين يديه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٣] وأمر بعدم رفع الصوت فوق صوته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾[٤] وأمر بتخصيصه في الدعاء إليه فقال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾[٥] ومنع الاختيار في أقضيته وأحكامه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[٦] وحذر من مخالفة أمره فقال جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٨٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٧٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٥) سورة النور، آية: ٦٣.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٧) سورة النور، آية: ٦٣.

وأمام هذه النصوص تأدبت بريرة مع رسول الله ﷺ فقالت: "أتأمرني؟" لأنها تعلم أنه لو كان أمرًا فلا يجوز لها أن تخالف أمره. قال ابن حجر: (في قولها أتأمرني؟ أي تريد بهذا القول الأمر فيجب عليَّ قال: إنما أشفع أي أقول ذلك على سبيل الشفاعة له لا على سبيل الحتم عليك فقالت: لا حاجة لي فيه، أي فإذا لم تلزمني بذلك لا أختار العود إليه)[1].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشفاعة:

يؤخذ هذا من قول النبي ﷺ "إنما أشفع" ولا يخفى أن الشفاعة للمسلم لها أجر عظيم وثواب كبير، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[2]، قال السيوطي: (أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: من يشفع شفاعة حسنة قال: شفاعة بعض الناس بعض، وعن الحسن: "من يشفع شفاعة حسنة كان له أجرها وإن لم يُشَفع، وعن عبدالله بن رواحة أنه سأله رجل عن قول الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ قال: يقيت كل إنسان بقدر عمله)[3].

وقال ابن كثير رحمه الله: (من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك وإن شرًا كان عليه وزر)[4] ولذا يحسن بالداعية أن يوظف مكانته وعلاقاته الاجتماعية مع الوجهاء في المجتمع، في الشفاعة الحسنة للفقراء والضعفاء، واليتامى والأرامل والمحتاجين شريطة ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالآخرين، أو يكون مجحفًا بأحد أو ترجى من ورائه منافع شخصية في صورة خدمات متبادلة أو غيره، إن مما يجب التأكيد عليه في هذا السياق أن تكون الشفاعة خالصة لله تعالى يبتغي بها الداعية مرضاة الله، وألا يكون الدافع إليها حماس شخص أو غيره. بل الغاية من ذلك نفع

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٠/٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٥.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٥٤/٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٦٨/٢.

المسلمين خاصة أصحاب الحاجات والأعذار، لإسعادهم وتفريج كروبهم، رغبة في مرضاة الله تعالى.

ثامنًا- من حقوق المدعو: التعبير عن رأيه:

يتضح هذا من تعبير بريرة عن رأيها كما جاء في الحديث "قالت: لا حاجة لي فيه" قال ابن علان: (أي لا غرض ولا صلاح لي فيه أي في ارتجاعه وفيه إيماء إلى عذرها في عدم قبول شفاعته ﷺ حيث قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾[1] وإنها فهمت من شفاعته في ذلك تخييرها، وإطلاق الشفاعة على التخيير مجاز بجامع عدم إيجاب كليهما)[2].

فالمدعو من حقه أن يعبر عن رأيه، طالما أنه لا يعارض نصًا، ولا يخالف أمرًا من أوامر القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال السيد سابق: (إن التفكير هو وظيفة العقل، وبالعقل تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات، فإذا تخلى العقل عن وظيفته، فقد تخلى عن أخص خصائصه، ولم يعد له دور في تقدم البشر ورقي الحياة، وحرية التفكير تتناول حرية التعبير، سواء أكان التعبير باللسان، أم بالقلم كما تتناول حرية الرأي والجهر بالحق، ولقد كانت المرأة تمتلك من حرية الرأي ما تخطئ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد أن ينهى عن الغلو في المهور، فقالت له امرأة: يا أمير المؤمنين الله يقول: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾[3] فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر، حتى النساء، أصابت المرأة وأخطأ عمر. وعلى كلٍ فقد جاء الإسلام ليطلق العقل من أساره، ويضع عنه

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٢) دليل الفالحين، ابن علان ٤٣٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٠.

الأغلال التي عطلته زمنًا طويلا) [١].

ومن خلال ما سبق يجب على الداعية أن يتسع صدره لآراء الآخرين، ويتقبل وجهات نظر المدعوين لأن من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه، ويعرض ما يراه فإن كان حقًا وصوابًا يعمل به، وإن كان خطأً يرد.

(١) عناصر القوة في الإسلام ١٣٩-١٤٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في سعي المسؤول لقضاء حاجة السائل. ولو سلك المسؤول في كل مؤسسة ومصلحة هذا السبيل في حدود الاستطاعة لقضى على الرشوة ولانتهى الكثير من الفساد.

لقد امتدح الإسلام الشفاعة ورتب عليا عظيم الأجر، واشترط أن تكون حسنة فهي رجاء محمود، وهي تجري فيما فيه حق للإنسان ليتنازل عن بعض حقه أو كله أو ما فيه مصلحة لتقضى هذه المصلحة.

وينبغي أن لا تتضمن الشفاعة مخالفة شرعية أو ظلمًا بشرياً أو يقترن بأجر مادي.

إن الناس إذا سعوا في مصالح بعضهم قضي الكثير منا على وجه السرعة وحلت المشكلات وحقنت الدماء وسادت الأخوة وذلك مشروط بكون الشفاعة حسنة، ومن المضامين التربوية في هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية على قضاء حاجة الناس:

من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة السعي في قضاء حاجة الناس، وتقديم العون لهم، لأن ذلك يؤدي إلى تعميق المودة والمحبة بين الناس، والقضاء على الضغائن والأحقاد، وتقوية العلاقات بين الناس.

فلقد كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة، أقبل على جلسائه فقال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا. وَلْيَقْضِ اللّهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ». فهذه تربية على قضاء الحاجة والسعي فيها سواء قضيت الحاجة أم لا؛ إن الإنسان لا يستغنى عن إخوانه، فهو يحتاج إليهم، ويحتاجون إليه يعينهم ويعينونه، ولذا ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على هذه القيم الاجتماعية النبيلة من التعاون على قضاء حوائج الناس والسعي في ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، من خلال الشفاعات الحسنة، ولذا كان النبي ﷺ أسوة للأمة في مساعدة المحتاجين، وإغاثتهم، والسعي في تخفيف معاناتهم، مما يبعث على الشعور بالراحة لدى أفراد المجتمع، لأنهم تربوا على القيم الإنسانية النبيلة التي تشعر كل فرد

بأهميته ومكانته في مجتمعه، لأن أحوال الناس لا تستقيم على وتيرة واحدة، بل كثيرًا ما يحتاج بعضهم إلى بعض، ولذا فإن النبي ﷺ أراد أن يربي أصحابه رضي الله عنهم على تقديم العون للآخرين، وقد رغب في ذلك، كما ورد في أحاديث أخرى، بأن أخبر بأن السعي في حاجة الآخرين يكون سببًا في تفريج كرب الدنيا والآخرة[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ نَفَّسَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّه عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ في الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّه عَلَيْهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...))[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[3].

ثانيًا- التربية بالحوار:

التربية بالحوار من أساليب التربية الهادفة لما لها من وضع خاص في التربية الإسلامية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بريرة وزوجها قال: «قال النبيُّ ﷺ: «لو راجعتِهِ». قالت: يا رسولَ الله تأمُرُني؟ قال: إنما أنا أشْفَع، قالت: لا حَاجَةَ لي فيه»، وهذا مما يؤكد على أهمية الحوار في التربية الإسلامية، وفي تعميق المفاهيم الإسلامية التي تعطى كلاً من الرجل والمرأة الحرية في ممارسة الحقوق المشروعة، دون تدخل بشكل أو آخر وتحفل السنة النبوية بالنماذج الحوارية التربوية التي تعمل على دعم عملية الاقتناع لتعديل اتجاهات السلوك تعديلاً إيجابيًا.

ولقد اهتم المربون المسلمون بالحوار والمناظرة فوضعوا له بعض الشروط. التي تجعله أسلوبًا فعالاً ومن أهمها: أن يكون هدف الحوار لبيان الحقيقة، كما يشترط فيه

---

(١) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري، ٢٤٤٢، ومسلم، ٢٥٨٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

الإلمام بموضوع المناظرة، والتحلي بالهدوء وسعة الصدر، وهذا ما علمنا إياه النبي ﷺ في حديث الجارية[(١)].

ثالثًا- التربية على احترام الرغبة المشروعة للآخرين:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية الإقرار بالرغبات المشروعة التي تعد من حقوق الإنسان، واحترام تلك الرغبات وعدم مصادرتها، لأن التربية الإسلامية تقوم على الحرية المقننة لا على القهر والكبت، فلا يمكن في ظل التربية الإسلامية تجاهل مشاعر الآخرين، ومن الشواهد على ذلك قول النبي ﷺ لبريرة في حديث الباب: لو راجعته، قالت يا رسول الله تأمرني، قال: إنما أشفع، فقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يأمر بريرة لكن ليس هذا هو المنهج النبوي في التربية، وإنما كان فعل النبي ﷺ شفاعة ووساطة خير، لذلك يؤخذ من هذا التوجيه أيضًا أن شفاعة الإمام للرعية ليست أمرًا واجب النفاذ، وليس كما يحدث الآن، أن كل مسؤول كبير شفاعته أمر واجب، وإلا فلا، ولكن يجوز رد الشفيع وليس في ذلك قدح في الرد أو الشفيع، وفي كل هذا إقامة التربية على الحرية واحترام الرغبات المشروعة للآخرين[(٢)].

رابعًا- التربية بالقول والفعل:

فالنبيُّ ﷺ حضّ أصحابه على أن يشفعوا ورغبهم في ذلك بأن أخبرهم أن لهم أجرًا على ذلك، والنبيُّ ﷺ نفسه شفع، ومن الملاحظ أنه ﷺ شفع لرجل ليس من علية القوم أو من كبارهم، بل كان من عامة الناس بل كان عبدًا من العبيد، وفي هذا إرشاد لأهل التربية أن يجمعوا بين القول والفعل فلا يخالف فعلهم قولهم ولا يناقض عملهم ما يقولون، لأن من يربونهم أنظارهُم معلقةً بهم، تريد أن تعرف صدقهم فيما يربونهم عليه، فإن صدقوا أطاعوهم وأقبلوا عليهم وإلا أعرضوا عنهم ولم يلتفتوا إليهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب، ص٨٥.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٢.

٣١- باب الإصلاح بين الناس

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الأنفال: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠].

الحديث رقم (٢٤٨)

٢٤٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صَدقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعهُ صَدقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبةُ صدقَةٌ، وبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»** متفق عليه[1].

ومعنى "تَعْدِلُ بيْنهما": تُصلح بيْنَهما بالعَدْل.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

السُّلامى: المفَصِل[2].

تُميط الأذى: تُنحيه وتزيلُه[3].

الشرح الأدبي

يتصدر هذا الحديث باب "الإصلاح بين الناس" في كتاب رياض الصالحين، وقد حث الإسلام على إصلاح ذات البين، وشدد المصطفى ﷺ ونبه المسلمين إلى هذا الخلق الكريم، فعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألاَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (٥٦/١٠٠٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٥).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل م).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (م ي ط).

أُخبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))(١).

وقال رسول الله ﷺ لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: "ألا أدلك على صدقة هي خير لك من حمر النعم؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: تصلح بين الناس إذا فسدوا وتقرّب بينهم إذا تباعدوا"(٢).

وهذا الحديث يأخذ بيد المسلم إلى ارتياد آفاق الشكر، وإلى الاعتراف بفضل المنعم، وإلى القيام بواجب الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وهذا الشكر ليس كلامًا يصقله اللسان، ولا يصحبه العمل الخالص، وإنما هذا الشكر مقرون بكثير من السلوكيات التي يبذلها المؤمن في سبيل التعاون على البر والتقوى، وفي سبيل إعانة كل من يحتاج إلى المعونة المادية أو المعنوية، وهذا الجهد المبذول هو إحساس بالنعم التي منحها الله للإنسان، ومنها ما هو ماثل في تكوينه وأساس صورته الخلقية التي تتشكل منها سائر عظام بدنه ومفاصله، "وقد خلق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل".

وعلى كل مسلم بل على كل عبدالله تعالى: أن يؤدي أكبر قدر من أعمال الخير، وأنواع الصدقة، "كل يوم تطلع فيه الشمس"، فقد قال ابن الجوزي، معنى هذا الحديث: إن عظام الإنسان هي من أصل وجوده، وبها حصول منافعه إذ لا يتأتى الحركة والسكون إلا بها، فهي من أعظم نعم الله على الإنسان، وحق المنعم عليه أن يقابل كل نعمة منها بشكر يخصها، فيعطي صدقة، كما أعطى منفعة، لكن الله عز وجل لطف وخفف بأن جعل العدل بين الناس وشبهه صدقة، وإعانة المحتاج على حمل متاعه صدقة، والخطوات إلى المساجد لأداء الصلاة صدقة، وكلمة الخير الطيبة صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٤١١١)

(٢) مسند الطيالسي ٤٩١/١ برقم ٥٩٩ وإسناده ضعيف.

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص٣.

وهذه الآفاق الاجتماعية التي يتأملها كل مسلم، بل كل مخلوق هى من شأنها أن تقيم جسور المحبة والثقة بين أفراد الأمة، فتتوحد مشاعرهم، وتتقارب مشاربهم، وتتآلف خطواتهم، ولذلك كررت الصدقة في الحديث ست مرات: ترغيبًا للناس في الاستكثار من هذه الخصال الخيرة، حتى تصبح سلوكًا يوميًا لا ينقطع بانتهاء الحدث اليومي، ولكن يتجدد مع مشرق كل شمس، وبزوغ كل فجر، فالمسلم يكون حريصًا على أن تبلغ صدقاته الإصلاحية بين الناس، ستين وثلاثمائة صدقة بمقدار، عدد مفاصل جسمه، وسائر أعضاء بدنه، وقول رسول الله ﷺ: "كل يوم تطلع فيه الشمس"، فيه إشارة إلى هذا التوجيه النبوي الكريم: فهي صدقات يومية... يضاعفها إخلاص النية، والحرص على الاقتداء بالسنة النبوية.

والتعبير بقوله: "عليه"، يوحي بالوجوب، ولكنه هنا يفيد الاختيار والترغيب مع الحرص على ذلك حتى يكون الشكر صادقًا وصحيحًا، وليس ألفاظًا يرددها اللسان، ولا ينبض بها الجنان، ولم يقل عليها حيث السلامى مؤنثة لأن الضمير يرجع إلى كل: فالمراد: كل مفاصل الإنسان وليس: السلامى الواحدة، أو المفصل الواحد، أو أن السلامى بمعنى العضو، وسلامة أعضاء الإنسان وحسن هيئتها يوجب الشكر، والشكر برهانه الصدقة، ولذلك قال رسول الله ﷺ "الصدقة برهان"[(١)]، أي دليل وشعاع يضيء عمل الإنسان، ويترجم إحساسه بالشكر إلى فعل جميل، وإعانة للناس، وإصلاح ذات بينهم.

والجملة الأولى: اسمية: وهى تفيد الثبات: فكل يوم على كل عبد أن يتصدق بأقواله وأفعاله، حتى يؤدي الشكر لله على نعمه وعلى جمال وكمال خلْقه، والأفعال جاءت كلها مضارعة بعد ذلك: لتفيد استمرار هذا السلوك الإيماني وعدم انقطاعه حتى ينعم المجتمع بالألفة والمودة والاستقرار.

المضامين الدعوية[(٢)]

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٢٢).

الحديث رقم (٢٤٩)

٢٤٩- وعن أُمِّ كُلْثُومٍ بنتِ عُقْبَةَ بن أَبي مُعَيْطٍ رضي الله عنها قالت: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**» متفق عليه[1].

وفي رواية مسلمٍ[2] زيادة، قالت: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إلاَّ في ثَلاثٍ، تَعْنِي: الحَرْبَ، وَالإِصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا.

ترجمة الراوي:

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط القرشية الأموية، هي أخت عثمان بن عفان لأمه.

أسلمت قديمًا بمكة وبايعت النبي ﷺ لكنها حُبست عن الهجرة ومنعت، إلى أن هاجرت سنة ٧هـ بعد صلح الحديبية. وقيل: إنها هاجرت ماشية من مكة إلى المدينة. فكانت من المهاجرات المبايعات. وهي أول من هاجرت إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ.

ولما وصلت المدينة جاء أخواها عمارة والوليد ليردَّاها، وقد كان النبي ﷺ عاهد المشركين على أن يرد إليهم من جاءه منهم مسلمًا، فطلبا من النبي ﷺ إرجاعها فأسرعت أم كلثوم قائلة: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت، فتردني إلى الكفار يفتنوني في ديني ولا صبر لي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥/١٠١).

(٢) عقب الحديث رقم (٢٦٠٥/١٠١).

تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1]

فامتحنها النبي ﷺ وامتحن من بعدها، في أن سبب خروجهن حب الله ورسوله، لا لزوجٍ ولا مال. فإذا قلن ذلك لم يرجعهن إلى الكفار[2].

فظلّت أم كلثوم بالمدينة، ولم تكن تزوجت بمكة، فتزوجها زيد بن حارثة، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام ثم طلقها، فتزوجها عبدالرحمن بن عوف فتوفي عنها، وتزوجها عمرو بن العاص فماتت عنده في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

كان من الرواة عنها ابناها حميد وإبراهيم ابنا عبدالرحمن بن عوف[3].

غريب الألفاظ:

فينمي: أي يبلغ[4].

والرُخصة: إباحة التصرف لأمر عارض مع قيام الدليل على المنع[5].

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتان :١٠-١١.

(٢) ينظر الطبقات الكبرى، ابن سعد ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي (٤١٦/١٤-٤١٨).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٣٠/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٦١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٧٦/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٨٣٣، والسير (٢٧٦/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٦٠١/٨)، والتهذيب (٧٠١/٤) والأعلام (٢٣١/٥)، وموسوعة عظماء حول رسول الله ﷺ (٢١٦٨/٣).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٩٢/٥.

(٥) معجم لغة الفقهاء ، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٧.

الشرح الأدبي

إن الصدق في الحديث معيار السلوك الإسلامي الصحيح، وهو من أهم ملامح الشخصية الإسلامية، فالصدق برهان سلامة العقيدة، ومقياس الانضباط الاجتماعي، والتوازن النفسي.

والكذب آفة جسيمة تفتك بأقدار الرجال، وتُذهب عنهم هالة الوقار والكمال، وحين نتأمل هذا النص النبوي الشريف، نجده يثير قضية اجتماعية وإنسانية لها أثرها في توجيه مسيرة الأمم والأفراد، وفي تحديد مصير كثير من الطوائف والشعوب.

وهي وجوب الإصلاح بين الناس، وإشاعة أجواء المحبة فيما بينهم، وحجب كل ما من شأنه أن يثير الفتن والعداوة والبغضاء، بين أفراد المجتمع وزملاء العمل، أو بين أفراد الأسرة نفسها.

والحديث في روايته الأولى يتكون من جملة واحدة لها متعلقاتها ودلالاتها، ويبدأ بنفى صفة الكذب أو إثم الكذب عن الرجل الذي يقوم بإصلاح ذات البين، والتعبير بقوله: "الكذاب" يدل على المبالغة وهو أقوى في الدلالة من "الكاذب"، ومجيء اسم الموصول "الذي" في موقع خبر ليس - وهو من أنواع المعارف ويوحي بالتحديد والتمييز- يدل على هذه القيمة، وذلك القدر في طبيعة ذلك الرجل الصادق فيما يقول: فهو ليس كذابًا: لأنه يخفي أشياء يمكن أن توغر الصدور، وتقطع العلاقات، ولذلك يتوهج هذا التعبير الذي جاء في صيغة المضارع "يصلح بين الناس" باستمرارية هذا النهج الإصلاحي الاجتماعي.

وما أعظم وما أبلغ هذا البيان النبوي: حين يعبر عن وسيلة الإصلاح حيث يقول: "فينمي خيرًا": أي يبلغ خبرًا فيه خير وفيه حرص على عدم إشاعة الفتن، وهذا الحديث الخيِّر يتسرب في هدوء وسكينة ومحبة فالفعل "نمى" بالتخفيف يُستعمل في التبليغ على وجه الإصلاح، أما بالتشديد حين نقول: "نمّى"... الحديث فيستعمل في التبليغ على وجه الإفساد وكلمة "خيرًا" تتضمن كل الصفات الحسنة التي يتضمنها الحديث: فهي تتضوأ بكثير من التفسيرات والتأويلات، فما أبلغ هذا البيان النبوي الموجز الدقيق الحكيم.

والرواية الثانية تفصل وتوضح ما أجملته الرواية الأولى: حيث تروي أم كلثوم عن رسول الله ﷺ أنه أباح للناس أن يقولوا الصدق، ولكن في أساليب غير صريحة، وربما يظن السامع أنها ليست صادقة، مثل: التورية والتعريض، وتجميل موقف المتخاصمين، والثناء على الزوجة، وإظهار المحبة والتسامح مع الزوج.

وإرباك العدو بالخطط والأقوال والدعايات المضادة التي تفرق صفوفه، وتضعف جنوده.

ففي الحرب لابد من استخدام جميع وسائل الدفاع، وآليات الهجوم، ومنها الأقوال والأناشيد الحماسية، وإشاعة أسرار العدو، وكشف مؤامراته، وخططه، والتهوين من عدته وعتاده، والحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ، والإصلاح بين الناس من وسائل تجميل موقف كل خصم في عين الآخر حتى تقرب المسافات بينهم، وكذلك إبلاغ كل منهما بالثناء من الآخر، وحجب كل كلمة فيها سب وشتم، ومن أعظم الدروس النبوية في إصلاح الحياة الزوجية هو إباحة المجاملة والثناء المتبادل بين الزوجين، واستمرار الإشادة المتبادلة بينهما بمحاسن كل منهما، وإخفاء كل مشاعر النفور، وإظهار الفرح والحبور والسرور. ورسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، كان يحب زوجاته ويعاملهن بالحسنى ويراعى ظروف كل واحدة سنًا، ومكانة، وظروفًا اجتماعية فعائشة رضي الله عنها لأنها كانت صغيرة، كان يُسرِّب إليها بنات الأنصار يلعبن معها[1]، وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب، وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهى متكئة على منكبه، وهو صادق فيما يقول: صادق فيما يفعل، ولم تحجبه هيبة النبوة عن إسعاد أهل بيته الأطهار.

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الكذب.

وقد سبق القول في الحديث رقم (٥٤) أنه قد اتفق الفقهاء[1] على أن الأصل في الكذب أنه حرام، وهو من الكبائر إن كان في شهادة زور لما فيه من القول بغير حق، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون صادقًا في حديثه، وقد يكون الكذب مباحًا أو واجبًا، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه، وهنا ينظر إن كان تحصيل المقصود واجبًا كان الكذب واجبًا، كما لو اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله، وسئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، وإن كان المقصود مباحًا كان الكذب مباحًا، وإن كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو الزوجين إلا بالكذب كان الكذب مباحًا، إلا أنه ينبغي أن يتحرز منه ما أمكن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

رابعًا: من واجبات المدعو: الحرص على متابعة كلام النبي ﷺ.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحالات التي يجوز فيها الكذب.

---

(١) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢١٣/٧، وحاشية العدوي على الخرشي ٤١٢/٢، وأنوار البروق للقرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢١٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "ليس الكذاب" والنفي أسلوب من أساليب الدعوة التي تعمل على لفت انتباه المدعو إلى معرفة المنفي، وفي هذا الحديث ينفي النبي ﷺ الكذب عن الشخص الذي يصلح بين الناس، ومن أساليب النفى التي جاءت في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2]، وفي الحديث الذي معنا نفى رسول الله ﷺ الكذب عن المصلح، قال ابن علان: (وسلب الكذب عن المصلح لا يستلزم كون ما يقوله كذبًا، لجواز أن يكون صدقًا بطريق التصريح أو التعريض)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس:

ويتضح هذا من قول النبي ﷺ: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس"، قال الطيبي: (يعني الكذاب المذموم عند الله تعالى المقوت عند المسلمين، ليس من يصلح ذات البين، فإنه محمود عند الله تعالى وعندهم، وقوله "ينمي خيرًا" يقال نميت الحديث أنميته إذا أبلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت: نميته بالتشديد)[4]، هذا وقد دلت النصوص القرآنية على فضل الصلح بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[6]. قيل: "معناه جنس الصلح خير، فيعلم بهذا أن جميع أنواع الصلح حسنة لأن فيه

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) سورة الكافرون، آية: ٢.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان ٤٣٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠٣/٩.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٦) سورة النساء، آية: ١٢٨.

إطفاء الثائرة بين الناس ورفع المنازعات الموبقات عنهم"[١]، وقال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢].

قال السعدي رحمه الله: (والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض بل وفي الأديان، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله)[٣].

وقال ابن بابويه: (إن الله عز وجل أحب الكذب في الإصلاح، وأبغض الصدق في الفساد)[٤]، وفي فضل الإصلاح قال ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))[٥].

ثالثًا- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يظهر هذا في توجيه النبي ﷺ إلى الإصلاح بين الناس، ولا شك أن الداعية مصدر نفع للمدعوين، قال تعالى في وصف إمام الدعاة ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٢/٣٦٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٦٥.

(٤) منهاج الصالحين، عز الدين بليق ص ٤٢٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

عَلَيۡهِمۡۚ﴾[(١)]، ومن هنا كان من ألزم واجبات الداعية دلالة وإرشاد الناس إلى الخير، قال الماوردي: "ومن آداب العلماء نصح من علموهم، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لعلومهم"[(٢)].

رابعًا- من واجبات المدعو: الحرص على متابعة كلام النبي ﷺ:

ويتضح هذا من رواية مسلم: (ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث)، والحرص على متابعة كلام النبي ﷺ من واجبات المدعو، لأن الرسول الكريم ﷺ هو القدوة للمسلمين، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[(٣)]، وأمرنا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[(٤)]، ودعا رسول الله ﷺ بالنضارة لمن يسمع قوله ويتابعه، ففي الحديث: ((نَضَّرَ الله امْرًا سَمِعَ مِنَّا شيئًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ))[(٥)].

قال المباركفوري: (قال التوربشتي: النضرة الحسن والرونق، والمعنى خصه الله بالبهجة والسرور لما رزق بعلمه ومعرفته من القدر المنزلة بين الناس في الدنيا ونعمه في الآخرة، حتى يرى عليه رونق الرخاء والنعمة. وقيل: إنه: إخبار، يعني جعله ذا نضرة، وقيل: دعاء له بالنضرة وهي البهجة والبهاء في الوجه من أثر النعمة.

وخص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف الحديث وفضله ودرجة

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) أدب الدنيا والدين ٩٣.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩).

طلابه، حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحدًا من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة، سوى أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفى ذلك فائدة وغنما، وجلّ من الدارين حظًا وقسمًا)[١].

وقال الطيبي: (ويستفاد من قوله في الحديث: "شيئًا"، عموم الأقوال والأفعال الصادرة من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يدل عليه صيغة "منا" بلفظ الجمع)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان الحالات التي يجوز فيها الكذب:

يظهر هذا من رواية مسلم أنه رخص في ثلاث: "الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها". قال ابن عثيمين:

"**وأما الحالة الأولى:** الحرب فيجوز فيها الكذب وهو نوع التورية، كأن يقول للعدو ورائي جنودٌ عظيمة، وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهب بها الأعداء.

الحالة الثانية: الإصلاح بين الناس بأن يقول للمخاطب غير الواقع، لكن له وجه وصحيح كأن يقول فلان يثني عليك أي على جنسك وأمثالك من المسلمين.

الحالة الثالثة: أي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها، وهذا أيضًا من باب التورية كأن يقول لها: إني أحبك وإني أرغب في مثلك)[٣].

قال النووي: (لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو: فقيل: هو على إطلاقه فيجوز قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقيل: المراد التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب)[٤].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٠٢٥ - ٢٠٢٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١/٣٨٩.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٦١٤ - ٦١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٣.

الحديث رقم (٢٥٠)

٢٥٠- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمِع رسول اللَّه ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بالْبَابِ عَالِيةً أَصْواتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شيءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: واللَّهِ لا أَفعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّه لا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ؟» فقال: أَنَا يَا رسولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذلِكَ أَحَبَّ، متفقٌ عليه[1].

معنى "تَسْتَوضعُه": يستأله أن يضع عنه بعض دينه. "ويَسْتَرفِقُهُ": يسأله الرفق. "والمُتَألِّي": الحالف.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن هذا المشهد الواقعي الذي حدث أمام بيت رسول الله ﷺ يمثل الصورة السلبية لما يحدث في المجتمع الإسلامي من شقاق وتنابذ، واختلاف حول عَرَض الحياة الدنيا، وهي صورة لم تنقطع بل مازالت تتكرر في ساحات المحاكم، وساحات الهيئات والدواوين الحكومية، ولكن حكمة المسؤول، وفراسة الحاكم العادل تذيب جليد الشقاق، وتهدم أسوار التباغض والنفاق، وتزرع المحبة والوفاق.

والإسلام يحب المسلم سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى، فالمسلم يعامل الناس والأخوة الإسلامية نصب عينيه لا يغيب عنه معناها، على ضوئها يسير، ووفق منهجها يعطي ويأخذ، ومع ذلك قد يغفل الإنسان ويختلف مع غيره.

وهذا المشهد الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يصور وجهًا من وجوه التنازع بين بعض الصحابة رضي الله عنهم، حيث اشترى أحدهما من الآخر تمرًا على الشجر، فلما أحصى ما فيها وجده قليلاً جدًا، ولم تجمع الأقدار ما يطعم أولاده.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (١٥٥٧/١٩) ولفظهما سواء.

فطلب من صاحب النخل أن يخفض السعر الذي طلبه، أو أن يترفق به في دفع الثمن، وهذان المطلبان أفصح عنهما الحديث في مقدمته، "وإذا أحدهما يستوضع الآخر، ويسترفقه في شيء".

ولكن المفاوضات لم تنجح، ويصر ذلك البائع على الثمن كاملاً وعاجلاً، فذهبا إلى رسول الله ﷺ وهما في شجارهما وضجيجهما، ووصل صوت الخصوم إلى مَنْ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وقوله "عالية أصواتهما" يصور قوة الشجار وعمق الخلاف، وكثرة الخصوم من جانبي المتنازعين، حيث كان التخاصم من الجانبين بين جماعتين.

وفي لغة الحديث إشارات بلاغية، وسمات جمالية، ومنها: صوت خصوم بالباب، حيث أضاف الصوت وهو مفرد إلى "خصوم" وهو جمع، فهل الخصوم لهم صوت أم أصوات، إن هذه الإضافة في هذه الصيغة اللغوية تصور قوة الضجيج، واختلاط الأصوات، وعدم التمايز بينها: فكأنها أصبحت صوتًا واحدًا مزعجًا مدويًا، وذلك مما يؤذي رسول الله ﷺ، وعلى الرغم من ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يغضب لذاته، وإنما أبدى اعتراضه وإنكاره لهذا القسم بالله في غير موضعه، فكيف يقسم إنسان على عدم فعل الخير، حيث يقول: والله لا أفعل: أى لا أنقص الدين، ولا أترفق في طلبه ولا أمهلكم في الدفع!!!.

ولنتأمل كيف أصلح رسول الله ﷺ بين المتخاصمين؟، وكيف قضى على النزاع، وفض الشجار؟، إنه تفوه بجملة واحدة حيث قال: مستفهمًا ومنكرًا ما حدث من قسم على عدم فعل الخير، (أين المتألى على الله لا يفعل المعروف؟) وهذه الجملة أيقظت الحواس الغافية، وأعادت الرجل إلى سكينة الإيمان، وحديقة التسامح والاطمئنان، فقال مستجيبًا لموقف رسول الله ﷺ: متراجعًا عن موقفه المتشدد، أنا يارسول الله: فله أي ذلك أحب، أي تخفيف الدين أو الرفق في استيفائه، وهذه النتيجة الحاسمة السريعة هي صدى إيماني للبيان النبوي الذي أوجزه المصطفى ﷺ في هذه الجملة المشعة بكل دلالات الهدى والإقناع، فقد أعطى الحكم للمتخاصمين بأن على من طلب منه الوضع في الدين أن يستجيب إليه، وعلل هذا الحكم بأنه من المعروف

الذي يحسن شرعًا وعقلاً فعله، فعلى المرء أن ينقاد إليه بدينه وخلقه وعقله، وقد أنب الحالف بأسلوب بديع جميل، دون أن يزعجه أو يثير فيه شيئًا، أو يواجهه بأنه أذنب أو قصر.

وقول رسول الله ﷺ: "أين المتألي، على الله"، أقنع الخصم: بأن هذا القسم غير جائز، ولفظ الجلالة هنا له تأثير قوي في إقناع الرجل بالعدول عن موقفه؛ وكلمة "المعروف" أعادت الرجل إلى توازنه، فهل من صفة المسلم القسم على منع المعروف؟؟!!! وقول الرجل: أنا يارسول الله فيه اعتراف بفضل الرسالة، وإذعان لحكم الرسول ﷺ، ولذلك قال: "فله أي ذاك أحب".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الحطيطة من دين المعسر، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يجوز أن يطلب المدين من الدائن أن يضع عنه بعض الدين، ولكن بشرط ألا ينتهي إلى الإلحاح وإهانة النفس أو الإيذاء ونحو ذلك إلا من ضرورة، ويستحب للدائن أن يضع عنه بعضه لما في ذلك من إعانته على قضاء دينه.

الثاني: حكم الحلف على ترك الخير، وقد سبق ذلك في الحديث رقم (٧٢).

الثالث: حكم الشفاعة إلى أصحاب الحقوق، حيث ذكر الفقهاء[2] أنه يجوز الشفاعة إلى أصحاب الحقوق وقبول الشفاعة في الخير، وهي أن يشفع الشفيع لإزالة ضرر أو مظلمة عن مظلوم، أو جر منفعة إلى مستحق ليس في جرها ضرر ولا ضرار.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٩/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٠/١٠، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢١٦/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٢٨٤/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣١٩/٨.

(٢) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٤١/٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٥٨٧/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٠/١٠، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٨١/٩، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٧٦/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣١٩/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣١/٢٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل أحوال النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من مهام الداعية: السعي في الإصلاح بين المتخاصمين.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالغريم والوضع عنه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل أحوال النبي صلى الله عليه وسلم:

يظهر هذا من قول عائشة رضي الله عنها "سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت خصوم بالباب عالية أصواتهما". وذلك باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[1] ولهذا كان الصحابة يحرصون على نقل أحوال النبي صلى الله عليه وسلم للاقتداء به فعن ابن عمر رضي الله عنهما: ((أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة[2] فقال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3] [4])).

ومن ذلك أيضًا ما جاء عن عابس بن ربيعة قال: ((رَأَيْتُ عُمَرَ رضي الله عنه يُقَبِّلُ الْحَجَرَ وَيَقُولُ: إِنِّي لأُقَبِّلُكَ. وَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ لَمْ أُقَبِّلْكَ))[5].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩٥، ومسلم ١٢٣٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) يعبر عن السعي بالطواف كما جاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية "والسعي هو المشي بين الصفا والمروة وقد يطلق على السعي الطواف والتطوف وشاهده من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ لسورة البقرة، آية: ١٥٨". انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩/ ١٢١.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٩٧، ومسلم ١٢٧١.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يدركون أنه لا سبيل إلى معرفة العلوم والأحكام الشرعية إلا من طريق النبي ﷺ ولذا نقلوا كلامه ووصفوا أحواله قال الإمام ابن القيم: (ولا سبيل إلى معرفة العلم إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته، وصرحت الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ولقد كان التلقي عنه بلا وساطة حظٌ أصحابه الكرام رضي الله عنهم الذين حازوا قصبات السبق، ولقد ألقوا رضي الله عنه إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم)[1].

ثانيًا- من مهام الداعية: السعي في الإصلاح بين المتخاصمين:

يستنبط هذا من خروج النبي ﷺ إلى المتخاصمين يقول: أين المتألي على الله لا يفعل المعروف" والداعية في هذا إنما يستجيب لأوامر وتوجيهات القرآن الكريم.

جاء في الدر المنثور: "وعن عبدالله بن حبيب بن أبي ثابت قال: كنت جالسًا مع محمد بن كعب القرظي فأتاه رجل فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحتُ بين قوم فقال محمد بن كعب: أصبت، لك مثل أجر المجاهدين، ثم قرأ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]"[3]. وحتى على مستوى الحياة الزوجية، أمر الله بالإصلاح بين الزوجين المتخاصمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[4] ولما حدث الاختلاف في الأنفال يوم بدر، وجّه الله الصحابة الكرام إلى ضرورة مراعاة الإصلاح، ونبذ التقاطع والاختلاف، وجاء تعليم القرآن

---

(١) انظر: فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦/٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٥.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[١] وأمر الله المؤمنين بالإصلاح بين المتخاصمين فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

وبشَّر رسول الله ﷺ سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما بأن الله يصلح به بين المسلمين فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: ((رأيتُ رسول اللهِ ﷺ على المِنْبرِ -والحسنُ بن عليٍّ إلى جَنبهِ- وهوَ يُقْبِلُ على الناسِ مرةً وعليهِ أُخرَى ويقول: إنَّ ابني هذا سَيِّد، ولعلَّ اللَّهَ أن يُصلِحَ بهِ بين فِئَتَينِ عظيمتَين منَ المسلمين))[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ: "أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟" والاستفهام أسلوب من أساليب الدعوة والتي تلفت انتباه المدعو إلى أمر مهم، والاستفهام قد يكون تقريريًا وقد يكون إنكاريًا، والاستفهام في الحديث لمعرفة الشخص المتألي حتى توجه له الموعظة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالغريم والوضع عنه:

يستنبط ذلك مما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "فله أي ذلك أحب" قال الإمام النووي: (وفي هذا كراهة الحلف على ترك الخير وإنكار ذلك، وأنه يستحب لمن حلف لا يفعل خيرًا أن يحنث فيكفر عن يمينه)[٤]. وقال ابن حجر: (وقوله فله أي ذلك أحب أي من الوضع أو الرفق، وفي هذا الحديث الحض على الرفق بالغريم والإحسان إليه بالوضع عنه، والزجر عن الحلف على ترك فعل الخير)[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٠٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٩٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢٦٣.

هـذا وقـد دلـت الأحاديـث علـى فـضل الرفـق بـالغريم والوضـع عنـه ففـي الحـديث أن رسول الله ﷺ قال: ((كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ. فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ. لَعَلَّ اللّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ))[1].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه طلب غريمًا له فتوارى عنه ثم وجده فقال: ((إِنِّي مُعْسِرٌ. فَقَالَ: آللّهِ؟ قَالَ : آللّهِ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ))[2].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللّهِ فِي ظِلِّهِ))[3] وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أنظر معسرًا كان له كل يوم صدقة، ومن أنظره بعد حلّه كان له مثله في كل يوم صدقة))[4]. فعلى الدعاة إلى الله إحياء هذه المعاني وتوجيه الناس لها.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٨، ومسلم ١٥٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٦٣.

(٣) أخرجه مسلم ٣٠٠٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣٥١/٥ رقم ٢٢٩٦٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٦٩/٣٨.

الحديث رقم (٢٥١)

٢٥١- وعن أَبي العباس سهلِ بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ ﵁، أَن رسولَ اللَّه ﷺ بلَغهُ أَنَّ بَني عَمْرِو بن عوْفٍ كان بينهُمْ شَرٌّ، فَخَرَجَ رسولُ اللَّه ﷺ يُصلِحُ بيْنَهم فِي أُنَاسٍ مَعَه، فَحُبِسَ رسول اللَّه ﷺ وَحَانَتِ الصَّلاَةُ، فَجَاءَ بِلالٌ إِلَى أَبي بَكْرٍ ﵄ فقال: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حُبِسَ، وَحَانَتِ الصَّلاةُ، فَهَلْ لكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاس؟ قال: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فأَقَامَ بِلالٌ (الصَّلاةَ)[1]، وَتقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ[2] وكبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ رسول اللَّه يمْشِي في الصُّفوفِ حتَّى قامَ في الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ، وكَانَ أَبُو بَكْر ﵁ لا يَلْتَفِتُ فِي صلاتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ (التَّصْفيقَ)[3] الْتَفتَ، فَإِذَا رسولُ اللَّه ﷺ، فَأَشَار إِلَيْهِ رسول اللَّه ﷺ[4]، فَرَفَعَ أَبُو بَكْر ﵁ يدهُ[5] فَحمِد اللَّه، وَرَجَعَ القهقرى وَراءَهُ، حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَتَقدَّمَ رسول اللَّه ﷺ، فَصلَّى للنَّاس، فَلَمَّا فرغَ أَقْبلَ عَلَى النَّاسِ فقال: **«أَيُّهَا النَّاسُ ما لَكُمْ حِين نَابكُمْ شَيْءٌ في الصَّلاةِ أَخذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ؟ إِنَّما التَّصْفيقُ لِلنِّسَاءِ. منْ نَابهُ شيءٌ فِي صلاتِهِ فَلْيَقلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ؟ فَإِنَّهُ لا يَسْمعُهُ أَحدٌ حِينَ يَقُولُ: سُبْحانَ اللَّهِ، إِلاَّ الْتَفَتَ. يَا أَبَا بَكْرٍ: ما منعَك أَنْ تُصلِّيَ بالنَّاسِ حِينَ أَشرْتُ إِلَيْكَ؟»** فقال أَبُو بكْر: مَا كَانَ ينبَغِي لابْنِ أَبي قُحافَةَ أَنْ يُصلِّيَ بالنَّاسِ بيْنَ يَدَيْ رسولِ اللَّه ﷺ. متفقٌ عليه[6].

معنى «**حُبِس**»: أَمْسكُوهُ لِيُضيِّفُوه.

---

(١) قوله: (الصلاة) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١٢٠١).

(٢) هذا السياق للحميدي في جمعه (٥٤٥/١، رقم ٨٩٩)، وتبعه عليه المؤلف، ولفظ البخاري في هذه الرواية: (فتقدم أبوبكر >، فكبّر للناس).

(٣) قوله: (التصفيق) ليس عند البخاري في هذه الرواية وإنما عنده برقم (٦٨٤).

(٤) عند البخاري في هذه الرواية زيادة: (يأمره أن يصلي)، وعند مسلم: (أن امكث مكانك)، أسقطها الحميدي، وتبعه عليه المؤلف.

(٥) قوله: (يده) ليس عند المؤلف في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٦٩٠).

(٦) أخرجه البخاري (١٢٣٤) واللفظ له، ومسلم (٤٢١/١٠٢).

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

حُبس: أمسكوه ليضيفوه[١].

ورجع القهقهري: رجع في صلاته إلى الوراء دون أن يستدبر القبلة ولا يتحرفها[٢].

نابكم شيء: أصابكم شيء[٣].

الشرح الأدبي

ما أجمل أدب الصحابة مع رسول الله ﷺ، وما أعظم رفق الرسول ﷺ بأصحابه، وحرصه عليهم، وحبه لهم.

وهذا الحديث: مشهد من مشاهد السيرة النبوية الحافلة بجلائل الأفعال، وروائع الأقوال، وكيف لا؟ والحديث حوار بين رسول الله ﷺ، والصديق أبي بكر رضي الله عنه، خليفة رسول الله والذي شهد له رسول الله بأنه لو وضع إيمان أبي بكر في كفة وإيمان الأمة كلها في كفة لرجح إيمان أبي بكر، وهو أبو عائشة الصديقة بنت الصديق، وهو مَنْ هو في الدفاع عن الإسلام، والقضاء على المرتدين وما نعى الزكاة حبًا لرسول الله ﷺ، وحفاظًا على معالم العقيدة الصحيحة.

وبداية الحديث الشريف تحدد السياق الذي وضع من أجله هذا الحديث في باب الإصلاح بين الناس حيث: خرج رسول الله للإصلاح بين بني عمرو بن عوف، وهم بطن كبير من الأوس، وكانت منازلهم بقباء، وقد اقتتلوا حتى تداموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فذهب لكي يصلح بينهم، وفي هذا تشريع للإسراع في الإصلاح بين المتخاصمين أو المتنازعين، وقوله "كان بينهم شر" فيه إيجاز شديد لأن كلمة "شر"

---

(١) رياض الصالحين ١٤٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٣.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن و ب).

نكرة، وهى يمكن أن تطلق على كل أسباب النزاع، وما يؤول إليه من شقاق وخلاف وقتال، وما يؤدي إليه من نتائج وعواقب وخيمة، وأخطار جسيمة، ينتج عنها قطيعة الأرحام، وتفكك الأواصر، وتدمير الممتلكات، وإزهاق الأنفس، وتبديد الأموال والثمرات.

والعطف بالفاء في قوله: "فخرج رسول الله" يوحي بالإسراع في حل النزاع وقوله: "فحُبس رسول الله" أي أمسك المتخاصمون الرسول ﷺ ليضيِّفوه بعد أن تم الصلح فورًا استجابة لرسول الله، وإذعانًا لحكمه وحكمته.

ويحين وقت الصلاة ولم يحضر رسول الله ﷺ: فهل تتأخر الصلاة؟ أم يصلي أبو بكر بالناس إمامًا، ويقتدي أبو بكر برأي بلال حين قال له: "فهل لك أن تؤم الناس"، فقال أبو بكر له: "نعم إن شئت"، ولنتأمل هذا التواضع في خطاب أبي بكر لبلال رغم ما بينهما من فروق في المكانة والوضع، ولكن الإسلام سوى بينهما، وأبو بكر هو الذي يتبع رأي بلال رضي الله عنه، ويقول له: نعم أن شئت؟ فأي أدب هذا، وأي تواضع من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في هذا الموقف الجليل.

وتحدث المفاجأة: حين كبَّر أبو بكر ﷺ وبدأت الصلاة: يجيء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف: فماذا يفعل أبو بكر هل يستمر في الصلاة وهذا حقه، ورسول الله ﷺ أشار له بالاستمرار، والناس يصفقون حتى ينتبه أبو بكر لما يحدث.

فيرفع أبو بكر رضي الله عنه يده ويحمد الله على مجيء رسول الله ﷺ ويرجع القهقري، ويعود الهدوء إلى صفوف المأمومين، ويصلي الرسول ﷺ بالناس، وكأن أبو بكر رضي الله عنه بهذا السلوك الإسلامي منع خلافًا كاد أن ينشب في صفوف المسلمين، ومنع جدلاً يمكن أن يثير الفتنة بين ضعاف النفوس أو ملوك المنافقين، ويرشد النبي ﷺ أصحابه إلى المنهج الإسلامي في التنبيه على أمر ما في الصلاة، وهو لا يكون بالتصفيق، فذلك من عادات النساء، وإنما يكون بالتسبيح، وصار هذا شرعًا ومنهاجًا للمسلم.

وما أسمى هذا الحوار بين النبي ﷺ المختار والصديق الصدوق حين يقول رسول

الله ﷺ في مودة ومحبة ونداء أخوي رقيق، "يا أبا بكر ما منعك أن تصلي للناس حين أشرت إليك؟" فقال أبو بكر رضي الله عنه في محبة وتواضع واعتراف بمكانة رسول الله ﷺ وفضله: "ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ"، ومبالغة في التواضع، واعترافًا بقيمة النبوة لجأ أبو بكر إلى استعمال صيغة الغيبة مكان الحضور، وجاء باسم أبيه أبي قحافة، إمعانًا منه في التواضع أمام رسول الله ﷺ، وقد عدل عن قوله: ما كان لي، إلى قوله: "ما كان لابن أبي قحافة"، لأنه أدل على التواضع، وفي الحديث كثير من الفوائد -كما جاء في فتح الباري- ومنها الإصلاح بين الناس، وجمع كلمة القبيلة، وحسم مادة القطيعة، وتوجه الإمام بنفسه إلى بعض رعيته، وفيه مزيد تواضعه ﷺ وجلوسه مع المتخاصمين جبرًا لخواطرهم، وحضور ضيافتهم.

وهكذا يكون منهج النبي ﷺ ومنهج الصحابة في الإصلاح بين الناس، وفي الاعتراف بأهل الفضل لذويه، وفي ضرب الأمثلة النادرة في التواضع، والتسامح والمؤاخاة، وهي من جذور التآلف والاتفاق بين المسلمين، حتى يظلوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: فضل الإصلاح بين الناس: وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٢٢).

الثاني: حكم إذا ما تأخر الإمام: حيث يجوز لغيره أن يتقدم ليؤم الناس إذا لم يخف فتنة وإنكارًا من الإمام، وخشي الناس فوت الصلاة في وقتها[1].

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤/٤، ١٤٥، والفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر ٢٠٤/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٢٣/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢١٦/٢.

الثالث: حكم اتصال الإقامة بالصلاة: وقد ذكر الفقهاء[1] أنه لا يصح تقديم الإقامة على وقت الصلاة حيث يشترط لها شرطان، دخول الوقت، وإرادة الدخول في الصلاة، فإن أقام الصلاة، وأطال الفصل، بطلت الإقامة لعدم جواز إطالة الفصل بينها وبين الصلاة.

الرابع: أن المقدم على الإمام عند غيابه أفضل القوم وأصلحهم لذلك الأمر، لأنه يقوم مقام الإمام فاشترط فيه ما يشترط في الإمام[2].

الخامس: أن المؤذن يعرض التقدم على الفاضل وأن الفاضل يوافقه[3].

السادس: الفعل القليل في الصلاة: وقد ذكر الفقهاء[4] أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها إلا ما فيه لعب كما لو صفقت المرأة لأمر نابها في صلاتها ببطن اليمين على ظهر اليسار، أو نوى فعلاً كثيرًا واقتصر على القليل.

السابع: حكم الالتفات في الصلاة: وقد ذكر الفقهاء[5] أنه يكره للمصلي

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٩٣/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٦٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٧/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٤/٤، ١٤٥، والفروع، ابن مفلح ٣١٧/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٤) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، والمنثور في القواعد للزركشي ٥٥/٣ وما بعدها، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٣٩٥/٢، ومغني المحتاج ٤١٨/١.

(٥) المبسوط، السرخسي ٢٥/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢١٥/١، والمدونة ١٩٦/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨/٤، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٦٩/١، والفروع، ابن مفلح ٤٨٣/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٢٣/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الشوكاني ٣٨٥/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧٤/٦ وما بعدها.

الالتفات بالوجه في الصلاة بدون حاجة، ويجوز الالتفات للحاجة، أما الالتفات بالبدن كله فمنهم من كرهه ومنهم من قال تبطل به الصلاة إن حول قدميه.

الثامن: جواز المشي خطوة أو خطوتين في الصلاة، وأن هذا القدر لا يكره إذا كان لحاجة كمن رأى فرجة فشق الصفوف إليها[١].

التاسع: حكم إذا حدث أمر خارج عن الصلاة وأراد المصلي التنبيه عليه: وقد اتفق الفقهاء[٢] على أنه متى ناب المصلي أمر كأن يطرق عليه الباب أحد، أو يكون إمامًا فيسهو في صلاته ويريد المأمومون تنبيهه، أو يريد تنبيه أعمى سيقع في بئر أو حفرة أو غير ذلك، ففي هذه الحالة يختلف الحكم، فإن كان المصلي رجلاً كان التنبيه بالتسبيح لله تعالى، وإن كانت امرأة كان لها أن تنبه بالتصفيق، وكره المالكية التنبيه بالتصفيق ولو من المرأة، وجعلوا التنبيه بالتسبيح من الرجل والمرأة على السواء.

العاشر: حكم استخلاف الإمام لأحد المأمومين في الصلاة إن طرأ له عذر: وقد اختلف الفقهاء في حكم الاستخلاف على قولين:

القول الأول: وذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[٣] والمالكية[٤] والشافعي في

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٨/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤، ومغنى المحتاج ٤١٨/١.

(٢) الفتاوى الهندية ١٠٤/١، لمجموعة من علماء الهند، والبحر الرائق ١٩/٢، والمدونة ١٩٠/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩/٢، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٨٠/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن بن عبدالرحمن ٢٤٢/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢١٦/١، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى الأنصاري ٣٥٩/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج (٢١٢) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ١٤٨/٢ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٨٠/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٨٦/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٥/٤.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٢٤/١، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٨٤/١.

(٤) التاج والإكليل ٤٧٩/٢، وشرح الخرشي ٥٤/٢.

الجديد[١] والحنابلة في المذهب[٢] ويرون أنه يجوز للإمام أن يستخلف غيره من المأمومين متى حدث له ما يمنعه من إكمال الصلاة كحدث أو رعاف أو غير ذلك، ولكن المالكية يقولون إن ذلك مندوب في الصلوات كلها، وواجب على المأمومين في صلاة الجمعة إذا لم يستخلف الإمام لأنه لا يصح صلاتها فرادى.

القول الثاني: وذهب إليه الشافعي في القديم[٣] والإمام أحمد في رواية[٤] إلى أنه لا يجوز الاستخلاف متى حدث للإمام عذر، وإنما يكمل المأمومون صلاتهم فرادى.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، لأنه ما تؤيده الأدلة، ومنها هذا الحديث الصريح والذي كان في آخر أيامه ﷺ ولم يرد عليه نسخ أو تخصيص.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مسارعة النبي ﷺ في الإصلاح بين الناس.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أداء الصلاة في وقتها.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

خامسًا: من صفات الداعية: التواضع.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الحمد عند حصول نعمة للإنسان.

سابعًا: من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم.

ثامنًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

تاسعًا: من واجبات الداعية: الاستفسار عن امتناع المدعو عن بعض الأمور.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤٤٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/٢٥٤، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢/٤٨٤.

(٢) الفروع، ابن مفلح ١/٤٠٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٣٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، الشيخ منصور البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١/٣٢١.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤٤٥، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر الهيتمي ٢/٤٨٤.

(٤) الفروع، ابن مفلح ١/٤٠١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٣٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مسارعة النبي ﷺ في الإصلاح بين الناس:

يظهر هذا فيما روى أبو العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ بلغهُ أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه)، فمسارعة رسول الله ﷺ في الإصلاح بين الناس، تطبيقاً لما جاء به من دعوة للوحدة والتآلف، والمحبة والمودة، والاجتماع على كلمة واحدة، ونبذ الكراهية والاختلاف والتفرق. فرسول الله ﷺ مبلغ شرع الله ومعلم الأمة الإسلامية وقدوتها، فلا ينتظر منه أن يرى مخاصمة بين مُسلمَيْن ولا يسارع إلى الإصلاح بينهما، فهو الداعي إلى الإصلاح بين الناس، والمبلغ أوامر الله الداعية إلى الإصلاح بين الناس، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾[1].

قال السعدي: (أي أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب، فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل -بسبب التقاطع- من التخاصم والتشاجر والتنازع)[2]، فمسارعة رسول الله ﷺ إلى الإصلاح بين الناس من صفاته الكريمة التي اتصف بها من أجل إشاعة المودة والوحدة بين المسلمين.

فعلى المسلمين أن يسارعوا إلى إصلاح ذات البين، وتقوية الروابط إذا تعرضت لوهن أو ضعف.

إن الكلمة الطيبة التي تجمع الشتات، وتوحد الكلمة، وترأب الصدع، من الخير الذي يتقرب به إلى الله، قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٧٧.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٤.

لقد جعل الإسلام الإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمرًا ضمنيًا، ولو لم يتم ذلك إلا بالعنف، محافظة على الكيان العام للجماعة، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

إن إصلاح ذات البين من أهم الأسس التي حرص الإسلام على أن يقيم علاقة الجماعة المسلمة عليها، ليجعل من المسلمين أمة قوية يُحسب حسابها ويرهب جانبها، ويوم أن كان المسلمون ينفذون هذه التعاليم، ويقيمون علاقتهم على هذه القواعد كانت رابطتم أقوى من أن تُحل، ووحدتهم أعصى من أن ينال منها عدو[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإصلاح بين الناس:

يظهر هذا من حرص رسول الله ﷺ على الإصلاح بين بني عمرو بن عوف، قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث فضل الإصلاح بين الناس وجمع كلمة القبيلة وحسم مادة القطيعة ومنه توجه الحاكم بنفسه لسماع دعوى بعض الخصوم إذا رجح ذلك على استحضارهم)[3].

والإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال، وهذا ما بيّنه رسول الله ﷺ في قوله: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))[4].

قال الطيبي: "فيه حث وترغيب على إصلاح ذات البين واجتناب عن الفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثلمة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٢) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ١٩٠-١٩٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٩٨.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

في الدين، فمن تعاطى إصلاحها، ورفع فسادها، نال درجة عند الله سبحانه وتعالى فوق ما ينالها الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه"(١).

"إن من الأمور المهمة والواجبة على الدعاة إصلاح ذات البين ورأب الصدع، وتقريب وجهات النظر، وتضييق هوّة الخلاف بين المسلمين عامة والدعاة والعلماء وطلاب العلم خاصة، فإن الله سبحانه يُحبُّ من عباده أن يكونوا مجتمعين على الخير متعاونين على البر والتقوى متحابين متآلفين، فهم يد واحدة على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢) (٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أداء الصلاة في وقتها:

(إن الصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى والبقاء في حظيرة الإسلام، والانخراط في سلك المؤمنين لا يعلمه إلا الله تعالى)(٤)، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على أداء الصلاة في وقتها، ويظهر هذا في قول الراوي: فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبس وحانت الصلاة فهل تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت، فأقام بلال، وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس.

فتأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بسبب الصلح لم يجعلهم يؤخرون الصلاة بل صلوا وصلى بهم أبو بكر رضي الله عنه، وفي هذا دليل على حرصهم على أداء الصلاة في أول الوقت، ومعرفتهم فضل ذلك، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: ((الصلاةُ عَلَى وَقتِها))(٥).

فالصحابة رضي الله عنهم هم خير الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحرصهم على العبادات

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢١٣/٩.

(٢) سورة الصف، آية: ٤.

(٣) انظر: نصوص دعوية، د. حيدر أحمد الصافح، ص ١١٦.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٢٨.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢٧، ومسلم ٨٥.

والطاعات، وقد ورد عنهم الكثير من الأحاديث والآثار التي تؤكد حرصهم على أداء الصلاة في وقتها ومنها:

عن كعب بن عجرة قال: بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مُسْنِدِي ظُهُورَنَا إِلَى قِبْلَةِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَبْعَةُ رَهْطٍ، أَرْبَعَةٌ مَوَالِينَا، وَثَلَاثَةٌ مِنْ عَرَبِنَا، إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الظُّهْرِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَقَالَ: ((مَا يُجْلِسُكُمْ هَا هُنَا؟)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، قَالَ: ((فَأَرَمَّ[1] قَلِيلاً))، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ رَبُّكُمْ، عَزَّ وَجَلَّ؟)) قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ رَبَّكُمْ، عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُضَيِّعْهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا، فَلَهُ عَلَيَّ عَهْدٌ، أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُصَلِّ لِوَقْتِهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، وَضَيَّعَهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا، فَلَا عَهْدَ لَهُ، إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ، وَإِنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لَهُ))[2].

فكان شأن الصحابة رضي الله عنهم المحافظة على الصلاة في وقتها، وكان حنينهم إلى الصلاة، وإيثارهم لها على كل ما حبب إلى النفس البشرية ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين، فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: ((غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ. فَقَاتَلُونَا قِتَالاً شَدِيدًا. - إلى أن قَالَ: إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَوْلَادِ))[3][4].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

إن من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذا الحديث: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك في تقديم الصحابة رضي الله عنهم له لإمامتهم في الصلاة، قال القاضي عياض: (وإرساله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه للصلاة واستخلافه لها وحده ألا يكون سواه أجمل دليل على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه وتقدمه، وتنبيه على أنه أولى بخلافته، ولأن الصلاة

---

(١) فَأَرَمَّ: أي سكت قليلاً، انظر: لسان العرب في (ر م م).

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٤٤، رقم ١٨١٣٢، وقال محققو المسند: مرفوعه صحيح لغيره ٣٠/٥٦.

(٣) أخرجه مسلم ٨٤٠.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٣٠.

للخليفة)[١]، وقال النووي: (وفيه فضائل كثيرة لأبي بكر رضي الله عنه، وتقديم الجماعة له، واتفاقهم على فضله عليهم ورجحانه)[٢].

ولفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدمه لإمامة المصلين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فِي مَرَضِهِ. فَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ))[٣].

وأبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال.

قال السيوطي: (قال العلماء: صحب أبو بكر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفرًا ولا حضرًا إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٤]، وقام بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد ويوم حنين وقد فرّ الناس)[٥].

وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنه ليس منَ الناسِ أحدٌ أمنَّ عليَّ في نفسهِ ومالهِ من أبي بكرِ بنِ أبي قُحافةَ، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل. سدّوا عني كل خَوخةٍ[٦] في هذا المسجدِ غيرَ خَوخةِ أبي بكر))[٧].

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢/٣١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٤١٨.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٥) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٣٣ - ٣٤.

(٦) الخَوْخَة: باب صغير، وأصلها فتح في حائط، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٦٦٥.

(٧) أخرجه البخاري ٤٦٧.

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: ((أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعِ إِلَيْهِ قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ كَأَنَّهَا تَقولُ: الْمَوْتَ قَالَ ﷺ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ))[١].

وكان رضي الله عنه من أشد الناس ملازمة لرسول الله ﷺ وغيرة على دينه وعلى شخصه، وكان له التضحيات العظيمة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ضحى بنفسه وماله ووقته وبكل ما يملك، وكان لرسول ﷺ وزيرًا وكان خليفته بعده رضي الله عنه... وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وفضائله لا تحصى[٢].

خامسًا- من صفات الداعية: التواضع:

إن التواضع -في حقيقته- هو بذل الاحترام والعطف والتقدير لمن يستحقه[٣]. يظهر هذا في إشارة النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه بالاستمرار في الإمامة، وهذا تواضع من النبي ﷺ.

والتواضع من خير الخلال وأحب الخصال إلى الله تعالى وإلى الناس، وهو موجب للرفعة، وباعث على التآلف، ومحقق للحب والود وقد أمر نبيه ﷺ بأن يتواضع للمؤمنين[٤]، فقال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٥].

وقد أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ بضرورة تواضع الناس فيما بينهم فقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))[٦].

فالتواضع يجعل الداعية محبوبًا في قومه وبيئته ومؤثرًا في المدعوين.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٥٩، ومسلم ٢٣٨٦.

(٢) العشرة المبشرون بالجنة، محمد أحمد عيسى، ص ١٦.

(٣) رسائل الإصلاح، محمد خضر حسين ١٢٧/١.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٥٧.

(٥) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

والتواضع من ألصق الصفات الطيبة بالداعية، فالتواضع دليل على كبر النفس وعلو الهمة، وهو -في الوقت نفسه- سبيل لاكتساب المعالي والترقي في الكمالات.

فهو خلق يرفع من قدر صاحبه ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم ويبعثه على الاستفادة من كل أحد وينأى به عن الكبر والاستنكاف عن قبول الحق والأخذ به.

ومن هنا يكمل السؤدد ويعلو القدر ويتناهى الفضل. ثم إن التواضع يغري باكتساب المعالي من جهة أن الناس يعجبون بالأكابر والعظماء إذا تواضعوا فيقودهم ذلك إلى محبتهم والاقتداء بهم والسير على منوالهم[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الحمد عند حصول نعمة للإنسان:

إن الحمد ثمن كل نعمة وهو من أخلاق المؤمنين يظهر ذلك في قول الراوي: "فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده فحمد الله" فحمد الله على قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى النعمة التي أحدثت له من الوجاهة في الدين.

قال ابن حجر: (فيه استحباب حمد الله لمن تجددت له نعمة ولو في الصلاة، وفيه الحمد والشكر على الوجاهة في الدين)[(٢)].

فحمد النعمة سبب في كثرتها كما وعد الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(٣)]، قال ابن كثير: (أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها)[(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلاَّ كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ))[(٥)].

---

(١) علو الهمة، معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٩٩.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٤٧٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٥، وحسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٧).

والحمد من صفات المؤمنين لأن المؤمن دائمًا حامدًا لله وفي جميع الأحوال، قال رسول الله ﷺ: ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))(١).

فيجب على الداعية حث المدعوين على حمد الله على نعمه، وعليه أيضًا أن يبين لهم فضل الحمد وعظم ثوابه، فكلمة الحمد يبلغ ثوابها من العظم أن يملأ به الميزان، كما جاء في الحديث عن أبي مالك الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحانه والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))(٢).

إن الطاعة سهلة ميسورة على المؤمنين، ويحفزه عليهاما أعده له الله من عظيم الثواب، فما أعظم كرم الله تبارك وتعالى، إنه يعطي على الشيء القليل الثواب الكثير، ألا فلنكثر من ذكر الله تعالى وحمده ولتكن ألسنتنا رطبة بذكره ولنتضرع إلى الله بالدعاء.

إن الترغيب في ذكر الله تعالى وحمده وشكره على نعمائه ترغيب في الثواب العظيم يوم القيامة، لأن حاجة المرء في ذاك اليوم الرهيب إلى ما يثقل ميزانه حاجة شديدة لأن بذلك نجاته من النار الحامية، ولا شك في أن الكمال في الذكر أن يكون الذاكر محققًا معنى الذكر، فإذا قال بلسانه "الحمد لله" كان عليه أن يستقر في أعماق قلبه أن كل أنواع الحمد هي لله، لأن "أل" هذه تدل على الاستغراق.

ومن الحمد ألا يستعمل العبد نعمة آتاه الله إياها في معصية، وألا يقعد عن تسخير هذه النعم في مرضاة الله تعالى(٣).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) انظر: من هدي النبوة، تأملات في عدد من جوامع الكلم، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص ٢١، ٢٢.

سابعًا- من واجبات الداعية: إنزال الناس منازلهم:

ويظهر هذا في إشارة النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه بالاستمرار في الإمامة، قال ابن حجر: (وأن أمره إياه بالاستمرار في الإمامة من باب الإكرام له والتنويه بقدره)[١]، فرسول الله ﷺ أنزل أبا بكر رضي الله عنه منزلته اللائقة به في هذا الأمر بالاستمرار في الإمامة.

فإنزال الناس منازلهم من الأمور المهمة التي ينبغي على الداعية أن يراعيها وينتبه إليها ويحرص عليها وما ذاك إلا لتأليف قلوبهم، وجذب نفوسهم وشدهم إلى الإسلام، لا سيما إذا كان المدعو حديث عهد بالإسلام، أو كان ذا منزلة مرموقة في الناس، أو كان ذا نعمة معروفًا بها أو كان كفر يرجى هدايته، أو كان ذا فسق يؤمل تقواه أو كان ذا شيبة بلغ من الكبر عتيًا[٢].

ثامنًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "أيها الناس: ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟! إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله..."، فبيّن لهم ﷺ الخطأ في تصفيقهم وبيّن لهم العمل الصحيح وهو التسبيح في حق الرجال، وبذلك بيّن لهم حقيقة الشيء وهذا مما يجب أن يقوم به الداعية من التأسي برسول الله ﷺ في بيان الحقائق للمدعوين حتى يأتوها صحيحة كما بينها لهم.

تاسعًا- من واجبات الداعية: الاستفسار عن امتناع المدعو عن بعض الأمور:

ويظهر هذا في قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: (ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟) فقد استفسر رسول الله ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه عن سبب امتناعه عن تنفيذ أمره، قال ابن حجر: (وفيه سؤال الرئيس عن سبب مخالفة أمره قبل الزجر عن ذلك)[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٩٩.

(٢) انظر: صفات الداعية، د. حمد العمار، ص ١١٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٩٩.

فيجب على الداعية إذا أمر بشيء فلم يمتثل المدعو لأمره أن يستفسر عن سبب الامتناع قبل الانكار والزجر حتى يكون على بينة من أمره.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

جوانب الخير في الإسلام متعددة وأبوابه مفتوحة، وإذا تعذر على البعض العلم بها فإن الرسول ﷺ قد جمع الكثير منها ليعلمنا بها ويربينا عليها، وفي حال الالتزام بها ينعم المجتمع ويسعد، وفي حال النأي عنها يشقى ولا ينهض، ومن الوسائل التربوية في هذا الباب:

أولاً- التربية على شكر النعم:

من أهداف التربية الإسلامية بيان أهمية شكر النعم، ومن الشواهد على ذلك في باب الإصلاح بين الناس حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ سُلامي منَ النَّاس عليه صدقةٌ ..."، فهذا شاهد تربوي أراد النبي ﷺ من خلاله التنشئة على معرفة نعم الله الظاهرة والباطنة، ليكون ذلك دافعاً على شكرها، لأنه ينبغي للعاقل ألا ينظر إلى جانب واحد أو جانبين، وينسى الجوانب الكثيرة للنعم، فلا يجب أن يحمله الجزع من مشكلة معينة إلى عدم الشكر، فالشكر واجب على المؤمن في جميع الأحوال قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]. وحتى يستشعر المؤمن قيمة وقدر نعم الله عليه فإن النبي ﷺ قال: ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ولا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّه))[2].

والتربية على شكر النعم من الإيمان، وقد أثنى الله على أهله ووعدهم بأحسن الجزاء، وجعله سبباً للمزيد من فضله وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾. وحقيقته في العبودية، هو ظهور أثر نعمة الله على عباده،

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٦٣.

والشكر على نعم الله واجب على المؤمن، لأن الله تعالى هو الذي تفضل عليه بالنعم، والشكر يتحقق بالعبادة والطاعة، واستعمال النعم على الوجه الذي يُرضي الله تعالى، وشكر الله يتعلق بالقلب واللسان والجوارح: أما القلب فشكره بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، أما اللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، أما الجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، والشكر باللسان يكون لإظهار الرضا عن الله تعالى، فنعم الله تعالى كثيرة لا تعد ولا تحصى. وواجبنا نحوها هو الشكر والاعتراف بها[1].

ثانياً- التربية بالتوجيه إلى القيم الإيجابية:

إن من أهم ما تميزت به التربية الإسلامية التوجيه إلى القيم الإيجابية التي ترمي إلى بناء الشخصية السوية، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، .....». فهذه توجيهات تربوية نبوية ترشد إلى القيم الإيجابية التي ينبغي ترسيخها وحمل النفوس عليها في عملية التنشئة ومتطلباتها، ومن القيم الإيجابية الإصلاح بين الناس بالعدل، وإعانة المسلمين ومساعدتهم ومواساتهم، وهذه التوجيهات تبرز ما تميزت به التربية الإسلامية مما يجعلها زاداً تربوياً للقائمين على شؤون التربية، لأن التربية الإسلامية ينبغي أن يحرص عليها المسلم، وذلك من خلال إقامة العدل في الإصلاح بين الناس، وإعانة المسلمين ومساعدتهم، لما لهذه القيم من شأن عظيم في عملية التربية من خلال التوجيه الذي يؤثر في النفس تأثيراً إيجابياً ويؤثر في السلوك لأنه يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية لأنهم يقولون: لا يكفي في التوجيه أن

(١) التدين والصحة النفسية، د. صالح الضيع، ص٣٠١، المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص ٣٠٤، العقيدة الإسلامية، وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٥٨.

تأمر بفعل الشيء بل لابد من توجيه وإرشاد حسب الموقف، ولقد وجه الله تعالى نحو هذه القيم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)(٢)].

ثالثاً- من أهداف التربية الإسلامية: الحث على الإصلاح بين الناس:

تهدف التربية الإسلامية إلى الحث على الإصلاح بين الناس، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، قوله ﷺ: «... ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ...»، وقول عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، ... فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا ...» وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بلغه: «أنَّ بني عمرِو بنِ عَوفٍ كان بينهم شر، فخَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ يُصلِحُ بينهم في أُناسٍ مَعَهُ ...»، هذه شواهد تربوية ظهر منها الحث والإسراع في الإصلاح بين المسلمين، قطعاً للشر وحسماً للقطيعة.

إن على المربي أن يعمل على الاقتداء بالنبي ﷺ ويترسم خطاه في الإصلاح بين الناس وأن يستحث الناس على ذلك من خلال التوجيهات المباشرة وغير المباشرة، والممارسات العملية التي تعمق في النفوس أهمية تلك القيم الاجتماعية العظيمة التي تعمل على تقوية أواصر الصلات بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتقرب وجهات النظر، وتصلح ما فسد من العلاقات بين الناس، ومن هنا جاء حرص ومسارعة النبي ﷺ من خلال توجيهاته وممارساته العملية.

إن الأمة في حاجة ماسة إلى جيوش من المصلحين الذين يسددون ويقاربون، ويصلون، ولا يقطعون، وفي هذا من التربية على الحرص على البناء الاجتماعي والاهتمام بتربية أفراده وتنشئتهم تنشئة سليمة، وما دام المربون لا يألون جهداً في الإصلاح، فما عليهم إلا أن يخلصوا في عملهم[(٣)]، هذا لتكون الثمرة طيبة، ولكي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. شحات الخطيب، ص٢٨٠.

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

تؤتى العملية التربوية أكلها، ينبغي للمربين والمصلحين والقائمين على التوجيه أن يعملوا على نشر ثقافة الإصلاح المجتمعي باستنهاض الهمم في هذا المجال من خلال بيان آثاره الطيبة على الفرد والمجتمع، والتأكيد على دوره في النهضة والتنمية والتقدم، كل ذلك لا يتحقق إلا من خلال المجتمعات المتماسكة والدول المترابطة، فما أحوج المجتمعات الإسلامية والدول العربية والإسلامية إلى التماسك والترابط والاستعلاء على الخلافات والنزاعات التي تزكيها القوى المعادية من الدول الغربية من خلال تطبيق السياسة الاستعمارية "فرق تسد، إن العرب والمسلمين بحاجة إلى الوحدة والتماسك لأننا نعيش عصر التكتلات والكيانات القوية ولا مكان في عصرنا للضعفاء، ومن هنا جاءت التوجيهات التربوية النبوية إلى أهمية الإصلاح بين الناس.

رابعًا- تنوع الأساليب التربوية:

يتضح في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عدة أساليب تربوية منها:

أ- الممارسة العملية: وهذا واضح من خروج رسول الله ﷺ إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم وقد خرج النبي ﷺ في أناس معه، والممارسة العملية من الأساليب التربوية التي تتميز بقوة بقاء أثر التعليم وتربط بين الجوانب النظرية والجوانب التطبيقية.

ب- توجيه الأسئلة: وهذا واضح من قول النبي ﷺ لما فرغ من الصلاة: أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟

وفي قوله ﷺ كذلك: "يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟" وتوجيه الأسئلة يفيد في تقويم ما لدى المتعلمين من معلومات مرتبطة بالدرس وفي المناقشة والشرح بين المعلّم والمتعلمين ومعالجة بعض الأخطاء التي قد يقع فيها المتعلمون.

ج- الحوار والمناقشة: وهذا يتضح في الحديث كله: في الحوار بين بلال وأبي بكر رضي الله عنه، وفي الحوار بين النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

ومما لا شك فيه أن الحوار له دور مهم في العملية التعليمية، فهو من الأساليب التي تقوِّي دور المتعلم في العملية التعليمية وتعتمد على مبدأ المشاركة بين المعلمين والمتعلمين وفي حجرة الدراسة أو خارجها.

۞ ۞ ۞

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة